الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية
التأليف

داود باشا

والى بغداد

تأليف
الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة
١٣٨٨ - ١٩٦٨

داود باشا

والي بغداد

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية
التأليف

داود باشا
والى بغداد

تأليف
الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
وكيل جامعة عين شمس

هذا الكتاب أولى رسالتين فى تاريخ العراق الحديث تقدم بهما الدكتور عبد العزيز سليمان نوار الى جامعة عين شمس فأجازت الأولى منهما وهى هذا الكتاب لدرجة الماجستير بتقدير ممتاز فى سنة ١٩٥٨ وأجازت الثانية لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى فى سنة ١٩٦٣ وكان لى حظ الاشراف على الرسالتين .

وقد اتجه الدكتور نوار منذ بدأ دراسته العليا فى التاريخ الى العناية بتاريخ العراق الحديث ولم أملك الا أن أشجعه على هذا الاتجاه وعلى المضى فيه فأقبل على بحوثه جادا مخلصا فى عمله ، ولم يتردد حين أعوزته المادة الأصلية فى أن يذهب الى لندن حيث أمضى بضعة اشهر مترددا على دور الوثائق والمكتبات ، حتى تجمعت له مادة أصلية أكثرها غير منشور ، من المخطوطات والوثائق ، وكانت ثمرة هذا الجهد المضنى ــ الذى لا يعرف حقيقته الا من يكابده ــ هاتين الرسالتين اللتين غطى بهما الدكتور نوار ــ أو كاد ــ تاريخ العراق فى القرن التاسع عشر .

فبهذا الكتاب يعالج أهم فترة من تاريخ العراق فى النصف الأول من ذلك القرن ، وهى فترة حكم الوالى الشهير « داود باشا » (١٨١٧ ــ ١٨٣١) والكتاب الآخر ــ الذى أرجو أن يرى النور قريبا ــ يعالج أهم فترة من تاريخ العراق فى النصف الثانى من هذا القرن ، وهى فترة حكم الوالى المصلح « مدحت باشا » مع فصول تصل مابين نهاية حكم داود وبداية حكم مدحت . وبذلك خدم الدكتور عبد العزيز نوار تاريخ العراق الحديث أجل خدمة وقدم للباحثين فى تاريخ العرب الحديث والمهتمين بهذا التاريخ دراسة أصيلة ممتعة .

والحق أن اتجاه الدكتور نوار الى دراسة تاريخ العراق الحديث انما يمثل الاتجاه العام الذى اتجهت اليه مدرسة التاريخ الحديث بجامعة

عين شمس منذ سنوات ، كما يتضح فى الوسائل العلميــة التى أنتجهــا وينتجها تلاميذ هذه المدرسة ، والدكتور نوار احــد طلائعها المتــازين وبفضــل جهودهم اصبحت بين أيدينــا ــ لأول مرة فى تاريخ الجامعات العربية ــ دراسات علمية رصينة لجوانب هامة من التاريخ العــربى الحديث فى العراق ، والخليج العربى ، وسورية والسودان ، والمغرب واليمن ، والجزيرة العربية ، وغيرها من أقطــار العرب شرقا وغربا . ونرجو بذلك أن نكون حققنا هدفنا الذى هدفنا اليه وهو « دعم الاتجاه القومى العربى بالدراسة التاريخية الرصينة » ، وليس أقوى من التاريخ عاملا فعالا فى فهم الحاضر وبناء المستقبل .

والقارىء لكتاب « داود باشا والى بغداد » ــ الذى يسرنى أن أقدمه اليوم للقارئين والباحثين ــ سوف يجد فيه صورة واضحة المعالم لا لهذه الشخصية الفذة فى تاريخ العراق وحدها ، ولا لعاصمة العباسيين فى حكم هذا الوالى ، وانما سيجد فيه صــورة كاملة للعــراق فى العهد العثمانى « الأول » ونقصد به العهد الذى امتد منذ فتحه السلطان سليمان القانونى فى الثلاثينات من القرن السادس عشر ، حتى استرده السلطان محمود الثانى للحكم العثمانى المباشر فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر . فى هذه القرون الثلاثة توالت على العراق احكام وأحداث كانت أرضه ميدان صـــدام مسلح بين الايرانيين والعثمانيين أكثر من مرة ، وبين الولاة والعصبيات الكردية والعربية بشكل لا يكاد ينقطع ، هذا الى منازعات فرق المماليك ومن اليهم ، مما تمتلىء بهم سجلات العهد العثمانى فى سائر الولايات العربية حتى جاء داود وهو احد الأجناد المنتمين لهذه البيوت المملوكية التى استغلت أوضــاع العراق والدولة لتسيطر على الحكم فى بغداد منذ منتصف القرن الثامن عشر ، جاء داود ليحاول أن يضع حدا لهذا الاضطراب ويمهد لحكم مستقر مستنير شأنه فى ذلك شأن معاصره فى مصر « محمد على » الذى خرج ــ هو نفسه ــ من صفوف النظـــام القديم ليعمل على تحطيم هذا النظام وتشييد نظام جديد . ولكن كلتا المحاولتين اصطدمتا بمحاولة ثالثة ، اثبتت على الأيام قوتهـــا ، كانت تجرى منذ سنوات فى استانبول عاصمة الدولة ، ورفع لواءها اذ ذاك السلطان الكبير محمود الثانى وتهدف ــ هى الأخرى ــ الى تقوية دعائم الدولة وتشديد قبضتها على ولاياتها واصطناع أساليب التنظيم الحديث فى الادارة والقضاء وشئون المال والتعليم والأرض وغيرها من المرافق .

واعتبرت هذه الحركة العثمانية (الاصلاحية) أى حركة احيــاء فى أية ولاية من ولايات الدولة خروجا على واجب الولاء وطعنا للدولة وفتحا للباب ــ على مصراعيه ــ للمداخلات الأجنبية ، فهو بذلك يسبب ضعفا

واضعافا لقوتها وللاسلام كله الذى تمثله السلطنة باعتبارها دولة الخلافة ، وهذا أمر ينبغى أن تنهض لمقاومته ماوسعها الجهد وتحشد له القوى ، حتى وان اضطرت فى سبيل ذلك الى الاستعانة بالقوى الأجنبية.
وكانت ثمرة هذه السياسة والخطط ثلاثة جهود فى هذا السبيل :

الجهد الأول حين قضت على داود والمماليك فى بحر من الدمار شهدته بغداد سنة ١٨٣١ .

الجهد الثانى يتمثل فى القضاء على حكم الأسرة القرمانية فى طرابلس سنة ١٨٣٥ .

الجهد الثالث هو قيام الدولة سنة ١٨٤٠ بتحطيم امبراطورية محمد على ورد القوة المصرية الى داخل مصر نفسها ووضع نظام « الخديوية » المصرية حتى انهار على يد الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ .

ونعود الى بغداد فى ١٨٣١ وداود باشا يغادرها مشيعا بالأسى . واذا كانت الدولة العثمانية قد بدأت تصطنع أساليب جديدة فى الحكم والادارة وترتيب القوة العسكرية فان الأوضاع السابقة التى هيمنت على تاريخ العراق الحديث ظلت تفعل فعلها وان اتخذت أشكالا مختلفة ، كالصراع الايرانى العثمانى والمنازعات بين العصبيات الكردية والعربية ومنافسات الولاة وأصحاب البيوتات ثم أضيفت الى هذا كله مداخلات القوى الأجنبية ومحاولات احتكار النفوذ وظلت هذه الأوضاع تسيطر على العراق حتى الاحتلال البريطانى فقيام الحكم الوطنى .

ولكن العراق استطاع أن يخرج من هذا « الليل الطويل » بكسب واحد ثمين ، هو احتفاظه بوجهه العربى السليم وروحه العربية الأصيلة وهذا بحث ممتع فى التاريخ الاجتماعى والثقافى لا أجد أقدر من الدكتور عبد العزيز نوار على كتابته . فهو قد عاش العراق القديم فى مصادره ووثائقه ومخطوطاته وعاش العراق الجديد واضطرب بين ناسه وخبر مشكلاته حين حمله حنينه الدائب الى العراق وتاريخه الى الترحيب بشد الرحال اليه حيث أقام نحو ثلاث سنوات منتدبا للتدريس بجامعة بغداد .

وانا أعلم ان نوارا عاد وشيكا من بغداد وقد ملأ عقله وقلبه وجعبته بمادة ــ بل بمدد لا ينقطع ــ من تاريخ العراق الحديث ، وقد بدأ يشكل بعض هذه المادة ويدفع بها الى المطبعة .

وله منا أصدق الدعاء بالتوفيق ، وعلى الله قصد السبيل .

منشية البكرى ١٩٦٧/١٠/١٩ **احمد عزت عبد الكريم**

المحتـــوى

صفحة

– مقدمة ٧
– تمهيد : العراق تحت الحكم العثمانى ٩
– الفصل الأول : حكومة المماليك : ٢١
أسباب تفوق المماليك – سليمان أبى ليلة – على باشا الأول –
الحرب الإيرانية – سليمان باشا الكبير – نشأة داود –
على باشا الثانى – سليمان الصغير – اقتراب داود من
الزعامة
– الفصل الثانى : تولية داود وتوطيد سلطته : ٥٥
داود فى عهد سعيد – النزاع بين سعيد ومحمود بابان –
مؤامرة عزرا – النزاع بين داود وسعيد – داود
يفر إلى محمود بابان – تطور الصراع – مصرع سعيد –
ثورات مبكرة ضد داود
– الفصل الثالث : داود وتوحيد العراق ٨٧
أهم العشائر العربية – سياسة داود إزاء العشائر العربية
سياسة داود إزاء الشيعة – أهم الإمارات والعشائر
الكردية – سياسة داود إزاء الأسرة البابانية – أهم
الطوائف المسيحية – سياسة داود إزاء الطوائف
المسيحية – سياسة داود إزاء اليهود – سياسة داود
إزاء آل عبد الجليل فى الموصل – سياسة داود إزاء
ماردين
الفصل الرابع : داود ومقاومة التدخل الإيرانى : ١٥٧
أطماع إيران فى العراق – السياسة الروسية – القتال

بين داود ومحمود ـ الحرب بين الدولتين الفارسية صفحة
والعثمانية ـ محمد على يمسك عن نجدة داود ـ معاهدة
أرضروم الأولى ـ استمرار النزاع

ـ الفصل الخامس ـ داود ومقاومة النفوذ الأجنبي : ١٨٩
تطور النفوذ الإنجليزى ـ النزاع بين سليمان الصغير
وريتش Rich ـ نمو نفوذ ريتش ـ النزاع بين داود
وريتش ـ طرد ريتش ـ تسوية الأزمة ـ مشروع
الملاحة التجارية البخارية

ـ الفصل السادس : سياسة داود فى الخليج العربى : ٢٢١
ارتباط البصرة والأحساء ببغداد ـ علاقة البصرة
بمسقط ـ الأحساء بين داود ومحمد على ـ النزاع بين
داود وسلطان مسقط ـ نهاية حكم داود فى البصرة

ـ الفصل السابع ـ النزاع بين داود والسلطان : ٢٣٧
محاولات السلطان طرد المماليك ـ مصرع صادق
مبعوث السلطان ـ على رضا يتولى مهمة طرد المماليك ـ
الطاعون والفيضان ـ بغداد تقاوم ـ استسلام داود ـ
مذبحة المماليك

ـ الفصل الثامن ـ إصلاحات داود :... ... ... ٢٨١
إصلاحاته الاقتصادية ـ وصف بغداد فى عهد داود ـ
فضل داود على النهضة الثقافية ـ نمو القوة العسكرية
على عهد داود

ـ خاتمة ٣٢٧
ـ الملاحق ٣٣١
ـ المراجع ٣٤٧

مقـــدمة المؤلف

يحتاج الوطن العربى فى الظروف الراهنة إلى تكريس كل الجهود لدراسة تاريخه ، وخاصة لما لتاريخ البلاد العربية من أثر كبير فى توجيه عمليات الوحدة التى تسير بخطوات سريعة منذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقبل هذه الثورة كانت الدراسات العليا التاريخية مقصورة تقريباً على تاريخ مصر والســودان . ولذلك وجــه أستاذنا المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال والأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم تلاميذهما نحــو تقديم رسالاتهم فى تاريخ العرب وكنت ممن لبى هذه الدعوة ، وتوفرت على دراسة تاريخ العراق الحديث وقدمت هذه الرسالة للحصول على درجة الماجستير فى تاريخ داود باشا ١٨١٦ – ١٨٣١ . وهى ليست دراسة لهذه الشخصية فقط ، بل كذلك دراسة لأحوال العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال عهد الحكم المملوكى فى العراق ، الذى بدأ منذ منتصف القرن الثامن عشر فى بغداد . ثم قدمت رسالتى للحصول على درجة الدكتوراه فى تاريخ العــراق الحديث من نهاية حــكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ١٨٣١ – ١٨٧٢ . وأرجو أن أتابع دراسة تاريخ العراق حتى وقتنا هذا ، حتى أقدم – بإذن الله – دراسة مستفيضة متكاملة لتاريخ العراق الحديث .

د . عبد العزيز سليمان نوار

القاهرة فى يناير ١٩٦٤

تمهيد

العراق تحت الحكم العثمانى (*)

كان العراق فى القرن السادس عشر قد أصابه تغيير كبير خلال عصور الاضمحلال التى مرت به بين الاحتلال المغولى سنة ١٢٥٨ م والاحتلال الصفوى الإيرانى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . فقد دهم هولاكو بغداد فجعلها « مجرد مركز فقير (١) » وقاست بغداد منذ نهاية الحكم المغولى حتى الحكم الصفوى سلسلة متتالية من الثورات الداخلية والمنازعات على الحكم ، وتوالت عليه حكومات « الجلائريين (٢) ، والقره قوينلو(٣) والآق قوينلو (٤) » دون أن يشهد العراق عناية تقيله من عثرته ، وظل فى انهيار مستمر حتى كان انتصار الشاه إسماعيل الصفوى (٥) الحاسم الذى فر على أثره أمراء الآق قوينلو إلى السلطان العثمانى تاركين العراق لقمة سائغة للصفويين (١٥٠٨) .

(*) ليس المقصود من هذا التمهيد دراسة الحكم العثمانى فى العراق أو تفصيل الكلام عن تاريخه ، بل المقصود منه أن يكون مدخلا لدراسة العراق فى عهد داود .

(١) كانت نكبة المغول للعراق مروعة استمرت آثارها قروناً طويلة .

(٢) الدولة الجلائرية نسبة إلى مؤسسها آق بغابن جلاير . استمرت تحكم فى العراق من ٧٤٠ هـ - ٨١٣ هـ (١٣٣٩ - ١٤١٠ م) .

(٣) القره قوينلو دولة تركمانية حكمت العراق من ١٤١٠ - ١٤٦٨ م .

(٤) الآق قوينلو دولة تركمانية أيضاً حكمت العراق من ١٤٦٨ - ١٥٠٨ راجع عن هذه الدول C.Huart: Histoire de Bagdad. Paris. 1901. pp. 1-30.

(٥) مؤسس الأسرة الصفوية الشيعية فى إيران التى استمرت من (١٥٠٠ - ١٧٥٠م) .

دخل الجيش الإيرانى بغداد ، وكان من الأعمال الأولى للفاتحين الجدد ذبح أئمة السنة الموجودين وهدم مقابر الغابرين منهم (١) : فكانت وصمة ذات صدى قوى فى بلاط السلطان ، وبخاصة أن أمراء كردستان كانوا قد فروا من وجه الصفويين إلى السلطان وكانوا يستنجدون به ، ولقيت نداءاتهم آذاناً جد مصغية إذ أن سقوط العراق فى يد الصفويين هدد قلب الدولة العثمانية وأوجد إلى جانبها قوة فتية ذات أهداف مذهبية إمبراطورية واسعة ، فكانت الحرب الضروس وانتصار السلطان سليم فى جالديران (٢) ودخوله تبريز والاستيلاء على كردستان والموصل . وكان لتقدم الفاتح العثمانى فى بلاد الدولة الصفوية صدى قوى فى بغداد حيث اغتصب الحكم ذو الفقار الكردى الأصل وأعلن ولاءه للسلطان العثمانى ولكن الخيانة أعادت بغداد إلى الحكم الصفوى سنة ١٥٣٠ ، على أن انتعاش الحكم الصفوى فى بغداد لم يستمر أكثر من سنوات قليلة وذلك لأن السلطان سليمان القانونى بعد أن انتهى من حروبه فى أوروبا التفت إلى الشرق وإلى خطورة عودة الحكم الإيرانى للعراق ، فلقد تحالف الشاه مع ملك المجر عدو السلطان فكان الشاه بذلك خائناً للحركة الإسلامية الكبرى التى تزعمها السلاطين العثمانيون . وواضح أن الاحتفاظ بكردستان والموصل لا يمكن ن يستمر قوياً إلا إذا توطد الحكم العثمانى فى العراق كله . لذلك زحف السلطان بجيوشه القوية على العراق ففتح بغداد سنة ١٥٣٤ بعد تردد شائن من حاكمها .

رأى السلطان أن الشيعة الصفوية عملوا على صبغ بغداد بالصبغة الشيعية ، ولذلك اتجه السلطان إلى رفع شأن أهل السنة وإعادتهم إلى سابق

---

(١) C.Huart: Histoire de Bagdad dans Les Temps Modernes-Paris 1909, pp 38-39.

(٢) واد بين بحيرة أورمية وتبريز وكانت المعركة فى سنة ١٥١٤ (ك. بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية . بيروت ١٩٤٩ جـ ٣ : ص ٦١) .

تفوقهم . ولكن موقفه من مزارات الشيعة ومن شيعة العراق أنفسهم كان طيباً (١) إذ اتخذ بإزائهم موقفاً كريماً من حيث الاعتراف بما فى العراق من خلافات مذهبية والنظر إلى الطرفين بعين الاعتدال وتسهيل أمور العبادة لكل من أهل السنة والشيعة ، وإشعارهما بالطمأنينة والهدوء ، وهذه السياسة كانت من أسس الحكم العثمانى التى استمرت قائمة فى العراق ، فقد تركوا للشيعة مذهبهم وتركوا لهم مزاراتهم ولم يحولوا قط بينهم وبين هذه المزارات ، بل وحرصوا على أن يمهدوا للشيعة من خارج العراق أيضاً زيارة هذه المزارات المقدسة(٢) . وأما من الناحية الاقتصادية فقد تابع السلطان العثمانى سياسة إسماعيل الصفوى من حيث الاهتمام بمشروعات الرى وحماية البلاد من غوائل الفيضان (٣) .

ومن الناحية السياسية اعترف السلطان بالعصبيات الكردية فى الشمال فأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة وجعل من الموصل أيالة قائمة بذاتها ضمت ستة سناجق (٤) ، وكانت هذه الأيالة تتوغل قليلا فى كردستان شرقاً حتى « بانه » وتمتد جنوباً إلى تكريت إلى ما وراء جبل حمرين بقليل . ولم تكن حدود هذه الأيالة واضحة نظراً لأنها كانت مجاورة لمنطقة كردستان التى أصبحت أيالة باسم « شهرزور » وهى أيالة لم تتضح إلا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، نظراً لأنها كانت مجالا

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين — بغداد : ١٩٥٤ جـ ٤ ص ٢٨٥ و ٢٨٦ .

(٢) وأهم هذه المزارات قبر على بن أبى طالب فى النجف وقبر الحسين فى كربلاء ، وقبر موسى الكاظم فى الكاظمية وهى قرية تقع شمال بغداد وضاحية هامة من ضواحى بغداد .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٤ : ٢٩ — ٣٧ .

(٤) وهى الموصل ، والموصل القديمة ، وباجوان ، وتكريت ، وبانه ، وهرور . ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية : محاضرات ألقاها بمعهد الدراسات العليا العربية (القاهرة ١٩٥٧ — ص ١٣٣ — ١٣٤) .

واسعاً للعمليات العسكرية من جانب إيران ، وبخاصة تابعتها آردلان[1] والدولة العثمانية ، ومع ذلك فيمكن أن تقسم أيالة شهرزور إلى حوالى العشرين سنجقاً[2] .

وكما اعترف السلطان بحكم العصبيات فى شمال العراق اعترف به فى العراق العربى إذ ترك الشيوخ حكاماً على عشائرهم ،وكانت أهم المشيخات فى القرنين السادس عشر والسابع عشر هى مشيخات الخزاعل والعبيد وزبيد وبنى لام وشمر والمنتفق[3] . وكانت عشائر المنتفق أقوى هذه العشائر . كانت تسيطر على البصرة عند ما فتح السلطان بغداد فأعلن شيخها راشد المغامس ولاءه للسلطان ، فأبقاه تحت حكمه[4] . ولكن وجود هذه الإمارة العربية شبه المستقلة كان يحول بين العثمانيين وأعدائهم البرتغاليين[5] فاستولت عليها القوات العثمانية سنة ١٥٤٦ [6] وتقدم العثمانيون بعد ذلك على طول الساحل الغربى للخليج العربى ، فاستولوا على الأحساء سنة ١٥٥٠ وهذه أيضاً أصبحت أيالة . ولم تقسم البصرة — وكذلك

---

(١) إحدى الإمارات الإيرانية القوية التى كانت تدعى السيادة على كردستان .

(٢) وهى سناجق ، سروجك ، كسنان ، أربل ، شهر بازار ، جنكوله (ضمت إلى بغداد) هازارمردود ، جوران ، مركاره ، حرير ، رودين ، تيل طارى ، سبه ، زنجير ، عجور ، أبرومان ، باق ، برنلى ، باق ،أوشنى ، قلعة غازى ، وكانت هذه السناجق سريعة الاختفاء وكان بها حوالى مائة أمير من مرتبة زعامت . انظر : عباس العزاوى : تاريخ العراق جـ ٤ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٣) سنتكلم بالتفصيل عن هذه العشائر العربية فى الفصل الثالث ومعظم هذه العشائر فى جنوب بغداد حتى البصرة .

(٤) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٤ : ٤٦ .

(٥) كان السلطان يعمل على قتال البرتغاليين فى المياه الهندية « التفصيل فى سياسة داود فى الخليج العربى » .

(٦) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٤ : ٤٩ — ٥٠ .

الأحساء — إلى سناجق [1] نظراً لقوة العصبيات العشائرية فى كل من الأيالتين . وبقيت البصرة بذلك وحدة إدارية واحدة وكانت هذه الأيالة ذات مميزات خاصة . فهى تطل على البحر واتجاهها نحوه ومشكلاتها تتعلق بخطر عشيرة كعب [2] عليها وبأطماع إيران .

وبين الموصل وشهرزور فى الشمال والبصرة فى الجنوب كانت تمتد أيالة بغداد وهى أهم باشويات العراق وتضم أخصب المناطق وأشهرها لأنها قلب العراق منذ أقدم العصور ، وأقوى باشوية فيه تحكم حكماً مباشراً . وكانت بغداد تتفوق على مدن العراق كلها بأنها كانت المركز الثقافى والاقتصادى الأول فى العراق ، وكانت أكبر الباشويات مساحة إذ كانت تضم ثمانية عشر سنجقاً [3] .

وقد وضع الباب العالى نظام حكم أيالات العراق على غرار النظام الذى كان متبعاً فى بقية الإمبراطورية العثمانية . فكان الوالى على رأس الجهاز الإدارى ، ومدة حكمه سنة تتجدد بموافقة السلطان فتصل أحياناً إلى ثلاث سنوات وكان الوالى أحياناً يعود إلى ولايته أكثر من مرة أو يعين فى ديار بكر أو الموصل ثم يتولى بغداد أو البصرة فيكون ذلك من الأسباب التى تكسبه خبرة أدق بأمور العراق . وكان باشا بغداد من المرتبة الأولى

---

(١) الدول العربية : ١٣٦ .

(٢) عشيرة عربية تنزل فى شرق البصرة وتشتغل بالقرصنة النهرية والبحرية والتجارة .

(٣) وهى سناجق (١) الحلة (٢) زنك اياد (من توابعها تزلرباط) وقد اندثرت المدينة (٣) الجوازر (الجزائر) (٤) الرماحية (٥) جنكوله على الحدود العراقية الإيرانية (٦) قراه طاغ (تبع السليمانية فيما بعد) وهذه السناجق الستة فيها زعامت وتيمار (٧) درتنك (بجوار الحدود الإيرانية وموضع نزاع) (٨) البيات (فى كركوك) (٩) درنه (على الحدود الإيرانية وموضع نزاع) (١٠) ده بالا فى شمال شيتكوه (١١) واسط (الكوت) (١٢) دمبرقبو (١٣) قراينه بجوار مندلى (بندنيجين) (١٤) كيلان العراق (بين كركوك وإيران) (١٥) ال صاج قبيلة قرب التون كوبرى (١٦) العمادية ويحكمها البهدينان (١٧) السماوة (١٨) كرند . انظر العزاوى تاريخ العراق جـ ٤ — ٢٨٢ — ٢٨٤ .

(أى صاحب ثلاثة أطواغ) وكان عدد كبير من باشوات العراق من حاشية السلطان حتى تولى حسن باشا ولاية بغداد سنة ١٧٠٤ فأصبحت الباشوية لابنه ولمماليكه من بعده .

وكان باشوات بغداد متفوقين على زملائهم فى بقية الأيالات العراقية إذ أن اعتماد الأيالات الأخرى على بغداد جعل الباب العالى ينص فى الفرمان على حق باشا بغداد فى عزل ونصب باشوات كردستان(١) ، وهذا امتياز لم يحصل عليه أى باشا من باشوات الأيالات الأخرى العراقية . على أن حكم الأيالات كان مطلقاً تقريباً لا يرجع إلى الآستانة إلا فى الأمور الخطيرة وعلى الباشا أن يدير أمور باشويته وأن يرسل الأموال إلى الباب العالى وألا يزعجه بمشكلات خطيرة .

وكان الوالى يأخذ مرتباً سنوياً . وهو يقتطع هذا المبلغ من الأموال التى جمعها من أيالته وكانت عين الباب العالى تراقب — فى كثير من الأحيان — أعمال الباشا . وبخاصة أن القاضى والدفتردار(٢) كانا يعودان سنوياً إلى الآستانة فتصبح أمور الأيالة مكشوفة أمام الباب العالى . وكان الشعب أيضاً كلما أحس بظلم ملحوظ تمرد على الباشا وأرسل الشكاوى فى حق الوالى . وكانت شكاوى الشعب إلى السلطان ذات صدى فى دوائر الآستانة .

على أن الديوان كان الهيئة الحكومية العليا القادرة على معارضة الباشا . وكان يتكون من كبار ضباط الحامية وعلى رأسهم أغا الانكشارية والدفتردار والعلماء وكبار حكام المدن ، وكانت العضوية فى الديوان غير ثابتة وكان الباشا

---

(١) جودت باشا : ترتيب جديد استانبول : مطبعة عثمانية سنة ١٣٠٢ هـ : جـ١ : ص ٢٧٢ .

(٢) سوف نرى أن المماليك كانوا يسندون هذا المنصب إلى أصهارهم الذين يخلفونهم فى منصب الباشوية .

هو الذى يختار الأعضاء ومن ثم كانت السلطة العليا للباشا الذى كان قادراً على أن يغير فى تشكيل الديوان . وقد ثبت أن الديوان لم يستطع أن يكون قوة قائمة بنفسها نظراً لأن الانكشارية اعتمدوا على قوتهم ، والعلماء اعتمدوا على الشعب ، واعتمد الشعب عليهم ، والوالى اعتمد على ما يجمعه من قوات . وانتهى الأمر الى إهمال الديوان وأصبح مجرد هيئة استشارية ولم يعد أداة من أدوات الحكم ، ولكنه بقى لاستقبال كبار الزائرين والمبعوثين .

وكانت القوة التنفيذية لأوامر الباشا مسندة إلى الكتخدا (الكخيا) فهو نائب الباشا ووكيله ، وهو القائد العام للقوات العسكرية ، والمشرف على أمن المدينة والولاية فكانت مكانته لذلك خطيرة . على أن هذه المكانة لم تظهر خطورتها إلا عندما بدأ حكم المماليك .

أما الأمور الاقتصادية فكانت مسندة إلى الدفتردار الذى كان بمثابة وزير المالية فى الولاية . وهذا المنصب لم يعد له مدلوله الذى كان عليه فى القرن السادس عشر والسابع عشر . وقد أصبح الدفتردار فى غضون القرن الثامن عشر والتاسع عشر يتولى قيادة الجيوش وأمور الولاية السياسية حتى كادت وظائفه لا تفترق كثيراً عن مهمة الكخيا فى بعض الأحيان . وكذلك كان الأمر بالنسبة للخازندار . وأما الأمور القضائية الشرعية فكانت مسندة إلى القاضى الذى كان يعين باقتراح من شيخ الإسلام وبفرمان سلطانى ، وتلحق به دار الإفتاء ويرأسها مفتى المدينة . وكان للقاضى نواب فى سائر أنحاء الولاية(١) .

وأما خارج عاصمة الولاية فإن المشيخات العشائرية تتبع أقرب المدن إليها أو يعين لها ضباط فى أماكن معينة يجمعون منها الأموال ويكونون واسطة بينهم وبين الحكومة . والواقع أن التنظيم الإدارى خارج بغداد

---

(١) أحمد على الصوفى : المماليك فى العراق – الموصل – ١٩٥٢ م. – ص ٢٢٢ .

كان بسيطاً فلكل سنجق حاكم مسئول عنه من جميع النواحى العسكرية والاقتصادية ، ويتولى منصبه كل سنة أيضاً حسب رغبة الوالى[1] . والوالى عادة مدته قصيرة ولذلك يمكن أن نقول إن إدارة العشائر كانت متروكة لشيوخها تماماً حسب عرفها وما تتبعه من قوانين ، وهذا يرجع إلى قوة هذه العشائر العربية فى العراق .

على أن الاعتراف بالعصبيات الحاكمة وتقسيم العراق إلى أيالات متعددة كان خطة لها عيوبها . لقد كان التقسيم يقوم على أساس جغرافى ، كما كان نتيجة لعوامل سياسية . فقد كانت الموصل على الحافة الجنوبية لجبال كردستان ، وبذلك لا تستطيع السيطرة التامة على إمارات كردستان حتى الحدود الإيرانية . ولذلك كان إنشاء إمارة شهرزور من العوامل التى تجعل السلطة العثمانية أكثر قدرة على رقابة الحدود الإيرانية — العراقية فى تلك المنطقة المضطربة . وكانت البصرة لها وضعها الذى كان يختلف كل الاختلاف عن أوضاع الأيالات الأخرى . فمشكلاتها بحرية — عشائرية ، واتصالها بالصراع الأوروبى الاستعمارى فى الخليج العربى مباشرة ، وتعوق الأهوار والبحيرات الموسمية والقبائل المعادية الاتصالات السريعة مع بغداد . وكانت فى الوقت نفسه نقطة رقابة حساسة على نشاط عشيرة كعب الشيعية المهددة للبصرة ، ومن ثم كانت فعلا جديرة بأن تصبح وحدة إدارية واحدة مستقلة عن بغداد . وأما الأحساء فكانت هى الأخرى وحدة إدارية واحدة لأن العشائر كانت تموج فيها والحكم الفعلى فيها كان للعشائر ولم يكن فى استطاعة باشا « الحسا » بإمكانياته البسيطة أن يسيطر على هذه الأيالة التى تحيط بها العشائر العربية القوية من كل جانب .

ومن العوامل الرئيسية التى أدت إلى تقسيم العراق إلى أيالات أن السلطان قدر خطورة تجميع العراق كله تحت يد وال واحد تكون ثورته

---

(١) انظر عبد السلام أفندى المفتى الماردينى : تاريخ ماردين : ورقة ١٥٢ — ١٥٤ .

مروعة إذا ما ناهض السلطان . وقد كان تمرد الباشوات أمراً معهوداً فى الدولة العثمانية . وكانت سياسة عدم الثقة هى التى تسيطر على أعمال الباب العالى . والباشا فى ذلك الوقت لم يكن قادراً على أن يسيطر على العراق كله دفعة واحدة نظراً لامتداد العراق امتداداً كبيراً ، ولأنه ضم بيئات مختلفة وجنسيات متنافرة ذات أهداف متباينة . وهذا أمر يختلف كل الاختلاف عن مصر التى عرفت فى مختلف العصور الحكومة الواحدة والسلطة المركزية . وذلك لتجانس العناصر التى تؤلف أكثر سكانها وارتباط الغالبية العظمى من سكانها بالأراضى الزراعية وقدرة هذه الأرض على اجتذاب العناصر الأخرى .

وكان لهذا التقسيم أيضاً عيوب من الناحية العسكرية ، إذ أنه يوزع القيادات ويشتت المجهودات ولكن لم تظهر تلك العيوب واضحة إلا بعد أن ضعفت القوات الإمبراطورية ، فقد ترك السلطان قوات إنكشارية فى عواصم الأيالات والمدن الكبرى ، وكانت ترد أحياناً من الآستانة فرق إنكشارية جديدة لتحل محل الفرق القديمة . وكلما توترت العلاقات مع إيران – الطامعة دائماً فى العراق – أرسلت القوات الإمبراطورية إلى العراق لتقوم بمهمة الدفاع عنه ، وكانت هذه القوات الإنكشارية المرسلة من الآستانة أو الموجودة فى قلاع عواصم العراق تحت قيادة أغوات تابعين للسلطان . وفى أوقات السلم كانت الفرق الإنكشارية فى بغداد تقوم بأعمال الشرطة فى المدينة وجمع الضرائب ، وفى الوقت نفسه كان للوالى الحق فى تشكيل فرق محلية ذات مرتبات منتظمة . ونظراً لانحلال النظام الإنكشارى فى الآستانة سرى الضعف أيضاً إلى إنكشارية الولايات[1] . وأصبح الوالى يعتمد أكثر على القوات المحلية وهذه إما من المرتزقة أو من العشائر الموالية أو التى حصلت على امتيازات مالية فى مقابل

(١) سيتم هذا الانحلال فى القرن السابع عشر حتى تصبح الفرق الإنكشارية عبارة عن الأهالى المدنيين المرتبطين بحرفهم وأعمالهم المدنية .

خدمات عسكرية . وقد أدى هذا التطور إلى وقوع النزاع بين القوتين الإنكشارية والمحلية(١) . ولكن الإنكشارية كانت قوية فى داخل بغداد واستطاع بلوك باشى (أى رئيس كتيبة خيالة) أن ينفرد بحكم بغداد سنة ١٦٠٣–١٦٠٤م(٢) .

وكذلك استطاع بكر صوباشى من إنكشارية بغداد أن يستبد بحكم الولاية سنة ١٠٣١هـ — ١٦٢١م(٣) وعهد بإخضاعه إلى جيش السلطان الذى كاد ينجح فى طرده ، لولا دخول الشاه عباس الثانى كطرف ثالث فى المشكلة ، فكان الكفاح المرير الطويل بين السلطان والشاه على العراق وكللت مجهودات السلطان مراد الرابع بالنجاح سنة ١٦٣٨م ولكن الفتح العسكرى لم يعقبه إصلاح شامل . وظلت معظم الأمور على ما كانت عليه من فتن داخلية وثورات إنكشارية ، وتمردات عشائرية ، وأزمات اقتصادية وأوبئة وفيضانات وتهديد إيرانى ، بل إن الولاة أصبحوا يعتمدون على قوات محلية لمواجهة تمردات العشائر والإنكشارية فكلفهم ذلك كثيراً ، واضطر بعضهم فى سبيل جمع المال إلى رفع قيمة الضريبة والتلاعب فى قيمة النقد واستحداث ضرائب ونظم مالية جديدة كنظام الالتزام ، ومع ذلك لم يستطع الولاة السيطرة على الولاية واشتدت روح الفوضى فى داخل بغداد ، وفى خارجها أيضاً . وضاعت هيبة الباشا فى بغداد كما ضاعت فى البصرة حتى إن أحد باشوات البصرة باعها لأفراسياب سنة ١٥٩٦(٤) . فألقى على كاهل والى بغداد مهمة استعادتها . ونجحت بغداد فى مهمتها وقد

---

(١) خير من وضح هذه الناحية . Huart: Op. Cit. pp 80,85,89,92-93

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٤ : ١٤٧ .

(٣) تفاصيل حوادث استيلاء بكر صوباشى فى تلك السنة على الحكم فى بغداد واستيلاء الشاه عباس على بغداد ثم استرداد مراد الرابع لبغداد موجودة بتصوير بديع فى :
Huart: Histoire de Bagdad: pp.48-74

(٤) كان أفراسياب هذا من كتاب الجند فى البصرة وقد اختلف المؤرخون فى أصله وقد عرف عنه الاهتمام بشئون الأهالى فنال محبتهم وقد حكمت أسرته من ١٥٩٦ . انظر فتح الله الكعبى : زاد المسافر . بغداد ١٩٢١

كانت المهمة شاقة مرهقة . ومنذ أن أعيدت البصرة إلى الحكم العثمانى المباشر أصبحت البصرة تنظر إلى بغداد نظرتها إلى أختها الكبرى مثلها فى ذلك مثل شهرزور ، إذ أصبح على ولاة بغداد أن ينظروا فى أمور كردستان بسبب كثرة العدوان الإيرانى عليها ، وتعدد الصراع بين أمرائها الذين كانوا يستغلون إلى أبعد مدى موقع بلادهم بين أملاك السلطان وأملاك الشاه .

ولما كان من الصعب على قوات ولاة بغداد أن تتغلب على تمرد باشوات الكرد وأن يمنعوا هؤلاء من الاستعانة بإيران ، فإن ولاة بغداد عملوا على أن يضربوا الكرد بالكرد (١) . فكان ذلك أساساً من الأسس السياسية التى اتبعها هؤلاء الولاة خلال الحكم العثمانى كله فظلت المشكلة الكردية الإيرانية مشكلة تعرض العراق من وقت لآخر لأزمات حادة ومرهقة.

إن هذا الضعف الذى انتاب حكومة بغداد نتيجة لهذه المشكلات جعلها فى حاجة إلى وال قوى يستقر فيها ليضع خطة معينة لمعالجة مشكلاتها وإنقاذها من الفوضى التى ترددت فيها خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر ، وصادف أن تولى حكم بغداد سنة ١٧٠٤ حسن باشا الذى كلف بحرب إيران ، فكان عليه أن يقوم بمجهودات جبارة تتطلب السيطرة الكاملة على العراق ، لذلك بذل مجهودات ضخمة فى إخضاع هذه العشائر لسيفه فضرب بعنف العشائر المتمردة ، ولما كانت البصرة قد وقعت فى قبضة المنتفق سنة ١٧٠٨ فإنه استأذن من السلطان فى أن يخلصها من يدهم ، وخاض ضدهم حرباً ضروساً انتهت بانتصار باهر لقوات حسن باشا (١٧٠٨) ففوضت الدولة إليه أمر تعيين « من يراه لائقاً لإدارتها » ، وأرسل إليه منشور الولاية بلا تعيين اسم ، على(٢) أن تبعيتها الكاملة لبغداد كانت فى ١٧١٦ عند ما منحت البصرة لأحمد باشا — ابن حسن — الذى حكم

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٤ : ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٥ ص ١٨٤ .

شهرزور قبلها[١] ، وهكذا بدأت سيادة بغداد على كل من البصرة وشهرزور تستقر .

وجنت بغداد كما جنى العراق بأسره ثمار سياسة توحيد العراق تحت حكم بغداد . فلقد فتحت همدان على يد حسن باشا . كما ضرب البغداديون والمماليك تحت قيادة أحمد باشا أروع الأمثلة فى الاستبسال خلال حصار نادر شاه لبغداد سنة ١١٤٥هـ — ١٧٣٢م [٢] . ولم تحدث خلال هذا الحصار خيانة تؤدى إلى استسلام المدينة مثلما حدث سنة ١٢٥٧م[٣] ، وسنة ١٥٣٠م[٤] وسنة ١٦٢٣م [٥] . وما ذلك إلا لأن أحمد باشا كان شخصية قوية كسبت ثقة الشعب البغدادى لأنه بسط نفوذه قوياً على القبائل فى الشمال والجنوب وعلى الإنكشارية وعلى الجيش الذى يقوده .

وعلى أى حال ليس عهد الباشوات العثمانيين الذين سبقوا حسن بسيئ للغاية . فخلال هذا العهد ظهر ولاة مصلحون اهتموا بالزراعة وتسهيل طرق الرى وبالتعليم وشق الترع وإقامة السدود لمقاومة خطر الفيضان . ومع ذلك ظل الرى سيئاً حتى بعد عهد المماليك نظراً لأن إصلاح نظام الرى يحتاج إلى حكومة مستقرة تحكم مدة طويلة . ولقد توفرت لكل من حسن وأحمد مدد حكم ليست بالقصيرة[٦] . ولكن الإصلاحات لم تكن مطردة وذلك يرجع إلى انشغال حسن بقتال العشائر المتمردة وبحربه فى إيران ولانشغال أحمد بالدفاع عن العراق ضد نادر شاه .

---

(١) المصدر السابق : ١٩٣ .

(٢) انظر : عبد الرحمن السويدى : حديقة الزوراء فى سيرة الوزراء (مخطوط) ، ص ١٢٠ .

(٣) عندما سلمها وزير آخر خليفة عباسى للمغول بعد أن خان سيده .

(٤) عندما سلمها إخوة « ذو الفقار » حاكم بغداد للشاه بعد قتلهم لأخيهم .

(٥) عندما خان أولاد بكر صوباشى أباهم وسلموا بغداد للشاه .

(٦) حكم حسن باشا من ١٧٠٤ إلى ١٧٢٣ .

أحمد باشا حكم من ١٧٢٣ — ١٧٤٧ باستثناء سنوات قليلة .

الفصل الأول

حكومة المماليك

أسباب تفوق المماليك – سليمان أبوليلة – على باشا «الأول» – الحرب الإيرانية – سليمان باشا الكبير – نشأة داود – على باشا «الثانى» – سليمان الصغير – اقتراب داود من الزعامة .

حكومة المماليك

أسباب تفوق المماليك :

أدت الحروب ومشكلات العراق العشائرية و تمردات الإنكشارية إلى أن يعنى حسن باشا وأحمد باشا بتكوين قوة جديدة لتكون الأداة المنفذة بإخلاص لأوامر الباشا . فقد فسدت القوات الإنكشارية فى العراق فساداً شاملا حتى أصبحت نكشارية القرن السابع عشر غير تلك الإنكشارية التى عهدتها الدولة من جميع الوجوه ، ويرجع ذلك إلى :

١ – بطال نظام (الديوشرمه) أو جمع الصبية المسيحيين فتوقف إرسال جند إنكشارية إلى الولايات .

٢ – دخول المسلمين الأحرار فى الإنكشارية وارتباط هؤلاء بأسرهم وبحرفهم حتى أصبحت الإنكشارية عبارة عن رجال مدنيين فى الغالب وضعت أسماؤهم فى قوائم الإنكشارية ليحصلوا على امتيازات الإنكشارية فقط وأصبح معظم الشعب البغدادى إنكشارية(١) .

أما القوة الثانية التى كانت فى العراق فهى القوات المحلية التى كانت تؤلف الحرس الخاص للباشا وهذه يجمعها الباشا ويدفع لها الرواتب المنتظمة. وكان فى الوقت نفسه يعتمد على قوات عشائرية كلفت بالخدمة العسكرية تحت قيادة الباشا ، مثل عشيرة البيات(٢) وعشيرة العقيل(٣) وهى قوات

---

(١) Gibb & Bowen: Islamic Society & the West-Vol. I.Pt, I,pp, 244-245

(٢) البيات: عشيرة تركية تنزل قرب طوزخورماتو .

(٣) عشيرة عربية ارتبطت بالخدمة العسكرية واشتهرت بالشجاعة والصلابة فى المقاومة .

مرتبطة بكيانها العشائرى وليس من السهل تدريبها على الحركات العسكرية الشاملة .

ولم يكن أمام حسن باشا ليكون جيشاً نظامياً هجوميا مخلصاً يحقق به أهدافه فى إيران وفى بغداد والبصرة وشهرزور سوى أحد طريقين :

ا ــ إما أن يعتمد على العشائر العربية والكردية .

ب ــ أو يستخدم قوة مرتزقة من غير العراقيين . ولكن العصبية القبلية وارتباط أفراد القبيلة بعشيرتهم وبمرعاها ، وعدم ثبات ولاء هذه العصبيات أدى كل هذا إلى أن يفكر حسن باشا فى تكوين جيش من المماليك .

ولم يكن من الصعب عليه أن يفكر فى استخدام المماليك فقد ظهر المماليك فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى منذ أيام الفاطميين وكثر استخدامهم حتى أصبحت لهم فى مصر دولة . وظهروا فى الآستانة خلال الحكم العثمانى وفى إيران أيضاً ، وكان المماليك يجلبون من تفليس ومن عشائر القوقاز ، وكانت لهم مميزات عسكرية أهلتهم لما وكل إليهم . ومن هناك اشترى حسن باشا أعداداً كثيرة منهم ورباهم تربية خاصة تعدهم لحياة إدارية وعسكرية سليمة . فقد نشأ حسن باشا فى سراى السلطان . وعلى غرار النظام الداخلى لسراى السلطان كون فرقاً وجماعات من المماليك . وكانت كل جماعة تقيم فى ثكنة مخصصة لها ولكل فرقة اسم مثل فرقة « الخاص » و « وكلاء الخزينة » (١) .

وأنشأ لهذه الفرق مدارس وحدد لها نظم الدراسة . وهو لم يقتصر على تعليم المماليك فى هذه المدارس ، بل ألحق بهذه المدارس كثيراً من

---

(١) بالتركية « خزينة وكيلان » .

سليمان فائق : بغداد كوله من حكومتنك تشكيله انقراضه دائر رسالة . استانبول سنة ١٢٩٢ ص ١١ .

أبناء الأسر الكريمة . وبعد موته سار ابنه أحمد باشا على منواله . وقد استمرت هذه النظم مرعية حتى حكم داود .

وكان نظام الدراسة يسير حسب ترتيب دقيق . فكان المماليك — وقد بلغوا سن المراهقة — يوزعون على المدارس ويصبحون أشبه بالتلاميذ ويزودون بأنواع الثقافة الدينية والأدبية . وكان فى كل مدرسة من هذه المدارس المؤدبون (لالا) والأساتذة لتعليمهم القراءة والكتابة . كما كانوا يتدربون فى الوقت نفسه على الأعمال العسكرية ، ودقة إصابة الهدف . وركوب الخيل والسباحة فى أحواض أعدت خصيصاً لذلك . وبعد إتمام تعليمهم وتدريبهم يدخلون فى صف (أغوات الداخل) ومن هؤلاء يصطفى الباشا كبار رجال حكومته (١) .

وهكذا كانت تلك المدارس جديرة بأن تخرج قادة السيف والقلم فى العراق ومن تولى النهوض بالحركة العلمية والعسكرية فيه . على أن هذا النوع من التعليم المخصص للمماليك ، و تلك الحياة المشتركة التعاونية التى كان يحياها المماليك فى العراق ، خلال فترة تربيتهم ، وشعورهم بأنهم أقلية فى وسط المجموع العراقى الكبير ، كل هذا كان من العوامل القوية التى جعلت منهم عصبية متماسكة وبذلك استطاعوا السيطرة على العراق وأن يضعوا فى أيديهم كل السلطات ، وخاصة أن عددهم خلال حكم سليمان أبى ليلة (١٧٤٩–١٧٦١) كان قد زاد زيادة كبيرة إذ تدفق المماليك بكثرة فى ذلك الوقت من تفليس وبلاد الكرج ، وكان معظم المماليك فى العراق مجلوبين من تلك الجهات . وقلة منهم كانت تولد فى بغداد(٢) .

---

(١) كان عدد من المماليك متعمقاً فى دراسة الفقه والتشريع وتولى تنشيط الحركة العلمية فى العراق وعلى سبيل المثال : على باشا (١٨٠٢ – ١٨٠٧) سليمان باشا الصغير (١٨٠٨ – ١٨١٠) وداود باشا (١٨١٧ – ١٨٣١) .

(٢) سليمان فائق : بغداد كوله من : ١١ .

كانت تلك القوة المملوكية التي شرع حسن باشا في تأليفها ثم وسع ابنه أحمد باشا نطاقها من بعده هي التي أدارت رحا الحرب ضد نادر شاه (١٧٣٠ – ١٧٤٣) وهي التي ساندت أحمد باشا ووقفت إلى جانبه قوية وكانت من العوامل القوية التي أحبطت محاولات السلطان لعزل أحمد باشا من بغداد .

سليمان أبو ليلة

كان السلطان يخشى المكانة التي نالها حسن باشا عن جدارة وتلك التي نالها من بعده ابنه أحمد باشا ، فحاول أن يبعد عن العراق خطر احتمال أن يستقل أحد الباشوات به . فأبعد أحمد باشا عنه سنة ١٧٣٤ . ولكن ظروف العراق كانت تحتم على السلطان أن يكون حكمه بيد شخصية تستطيع أن تنازل وتفاوض نادر شاه . ولم يكن هناك سوى أحمد باشا فأعيد إلى باشويته وإلى شعبه البغدادى الذى ظل متمسكاً به حتى بعد أن نقله السلطان إلى باشوية أخرى ، فقد تمسك البغداديون بأحمد باشا لأنهم خبروا الباشوات العثمانيين عقب إبعاده عن العراق ، فألفوهم غير كفاة لقيادة العراق (١) . هذا بينما كان البغداديون قد رأوا فى سليمان باشا – كيخيا أحمد باشا وصهره – خليفة لبطلهم أحمد باشا حيث خبروه خلال خمس عشرة سنة ، أثبت خلالها فى ميدانى الحرب والسلم أنه الأكفأ والأقدر على إدارة شئون البلاد التى عرف مشكلاتها ، وحذق أساليب حكمها . وكان مرجع الخاص والعام خلال توليه منصب الكتخدائية (٢) .

ولكن هل كان الباب العالى يقبل راضياً فى ذلك الوقت ، أن يتولى سليمان باشوية بغداد المسيطرة على العراق حتى ولو تمسك به الشعب البغدادى

(١) Heude: A Voyage up the Persian Gulf. PP. 145 — 146
انظر : العزاوى : تاريخ العراق : ج ٥ : ٢٤٧ – ٢٤٨ .

(٢) سليمان فائق : بغداد كوله من : ٩ .

والعصبية المملوكية؟ فالباب العالى كان يعمل جاهداً على إعادة حكمه المباشر إلى أيالات العراق :

ولعل الباب العالى وجد فى وفاة أحمد باشا (سنة ١١٦٠هـ-١٧٤٧م) حلا لمشكلة قيام حكم شبه مستقل مثلما حدث فى معظم ولايات الدولة العثمانية . ولكن الباب العالى أخفق فى إبعاد سليمان أبى ليلة عن حكم العراق ، لأن « ولاة الخارج » وأموال الباب العالى لم تتمكن من تسكين ثائرة القبائل السريعة التمرد — التى كانت قد صاهر بعضها أحمد باشا وسليمان باشا أبو ليلة[1] . ولم تتمكن أيضاً من تهدئة البغداديين المتمسكين برجلهم المفضل [2] وعجزت أمام فتن الإنكشارية المتعددة ، وأمام دعايات سليمان أبى ليلة ، الذى كان يطالب بكل قوة بباشوية بغداد ، خصوصاً وقد وقفت العصبية المملوكية إلى جانبه . واستطاع سليمان أن يتولى الباشوية برغم ما أبداه منافسه الباشا العثمانى من مقاومة عنيفة (١١٦٢هـ-١٧٤٩م)[3] .

ويعتقد صاحب « بغداد كوله من » أن الدولة أخطأت بتوليتها سليمان الباشوية لأن الدولة لذلك شغلت نفسها بمماليك العراق زهاء قرن ، وأنها أسندت إليه الولاية طمعاً فيما سيقدمه لها من أموال ولكن دون أن تجربه[4] . والواقع أن إسناد الولاية إلى سليمان باشا كان أمراً لا مناص منه : فلقد حاولت الدولة أن تبعده عن الولاية ، ولكن مشكلاتها الداخلية والخارجية فى أوروبا وروسيا وفارس لم تسمح لها بالوصول إلى هدفها فى تلك الولاية النائية[5] وهو إبعاد سليمان أبى ليلة عن بغداد .

---

(١) Huart: Op .Cit. PP. 146 — 147.

(٢) بغداد كوله من : ٩ .

(٣) Huart: Op cit. PP. 153.

(٤) بغداد كوله من : ٩ — ١٠ .

(٥) بروكلمان جـ ٣ : ١٥٥ — ١٦٢ (يبين مشكلات الدولة العديدة فى تلك الفترة) .

وهكذا تولى مملوك حكم العراق[1] من بغداد ، وكانت بغداد منذ أيام حسن باشا مسيطرة على باشوات العراق الأخرى وأدى ذلك الصراع بين نادرشاه وأحمد باشا إلى توحيد العراق تحت حكم باشا بغداد فيما عدا الموصل وباشوات أقصى شمال العراق .

ولكن عملية التوحيد هذه وقفت عند حد التبعية الظاهرية فى معظم الأوقات فقد كانت سناجق الشمال وباشوياته تتمتع باستقلال نسبى إلى أن يجرد عليها باشا بغداد حملة لاستعادة نفوذه فيها .

وكانت سياسة أبى ليلة — وقد سمى بذلك لحركاته السرية الليلية العسكرية إزاء القبائل السريعة الانقضاض والتمرد — ترمى إلى توجيه الضربات السريعة القاسية[2] . وقد بلغت قواته خلال إحدى حملاته دمشق فنتج عن تلك المجهودات أن أصبحت الملاحة النهرية آمنة وتحولت التجارة من الموانى الفارسية إلى البصرة وهجر التجار طرق فارس المختلة الأمن . ونشطت تجارة شركة الهند الشرقية البريطانية فى البصرة[3] .

---

(١) انظر قائمة الباشوات الذين حكموا بغداد منذ حسن باشا (١٧٠٤) حتى داود باشا ١٨٣١ ملحق رقم (١) .

(٢) جودت : جـ ١ : ٢٧٠ .

(٣) Heude: op cit .PP. 148 — 149

يرجع اهتمام الإنجليز بمياه الهند والخليج إلى أوائل القرن السابع عشر وأنشئت الوكالة البريطانية فى البصرة منذ ١٦٣٩ وحصل الوكيل البريطانى سنة ١٧٢٨ على حق محاكمة الأشخاص التابعين للوكالة وفى سنة ١٧٣١ حددت الضريبة بـ ٣٪ على البضائع البريطانية . ولم يعترف الباب العالى بوكالة البصرة إلا فى سنة ١٧٦٣ ولم يوافق مديرو شركة الهند الشرقية البريطانية على تعيين مقيم بريطانى فى بغداد وإنما عين وكيل وطنى هناك سنة ١٧٨٣ ، وفى سنة ١٧٩٨ عين وكيل بريطانى لتنظيم البريد بين الهند وبريطانيا ولمراقبة حركات الفرنسيين . وفى سنة ١٨٠٢ حصل الإنجليز على براءة القنصلية فى بغداد .

Aitchison: A Collection of Treaties. Vol. XI. P 2

على باشا الأول :

ولما كانت قوة المماليك قد توطدت خلال حكم سليمان أبى ليلة وكثر عددهم . ولم يكن فى وسع الباب العالى إلا أن يسند الباشوية — بعد أبى ليلة — إلى شخصية مملوكية معروفة لديه ، يجمع عليها المماليك وأولو الرأى من علماء وأعيان بغداد[1] ، لذلك أسندت حكومة بغداد إلى على باشا الذى تعاون مع شركة الهند البريطانية على ضرب أسطول كعب[2] ولكن لم تغفر له عادلة هانم — زوجة أبى ليلة وذات النفوذ الواسع خلال حكم زوجها — إغفاله لنفوذها ، فاستغلت كراهية البغداديين للفرس ولمذهبهم ، وأثارت عليه حقد المماليك الطموحين ، وأطلقت فى العاصمة العراقية شائعات رددت أنه كان خفيف الوطأة على الخزاعل الشيعة شديدها على الإنكشارية والكرد السنيين[3] .

وكان من الطبيعى أن يبرز مطالب بالباشوية يدعى إنقاذها من الوقوع فى يد « بكر صوباشى » جديد[4] وتزعّم الثورة عمر بك أحد كيخيات سليمان أبى ليلة ، وقضى على خصمه واعتذر للباب العالى بعدم عرض قضية الباشا « الفارسى » عليه خشية وقوع العراق فى يد إيران قبل ورود أمر السلطان . وأيدت الاعتذار كتب الأعيان والتماسات الأهالى فأسندت إليه الباشوية (١١٧٧ هـ — ١٧٦٤ م) .

ويقول جودت إن انتصار المماليك فى تعيين عمر باشا وشعورهم بقوتهم جعلهم يعملون على تقليد آراء المماليك فى مصر . فقد اجتهدوا

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين — ج ٦ — ٣٢ .

(٢) كانت عشيرة كعب العربية — وهى على مذهب الشيعة — تنزل فى شرق البصرة وتقوم بأعمال القرصنة .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق ج ٦ : ٣٦ Longrigg: Four. p. 173 .

(٤) ثائر أسلم بغداد للشاه عباس فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى . ٣ — جودت ج ١ : ٢٧١ .

فى السيطرة على الجهاز الإدارى والعسكرى لباشوية بغداد وفى تقوية أواصر الترابط فيما بينهم بمصاهرة ذوى الشكيمة منهم وترقية الأصهار إلى منصب الكتخدائية ، وهو المنصب الممهد للحصول على منصب الباشوية : وعلى هذا النمط سار المماليك فعلا حتى داود باشا .

حكم عمر العراق بقوة ونشر الأمن فى ربوعه فى وقت كانت الكوارث فيه تتوالى على الدولة العثمانية فى ختـــام حربها مع الروسيا التى انتهت بإذلال كوجك كينارجى ، وبضياع هيبتها فى الشام إبان انتصارات على بك الكبير فى مصر ، وضاهر العمر فى فلسطين وغيرهما من المتمردين الذين أشعلوا نيران الفتن فى معظم أجزاء الدولة حتى إن بغداد أصبحت تحت حكم عمر باشا جديرة بأن تسمى « دار السلام » لما شملها من هدوء وطمأنينة .

ولكن الجزء الأخير من حكم عمر باشا كان مضطرباً كل الاضطراب فقد اجتاح الطاعون العراق (١١٨٦ هـ — ١٧٧٢ م) ، ويقال إنه قضى على قادة البلاد ومن تمرس فى إدارتها ، فركن عمر باشا إلى غير الكفاة فكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن اختلت أمور البلاد وخفت يد عمر باشا عن عشائر العراق الجنوبى ، وحاول أن يتخلص من الزعامة الشعبية التى اتضحت قوتها — بقتل عبد الله بك الشاوى العربى الحميرى العريق — فثارت عشيرة العبيد[1] القوية وزاد الطين بلة انفراد كريم خان الزندى الكردى بأمور إيران :

الحرب الإيرانية :

حقيقة كانت علاقة كريم خان بباشوات العراق — قبل عمر باشا وبعمر نفسه — ودية ، بل تعاون عمر مع البريطانيين والفرس فى حملة مشتركة ضد بنى كعب . إلا أن أسباب النزاع بين فارس والعراق لم تتغير منذ أقدم

---

(١) كانت عشيرة العبيد عشيرة قوية تنزل المنطقة الواقعة بين بغداد والموصل ومشيختها فى آل الشاوى الذين ينتسبون إلى حمير ، وكانوا مشهورين بعلو كعبهم فى الأدب وفى السياسة وذاع صيتهم منذ ذلك الوقت .

العصور . فإلى جانب أطماع فارس الجبلية فيما تنتجه وديان العراق الخصبة ، كانت التجارة قد تحولت من بندر عباس وبوشهر إلى البصرة .

وكانت ذكريات النجف وكربلاء والمعاملة السيئة التي يعامل بها حجاج العتبات المقدسة من الإيرانيين من الدوافع القوية لأن يختلق الفرس المبررات لإعلان الحرب على العراق لامتلاكه . وبخاصة أن كريم خان كان كردياً ، فالت إليه العصبية الكردية فى شهرزور ، وأعطى النزاع الأسرى العنيف الذى لا ينقطع فرصة لتدخل كريم خان فى أمور العراق فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية تجاهد فى الوقوف على قدميها أمام جيوش قيصرة روسيا «كترين الثانية» المنتصرة ولذلك لم يكن لدى الدولة جيوش لتوجه إلى العراق ، هذا إلى أن قوات عمر نفسها كانت قليلة وإمكانات الشعب أرهقها الطاعون[1] .

كان من الطبيعى والحالة كذلك أن تنهار مقاومة عمر باشا أمام الهجوم الفارسى فى شهرزور ، أما البصرة فقد حمل لواء الدفاع عنها متسلم على جانب عظيم من المقدرة وهو الذى عرف فيما بعد باسم سليمان باشا الكبير . وكان المتسلم محبوباً من أهل البصرة فتفانوا فى الدفاع عنها حتى استنفدوا طاقتهم وحتى أتاهم من أخبرهم بأن بغداد لن تمد يدها للدفاع عن المدينة ، فاستسلمت البصرة بعد دفاع مجيد من رجالها ومن كان معهم من بحرية مسقط وبعد انسحاب مزر للمقيم البريطانى (١٧٧٦م)[2] .

وكان لما حل بالعراق صدى قوى فى الآستانة ، وكان السلطان

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٦ : ٤٤ – ٥٢ .
جودت : جـ ٢ : ٤٤ – ٤٥ .

(٢) عندما اشتد حصار الإيرانيين للبصرة آثر المقيم البريطانى – الذى كان يتعاون مع سليمان أغا فى الدفاع عن المدينة – أن ينسحب فجأة وأن يتفق مع الإيرانيين بينما كانت قطع من أسطول مسقط قد أتت لنجدة البصرة نظراً لأن إمام عمان كان يقدر قيمة هذا التعاون ضد إيران العدو المشترك ونظراً لأن المماليك رفضوا من قبل التعاون مع إيران ضد مسقط .

قد خرج منذ وقت قليل من حربه الخاسرة مع قيصرة روسيا كترين الثانية ، فالتفت إلى العراق وأرسل جيش إنقاذ إليه ، ولكن الباب العالى اقتنع بأن تبعة ما حدث تقع على عاتق عمر ، لذلك أوعز إلى الجيش فقتله بدلا من أن يهتم بإنقاذ البصرة ، لأن السلطان كان ينوى أن يعيد العراق إلى الحكم العثمانى المباشر بالقضاء على حكم المماليك فيه ، ولكن حكام العراق الجدد من « باشوات الخارج أثبتوا عجزهم عن حكم العراق وإنقاذه ، وسياسة كهذه فاشلة من أجل تعيين باشوات عثمانيين لا يثق بهم البغداديون وبدون تاريخ يشرف صفحاتهم لكفيلة بثورة الأهالى وبثورة المماليك وقد أبعدوا عن دست الحكم وبأن يكتب الباليوز[1] رسائل إلى الآستانة تلقى تبعة سقوط البصرة فى يد الفرس على الباشا العثمانى الحاكم .

وبرغم ذلك لم يقبل السلطان على المماليك إلا بعد أن عين الوالى إثر الوالى دون أن يتمكن واحد منهم من أن يحكم العراق مثلما كان يحكمه المماليك . ولهذا تخلى الباب العالى عن فكرة القضاء على الحكم المملوكى فى العراق .

ويهاجم والى طرابزون العثمانى فى ذلك الوقت سياسة الباب العالى فى محاولته القضاء على المماليك فيقول إن المشكلة ليست فى بغداد فقط ، بل كانت أيضاً مشكلة الحركات الثورية المنتشرة فى الدولة كلها ، وإن موقف الباب العالى من المماليك يجب أن يكون أساسه تعاوناً عثمانياً مملوكياً على الفرس وتسوية الخلافات بين المماليك والأهالى حتى يتفرغوا لمواجهة الأخطار الخارجية ولإخضاع الكرد والعشائر (٢) . والحق إن رأى والى طرابزون اعتراف بالأمر الواقع وتقرير لوجوب استغلال الإمكانات الموجودة فعلا

---

(١) الباليوز : كلمة تركية بمعنى قنصل . وهذه التسمية شائعة فى العراق . أصل اللفظ إيطالى . راجع : دكتور محمد موسى هنداوى : المعجم فى اللغة الفارسية — القاهرة .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٥٦ — ٥٨ .

لحل مشكلات البلاد ، وهى السياسة التى اتبعها الباب العالى بعد تعيين عبد الله فى بغداد سنة ١٧٧٦ . ولكنه أسند كركوك إلى مملوك آخر هو حسن باشا ، ولعله يرمى من وراء ذلك إلى تفكيك وحدة العراق تحت حكم بغداد ، على أن حكم عبد الله هذا (على أى حال) كان مسرحاً للتواكل والضعف السياسى والخلقى ، بينما كانت البصرة تعانى آلام الحكم الدموى الفارسى فيها ، وتحاول الآستانة إنقاذ الموقف فترسل مبعوثاً إلى العراق . ولكن المفاسد التى انساقت فيها الطبقة الحاكمة فى بغداد طوت فيمن طوت مبعوث السلطان . فقد ركن المبعوث السلطانى مثل عبد الله باشا إلى اللهو والتراخى فى علاج مشكلات البلاد [1] .

وخلال ذلك يموت عبد الله سنة ١١٩٢ هـ سنة ١٧٧٨ م وتقع بغداد فى فوضى شاذة يسعى فيها أهل المجون إلى تسنم أرقى المناصب . ولا تهدأ هذه الفوضى حتى بعد إسناد الباشوية إلى حسن باشا والى كركوك (١٧٧٨ — ١١٩٢)[2] وهو أيضاً كان من المماليك .

وأروع ماحدث خلال حكم حسن هذا ، ذلك الانتصار الذى تغنى به عرب المنتفق على جيش الاحتلال الفارسى (١١٩٣ هـ — ١٧٧٩ م) . وذلك التآزر الذى كان بين فرسان العبيد بزعامة آل الشاوى والكرد بقيادة محمود بابان على مطاردة الثوار على الباشا [3] . ويرغم ذلك بلغت هجمات الثوار أبواب بغداد وأحرج مركز الباشا حتى اضطر إلى ترك المدينة لنقمة الناس عليه بسبب ضعفه [4] . (١١٩٣ هـ — ١٧٧٩ م) .

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق ج ٦ : ص ٧٠ .
(٢) المصدر السابق : ٦٥ — ٧٤ .
(٣) جودت : ج ٢ : ٨٩ .
(٤) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى ص ١١ — جودت ج ٢ : ص ٩٣ ، ج ٧ : ص ١٤١ .
العزاوى : تاريخ العراق ج ٦ : ٨٣ .

وقبل ذلك بوقت قصير كان الفرس قد أخلوا البصرة لأن حاكمها ذهب إلى إيران ليطالب بعرش أخيه كريم خان ، ومن ناحية أخرى أطلق منافس ثان على العرش الفارسى سراح سليمان أغا متسلم البصرة السابق ، ومنحه ولايتها فذهب إليها ليحكمها ولكنه طلب المنصب من السلطان فناله بسهولة . ثم خلت بغداد من وال بعد خروج حسن باشا منها فأرسل سليمان الالتماسات إلى السلطان (١) مطالباً بالولاية لنفسه واستعان بصديقه لاتوش Latouch المقيم البريطانى فى البصرة لتزكية طلبه فحصل على غرضه أيضاً لما له من ماض مشرف (٢) .

استهدف سليمان باشا أولا وقبل كل شىء توطيد الأمن فى البلاد ، فإيران كانت فى شغل شاغل عن أمور العراق بسبب ذلك الصراع العنيف بين المطالبين بالعرش(٣). وكان السلطان راضياً عن سليمان فوجه ضربته إلى الطامعين فى منصب الباشوية (٤) ثم زحف على جناح السرعة بخيالة الكرد على العصابات المتمردة فشتت شملها (٥) .

وورث سليمان عن أسلافه المشكلة العشائرية وواجهها فى أعنف أدوارها ، وما كان هو سبب تضخم هذه المشكلة وإنما كانت السياسات التى انتهجها أسلافه لاتضمن خضوع عشيرة ما إلا إذا كان السيف المملوكى مسلطاً عليها ، ثم جاءت فترة ضاعت خلالها هيبة الحكومة أمام انتصارات الفرس وضعف الولاة ومجونهم ، فكانت فرص التمرد للعشائر مواتية فامتنعت العشائر عن دفع الأموال المفروضة عليها .

---

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ١٠ .
(٢) سنفصل القول عن النفوذ الأجنبى فى العراق فى الفصل السادس .
(٣) جودت : ج ٢ : ٩٢ .
(٤) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ١٣ .
(٥) جودت : ج ٢ : ١١٦ .

وكان أول تمرد خطير واجهه سليمان ذلك الذى تزعمه حمد الحمود شيخ الخزاعل الذى التفت حوله عشيرته (١) . وقد عرفت ثوراتها بالعنف والخطورة ، ولكن انتصر عليه الوزير بأكراده وبصلابته ، ولقد ضرب الوزير خلال ذلك أمثلة عليا فى العلاقة بين القائد وجنده ، لحمتها التآخى وسداها الطاعة والإخلاص . ولم يعد أمام الشيخ إلا أن يطلب العفو فنال ماسأل ، ومع ذلك لم يستمر الشيخ على ولائه فزحف عليه الوزير وحاربه دون أن يثقفه لتفوق الثائر عليه باستخدامه أهوار (٢) بلاده وطبيعة تكوينها ببراعـــة مما اضطر الوزير إلى أن يبقيه فى منصبه (١١٩٩ هـ — ١٧٨٤ م) . وعاد الوزير إلى مقر حكومته ليواجه مشكلة الزعامة الشعبية الممثلة فى شيوخ العبيد من آل الشاوى وعلى رأسهم سليمان بك الشاوى .

فقد تطلع ذلك العربى الفصيح الأشم إلى مناصب الحكومة الكبرى بينما كان سليمان الكبير يعمل على إبعاد العناصر الوطنية عن الحكم ليركزه فى أيدى المماليك . ولكن القوة القبلية كانت قد اشتد جانبها ولم تخش عاقبة الثورة وأصبح للعبيد القوة التى تساند زعيمها حين يمتشق الحسام للحصول على حق العرب فى إدارة البلاد . ولاشك فى أن رفع أحمد الوضيع إلى منصب الكتخدائية الذى يتطلع إليه سليمان بك الشاوى كان كافياً لأن يدفع سليمان الشاوى إلى ثورة عاتية استمرت وقتاً طويلا (٣) . واستطاع الشاوى أن يحرز بعض الانتصارات وأن يأسر أميراً بابانياً ، وكان البابانيون حينذاك

---

(١) الخزاعل : عشيرة قوية من طى من سنبس من قحطان . بعضهم فى مصر فى سخا وبعضهم فى العراق فى غربى السماوة ومنطقة الحلة . انظر العزاوى : عشائر العراق : جـ ٢ : ٢٤٥ .

(٢) « الهور » هو البحيرة تفيض بها مياه غياض وآجام فتتسع والجمع أهوار . انظر الفيروزبادى : القاموس المحيط جـ ٢ : ١٦١ .

(٣) مختصر مطالع السعود طبعة بمبى : ١٣ — ١٧ العزاوى : جـ ٦ : ٨٤ — ٨٥ جودت جـ ٣ : ٢٣٠ .

أقوى أسرة حاكمة فى كردستان ، ولحكمة واضحة أعاده معززاً إلى وطنه(١) فهؤلاء البابانيون الأكراد اليوم عون للوالى وفى الغد ثوار عليه عتاة ، ولعل سليمان الشاوى كان يضع بذلك أساس وفاق كردى عربى ، واستمرت انتصارات الشاوى ،وكاد الوزير يسقط فى يده لولا انتصار عرب العقيل(٢) على العبيد فذهب سليمان الشاوى إلى ثوينى شيخ المنتفق ليكوّن هناك حلفاً وضع حكومة المماليك فى كفة القدر فقد تآلفت قلوب العبيد والخزاعل والمنتفق على أن يكون لهم نصيب فى حكم البلاد واعتقدوا أنه آن الأوان لأن يتولى عربى حكم العراق . ولكن الوزير خاض ضد الحلف معركة حامية كتب فيها النصر للوزير والبقاء لحكومة المماليك (٣) .

والحق أن هذا العصر كادت تنعدم فيه الثقة فلا يكاد هؤلاء الثوار يخضعون أو ينالون عفو الوالى حتى ينفجروا فى ثورات أعنف وأشد ، بل اتسع نطاق المحالفات فضمت فى بعض الأحيان عشائر عربية وكردية وحكام مدن أقوياء مثل متسلم البصرة الكردى وباشا السليمانية وثوينيا شيخ عشائر المنتفق أقوى العشائر إذ ذاك ، وقد كانت هذه الثورة أشد على الوالى من سابقتها ولم ينقذه من هذه الأزمة إلا سليمان بك الشاوى الذى كشف له النقاب عن هذه الخطة (٤) التى تجعل الوزير بين شقى الرحى(٥) .

ويتضح لنا مما سبق أن الكرد كانوا يكونون جزءاً هاماً من قوات الباشا ؛ وأنهم أيضاً خطرون على الوزير ، والواقع أن الوزير كان فى حاجة ماسة إلى القوات الكردية لأن الوزير لم يكن قد أتم بعد تدريب مماليكه

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٩٩ .

(٢) عشيرة عربية كلفت بالخدمة العسكرية تحت قيادة باشا بغداد وقد عرفت بالشجاعة .

(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ١٧ .

(٤) فضح سليمان الشاوى سر المؤامرة لكراهيته للزعماء الأكراد لأنهم كانوا سبب انتصار الوزير عليه .

(٥) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ١٨ .

بينما كان الجيش الكردى كبيراً وخيالته مدربة على المعارك ، فقذف العرب بهم .

ولا شك أن سنجقية (بابان) وهذا جيشها وهذه هى أهميتها وتقع بين دولتين متعاديتين لقادرة على أن (تلعب) بالطرفين ، وأن تكون معرضة لانقسامات ومؤامرات خطيرة ، وكذلك كانت فعلا . فكان أفراد الأسرة البابانية يعملون على كسب ثقــة كرمنشاه [1] أو بغداد وأصبحت الأخيرة تعج بعملاء المطالبين بالإمارة ، فما كان الأمير البابانى يشعر بالطمأنينة إلا إذا كان له فى كرمنشاه أو بغداد ولد ذو حظوة عظيمة فإذا أخفق فى الحصول على أهدافه من باشا بغداد فر إلى إيران ليعود إلى شهرزور على رأس جيش إيرانى كردى ، وكانت إيران مستعدة دائماً لأن تقدم القوات اللازمة . ولكى يؤدب الباشا الأمير البابانى الثائر كان يصدر الأوامر بعزله . ويعين بابانياً آخر فى مكانه [2] . وكان لقرار العزل الصادر من باشا بغداد لمتسلم بابان نفس القوة التى كانت لفرمان العزل الصادر من السلطان لوالى بغداد فسرعان ماتتفكك قوات الثائر ، وتبدأ حركات الانضمام إلى المتسلم الجديد .

أما المتسلم المعزول فإما أن يقاوم حتى إذا ماشعر بالهزيمة فرّ إلى إيران أو يطلب العفو ، وقد ينال العفو ولكن لايلبث أن يعود للتمرد .. وهكذا[3] على أن الوزير كان يراعى جانب فارس فى هذه الأمور فيعفو عن المتسلم الكردى البابانى الثائر حتى لايعرض علاقاته مع فارس إلى التوتر مع العلم بأن الوزير كان فى الوقت نفسه يعمل على عدم توحيد قوى الكرد

---

(١) قسم الشاه فتح على الدولة الإيرانية بين أولاده فكانت كرمنشاه من نصيب ابنه محمد على ميرزا .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٢ : ٨٩ وما بعدها .

(٣) هذا واضح فى تتبع تاريخ الكرد فى كتاب محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية .

تحت سلطة واحدة كردية ، ولذلك كان يبدل فى المناصب الكردية بسرعة ولأقل شبهة [1] .

ونظراً لما أبداه سليمان الكبير من نجاح فى إخضاع الثورات رأى السلطان فيه قوة قادرة على العمل خارج حدود أيالته وتوابعها . فكلفه بإخضاع ثورة الملى[2] فقام بواجبه خير قيام وعرج على اليزيدية[3] فقتل زعماءهم من مثيري الفتن فى المنطقة الشمالية من العراق . ولكن لما كلفه السلطان بأن يزحف على الدرعية أراد أن يتملص من القيام بهذه المهمة ، فإن نجاحه فى إخضاع تيمور يرجع إلى وجود قواعد تموين له فى ديار بكر وماردين ، ولأن قواته كانت تعمل فى أرض خبرتها من قبل القيادة المملوكية ، هذا بينما قتال الوهابيين فى جهات صحراوية نائية ، وعلى أرض مجهولة وفى ظروف مناخية قاسية ، وبجيش يضم عناصر متباينة ، من عرب وكرد يتبعهم جحفـــل من الدواب المثقــلة بالمؤن وبالمياه . غير مأمون العاقبة أمام قوات وهابية سريعة الحركة متقنة لعمليات الانسحاب والمناورة على أرضها لدرجة أنها تستطيع فى سهولة أن توقع الجيش المهاجم فى أزمة قد لا يجد منها فكاكاً إلا بالاستسلام .

ولما ألح السلطان على الوزير بضرورة تجريد حملة ضد الوهابيين اتجه الوزير إلى أن يرمى العرب الوهابيين بعرب العراق الذين لم يقبلوا على الدعوة الوهابية . وأغلب الظن أن ذلك بسبب ما كانت تتمتع به عشائر العراق من حكم ذاتى ، واستخدام عرب العراق يتمشى مع رأى

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ١٠٨ .

(٢) عشيرة الملية من عشائر الشام ثارت بزعامة تيمور وعجز ولاة الرقة وديار بكر عن إخضاعها حتى كلف سليمان باشا بإخضاعها .

(٣) اليزيدية عشيرة كردية تقطن منطقة سنجار الجبلية شمال غربى الموصل . وقد عرفت بغموض معتقداتها وبعدائها المستمر للحاكم وسنفصل الحديث عنها فى الفصل الثالث عند الكلام عن العشائر الكردية .

الوزير في موقفه من قتال الوهابيين ، فهؤلاء أقدر على اتباع أساليب المناورة في البيداء ومنازلة الوهابيين بوسائل أبناء الصحراء . فكلف الوزير ثوينيا بأن يجرد حملة ضخمة على الوهابيين ، فألفها وسار بها إلى الأحساء ولكنه اغتيل هناك . فتفكك جيشه وتراجع في غير نظام ، وغنم الوهابيون غنائم ضخمة دون مشقة كما غنموا فرصاً كبيرة لتوسيع نطاق هجماتهم على العراق(١) ، فأعد الوزير حملة بقيادة كيخياه علي باشا (١٢١٣هـ-١٧٩٨م) ولكنها كانت سريعة الإعداد سيئة التدبير فباءت بالفشل . واشتد ضغط الوهابيين حتى طمع آل سعود في غربي الفرات من « عانة » إلى البصرة فأراد الوزير أن يصل إلى حل عن طريق المفاوضة فأرسل عبد العزيز بك الشاوي ليفاوضهم ولكنه عاد إلى العراق داعية وهابياً (١٨٠١م)

وكأن المشكلات كانت تتجمع في ذلك العام . فقد اشتد المرض على الباشا الكبير وانتشر الطاعون في البلاد ، وظهرت على العشائر علامات القلق ، واشتد الضغط الوهابي حتى بلغ كربلاء فخربها الوهابيون . وبرغم عدم أهمية هذه الحركة من الناحية العسكرية أو الاقتصادية كان دويها مريعاً في البلاط السني والشيعي على السواء، وهوى بسمعة الباشا في البلاطين الفارسي والعثماني إلى الحضيض(٢) . وبرغم ذلك كان من الحكمة أن يرفض سليمان بلباقة مرور القوات الفارسية عبر العراق لقتال الوهابيين(٣) .

---

(١) ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا (١٨٤٨-١٩٤٨). إبراهيم باشا في بلاد العرب الدكتور عبد الحميد البطريق : ص ٣ - انظر أيضاً ، العزاوي : تاريخ العراق جـ ٦ : ١٢٢ - ١٢٣ وكذلك جودت : جـ ٦ : ١٠١ ، جـ ٦ : ٢٦ - ٢٩ - ٧ ، جودت : جـ ٧ : ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) جودت : جـ ٧ : ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) Corancez: Op cit. P. 25.

هذا ولم يتعرض كثيراً صاحب تاريخ الكويت لحملة سليمان باشا الكبير على الأحساء. انظر :
Dickson: Kuwait. London 1956 — P — 113—114

إن إلقاء نظرة سريعة على تاريخ الكفاح الطويل بين سليمان الكبير والعشائر ليدل على أن علاج المشكلة ليس فى حد السيف وإنما فى إقرار هذه العشائر ، ولذا ظلت المشكلة القبلية قائمة حتى القرن العشرين . وإذا كان السيف المملوكى قد استطاع أن يخضع العشائر يوماً ما ، فسرعان ما تنفجر فى فتنة عارمة حالما تشعر بأن السيف قد شغل بمقاومة خطر جديد .
وبرغم ذلك حكم الباشا الكبير العراق زهاء عشرين عاماً ، كانت العصر الذهبى لحكومة المماليك ، وكان هؤلاء برغم تمكنهم من حكم العراق قد ظلوا متمسكين بولائهم للسلطان فى وقت كانت تضج فيه الدولة من كثرة الثورات ، وأصبح السلطان يشعر بأن العراق صار جاراً له قوة ذات بأس تحت حكم الباشا الكبير . ولذلك استغله السلطان فى إخضاع الوهابيين وتيمور الملى ، ولكن الباشا لم يستطع أن يقضى على الحركة الوهابية للأسباب التى ذكرتها . على أن الباشا يتفوق على أسلافه بنشره الأمن فى معظم البلاد برغم تعدد الثورات ، وهو فى سبيل ذلك كان يضرب العرب بالكرد ، والكرد بالعرب والكرد بالكرد أيضاً ، وكذا العرب بالعرب ، كما قضى على الزعامات الشعبية وركز القوة والحكم فى أيدى المماليك ومن أجل ذلك هوى بالإنكشارية إلى الحضيض ؛ وأعد جيشاً مملوكياً شغل زعماؤه المناصب الإدارية والعسكرية(١) .

وبرغم ما حصل فى عهده من أخطار جسام كالطاعون والقحط كانت بغداد فى عصره قد استكملت طابعها كباشوية كبرى تدور فى فلكها باشويات العراق الأخرى الصغيرة . فالموصل ولت وجهها شطر بغداد ، فاتخذتها مرجعاً لها ، وأصبحت لها بمثابة الأخت الكبرى ، فكانت تقيها من اعتداء اليزيديين والأكراد ، ومع ما لآل الجليلى(١) من مكانة

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ١٠٨ .
(٢) الأسرة الحاكمة فى الموصل .

فى الموصل والآستانة كان رأى باشا بغداد فيمن يتولى الحكم هناك له قيمته الكبرى(١) .

وكان للباشا أثر واضح فى توجيه أمور راوندوز الداخلية(٢) ، كما أبقى الصورانيين حكاماً على كوى التابعة للبابانيين ، كما حصلت بغداد بفضله على حق تنصيب متسلم كركوك ، وأصبحت أربل وماردين ونصيبين(٣) وكفرى تابعة لبغداد(٤) . والحق إن الرجل نال بجدارة سمعة طيبة فى داخل البلاد حتى إن ذكراه العطرة كانت ترددها بغداد حتى استمع إليها هود Heude فى ١٨١٨(٥)م بعد وفاة الوزير الكبير بست عشرة سنة .

وكانت مجهوداته الجبارة فى سبيل تثبيت قدم المماليك فى العراق هى التى جعلت حكمهم يمتد حتى عهد داود الزاهر . وكان من خطته أن علأ المناصب بهم وأن يكونوا قوة ذات بأس فى العراق فاشترى أعداداً منهم وكان من بين من اشتراهم داود .

نشأة داود :

وكان داود من أسرة كرجية مسيحية فى تفليس ولد حوالى سنة

---

(١) G. A. Olivier: Voyage dans l'Empire Ottoman.Paris. 1801. Vol. IV. P. 269

(٢) راوندوز مدينة كردية بين العمادية والسليمانية ، فى شرق الموصل ، وكانت تحت حكم العصبية الصهرانية الكردية حتى وقعت فى قبضة البابانيين فى القرن الثامن عشر وسنتكلم عن العشائر الكردية فى الفصل الثالث .

(٣) Olivier: op. cit. Vol. IV. P. 249, 299 — 6

(٤) Longrigg: op cit. P. 209

(٥) Heude: op. cit. P. 148

١١٨٨هـ-١٧٧٤م[١] من أب يدعى على الأرجح بطرس[٢] ، وفى حوالى ١١٩٩هـ-١٧٨٤م جاء إلى العراق فى العاشرة تقريباً ولعل مجيئه إلى العراق كان عن طريق اختطاف بعض النخاسين[٣] له أو عن طريق الشراء المعتاد . وفى بغداد اشتراه مصطفى الربيعى بك سنة ١١٩٩هـ ثم باعه هذا إلى سليمان باشا الكبير الذى كان فى حاجة إلى تربية عدد جديد من المماليك ليعيد للمماليك سابق قوتهم فأدخله فى نظام تربية المماليك ، وتربى على ذلك النسق الذى وضع منذ أيام حسن باشا . وكان داود حسن الصورة متقد الذكاء مولعاً بالعلوم تلقى العلم على كبار علماء الزوراء ، فمهر فى الآداب العربية والتركية والفارسية وفى الرياضيات وظهر حذقه فى الأمور السياسية والإدارية[٤] وألحق بحرس سليمان الكبير[٥] .

واكتشف فيه سليمان الكبير القدرة على الإدارة وسياسة الأمور فأسند إليه منصب « الخازندار » واصطفاه وقبله خطيباً لابنته الصغرى ، فقد كان من سياسة سليمان الكبير أن يسند المناصب الكبرى لأصهاره . فكان على – زوج ابنته الكبرى – خازنداره ، فلما طمع على هذا فى منصب الكتخدائية قتل الكتخدا ورقى هو إلى المنصب وخلفه فى منصب « الخازندارية » داود أفندى وفى الوقت نفسه كان سليم زوج ابنته الثالثة

---

(١) ذكر أنستاس الكرملى أن دواد ولد سنة ١٧٧٩ م ولعل التاريخ الذى أورده أمين ابن حسن الحلوانى أدق لأن داود جاء إلى بغداد وسليمان الكبير يحاصر الحسكة سنة ١١٩٩ م وأنه تولى منصب الخازندار وهو فى السابعة والعشرين – انظر تذكرة الشعراء : ص ٥ – مختصر مطالع السعود : بمبى ٢/٣ .

(٢) اختلف فى اسم أبيه هل هو Perros أو Pesros أو Petros . انظر يعقوب سركيس : مباحث عراقية : جـ ٢ : ٢٩٥ .

(٣) الأب أنستاس مارى الكرملى : خلاصة تاريخ العراق : البصرة : ١٩١٩ ص٢٠٨ .

(٤) الأعظمى : مختصر تاريخ بغداد : بغداد سنة ١٩٢٦ ص ٢٢٢ .

(٥) Ker Porter: Travels in Georgia, Persia, Armenia and Ancient Bobylonia, London 1822 Vol. II P. 248.

يشغل منصب متسلم البصرة ، ونصيف – زوج ابنة رابعة – يشغل منصب كتخدا البوابين . ويبدو أن الباشا الكبير خشى من اندلاع الفتنة بين أصهاره عقب وفاته فجمعهم حوله على سرير المرض فى ١٨٠١م وطلب منهم أن يتكاتفوا . كما يبدو أنه أوصى بأن يكون « على » خليفته فى منصب الباشوية . وكان « على » هذا قد عرفت عنه الشدة والقسوة ، ولذلك آثر داود أن يبتعد عن مشكلات الحكم وذهب إلى البصرة حيث انهمك فى الدراسة والاطلاع على الكتب الفقهية والأدبية .

وعند ما وفد الشيخ على زين العابدين (جمل الليل) سنة ١٢٢١ھ لقى من الوزير « على باشا » كل عناية واشترى له الوزير الكتب ويسر له التفرغ للعلم والتدريس فانتهز داود الفرصة وجاور الشيخ فأجاز له « البخارى » و « فتح البـــارى على البخارى لابن حجر » وغيرهما من أمهات كتب الحديث والتشريع[1] . وظل مكباً على الاطلاع طول حكم على باشا ؛ ولا شك أن داود كان بعيد النظر عند ما آثر أن يبتعد عن المشكلات المعقدة التى تلت وفاة الباشا الكبير ، والتى انغمس فيها أصهاره . وانتظر هادئاً حتى جاءت الظروف التى وجدها مناسبة ليدخل المعترك السياسى وذلك فى عهد عبد الله باشا (١٨١٠هـ–١٨١٣م) . وفى الفترة بين وفاة الباشا الكبير سنة ١٨٠٢ وسقوط سليمان الصغير سنة ١٨١٠ على يد خالد أفندى[2] وقعت حوادث خطيرة ذات أثر كبير فى تطور تاريخ العراق وفى التمهيد لتولى داود منصب الباشوية .

على باشا الثانى :

فقد كانت وفاة الباشا الكبير إيذاناً بنشوب صراع عنيف بين المتحفزين للحصول على منصب الباشوية . وربما كان الباشا الكبير قد

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٣٤ ، ٣٥ – وقد عرف بأنه من أعلم وزراء الدولة .

(٢) مبعوث السلطان لعزل سليمان الصغير باشا – بغداد من ١٨٠٧ – ١٨١٠ م .

أوصى بأن يخلفه صهره على باشا ، أو ربما على ذلك أرغم(١) . وأياً كان الأمر فإن أعناقاً اشرأبت لتحصل على منصب الباشوية بعد أن أخفقت فى الحصول عليه فى حياة الباشا . فكان من بين المطالبين به الشاوى العربى العريق والكردى المعتز بكرديته ، وأغا الإنكشارية القادر على تدبير المؤامرات العنيفة ، ولكن الصراع انحصر أخيراً بين على باشا وأحمد (أغا الإنكشارية) الذى ادعى أن شعب العراق « أهل فتن ونفاق » (٢) ليدبر مؤامرة لإبعاد « على » عن المنصب ليحل محله سليم صهر الباشا الكبير أو ابنه سعيد وليكون هذان قنطرة يعبر عليها ليصل إلى المنصب ، ولا شك أن الأغا أدرك أيضاً قيمة وساطة الباليوز فى نيل موافقة الباب العالى على تولية سليمان الكبير على البصرة فسعى لدي المقيم البريطانى(٣) . ولكن السياسة الإنجليزية مالت إلى على باشا فرجحت كفته . ورضى عنه الباب العالى لتعهده بدفع مخلفات سلفه وبالقضاء على الوهابيين(٤) .

بدأ على باشا حكمه بالضرب على أيدى مثيرى الفتن من شيوخ القبائل العربية ومن اليزيديين(٥) . ثم التفت إلى الوهابيين ، وكانوا الخطر الحقيقى المهدد للعراق فقد ورث المشكلة الوهابية فى أدق مراحلها . فبينما كان الوهابيون يثيرون الفتن فى داخل العراق نفسه ، كان سعود يعمل على السيطرة على كل ما يقع غربى الفرات(٦) . ولما كان الإيرانيون والإنجليز ينادون بتعاون فارسى — مملوكى للقضاء على الحركة الوهابية(٧) اشتد السلطان فى ضغطه على « على باشا » ليجرد حملة على الوهابيين فلجأ على باشا

(١) جودت : جـ ٧ : ١٤١ .
(٢) المصدر السابق : ١٤٢ — ١٤٣ .
(٣) ، (٤) جودت : جـ ٧ : ١٩٩ ، ١٤٣ — ١٤٤ .
(٥) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ١٥٤ — ٦ ، ١٦٩ ، ١٧١ .
(٦) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٣٣ .
(٧) جودت : جـ ٧ : ١٤٣ .

إلى القيام بحركات عسكرية مظهرية أكدت أن العراق ليس القوة القادرة على قمع الحركة الوهابية . هذا العجز جعل عشائر العراق النازلة غربى الفرات تتعرض لقسوة الهجمات الوهابية فلم يكن أمامها سوى أن تشد رحالها إلى أرض الجزيرة العراقية حاملة معها عناصر الفوضى والاضطراب(١)

وفى داخل البلاد سرت الدعوة الوهابية إلى قلوب زعماء العبيد . ولا شك أن « علياً » قدر ما ينطوى عليه ذلك من خطر جسيم يهدد قلب العراق لما كان لعبد العزيز الشاوى ولأخيه محمد من زعامة شعبية ذات مجد أدبى وسياسى عسكرى تليد ، وأدى قتلهما إلى ثورة العبيد ثورة هوجاء(٢) اشتد أوارها بتحالفهم مع عبد الرحمن البابانى حليف إيران ، فتوترت العلاقات بين بغداد وكرمنشاه ، وخاض الباشا حرباً ضد إيران ، وذلك لأن الشاه طالبه بإعادة عبد الرحمن (باشا السليمانية) إلى منصبه وكان الوزير قد عزله ، وطالبه الشاه أيضاً بأن يدفع باشا بغداد مبلغاً ضخماً من الأموال نقداً كضمان لعبد الرحمن ، وذلك فى كتاب شديد اللهجة أثار حفيظة باشا بغداد ؛ فتسرع فى مهاجمة إيران دون أن يطلب موافقة السلطان ، ودون أن تكون لديه القوة الكافية لمثل هذه الحرب . فكانت النتيجة هزيمة عسكرية شديدة(٣) . وغضب السلطان عليه نظراً لأن نابليون كان يسعى فى ذلك الوقت إلى عقد تحالف عسكرى بين فارس وتركيا ضد روسيا العدو المشترك(٤) . وتنتهى أيام على باشا دون أن يصل إلى نتيجة مشرفة فى الميدان الفارسى أو الكردى أو الوهابى . والحق إن العراق كان بين شقى الرحى . فالوهابيون كانوا يقرعون أبواب العراق الغربية ، ولهم دعاتهم فى قلب العراق نفسه ، والإيرانيون يدقون أبوابه

---

(١) بغداد كوله من : ٢٤ سنتعرض بالتفصيل لهذه الهجرات فى الفصل الثالث .

(٢) جودت : جـ ٧ : ٢٣١ ، مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٣٠ .

(٣) جودت : جـ ٨ : ٤٣ — ٤٤ .

(٤) أحمد على الصوفى : المماليك فى العراق : ١٠١ — ١٠٢ .

الشرقية ولهم أحلافهم البابانيون فى الشمال ، والعرب فى الجنوب يؤلفون مشيخات انتهازية لا تقل سرعتها فى الولاء عن سرعتها فى التمرد ، وهى قوة خطيرة ولكن مفككة لا تستطيع أن تتغلب على قوات باشا بغداد ، وقوات الباشا تعجز عن السيطرة الكاملة عليها لما فى العراق من أهوار يصعب اجتيازها ومن صحارى شاسعة تحمى الفارين من وجه قوات الباشوية إلى حين . وعلى الرغم من هذه الأخطار كلها لم يقض على الحكومة المملوكية لأن هذه النكسة جاءت فى زمن فتوة حكم المماليك وإن كانت سبباً فى ضعفها المستمر حتى تولى داود باشا الوزارة .

سليمان الصغير :

وشاءت الأقدار أن يقتل « على باشا » فجأة سنة ١٨٠٧م فانتهز الباب العالى فرصة مقتله للقضاء على حكومة المماليك . فقد كان الباب العالى لا ينسى أن المماليك استأثروا بخيرات العراق وأنهم يهددونه بالعمل على أن يتخلصوا من نفوذه تماماً فى إحدى درر الإمبراطورية العثمانية . ولذلك أسند الباشوية إلى يوسف ضيا باشا — الصدر الأعظم السابق — فتمرد سليمان — كيخيا الباشا السابق — ، وآزره أهل الميدان(١) ذوو الكلمة المسموعة فى المدينة (٢) . وفى الوقت نفسه عمل على إرضاء الباب العالى بالأموال . وقد خدمته الظروف الدولية فى ذلك الوقت ، فقد أيقظت مدافع نابليون فى أسترلتز السلطان من سباته ، فهب لينتقم من عدوته اللدود الروسيا ، ولذلك قوى النفوذ الفرنسى فى الآستانة وجاء الوقت الذى يلعب فيه السفير الفرنسى الدور الذى لعبه السفير الإنجليزى من قبل : فزكى سباستيانى(٣) « سليمان باشا » . وخدمته أيضاً الظروف الداخلية فى الآستانة نفسها ، فقد نجحت الرجعية الإنكشارية فى قتل السلطان المصلح

(١) الميدان فى بغداد منطقة يسكن فيها علية القوم .
(٢) بغداد كوله من : ٢٢ .
(٣) كان سباستيانى سفير الإمبراطور نابليون لدى السلطان العثمانى .

« سليم الثالث » فعزل يوسف ضيا ، وخلا الطريق من هذا المنافس ورضى الباب العالى عن سليمان لما تعهد به من أموال فأسند المنصب إليه (١٨٠٨م)[١]

ورث سليمان باشا — وقد عرف بالصغير — مشكلات العراق المعتادة فحاول حلها ولكنه لم يوفق ، فقد باءت حملته على عدوه اللدود عبد الرحمن البابانى وعلى عشيرة الضفير[٢] وعلى اليزيدية بالفشل ، وفى سبيل السيطرة على الموصل أثار فيها اضطرابات دموية . واعتدى على أراض تابعة لديار بكر[٣] . ويصفه المؤرخون بالصفات والميول المتناقضة فيقول البعض إنه وهابى[٤] ، وإنه فى الوقت نفسه كان يبدى نوعاً من التشجيع لفارس[٥]. وعلى أى حال كان هذا الباشا من الباشوات المصلحين . فقد قام بإصلاحات مالية وتشريعية[٦] بغض النظر عما يسود الدولة العثمانية من قوانين وعما تعهد به السلطان من أموال . ووقف فى وجه النفوذ الإنجليزى المتزايد ، ولكنه تراجع بسبب ما يجنيه من التجارة الهندية — العراقية[٧] . ولما تولى عرش آل عثمان السلطان « محمود الثانى » الذى عرف قيمة ما تدره العراق من أموال قدر خطورة هذا الوالى (الوهابى) المثير للمشكلات مع قناصل الدولة الإنجليزية . فقرر أن يتخلص منه لا بجيش جرار ولكن بوساطة سياسى خبر أساليب المؤامرات وهو خالد أفندى[٨] . وكان خالد عدواً

---

(١) جودت : جـ ٨ : ١٧٠ .

(٢) عشيرة عربية من عنزة فرت من وجه آل سعود إلى العراق .

(٣) بغداد كوله من : ٢٥ — ٢٦ .

(٤) جودت جـ ٩ : ٢٥١ .

(٥) جودت جـ ٩ : ٢٥٦ .

(٦) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى .

(٧) سنفصل هذه الناحية فى الفصل السادس .

(٨) ابن أحد القضاه . أصله من القرم تولى عدة مناصب فى سراى السلطان وفى الباب العالى ثم اختاره الباب العالى ليكون سفيراً لدولته فى باريس بعد عقد الصلح بين فرنسا وتركيا سنة ١٨٠٢ م وبقى هناك حتى ١٨٠٧ م عندما طلبت فرنسا إبعاده من باريس . فعاد إلى الآستانة=

للفرنسيين وللسياسة الفرنسية ولذا اختير ليقضى على سليمان باشا الصغير الذى لعب الفرنسيون دوراً هاماً فى توليته . ولقد أرسل الباب العالى خالد إلى العراق لا ليقضى على سليمان الصغير فحسب، بل ليقضى أيضاً على المماليك إذا ما تمكن من ذلك .

اقتراب داود من الزعامة :

وليقوم خالد بهذه المهمة الخطيرة ، ولتكون لديه إمكانات تيسر له تدبير المؤامرات ضد سليمان الصغير منحه الباب العالى سلطات خاصة ، فاعطاه فرمانات ممهورة بتوقيع السلطان ترك فيها مكان اسم الوالى شاغراً ليملأه خالد أفندى حسبما يراه ملائماً لتحقيق الأهداف التى أرسل من أجلها إلى بغـداد . نعنى بذلك أنه منح فرماناً على بياض ، ولمـا كان عبد الرحمن (باشا السليمانية) عدواً لدوداً لسليمان الصغير وكان الموصليون يكرهون باشا بغداد نظراً لأنه كان يسعى إلى السيطرة على الموصل فإن هؤلاء كانوا الأعوان الأقوياء لخالد أفندى[1] . ولكن الانتصار على « باشا بغداد » يكون أملا بعيد المنال إذا ما ظلت العصبية المملوكية والشعب البغدادى متمسكين به . ولذلك عمل خالد على أن يجمع حوله المماليك الناقمين على الباشا . وكان لفرمان السلطان بعزل الباشا قوة عظيمة التأثير فى قلوب المماليك والشعب البغدادى ، فأخذ بعض المماليك ينضم إلى خالد ، وكان على رأس هؤلاء عبد الله أغا وداود أفندى ، وقد انضم داود إلى خالد — بعد تلك الغيبة الطويلة عن الميدان السياسى — ليجد لنفسه مكاناً فى حكومة بغداد .

= ثم أسند إليه منصب « رئيس التشريفات » السلطانية (ركاب رئيسى) ولكنه عزل من منصبه بناء على شكوى قدمت ضده من سباستيانى سنة ١٨٠٩ م فحبس لاتهامه بأنه كان على صلة بالإنجليز ثم أفرج عنه بعد سنة كاملة ليوفد إلى بغداد ولعزل سليمان الصغير . انظر : دائرة المعارف الإسلامية .

(١) جودت : جـ ٩ : ٢٣٥ — ٢٥٥ .

لقد كان اتصال داود بخالد أفندى ذا أثر خطير فى مستقبل داود . فلقد خدم داود خالداً بإخلاص ، وانتصرت الجيوش التابعة لخالد أفندى على « سليمان الصغير » ونال داود منصباً خطيراً فى الولاية على يد خالد أفندى وهو منصب الدفتردارية[1] . ولكن منح خالد المناصب الرفيعة للمماليك لا يعنى أنه تخلى عن فكرة القضاء عليهم لأنه أخذ يوقع الفتنة فى بغداد ، واستبعد المماليك من كشف المرشحين لملء منصب الباشوية وكان أمامه أحد أمرين :

ا ـ إما أن يسند المنصب إلى أقوى شخصية فى العراق فى ذلك الوقت من غير المماليك ، مثل عبد الرحمن باشا بابان .

ب ـ وإما أن يسنده إلى شخصية محبوبة من البغداديين، ولكن ليست من المماليك . مثل سعيد بك ابن الباشا الكبير الذى حظى بحب الشعب له لما كان لأبيه من أياد بيضاء على الجميع .

وكان عبد الرحمن طامعاً فعلا فى المنصب ، وفى الوقت نفسه لديه القوة التى تستطيع أن تقضى على المماليك[2] . وعرض عبد الرحمن على السلطان فعلا أن يرفع ساليانة بغداد إلى خمسة أضعافها[3] ، فى مقابل توليه حكم بغداد .

---

(١) جودت : ج ٩ : ٢٥٩ .

(٢) يقول محمد أمين زكى إن خالد هو الذى عرض الباشوية على عبد الرحمن وينقل هذا عن « رحلة ريج فى العراق » : ص ٦٧ — ٦٨ ويقول إن عبد الرحمن هو الذى رفض عروض خالد عليه لقبول باشوية بغداد . والواقع إن هذا ليس بصحيح إذ أن ريتش القنصل البريطانى فى بغداد منذ ١٨٠٨ — متحيز للبابانيين متحامل على المماليك لأمور سنبينها فى الفصل السادس . ويجب أن نأخذ كلام ريتش بعين فاحصة ناقدة . (ملاحظة : يكتب العراقيون ريتش على هذا النحو « ريج ») . راجع : تاريخ السليمانية : ١١٧ ، جودت : ج ٩ : ٢٦٠ .

(٣) كانت بغداد تدفع ألف كيس للسلطان سنوياً ومعنى هذا أن عبد الرحمن رفع قيمة الإرسالية إلى خمسة آلاف كيس . والكيس يساوى خمسة آلاف قرش أو ثلاثة آلاف محمدية والمحمدية عشر أقجات والأقجة نصف مثقال من الفضة ، لكن هذه الأسعار غير ثابتة لكثرة تغيير قيمة العملة من وقت لآخر .

انظر : عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٤ : ١٣٩ ، ج ٦ : ١٤٧.

ولكن خالد أفندى ــ وقد أحيلت إليه هذه القضية ــ نظر إليها من زاوية أخرى . فقد عرف عن البابانيين فرارهم إلى إيران كلما أرادوا الحصول على حكم السليمانية برغم معارضة بغداد ، ولم يعرف عن المماليك أنهم استنجدوا بدولة أجنبية أو جلبوا قواتها إلى أراضى السلطان ، وكان السلطان فى حاجة إلى باشا يحافظ على العراق من الخطر الفارسى والوهابى على السواء ، ولما كانت شوكة المماليك قوية وتمادوا فى التمتع بالحكم الذاتى فإن خالد عمل على استبعادهم من قائمة المرشحين للباشوية لعل فى ذلك مقدمة للتخلص من الحكم المملوكى؛ فعمل على إسناد الباشوية للصبى سعيد بك ابن سليمان باشا الكبير وفضل هذا الصبى على عبد الله الذى كان قد عين منذ وقت وجيز فى منصب القائمقامية . وهكذا كان خالد يضمر إبعاد المماليك عن الحكم . ولكنه فى هذه المرة أخطأ التقدير فإنه واجه عبد الله القائمقام الذى تؤيده القوة المملوكية والذى طالب بكل قوة بأن تكون الباشوية له . وكان خالد فى الوقت نفسه قد تخلى عنه حليفه عبد الرحمن لأن خالد أبى أن يسند إليه الباشوية ، ولذلك أخفقت محاولة خالد أفندى فى إبعاد المماليك عن الحكم واضطر إلى أن يملأ فرماناً باسم عبد الله باشا[1] (١٨١٠م) .

وأغلب الظن أن داود ــ خلال هذه الأزمة بين عبد الله وخالد ــ اتخذ موقفاً ضمن له محبة الطرفين فقد ظل فى منصب الدفتردارية ومعنى هذا أن عبد الله كان راضياً عنه ، وكذلك نجده بعد ذلك على اتصال وثيق بخالد أفندى بعد عودة الأخير إلى الآستانة[2] . ولا شك أنه لعب دوره بمهارة لأن النزاع كان أيضاً بين عبد الله وسعيد ، وسعيد صهر داود ، وابن الباشا الكبير سيد داود .

وقد أثبتت الأحداث أن داود كان مخلصاً لعبد الله وللمماليك . فقد كان

---

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٠ .

(٢) أحمد الصوفى : المماليك فى العراق : ١٤٩ .

من الطبيعي أن يصطدم عبد الله باشا بعبد الرحمن الذى خابت آماله فى تولى الباشوية فناصب عبد الله العداء ، لعله يصل بالقوة إلى هدفه . ولقد تعاون عبد الله فى سبيل تأديبه مع الإيرانيين الذين كانوا يكرهون فى عبد الرحمن عدم الانصياع لهم . ولكن سرعان ما أدرك عبد الله خطورة قيام جيش إيران بعمليات عسكرية فى أراضى العراق فأمد عبد الرحمن ضد الإيرانيين حتى انسحب هؤلاء من كردستان[1] . وبرغم أن الوزير أنقذ عبد الرحمن من أيدى الإيرانيين عاد عبد الرحمن إلى الثورة على باشا بغداد فأعد عبد الله قواته لقتاله .

قاد عبد الرحمن قواته إلى كفرى وتحصن بها وزحف عليه عبد الله بقواته المؤلفة من مماليك وكرد وعشائر عربية وكان داود يقود فرقة من فرق رماة البنادق من المماليك . وبرغم شدة نيران جيش بغداد تمكن عبد الرحمن من دحر القوات العشائرية واخترق صفوف الجيش البغدادى الذى كاد ينهزم . ولكن الوضع انقلب فى اللحظة الأخيرة . فقد ثبت الدفتردار داود أفندى على رأس القوة المملوكية التى كان يقودها والتى كانت متحصنة فى الخنادق ، وانتهز فرصة الهجوم القوى الذى شنه عبد الرحمن وأصلى قواته نيراناً حامية ، فتساقطت الرءوس بالمئات فبنى منها جند عبد الله أهراماً بينما كان عبد الرحمن يفر إلى إيران[2] (١٢٢٧هـ — ١٨١٢م) .

إن نصر كفرى هذا كان قاضياً على آمال زعماء الكرد فى المطالبة بباشوية بغداد ، ولداود الفضل الأكبر فى هذا النصر . فقد اقتصرت آمال البابانيين بعد ذلك فى العمل على الوصول إلى منصب باشوية السليمانية فقط . على أن انتصار المماليك فى موقعة كفرى كان فرصة جديدة ليعاود الشاه تدخله فى أمور العراق ، وبخاصة أن الشاه كان يؤلمه الصلح الذى عقد بين

---

(١) جودت : ٩ : ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٢) تاريخ السليمانية : ١٧٨ : ١٢٩ .

العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢١٢ — ٢١٣ خلاصة تاريخ الكرد وكردستان : ٢٤٢ — مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٣٢ ، جودت جـ ١ : ١٠٣ — ١٠٤ .

القيصر والسلطان (١٨١٢م)[١] فهاجم الحدود العراقية . وعند ما علم الباب العالى بأنباء العدوان الإيرانى أرسل سفيراً ليفاوض الإيرانيين على أساس إعادة المياه إلى مجاريها بين الدولتين . ولكن « فتح على شاه »[٢] طالب بأن يكون لإيران رأى فى حكام كردستان إذ أن العنصر الكردى مشترك بين الدولتين كما احتج على المعاملة السيئة التى يعامل بها زوار العتبات المقدسة من الإيرانيين .

وكانت الدولة مستاءة من أن عبد الرحمن كان يدفع عشرة آلاف تومان للشاه ، ولذلك توترت العلاقات بين البلدين كل التوتر[٣] . وعزم الوزير على آن يقلم أظافر عبد الرحمن البابانى الذى عاد من إيران على رأس جيش فارسى — كردى واستولى على السليمانية عنوة . ولكن عبد الله اضطر إلى قبول مطالب الشاهزاده محمد على ميرزا[٤] بإعادة عبد الرحمن إلى منصبه ودفع مبلغاً من من المال إلى الشاهزاده وما كان هذا الصلح الشائن إلا لأن عبد الله واجه خطراً شديداً فى أقصى جنوب العراق ، وهو فرار سعيد بك إلى المنتفق ، برغم أنه كان قد تعهد أمام القنصل البريطانى بالولاء للباشا وبعدم الفرار من بغداد ، إلا أن سعيداً وجد فى انشغال عبد الله بحرب الكرد فرصة للحصول على منصب الباشوية[٥] .

والحق إن فرار سعيد إلى المنتفق له مغزى عظيم الأهمية ، فلقد استعان عبد الله بالكرد فى الحصول على منصب الباشوية[٦]، وآن الأوان للعرب أن ينصبوا والياً على بغداد . ولقد كان المنتفق القوة الثانية بعد الأكراد القادرة على أن ترفع مطالباً بالباشوية إلى كرسى الحكم . وقد رحب حمود — شيخ

---

(١) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٣٠ .

(٢) شاه إيران من ١٧٩٧ م إلى ١٨٣٤ م .

(٣) جودت : ج ١٠ : ١٢١ — ١٢٢ .

(٤) هو ابن فتح على شاه حكم كرمنشاه سنة ١٨٠٥ م حتى سنة ١٨٢٣ م .

(٥) رحلة ريج فى العراق : ٢٦٢ .

(٦) رسول حاوى الكركوكلى : دوحة الوزراء : ص ٣٥١ .

المنتفق – بسعيد ، وكان هذا محبوباً لا من المنتفق فحسب ، بل كان أيضاً محبوباً من البغداديين ومن المماليك ، لما كان لأبيه من أياد على أهل العراق . ولذلك انضم المماليك إلى سعيد .

وقد انضم داود كذلك إلى سعيد ، لما كان بينهما من آصرة المصاهرة وفى انضمامه لسعيد شىء من الاعتراف بجميل سليمان باشا الكبير عليه . وقد يكون من الدوافع أنه رأى فى انضمامه لسعيد فرصة للحصول على منصب أرقى من المنصب الذى يشغله ، ذلك لأنه بقى طوال حكم عبد الله (١٨١٠–١٨١٣م) فى منصب الدفتردارية دون أن يرقى . ويبدو أن انضمام داود إلى سعيد كان من العوامل القوية التى شجعت المماليك على أن يتخلوا عن عبد الله ، فقد كان داود فى ذلك الوقت مشهوراً بأنه « مدبر وصاحب رأى سديد »(١) أضف إلى هذا أن المماليك لم يطيقوا أن يدنسوا أيديهم بدماء ابن سيدهم الذى بلغ منه الجهد والإعياء ما بلغ فى سبيل سعادتهم وتوطيد أركان حكومتهم . وبرغم الحملة البرية النهرية التى شنها عبد الله تفكك جيشه بانضمام من كان معه من المماليك إلى سعيد ووقع هو أسيراً ليقتل انتقاماً لوفاة برغش بن حمود متأثراً بطعنة أصابته خلال المعركة . وبعد ذلك سار سعيد إلى بغداد ليتربع على الكرسى الذى شغله أبوه بجدارة من قبل .

---

(١) يعقوب سركيس – مباحث عراقية : جـ ٢ : ٢٥ .

عن وثيقة كتبها مواطن بغدادى نشرها الأستاذ يعقوب سركيس فى كتابه المذكور .

الفصل الثاني

تولية داود

داود في عهد سعيد – النزاع بين سعيد ومحمود بابان – مؤامرة
عزرا – النزاع بين داود وسعيد – داود يفر إلى محمود بابان
تطور الصراع – مصرع سعيد – ثورات مبكرة ضد داود .

تولية داود

داود فى عهد سعيد باشا :

دخل سعيد بغداد فى ١٥ ربيع الأول ١٢٢٨هـ (مارس ١٨١٣م) وتولى قائمقامية بغداد حتى يأتى فرمان السلطان وكان سعيد قد أرسل التماساته إليه مشفوعة بالتماسات الأهالى (١) ، وما كان السلطان فى ذلك الوقت بقادر على أن يوجه عناية خاصة إلى العراق بسبب المشكلات الداخلية ولتطور الأحداث بسرعة فى أوربا منذ هزيمة نابليون فى الروسيا ، ولذلك اعترف السلطان بالأمر الواقع وأسند المنصب إلى الرجل الذى استولى عليه بقوة السلاح .

وكان من الطبيعى أن يقوم سعيد بتعديل فى المناصب الكبرى ، ولسنا فى حاجة إلى تفاصيل هذه التعديلات إلا فيما يخص تعيين داود أفندى فى منصب الكتخدائية ثم عزله منه بسرعة .

يقول صاحب « بغداد كوله من » إن سعيداً « كان شغوفاً باللعب واللهو . . . وتولت أمه وحاشيتها وخدامها أمر الحكومة ونصب زوج أخته الدفتردار السابق داود أفندى كيخيا ، فتولى المذكور عمله بكل مافى وسعه ولما وصل سعيد إلى بغداد عزله بلا سبب ظاهرى وأمره بالبقاء فى منزله مهجوراً دون أن يلتفت إليه » (٢) .

ويسرد لنا هذا المؤرخ قصة عزل داود بصورة تثبت أن سعيداً كان

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢١٨ .

(٢) بغداد كوله من : ٢٩ .

ضعيفاً أمام إرادة أمه التي أصرت على عزله ، وذهبت محاولاته فى الدفاع عن حسن اختيـاره داود لمنصب الكيخيـا أدراج الرياح أمام إصرار أمه التي اعتبرت داود من أعدائها منذ أيام سليمان الكبير . ولم تفهم الأم النتائج السياسية المترتبـة على عزل داود ، فقـد كان الرجل فى نظر سعيد أفضل من غيره ، وكان عزله ينفر المخلصين ويفرقهم عن الباشا . ولما كان داود صهر الباشا استغل سعيد هذه العلاقة لإقناع الأم ، وأوضح لها أن أباه الباشا الكبير لم يختر داود لابنته عبثاً ، وأن داود أخلص فى عمله لسيده واستمر مخلصاً وأنه بذلك أحق من غيره بهذا المنصب ، وله ماضيه المشرف . ومع ذلك تحطمت محاولاته أمام إصرار أمه[١] .

وهناك رواية أخرى موافقة لتلك الرواية ، فصاحب دوحة الوزراء يقول إن داود هو الذى قدم استقالته عندما وصل إلى بغـداد لما رأى الوزير أنه غير كفء لإدارة البلاد[٢]. ويخالف هذه الرواية ما كتبه أحد تجار بغداد المسيحيين فيؤكد لنا أن داود رفض قبول منصب الكتخدائية لتعدد الرياسات ولاعتماد الوزير على أشخاص مثل قاسم بك لا يخلقون سوى المشكلات[٣] . هذا بينما لايذكر صاحب مطالع السعود شيئاً عن الحادثة برغم أن جميع المؤرخين تقريباً أجمعوا على أن الباشا حدد إقامة داود أفندى .

وأغلب الظن أن داود أراد أن تكون له من السلطة ما يستطيع بها إدارة أمور البلاد فلما توزعت القيادة بين حمود الثامر وقاسم وغيرهم شعر داود بحرج مركزه وأبدى رأيه بأنه لايستطيع أن يعمل والأوضاع هكذا ، فكان أمام سعيد أحد أمرين : فإما أن يتخـلى عن داود وإما أن يهجر أصفياءه ، ووقفت الأم ضد داود فعزل . ولاشك أنها تمسكت بعزله

---

(١) المصدر السابق : ٣٠ .

(٢) دوحة الوزراء ص ٢٦٢ .

(٣) مباحث عراقية : ج ١ : ٢٥ .

لأنه القادر على أن يحد من نفوذها ، وكانت هي تقدر قوة شكيمته .

وأياً كان الأمر فقد أثبتت أحداث العراق ومشكلاته أن العراق فى حاجة إلى شخصية قوية حازمة لإدارة شئونه : فقد كان سعيد باشا قليل التجربة وكان فى يد حمود – شيخ المنتفق – كالطفل فى يد وصيه « حتى إنه منحه مافى جنوب البصرة من القرى وهو يقارب ثلث إيراد العراق. . بغير مال ولاخراج وهذا تضييع لأملاك الدولة »[1] . ثم إن سعيداً عجز هو وأصفياؤه عن إنقاذ الزوار الإيرانيين فى كربلاء[2] من بطش العشائر العربية . ولا شك أن الوزير قدر النتائج السياسية الخطيرة المترتبة على مايصيب هؤلاء الزوار من أذى ونهب فى وقت كانت فيه الدولة القاجارية تتطلع بشغف إلى العراق ، شأنها فى ذلك شأن حكومات إيران السابقة ، خصوصاً أن العلاقات العثمانية الإيرانية أصبحت تنذر بالخطر لإخفاق المفاوضات التى كانت جارية بين البلدين ولأن الباب العالى عقد الصلح مع روسيا على غير رغبة إيران سنة ١٨١٢ م ولذا كانت إيران بالمرصاد للعراق . فيكون مايصيب الزوار حجة قوية لتدخل إيرانى عنيف :

والحق إن الوزير لم يتحرك لعلاج المشكلة إلا بعد أن ساءت الأمور وضج أهل العقد والحل فى بغداد من تقاعسه عن إنقاذ الزوار ، فطالبوه باتخاذ تدابير حاسمة لإنقاذ سمعة الباشوية ولتوطيد الأمن حتى تظل سيول الزوار متدفقة على العراق . وتلفت الوزير حوله فلم يجد من بين أصفيائه من له جلد لمثل هذه المشكلات . فالتفت إلى داود وعهد إليه بقيادة الحملة الموجهة لإنقاذ المحاصرين وتأديب المتمردين ولإقالة سمعة الباشا من عثرتها[3] فأسند إليه القيادة بمنصب الدفتردارية[4] لا بمنصب الكتخدائية ، كما

---

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٤ .
(٢) كانت حرم الشاه فتح على من بين الزوار .
(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٤ .
(٤) جودت جـ ١٠ : ١٦٨ .

يقول صاحب المطالع[1] واستطاع بالسياسة والحرب أن يضطر العشائر الثائرة إلى إعلان الخضوع للوزير[2] . ويبالغ صاحب المطالع فى ذيوع صيت داود لما قام به إبان هذه الحملة الموفقة ، والواقع أنها فعلا أذاعت صيته فى إيران والعراق فنسب له النصر عن جدارة ولم ينسب للباشا كما هى العادة . وكان الأدباء والشعراء والطبقة المثقفة — ذات الصلة القوية بداود من العوامل الأساسية التى نشرت صيته فى الآفاق فلقد مدحوه بما يمدح به الملوك وبيت واحد من الشعر يكفى ليبين مدى ما كان عليه الأدباء من حرية تصوير الأمر الواقع .

أمدبراً قطر الممالك بعد ما　　　عجزت ولاة الأمور عن تدبيرها[3]

حقيقة للشعراء مبالغات ، ولكنها على أى حال ذات أثر فى الدعاية ، بل إن الأسلوب الشعرى الذى كان يخاطب به سعيد كان فى قالب النصيحة بينما كان الأسلوب الذى كان يوجه لداود فيه إشادة بقوته وعظمته ، وهذا مما يؤكد لنا أن الطبقة المثقفة كانت ترى فى الباشا سعيد قصوراً تعمل على تقويمه ، ولقد حضوه على إنقاذ سمعة البلاد وامتدحوا من أنقذها . أفلا يدفع ذلك أصحاب المناصب من أصفياء الباشا إلى أن يبغضوا داود ويخشوه فى آن واحد ، بل وأن يخشاه الباشا نفسه فلا يسند إليه منصباً أرقى من منصب الدفتردارية ، وكان منصب وكالة الكتخدائية شاغراً ولم يقع اختيار الباشا على داود لشغله وإنما اصطفى متسلم البصرة عبد الله أغا وفضله على داود الذى ظل فى منصب الدفتردارية . على أن صاحب الدوحة[4] يقول إن داود اكتفى بالدفتردارية حباً فى برودة الرأس

---

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٣ — ٤٤ .

(٢) المصدر السابق : ٤٥ وسنفصل الحديث عن علاج داود لهذه المشكلة العشائرية فى الفصل الثالث .

(٣) صالح التميمى : ٣١ (عن العزاوى : ج ٦ : ٢٢٤) .

(٤) رسول حاوى هو مؤلف دوحة الوزراء .

من الغوائل[1] . وهذا يؤكد لنا أن داود كان قد فطن إلى أن حكومة سعيد تهوى وأن الإصلاح غير ميسور ، وتمسك داود بموقفه : فإما أن يكون حراً فى العمل وإما أن يبقى فى منصبه حتى يدخر قواه لهدف أسمى .

ويبدو أن سعيداً لم يكن يعمل لصالح المماليك ، فهو ليس بمملوك ، ولم يقربهم منه ، ولم يتشبع بروحهم ، وترك الأمور فى أيد غير أمينة مثل حمادى ابن أبى عقلين[2] أو فى أيدى من جر عليه تعقيدات سياسية خطيرة مثل قاسم بك الشاوى[3] وذلك فى وقت كانت الحركات العشائرية نشطة مضطربة لانتقال بعض عشائر غربى الفرات إلى الجزيرة العراقية فراراً أمام الضغط الوهابى[4] فكان ذلك سبباً لاشتداد الصراع بين العشائر كما كان فرصة لمدبرى أمر الوزير لضرب العشائر بعضها ببعض .

النزاع بين سعيد ومحمود بابان :

وكان سعيد فى سياسته هذه يعتمد أساساً على العرب وهكذا لم يحكم سعيد بقوة المماليك وإنما بقوة العرب وبخاصة المنتفق والعبيد[5] . فكانت أيام سعيد للعرب بينما كانت أيام عبد الله للكرد ، وتبادل الفريقان شرف تنصيب الولاة . والواقع أن ميل سعيد نحو العرب وتفضيله لهم — برغم مبرراته — كان سياسة خاطئة توسع هوة الكراهية بين العرب والكرد وتزيد فى تفكك المجتمع العراقى الكبير ، خصوصاً أن الكرد سريعو الميل لإيران ، وكان بيد إيران أن تشد أزر البابانيين فى الخفاء[6] ولعل ذلك كان من

---

(١) العزاوى : جـ ٦ : ٢٢٤ عن دوحة الوزراء : ٢٦٣ .

(٢) شخص وضيع الأصل سيطر على سعيد باشا وعلى أعمال الحكومة .

(٣) كان قاسم باب العرب وشيخ العبيد . والعبيد عدوه شمر ولذلك كان سبباً فى اصطدام الوزير بشمر .

(٤) عباس العزاوى : عشائر العراق : جـ ١ : ١٣٧ — ١٤٥ ، ٢٩٦ — ٢٩٩ .

(٥) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٥ ، ٤٦ .

(٦) كانت تولية محمود باشا البابانى بعد وفاة أبيه بموافقة الأهالى ولاشك برضاء محمد على ميرزا (جودت جـ ١٠ : ص ١٢٢) .

الأسباب التي نفرت الوزير من محمود البابانى باشا السليمانية[1] فلقيت نصيحة حمادى ابن أبي عقلين لسعيد بعزله أذناً صاغية وعزل محمود عن السليمانية . وفى مثل هذه الأحوال — كما هو معتاد فى تاريخ الكرد — يستنجد الباشا الكردى المعزول بكرمنشاه وهذا ما حدث ، فقد أرسل محمد على ميرزاً إلى محمود البابانى مدداً قدر بحوالى عشرة آلاف مقاتل[2] (١٨١٥م) .

وكان من المعتاد أيضاً أن الباشا الكردى لا يكاد يستقر فى السليمانية حتى تنسج المؤامرات وتتوالى الخيانات ويكثر فرار كبار الشخصيات إلى كرمنشاه وبغداد ، فتصبح التربة مهيأة لبذر بذور المؤامرات من كل نوع ، فتقدم الأموال ، وتشترى الخدمات العسكرية ، وتصطف الجيوش ، وتشن الحرب لعزل الباشا القائم وتولية آخر لجأ إلى بغداد . وكان اللاجئ فى هذه المرة إلى بغداد عبد الله باشا المطالب بحكم السليمانية ، فهو أخو عبد الرحمن وأحق من ابن أخيه بالحكم ، ولما كان عبد الله حليف باشا بغداد عينه الباشا على السليمانية ، وجهزه لقتال محمود وطرده ، بينما أخذ محمود يعد خطط الدفاع مستغلا فى ذلك طبيعة بلاده الوعرة . واستعد الطرفان للمعركة التى يشترك فيها — بطريق غير مباشر — والى كرمنشاه . وكان لهذا الصدام بين باشا بغداد وكرمنشاه صدى سيء فى الآستانة . فالباب العالى كان يجتاز فترة حرجة من حيث علاقته بإيران التى نكبت فى حربها مع الروسيا والحانقة على الصلح التركى — الروسى فكانت الدولتان تتبادلان السفراء لتسوية الأمور ، ومن هؤلاء السفراء سليمان أفندى الذى مر بالعراق خلال أزمة عزل محمود ، ويبدو أن المبعوث السلطانى كان يرى بقاء محمود فى منصبه حتى لا تزداد الأمور تعقيداً فى مفاوضاته مع حكومة

---

(١) يقول بعض المؤرخين إن عزل محمود كان بسبب الوشاية ، ومع ما نعتقده ، من أن لسعيد نزواته فإن أعمال البابانيين كفيلة بإثارة حكام بغداد الصالح منهم والطالح . راجع العزاوى ج ٦ : ٢٣٠ ، تاريخ السليمانية : ١٣٥ .

(٢) تاريخ السيمانية : ١٣٥ .

إيران ولكن سعيداً أبى إلا أن يعزله وتسرع فى العمل - بتحريض من حمادى أبى عقلين - فكان ذلك سبباً فى إفساد الأمر على مبعوث السلطان وفى إخفاق المفاوضات، وعودة المبعوث السلطانى حانقاً على أعمال باشا بغداد[1] فكان ذلك من العوامل التى أساءت إلى سمعة الباشا فى دوائر الآستانة. ومع ذلك فإن سمعته لم تصل إلى الحضيض هناك إلا نتيجة مؤامرة محكمة دبرها اليهودى عزرا.

مؤامرة عزرا:

كان عزرا هذا شقيقاً لحزقيل أحد صرافى خالد أفندى. ولقد مرّ بنا ذلك الدور الذى لعبه خالد أفندى وانتهى بمصرع سليمان الصغير. ومنذ أن عاد خالد إلى الآستانة اختص بتدبير أمور العراق. وكان خالد واقعاً تحت النفوذ المالى لليهودى حزقيل، وهذا الأخير استغل مكانته فى العمل على تولية أخيه عزرا فى منصب صراف باشى بغداد. ولكى يحصل على هذا المنصب يجب أن يطرد سعيد باشا الصراف باشى الموجود فى ذلك الوقت، ولكن الصراف باشى كان على أوثق صلة لا بالباشا وحمادى فقط بل وبالأم أيضاً، فرفض الباشا طلب خالد. وكان لهذا الرفض أثر سيئ جديد فى الآستانة. فلقد كان لخالد نفوذ قوى - فى ذلك الوقت - فى الآستانة. وفى الوقت نفسه فكر عزرا فى طريقة يصل بها إلى غرضه. وما كان ليصل إلى هدفه إلا بعد عزل الباشا، ولذلك دبر مؤامرة تظهر الوزير بمظهر الذى يوحى بأنه رفع راية العصيان وخرج على السلطان، إذ انتهز فرصة إسناد الوزير إليه مهمة الإشراف على سك العملة النحاسية، وضرب بعضاً منها واضعاً اسم الوزير مكان طغراء السلطان. وهذا مظهر من أقوى مظاهر خلع الطاعة، ولما سمع سعيد بالأمر سارع فأمر بجمع كل ما سك من العملة على تلك الصورة، ولكن عزرا كان

---

(١) العزاوى: جـ ٦: ٢٢٩، ٢٣٠.

قد أسرع إلى إرسال بعض منها إلى الآستانة[1] ، حيث حزقيل وحيث خالد الناقم على سعيد وخير من يضيف إلى دليل الخيانة أدلة ... فقد كان خالد على اتصال بالعراق مستمر ، وكانت علاقته بداود وثيقة منذ كان خالد فى العراق ، وظلا يترا سلان وكان من الطبيعى أن يعرج داود فيما يكتب على أحوال الباشوية وما فيها من اضطراب وما يحدق بها من خطر[2]

فصدر فرمان بعزل الوزير وإبعاده إلى حلب . وأسندت قائمقامية بغداد إلى أحمد بك القبــوجى باشى ، ومنح سعيد الأمان وأرسلت صور الفرمانات إلى قاضى بغداد وإلى مفتى الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية وأئمة ووجوه بغداد فى أوائل شوال سنة ١٢٣٠ (سبتمبر ١٨١٥[3]) . وبعد ذلك بوقت قصير وقع انشقاق خطير فى بغداد كان قاضياً على سعيد باشا .

النزاع بين داود وسعيد :

فى ربيع الأول ١٢٣٠ هـ — ١٨١٦م خرج داود على الوزير ويروى لنا صاحب مختصر مطالع السعود الحادثة على أن « كثيراً من المنافقين الأعداء لمــا رأوا داود متيقظاً وينبه الوالى دائماً إلى دسائسهم داخلهم الحسد وأرادوا إتلاف داود بكل ما فى جهدهم ... وتحمل هذا الخطر العظيم شكراً لما لوالده سليمان باشا عليه من النعم ، ولما اشتد غيظ الحساد لداود أفهموا الوزير أن مقصد داود » ... قتله « ليلى ولاية بغداد بالراحة . وخصوصاً أن العساكر جميعاً فى قبضة داود[4] » . وأتوا بمن شهد عند الوزير بأن داود ينفق الذهب لمن يقطع رأس الباشا فدخل الخوف قلب الوزير ، وخشى بأس داود ، ولا شك أنه كان أعجز من أن يواجه

(١) بغداد كوله من : ٣٢ .

(٢) أحمد الصوفى : المماليك فى العراق : ١٩٢ .

(٣) جودت : جـ ١١ : ٢٢ .

(٤) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٦ .

داود بالعزل ، فدبر مؤامرة لقتل داود إما خنقا أو صبراً ، فبلغت تفاصيل المؤامرة داود ، فلم يكن أمامه إلا أن يفر إلى أحد « الجبال المحصنة إلى أن يأتيه أمر الله »(١) .

على أن الأمر لم يكن مجرد نزاع بين سعيد وداود ، فإن الأمور كانت مضطربة فى بغداد والعراق والباشا ضعيف ، والحكم فى يد فئة قليلة الدراية ، وأصحاب المناصب الكبرى من المماليك أبعدوا عنها ، وقرب الباشا إليه زعماء العرب وآخرين وبعض عامة الناس . فكان ذلك مما أثار عليه المماليك ، فاختار كبراؤهم داود ليتولى قيادة الثورة وليتولى من بعد نجاحها منصب الباشوية (٢)، ولقد كان داود مستعداً لتولى هذه الزعامة وصرخت بين جنبيه روح الثورة العنيفة لما كان يطلقه حمادى — الوضيع الأصل — من سخريات بداود(٣) .

ومن ناحية أخرى لم تكن المنافسات الشخصية ولا المحافظة على كيان المماليك فى العراق هى الأسباب الوحيدة التى دفعت داود إلى الثورة ، فلا شك أن داود شعر بالخطر الداهم الرابض على حدود العراق الشرقية ، فلقد فغرت إيران فاها لابتلاع العراق وترددت الشائعات هنا وهناك أن الشاهزادة محمد على ميرزا ينوى الاستيلاء على بغداد ليجعلها عاصمة له (٤) ، وكانت كرمنشاه تعج بالفارين من بغداد (٥) ، وهذه ظاهرة جديدة خطيرة ، فلقد كان البابانيون موصومين بهذه الظاهرة ، وهاهى ذى العدوى تنتقل إلى بغداد ، فأغا الإنكشارية يفر إلى كرمنشاه ويتخذ منها ملجأ (٦) وهذا

---

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٦ .
(٢) العزاوى : جـ ٦ : ٢٣٢ .
(٣) Huart: Op. Cit. P. 159.
J. M. Kinneir: Voyage dans L'Asie Mineure, et le Kourdistan Vol. II. P.351.
(٤) تاريخ السليمانية : ١٣٥ .
(٥) العزاوى : جـ ٦ : ٢٤٥ .
(٦) المرجع السابق .

يؤكد لنا أن النفوذ الفارسي لم يقو فقط فى كردستان بل فى بغداد نفسها أيضاً ، على أن الخطر الفارسي يمثل شطراً من الخطر الأجنبي الذى يهدد العراق ، فلقد بلغ نفوذ القنصل الإنجليزى المستر كلاوديوس . ج ريتش C.J. Rich ذروته فى عهـده ، فكلمته كانت مسموعة بغض النظر عن الديوان . وبرغم تعذر الحصول على مايثبت أن ذلك كان من داوعى ثورة داود على سعيد فقد كان موقف داود مناهضاً للسطوة التى نالها القنصل وأتباعه فى بغداد

هذا إلى أن أمور الولاية الاقتصادية (١) تثبت أن الوزير أهمل أهم مورد للخزانة وللأفراد وهو التجارة ، فالطرقات تملؤها القبائل المتمردة أو قطاع الطرق وهذا أشد خطراً على التجارة ، وحياة بغداد أساسها التجارة ولذلك لعبت الناحية الاقتصادية دوراً فى سقوط سعيد باشا .

وعلى وجه العموم كانت أمور العراق توحى بأن الزمام يفلت من بين يدى سعيد ، وأن الباب العالى يتهيأ للقضاء عليه فكانت فرصة سانحة لمن يتوسم فى نفسه الزعامة فيعلن الثورة مطالباً بالباشوية مؤيداً من الباب العالى وكان لداود خلصاء وأراد أن يخرج من بغداد وهم معه ، فتظاهر بأنه خارج للصيد وجمع خلصاءه معه — وكانوا نحو المائتين ،منهم بعض أغوات الداخل وأغوات الخارج (٢) وأحمد بك القائمقام (٣) وغيرهم من وجوه بغداد .

داود يفر إلى محمود بابان :

اختار داود طريق الشمال ، وما اختاره إلا لأنه يؤدى إلى كردستان حيث محمود المستعد لمنازلة سعيد ، ولاشك أن داود كان يقـــدر تمام

(١) انظر الفصل الثامن .

(٢) وهم أغوات خارج سراى الباشا وأغوات الداخل هم المماليك فى السراى .

(٣) لم يكن أحد يعرف فى ذلك الوقت أنه قائمقام بغداد ، فقد أخفى الفرمانات لغرض فى نفسه سيتضح لنا فيما بعد : جودت : ج ١١ : ٢٣ .

التقدير تحالف محمود معه ، ولما وصل إلى قرب كركوك كتب إلى الباب العالى يلتمس إسناد الباشـــوية إليه .وركز اهتمامه هو ومن تبعه فى إظهار مثالب سعيد من حيث أنه أسلم الحكم للعرب « أهل الظلم والغشامة » (١) .

لقى كتاب داود ترحيباً فى دوائر الآستانة (٢) فإن خالد أفندى كان يميل إليه ، وله ماض عسكرى مشرف ، وهو يكفى الدولة مئونة الدخول فى حرب ضد سعيد غير مؤكدة النتائج ، وكان داود الشخصية القوية التى تستطيع أن تخلص الدولة من الباشا الثائر ، وأن تبقى محموداً البابانى فى الحكم حتى لا تنطلق الجيوش الإيرانية فى الأراضى العراقية . وهكذا التقت مصلحة الدولة العثمانية بمصلحة محمود باشا . ولاشك أن الظروف كانت إلى جانب داود ومحمود ، فإن باشا السليمانية كان يعلم بأمر عزل سعيد قبل أن يصل هذا الأمر إلى سعيد نفسه والحرب ضد هذا الباشا المعزول المتمسك بالوزارة مشروعة . فأخـــذ محمود جانب الباب العالى ومن يعينه ولكى تطمئن القلوب إليه عرض على داود أن يقدم عليه ، وأن يعلن له الولاء وأن يكون الجيش البابانى تحت إمرته ، معلناً فى الوقت نفسه التخلى عن إيران .والحق إن هذا الأساس السياسى السليم الذى قام بين داود ومحمود يدل على فطنة الطرفين ، فالباشوات الكرد يميلون لإيران ولكن سرعان ماينفرون منها لتعصبها المذهبى ولإرهاقها الأتباع فى دفع الأموال ، والبقاء فى نطاق الدولة العثمانية خير ضمان للتمتع بذلك النوع من الحكم الذاتى وبتلك الهيبة الكبرى التى يتمتع بها السلطان العثمانى .

كان لهذا التعاون أثره الكبير بين الأوساط المثقفة فى بغداد ، وكانت فرصة للناقمين على سعيد لينضموا تحت لواء المطالب الجديد بالباشوية ومن هؤلاء خليل أغا متسلم كركوك السابق ورستم أغا متسلم البصرة السابق وسيد عليوى أغا الإنكشارى السابق (٣) وقسم كبير من الأمراء البابانيين(٤)

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٦ . هكذا كانت نظرة المماليك للعرب .
(٢) أحمد الصوفى : المماليك فى العراق : ١٤٩ .
(٣) جودت : ج ١١ : ٢٣ .
(٤) تاريخ السليمانية : ١٣٤ـ ١٣٥ .

بل إن المدن بدأت تخلع طاعتها لسعيد . فقــد كانت كركوك تعانى مرّ العناء من حرب داخلية استمرت مدة طويلة دون أن يتخذ الباشا إجراء حاسماً . ولا شك أنه كان لسوء الحكم أثره فى أن يعلن الكركوكيون ولاءهم لداود فأشعلوا نار الثورة على سعيد منذ أغسطس ١٨١٥م (رمضان ١٢٣٠) وقتلوا أغا الإنكشارية وعدداً من أتباعه ، ولما نقلت أنباء هذه الثورة إلى مسامع الباشا لم يهتم بها ، والواقع إن ثورة كركوك هذه لم تكن إلا أمرا متوقعاً نظراً لأن الشمال كان بعيداً عن متناول أيدى سعيد وربما لم يبد تأثراً ما لأن ريتش Rich كان فى حضرته فى ذلك الوقت . ولم تكن ثورة كركوك إلا مقدمة لثورات غيرها من المدن فالحلة منذ يوليو ١٨١٦م كانت فى حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب[1] ذهب داود ومن تبعه إلى الســليمانية حيث أمضى أربعين يوماً وأخــذ يتصرف كأنه باشا فعلا . فعلى رأس القوات البابانية ومن انضم إليه ، سار إلى كركوك فاستقبله متسلمها وأشرافها وأعيانها خــير استقبال ، وأجرى تعديلات فى المناصب ، فولى أحمد بك وكيل كتخدا ومحمد أغا كتخدا البوابين (قبوجى لركتخدا) ، وعين أغا الاحتشامات السابق وكيل خازندار ، ونصب عمر بك بن محمد سعيد وكيل مصرف ، وخصص لهؤلاء رواتب مناسبة . وأخذ ساعد داود يشتد ، بينما شعر غريمه بالوهن ، فالمماليك بدءوا ينفضون عنه ، ومن كان فى بغداد أخذ يفر إلى كردستان وضجر منه العثمانيون ، فأراد سعيد أن يعدل من سياسته ليحتفظ بالبقية من الأعوان . فإرضاء للمماليك عزل حمادى بن أبى عقلين وقربهم منه فعين درويش أغا أغا كتخدا أصالة[2] ونصب يحيى الميراخور خازناً فى مكان ابن أبى عقلين . وأسند منصب أمين الاصطبل إلى يوسف أغا، وعزل عمر الملى وعين عبد الله كيخيا الباب . هكذا

---

(١) Buckingham: Travels in Mesopotamia, Vol. II P. 360, 482.

(٢) أحيانا يعمد الوزير الى تعيين وكيل كتخدا فقط بدلا من تعيين كتخدا .

واجه سعيد الموقف بهذه التبديلات فى المناصب لعله يرضى البعض فينال إخلاصهم[1] .

ومن الناحية العسكرية كتب سعيد إلى حمود الثامر شيخ المنتفق يستقدمه فأتاه على رأس ألف وخمسمائه مقاتل . وكذا أتاه عبـــد الله البابانى على رأس خمسمائة مقاتل وعسكر خارج باب الإمام الأعظم[2] ، وإلى جانب هذه القوات كان الباشا يستطيع أن يعتمد على إنكشارية بغداد المكلفة بالدفاع عن المدينة ، وهذه كان يجب أن يكون تعدادها من ٢١—٢٥ ألف مقاتل ولكن لم يكن منهم من يحمل السلاح سوى عشرة آلاف مقاتل والباقى كان مدرجاً فى قوائم الإنكشارية فقط ويعمل فى الحرف المدنية وخاصة التجارة متخلين بذلك عن واجباتهم العسكرية . وكان للباشا إلى جانب ذلك قوة مؤلفة من ألفى خيال ، وتحت يده عشرة مدافع ميدان وفرقة من المشاة كحرس خاص له لايزيد عددها على ألف راجل . على أن القوة العسكرية الكبيرة العدد التى يستطيع الباشا أن يجمعها كانت من العشائر العربية النازلة بالقرب من بغداد فى مقابل تموينها أو مقابل مبالغ صغيرة نسبياً . وعلى وجه العموم كان فى استطاعة الباشا أن ينزل إلى الميدان جيشاً يتراوح بين عشرين ألف مقاتل وثلاثين ألفاً ، ومعظم هؤلاء غير مدربين وغير موثوق بجلدهم فى حومة الوغى . والإنكشارية لاتسمع منهم إلا الجعجعة فى المناقشات وفى المعركة كالنعام[3] .

هذا ما كان فى استطاعة الباشا أن يعتمد عليه من قوات جسيمة فى بغداد هزيلة عند التقييم . والأدهى أن سعيداً لم يستفد حتى من هذه القوات الاستفادة الكاملة فإن هذه القوات كانت أكثف على أى حال من قوات داود وفى حاجة إلى قيادة تستغلها بحكمة ، وداود قدر خطورتها فعمل على تفكيكها وعلى كسب أعوان جدد له .

---

(١) العزاوى: جـ ٦ : ٢٣٣

(٢) جودت : جـ ١١ : ٢٤ ، ٢٥ تاريخ السليمانية : ١٣٨ .

(٣) Heude: Op. Cit. P. 186.

تطور الصراع :

عمل داود على كسب ولاء جميع الأمراء البابانيين ، فطالب خالد بك متصرف كوى وحرير بالانضمام إليه، ولما لم تكن براءة الولاية قد وصلت إلى داود فإن خالداً أبى الانقياد له فسير داود إليــه عثمان بك — — أخا محمود البابانى . فاستطاع أن يستولى على كوى وحرير بسهولة [١] ، وهكذا نجح داود فى إحراز نصر مبدئى . ولكن هذا النصر ذاته كان فرصة لمؤامرة فوجئ بها داود ، دبرها أحمد بك ونفذها الكركوكيون : فقد طمع أحمد بك فى الباشوية وكان الباب العالى قد أصدر فرمانات عزل سعيد ونفيه وإسناد القائمقامية إلى أحمد بك . ولكن أحمد خشى على نفسه عداوة سعيد ونقمة داود فكتم أمر العزل عن سعيد وانتظر الفرصة المناسبة ليعلن نفسه قائمقاماً ويطالب بالباشوية . ولما رأى أحمد القوات التابعة لداود تكلف بمهمة فى كوى وحرير انتهز الفرصة ، وأعلن ما كتمه للكركوكيين وطالبهم بأن يكونوا تحت لوائه فهو الرجل الذى عين من قبل السلطان ، فأطاعه أهل كركوك . وألف منهم جيشاً ووضع خطة لمفاجأة قوات داود والقضاء عليها ليقضى بذلك على المطالب الأول بالباشوية . ولكن هجومه باء بالفشل وتشتتت قواته وقضى على هذه المحاولة السريعة الإعداد . فكانت نصراً آخر أحرزه داود ، ولم يتبعه بالانتقام من حلفائه القدماء الكركوكيين، فالوقت ليس وقت تأديب كركوك [٢] بل هو وقت المطالبة بالباشوية، فاكتفى بما ناله أحمد من هزيمة ليتفرغ لهدفه الأسمى [٣] ولكى يرفع من معنويات أعوانه أخذ يسند المناصب إليهم ويرفع المرتبات ثم بدأ يتحرك بقواته فوصل إلى طقمقلو حيث أتاه رد السلطان على طلبه بإسناد الولاية إليه فى يوم الجمعة أول محرم ١٢٣١هـ (نوفمبر ١٨١٦م)

(١) تاريخ السليمانية : ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) عفا داود عن الكركوكيين بعد دخوله بغداد .

(٣) جودت : جـ ١١ : ٢٤ ، ٣٥ تاريخ السليمانية : ١٣٧ .

ووصل المنشور فى ٣ من المحرم فاحتفل داود بذلك وأصبح مركزه أشد قوة وأمله أقرب إلى التحقيق[١] .

داود يهاجم بغداد :

استعد داود للزحف على بغداد ، فسار إلى « طوزخورماتو » حيث أقام نحو عشرة أيام ومنها إلى « الجديدة »[٢] ومن هناك بدأ يشن حملة دعاية واسعة النطاق ، فأرسل نسخاً من فرمان عزل سعيد وتولية داود إلى سعيد نفسه إذ كان هذا لايزال يعتقد أن فرمان عزله لم يصدر وبخاصة أن أحمد بك أخفى فرمان العزل والقائمقامية لغرض فى نفسه[٣] ، وكذلك عمل داود على أن يكون على اتصال بأهالى بغداد ليستميلهم إلى جانبه ، كما أرسل نسخاً من الفرمانات إلى حمود الثامر شيخ المنتفق ، وكذلك ليبعده عنه فيشل حركة سعيد :

وكان من الطبيعى أن يهتز كيان سعيد بعنف بوصول تلك الفرمانات وأن تكون هذه فرصة تنتهزها القوات الموجودة فى بغداد لتطالب بمرتباتها وبالمزيد وإلا انسحبت إلى الطرف الآخر ، وعلى هذه الصورة كان موقف الإنكشارية واللاوند والقلبقلية (أهل القلنسوات)[٤] .

ولذلك كان لابد من أن ينفق سعيد بسخاء ليضمن استمرار ولاء هؤلاء العسكر ، وليجمع أكبر عدد ممكن من المقاتلين ، فجمع خمسة آلاف مقاتل ليستخدمهم فى صد هجوم داود المنتظر ، أو إذا ما بدرت بوادر التمرد بين أهالى المدينة نفسها . كانت تلك ناحية من تدبيرات سعيد للدفاع عن المدينة . وأما فى الميادين الأخرى فقد وضع سعيد أيضاً بعض الخطط لمواجهة قوات داود ، ففكر فى استغلال انقلاب كركوك على داود بأن

(١) جودت جـ ١١ : ٢٦ تاريخ السليمانية : ١٣٧ .
(٢) بجوار طوزخورماتو .
(٣) جودت : جـ ١١ : ٤٧ .
(٤) فرقة من الجند المحلية .

يجمع من هناك القوات ويقطع خط الرجعة على داود ومحمود بمهاجمة كوى مفتاح السليمانية ثم الانقضاض على السليمانية نفسها . واتفق على أن يخرج خالد البابانى من كركوك ومعه سباهية كركوك لتوحيد قواته مع قوات عبد الله ليقوما بالهجوم المشترك على السليمانية فى الوقت الذى تركت فيه هذه المدينة دون دفاع قوى إذ كان محمود قد ترك فيها أخاه حسناً على رأس مائة من الخيالة ، بينما استطاع عبد الله أن يجمع ألفى مقاتل من كركوك ، وهاجم السليمانية بتلك القوات المتفوقة وحاصرها بضعة أيام دون جدوى وأخيراً انسحب إلى بغداد(١) .

على أن هذا النصر الذى أحرزه حسن فى السليمانية لم يكن ليؤثر كثيراً فى تطور الصراع بين سعيد وداود ، فالمعركة الحاسمة هى تلك التى تدور تحت أسوار بغداد ، وهى التى يستعد لها سعيد بكل إمكاناته . أما داود قد أدرك أهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه الأهالى داخل المدينة نفسها إذا ما ثاروا على سعيد ، ولذا وضع داود خطته على أساس أن ينسحب حمود الثامر من بغداد بقواته إلى الجنوب وإشعال نار الثورة فى المدينة ، وكانت وسيلته فى ذلك شن حرب اقتصادية على بغداد ، والاستيلاء على بغداد يتطلب عدة أمور أهمها .

ا : رضاء الأهالى عن الوالى الجديد .

ب : تجريد الباشا المعزول من القوة العسكرية .

جـ : الاستيلاء على القلعة المسيطرة على المدينة .

فالواقع أن اشتداد الأزمة الاقتصادية فى بغداد كثيراً ما أدى إلى ثورة الأهالى على الوالى على اعتبار أنه هو المسئول الأول عن هذه المشكلات مثلما حدث فى عهد سليمان الكبير(٢) . وتتطاير من ألسنة الناس الاتهامات المختلفة للوالى فتضطرب المدينة فى موجات من السخط والغضب تتحول

---

(١) تاريخ السليمانية : ١٣٧ ، ١٣٨ العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٣٧ — ٢٣٨

(٢) العزاوى : جـ ٦ : ٩٨ .

إلى شغب لا يهدأ إلا إذا ضرب الوالى بقوة وحزم على أيدى مثيرى الشغب ، على أن يسد — فى الوقت نفسه — الأفواه الجائعة بالغذاء الضرورى ، كما فعل الباشا الكبير . ولكن ابنه لم يكن لديه حزم أبيه وقوته ، ولم تكن لديه الأموال الكافية ليشترى بها المؤن على أنه لو وجدت الأموال فى يده لما استطاع أن يحصل على شىء نظراً للحصار الذى ضربه داود على الطرق المؤدية إلى المدينة وللاضطراب الذى عم معظم أجزاء البلاد ، فأصبح سعيد بذلك فى موقف حرج أشد عليه من خوض معركة ، وما كان داود ليمنحه فرصة خوض معركة حاسمة ، وإنما كان يجرى اشتباكات على نطاق محدود ، فذهب داود إلى قره بولاق حيث تصبح خطوط تموينه مضمونة وقصيرة[1] . خصوصاً بعد أن هزمت قوات تابعة لسعيد طلائع جيش داود ، وكان من الطبيعى أن يردد أتباع سعيد أن جيش داود انكسر وتشتت أشنع تشتيت ، نعم لقد اعترف أحد رجال داود أن داود كان قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى الأسر ، ولكن كانت المعركة على نطاق ضيق ، فنتائجها لم يستثمرها أتباع سعيد فى فك ذلك الحصار الاقتصادى المضروب على المدينة ، وإنما استغلوها فقط فى الدعاية والتشهير[2] وأصبح على سعيد أن يجد حلا للمشكلة الاقتصادية التى تفاقمت فى المدينة وأن يواجه تكاليف القوات المعسكرة فى المدينة ، وكانت كثيرة العدد من منتفق وعبيد ودليم وعقيل ، وأن يواجه نتائج اعتداءات هذه القوات على الأهالى فى سبيل الحصول على الأرزاق . واشتد الأمر على سعيد حتى إن المصروفات اليومية لسعيد بلغت أكثر من ألفى قرش ، حيث بلغت القوات فى المدينة عشرة آلاف مقاتل ، فأصبحت الأقوات عزيزة ، والإدارة عسيرة ولم يستطع أن يمنع العثمانيين من الفرار من المدينة إلى داود[3] ولا أن يخفف

---

(١) العزاوى : جـ ٦ : ٢٣٨ .

(٢) Heude: Op. Cit, P. 164

(٣) جودت : جـ ١١ : ٢٦ العزاوى : جـ ٦ : ٢٣٨ .

من ثقل وطأة عرب المنتفق على أهالى بغداد ، وفرغت خزانته ، فلجأ إلى الاقـ اض من تجار المدينة ؛ فجمع بذلك خمسة وعشرين ألف قرش ، ليدفع رواتب جنده ، وليحتفل برمضان ١٢٣١ هـ — ١٨١٧ م.. وكان هـذا من الأسباب التى زادت من ثورة النفوس عليه لأن الإعانات القهرية التى تفرض على التجار كانت نادرة الحدوث فى بغداد .

فإن الباشا إذا أراد فرض إعانة قهرية فإنه يفرضها على الموظفين دون التجار لأن هؤلاء كانوا عصب الحياة الاقتصادية فى العراق وإن فى إرهاقهم زعزعة الباشا . أضف إلى هذا أن سعيداً لجأ إلى القسوة والاغتصاب ليجمع الأموال ، وهو الذى كان محبوباً لسخائه وكرمه فلامه الأهالى على أعماله هذه ، وفقد المميزات التى كانت سبباً فى محبة الشعب له ففقد ولاءهم له (١) .

ولم يجد سعيد من حل للأزمة سوى أن يخفف من نفقاته الباهظة ، ومعنى هذا التخفيف التخلص من عدد من القوات المرابطة ببغداد ، ولعله اعتقد فعلا أن الهزيمة التى منيت بها طلائع جيش داود كانت قاضية على آمال داود ، وأن بغداد أصبحت آمنة وفى غير حاجة إلى جيش حمود الثامر فرخص له سعيد بالعودة إلى مواطنه (٢) ويبدو أن حموداً كان يرغب فى ترك المدينة بعدأن نصح سعيداً بإطاعة أوامر السلطان ولكن رفض سعيد هذه النصيحة(٣) .

وبعد انسحاب حمود اشتعلت فى المدينة روح العداء للباشا المعزول وهو فى الوقت نفسه يعمد إلى عزل الموظفين وتبديلهم لعله يقع على رجل يستطيع أن ينقذ الموقف . وما كثرة التبديلات إلا دليلا على عدم الاستقرار ولعل أبرز دليل على أن أمور سعيد كانت فى انهيار سريع أن درويش محمد أغا اغتبط كل الاغتباط بعزله من منصب الكتخدائية بينما أسف

(١) Heude: Op. Cit. P. 164

(٢) العزاوى : جـ ٦ : ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق : عن مطالع السعود : ١٧٥ .

خليفته عبد الله كل الأسف على ترقيته إلى هذا المنصب[1] ، ومع ما كان لعبد الله هذا من شهرة ومقدرة إدارية ، فقد كره أن يتولى منصباً أسند إليه فى مثل هذه الظروف[2]

مضت عدة أيام على تلك التبديلات ، والوقت فى صالح داود . فقد كانت الهمسات من وراء الأسوار تردد أن قوة داود فى تزايد ، وأنه عن قريب يصل بقواته إلى بغداد . هذا بينما ظهر ضعف سعيد واضحاً من موقفه من خروج كبار العثمانيين من المدينة لينضموا إلى داود ، وعجزه عن التصدى لبعض هؤلاء ، فعندما حاول أن يمنع أحد هؤلاء من الخروج من المدينة تحصن وأعلن انضمامه لحزب داود فى المدينة[1] ذلك الحزب الذى أصبح قوياً وكان قد اتخذ من حى «الشيخ» — أهم أحياء بغداد — معقلا وبدأت حرب الشوارع فى المدينة ، ولكن سعيداً رفض أن يضرب «الحى» بالمدفعية ويعلل هود Heude ذلك بأن الوزير أشفق على الحى وأهله من شر الحروب ولو قد أطلق بعض مدافعه عليه لربما قضى على الفتنة فى مهدها ولم يفعل الوزير شيئاً من ذلك ، بل أرسل قوة من العقيل للقبض على زعماء الثورة ، وهؤلاء العقيليون لم يكونوا مدربين على مثل هذا النوع من قتال الشوارع فأخفقوا فى أداء مهمتهم لأن الوقت كان قد فات إذ كانت قوات داود تقترب رويداً رويداً من المدينة ولم تكن أسوار المدينة على تلك الحصانة التى كانت عليها عند ابتداء القتال بين سعيد وداود ، وذلك لأن سعيداً بعد تراجع داود إلى قره بولاق أمر بهدم أجزاء منها ، وهكذا أصبح سعيد يقترب من نهايته حتى إن أولئك الذين كانوا قد لجئوا إلى المقيمية البريطانية لتحميهم من بطش سعيد بهم تشجعوا واعتزموا امتشاق الحسام بينما المدينة كانت فى حالة من الفوضى العارمة لا تكاد تستبين خلالها المدافع من المهاجم . فالمنازل والأسواق مغلقة ، وبين الفينة والفينة ينطلق

(١) العزاوى : ج ٦ : ٢٣٩ .

(٢) Heude: Op. Cit. P. 114.

(٣) Heude: Op. Cit. PI 174 ، جودت : ج ١١ : ٢٦ .

مدفع فتنخلع له القلوب ، وتنطلق جماعة مسلحة فى سرعة إلى ميدان معركة وروح الانتقام تغلى فى صدور رجالها ، وأخرى تعود مخذولة منكوبة وأهازيج العقيل تدوى فى المدينة فى أثناء تقدمهم للقتال ، وقواد سعيد يذهبون إلى معركة غير متكافئة ووجوههم متقدة غيظاً أو يعودون من القتال متخاذلين مع بقية من المخلصين(١) .

وخلال هذا الكفاح جرح حمادى بن أبى عقلين وكأن إصابته كانت الإنذار النهائى الذى تلقاه سعيد بأن حياته فى المدينة أصبحت فى خطر ولم يعد أمامه سوى الفرار إلى القلعة فتحصن بها هو ومن معه من العقيليين . وحينئذ اجتمع أغوات الداخل مع الأعيان والندماء والعلماء وصنوف العسكر فاتفقوا على طاعة الوزير داود ونصبوا موسى أغا قائمقاماً ثم كتبوا التماساً أرسلوه إلى الوزير وكان فى قره بولاق . وعلى هذا نهض بموكب فخم إلى بغداد فوصل يوم الجمعة ٥ ربيع الآخر ١٢٣٢هـ فتوقف خارج الباب الشرقى ، ومن ثمّ استقبله الأعيان والعلماء ، فدخلها مساء فى ساعة حددها له المنجمون ....بابتهاج من الأهلين .. فتعالت الأصوات من كل صوب بخير مقدم مرحباً(٢) .

على أن الأمر لم يكن قد استتب تماماً لداود ، فإن سعيداً تحصن بالقلعة ومعه ٤٠٠ من العقيليين ، وكان لهؤلاء العقيليين جلد شديد للحرب فخشى المماليك — وقد تخلوا عن سعيد — انضمام العقيليين على الجانب الآخر من دجلة إلى الباشا المعزول فى القلعة . فدمروا الجسر القائم على النهر وكانت القوة التى لدى سعيد فى القلعة والموالية له فى الخارج تستطيع أن تقوم بمقاومة ذات شأن والقلعة مسيطرة بمدفعيتها على المدينة وهى مشحونة بالبنادق والذخائر ولكن المؤن كانت قليلة بها . وكان على داود أن يخضع القلعة ليستتب له الأمر ولكنه لم يعمد إلى القوة وإنما عمد إلى السياسة فعمل على استمالة جند العقيل وظل وراءهم حتى أقنعهم بأمانه لهم .

(١) Heude: Op. Cit. P. 164 — 166

(٢) جودت : جـ ١١ : ٢٧ ، العزاوى : جـ ٦ : ص ٢٤٠ .

واضطر إلى أن يوافق على خروجهم من بغداد بأسلحتهم (٢٤ فبراير ١٨١٧م) وفى الليلة نفسها دبر سيد عليوى مصرع سعيد[١] :

مصرع سعيد :

وفى اليوم نفسه الذى دخل فيه داود باشا المدينة باحتفال مهيب اجتمعت بعض الخادمات والأتباع ومن أشرف على تربية سعيد ، ووقفوا جميعاً مع النساء اللاتى وقفن يشهدن الموكب على جانبى الطريق ، وعندما اقترب ركب الوزير منهن انطلقت من حناجرهن صيحات مدوية تشق النفوس مبتهلات إلى السيد الجديد متضرعات بما بينه وبين صهره من صلة نسب قوية سائلات الرحمة بشباب سعيد الغض ليعفو الوزير عما ارتكبه ، وكان لهذه التوسلات أثرها فى قلوب النظارة فقط ، أما قلوب الحكام فلم تتأثر ، وما كان هذا العويل لينقذ سعيداً من بين يدى سيد عليوى أغا الإنكشارية الجديد وعدو سعيد اللدود والذى كان قد تلقى أمر إعدام سعيد منذ بضعة أيام .

فذهب سيد عليوى بعد غروب الشمس إلى الجناح الذى فيه سعيد مع أمه ، ثم طرق الباب طرقاً خفيفاً وكان سعيد فى ذلك الوقت نائما تضفى عليه أمه كل ماعندها من حنو وإشفاق وكانت تنطلق من بين جنبه تنهدات عميقة تعكس ما يضطرب فى صدره من صراع وخوف شديدين فلما قرعت أذنه طرقات سيد عليوى ذعر أعنف ذعر لشعوره أن جلاديه على الأبواب . وسألت إحدى الخادمات عمن يكون الطارق فكذب عليها سيد عليوى إذ أخبرها بأنه إنما أتى بأخبار سارة ثم اندفع أربعة أو خمسة رجال أشداء دفعة واحدة وانطلقوا نحو سعيد وفى غضون تلك المحاورة كانت الأم تطمئن ابنها إلى أن داود لن يقـــدم على قتله . فهو كان عبداً لأبيه اشتراه بدراهمه وكان موضع إكرامه وفضله ولكن قلب سعيد الواجف

---

(١) Heude: Op. Cit. P. 168

ماكان ليؤمن بهذا القول . وقال لأمه إنه يعرف من أى نوع يكون ذلك الحاسد الخائن . وسرعان ما انقض الرجال الأشداء عليه وانتزعوه من بين يدى أمه وقطعوا رأسه ثم غطوا الجثة بحصيرة قديمة بينما أمه قد أذهلتها المفاجأة ، وفجأة اصطدمت قدمها بالحصيرة فرمت نفسها على جثة ابنها بلا رأس فكانت خاتمة الصدمات .

قصة مؤثرة رواها لنا صاحب «بغداد كوله من» ابن كيخية داود . وهو يرى أن ماأصاب سعيداً كان خارجاً عن إرادة داود ، وإنما كان نتيجة حتمية لأسباب مختلفة . ولكنه يلوم داود على قتل سعيد، وأن هذا القتل كان بعلمه، وكان عليه أن يقف من ابن سلفه موقف المدافع عنه . ولكنه لم يفعل ويأسف كل الأسف لأن عقلية كعقلية داود لم تنتبه لهذه الدوافع السامية ، ولم تتغلب عليه لذة العفو ، فانتزع ابن رب نعمته من بين ذراعى أمه وسجل اسم هذا التعس فى صفحات التاريخ الخالدة[1] .

ويؤيد هود Heude «صاحب بغداد كوله» من حيث مسئولية داود فى مقتل سعيد[2] وعلى هذا الوتر يضرب ريتش[3] على أن صاحب دوحة الوزراء يقول إن محمد أغا معتمد خالد أفندى هو الذى قتل سعيداً[4] ويؤيده فيما يقول صاحب مطالع السعود ويضيف إلى ذلك «أن الوزير نفذ أوامر الدولة بقتل من أمروا بقتله فمن قتل بعد استيلاء داود باشا «سعيد باشا» الوزير السابق وكان قتله على غير مراد الوزير داود باشا»[5] ولكن كيف يستقيم هذا مع اعتراف سيد عليوى بنفسه لهود Heude بأنه قتل سعيداً قبل أن ترد أوامر إعدامه[6] وأغلب الظن أن

(١) بغداد كوله من : ٣٤ — ٣٦ .

(٢) Heude: Op. Cit. P. 172

(٣) Constance Alexander: Bagdad Bygone Days, London, 1928.

(٤) العزاوى : ج ٦ : ٢٤١ وانظر دوحة الوزراء : ٢٧٦ .

(٥) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٧ .

(٦) Heude: Op. Cit. P. 173 — 174.

سعيداً قتل قبل الوقت الذى حدد لقتله . فلقد أنقذ الوزير الجديد رجالا غيره من الإعدام ، ونفذ حكم الإعدام فى آخرين ، ومعنى هذا أنه كان قادراً على أن يوقف التنفيذ ، ولكنه لم يفعل إما لأن سيد عليوى أسرع إلى إنهاء حياة سعيد ، وإما لأن داود غض الطرف عما كان يدبر لسعيد فربما عاد وأصبح خطراً عليه فى المستقبل ، على أن الأمر المتفق عليه أن داود لم يتدخل لإنقاذ صهره .

ولا شك أن عزل داود من منصب الكتخدائية فى مطلع حكم سعيد كان من أسباب ابتعاد المخلصين عن سعيد ، فوقعت أمور البلاد بين أيدى قادة غير مجربين ، ولما كانت جيوش المنتفق هى التى مهدت له الوصول إلى الباشوية فقد منح شيخ المنتفق إعفاءات واسعة وانصرف هو إلى اللهو واللعب حتى بدا للناس أن عهد الأمين قد عاد إلى بغداد . فقد كانت نفقاته باهظة وإنعاماته وهداياه كثيرة ، واشتهر عنه هذا الكرم العظيم وأحبه الناس لذلك ولم يكن حبهم له لقدرته على إدارة أمور البلاد . ومهما بلغ الحاكم من كرم فإن كرمه لا يمكن أن يسد حاجة الطامعين ، وما كان ليكفيه شر الأزمات السياسية التى تتعرض لها البلاد والتى تحتاج إلى عقلية فطنة سياسية إلى جانب المال والجند . ولذلك لما واجه مشكلة الزوار الإيرانيين لم يجد سوى داود ليكلفه بإنقاذ سمعة البلاد . ولما خرج عليه داود ونفد ما فى خزينته أصبح طالباً للأموال بدلا من منفقها . فكرهه الناس وسلقوه بألسنة حداد . وألقوا عليه مسئولية ما حدث للعراق من كوارث وفارقه من كان يدين له بالنعم والرفاهية[1] .

ولقد ساعدت حياته الشخصية على تدميره ، فإن شخصاً عرف عنه الانهماك فى الملذات لا شك يتهم بقصور النظر وإهمال الرعية ، فقد كان عبد الله باشا (١٧٧٦–١٧٧٨م) زير نساء ومن أفسق باشوات العراق[2]

---

(١) Ibid, 170.

(٢) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٧ .

ولكنه تمكن — بعقليته السياسية — من أن يبقى فى دست الحكم حتى توفاه الله ، ولذلك فليست المسألة مسألة أخلاق فقط ، وإنما هى أيضاً تدبير أمور الدولة أولا وقبل كل شىء .

ولعبت ظروف العراق دوراً كبيراً فى نهايته التعسة ، فقد كانت أمور العراق تدار فى ذلك الوقت من الآستانة بيد خالد أفندى . وكان نفوذ اليهود قوياً عليه . وكان نجم خالد فى تألق فكانت إهانة سعيد لخالد برفض رغباته خطأ سياسياً وقع فيه سعيد وكانت سبباً فى انهياره . وكانت سياسة خالد أفندى ترمى إلى إبقاء المماليك فى حكم بغداد على أن يحافظوا على العراق فى نطاق الدولة العثمانية وأن يدفعوا للباب العالى الأموال المقررة ، وأن يكسب باشا بغداد تأييد الباب العالى بالهدايا والأموال . ولم يكن سعيد قد كسب أحداً من رجال الباب العالى ، ولذلك لم يكن هناك من يدافع عنه ؛ بل كان هناك من يضيف إلى الاتهام اتهامات .

وكانت أمور العراق تقضى بأن يتولى أمر بغداد حاكم قوى قادر على رد عدوان الفرس المنتظر ، فلقد أفسد سعيد محاولة مبعوث السلطان لتصفية العلاقات بين طهران والآستانة ، وهو فى الوقت نفسه أضعف من أن يقاوم هجوماً فارسياً . وأخيراً كانت سياسة سعيد إزاء المماليك سلسلة من الأخطاء فلقد أبعدهم عن الحكم ، فكانوا عوناً قوياً لداود ضده ، وكان ميله للعرب من العوامل التى أحفظت قلوب الكرد عليه .

ولما كانت قوات المنتفق هى القوة الأساسية التى اعتمد عليها فإنها بعد انسحابها تركت فراغاً لم يستطع سعيد أن يشغله مطلقاً ، ثم ضرب هو نفسه آخر معول فى حكمه بأن أثار على نفسه أهل بغداد لقسوته فى جمع الأموال وفشله فى تموين المدينة .

على أن حركة الإعدام لم تقف عند حد مصرع سعيد . فقد كان فرمان السلطان يقضى بإعدام كل من حمادى بن أبى عقلين — ساعد سعيد الأيمن — وعبد الله أغا ودرويش أغا من كيخيات سعيد ونعمان الباجه‌جى

من كبار تجار بغداد وعمر أغا الملى ، وقاسم الشاوى ومحمد سعيد الدفترى .

كان حمادى قد أصيب واستسلم ، وكان داود ناقماً عليه ، وكان فى الوقت نفسه فى حاجة إلى الأموال ، لذلك أراد أن يحصل منه على أمواله وما خبأه من أموال الحكومة . ولكنه أبى ورفض أن يدلى بأى شىء إما لأنه فقد كل شىء ، أو لأنه كان حريصاً على ألا تقع أمواله فى يد خصمه . وأغلب الظن أنه فقد أمواله خلال المعركة . ولقد اشتد تعذيب رجال داود له ، وعبثاً حاولوا أن يستخلصوا منه شيئاً حتى مات[1] .

على أن داود لم يكن مسرفاً فى تنفيذ أوامر الإعدام ، بل كان ينظر إلى ماضى المحكوم عليه أولا ويقدر النتائج المترتبة على إعدامه وأثر ذلك على الرأى العام وعلاقته بمصالح الولاية وشئون الحكم . ولذلك طلب من السلطان أن يعفو عن نعمان الباجه جى حتى لا تسوء العلاقات بين الحكومة والتجار عصب الحياة فى بغداد .

كما طلب العفو عن كل من درويش أغا وعبد الله أغا ، فقد كان الأول لاجئاً إلى المقيمية البريطانية خوفاً من بطش سعيد بعد عزله من منصب الكتخدائية ، وكان الثانى قد أرغم على أن يتولى منصب الكتخدائية فلا حاجة إذن لإعدامهما . فنالا عفو السلطان أيضاً . أما عمر أغا ومحمد سعيد الدفترى ، وأحد العلماء ، فقد أعدموا لأنهم وقفوا إلى جانب سعيد باشا حتى النهاية[2] .

ثورات مبكرة ضد داود :

أما قاسم الشاوى سليل تلك الأسرة العربية العريقة التى كان من رجالها من طالب بالحكم ومن قام بالسفارات بين بغداد وكرمنشاه ونجد ، فقد فر إلى الخزاعل[3] وظل ثائراً على الوزير ويؤيد الخارجين عليه .

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٢) جودت : جـ ١١ : ٢٨ ، ٢٩ .
(٣) جودت جـ ١١ : ٣١ . انظر الفصل الثالث .

وأبى إلا أن يكون له ذلك النفوذ القوى الذى تمتع به فى عهد سعيد [1] ، وأن يشترك العرب فى الحكم وهذا ما كان أيام سعيد ، ولكن داود كان يرى فى اشتراك العرب فى الحكم مضيعة للعراق ، وقضاء على وحدة البلاد لما بين العشائر العربية من ضغائن لا تهدأ ولأن العرب لا يحذقون أساليب الحكم وطرقه[2] .

لقد كان الصراع بين داود وقاسم صراعاً بين فكرتين ويتمثل فى هذا الصراع روح العصبية العربية ذات الآمال التى تسمو فوق التخلص من ضريبة أو تكليف ، هذا من جانب قاسم ، كما يتمثل فيه النظرة السياسية البعيدة الهادفة إلى توحيد البلاد تحت يد واحدة وعقلية واحدة دربت على أصول السياسة وفنون الحرب . وهذا من جانب داود باشا . وهو فى الوقت نفسه صراع بين العصبية المملوكية – التى يبغضها العرب – والعصبية العربية .

ولم يكن أمام داود سوى أن يستخدم الأساليب التقليدية القديمة للقضاء على قاسم . فأسند مشيخة العبيد إلى عبد الله بك الشاوى[3] وبذلك حرمه من تأييد عشيرة العبيد القوية . وهى عشيرته . كما أن داود بذلك كان يضرب العبيد بالعبيـــد . ومع ذلك انتعشت آمال قاسم الشاوى عندما اندلعت الحرب بين داود ومحمود باشا السليمانية وعند ما تطورت هذه الحرب سنة ١٨١٨م إلى حرب مع إيران استمرت من ١٨١٨ إلى ١٨٢٣م . وكانت الفرصة قد اتسعت أمام قاسم عند ما فر صادق بك – أخو سعيد باشا الوالى السابق ، منتهزاً فرصة تلك الحرب – إلى شفلح الشلال شيخ زبيد . فأسرع قاسم إلى الانضمام إلى صادق .

وكان هدف صادق من وراء ذلك الوصول إلى منصب الباشوية .

(١) مباحث عراقية : ج ١ ٢٥ وكان يشغل منصب باب العرب فى عهد سعيد .

(٢) مختصر مطالع السعود .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق ج ٦ : ٢٤٦ .

ولا شك أن فرار صادق بك — وهو الذى كان من أصفياء داود باشا — يدل دلالة واضحة على أن العصر كان عصراً مليئاً بالشكوك والمؤامرات والخيانات دون مراعاة للمصلحة العامة . وكان الأجدر بصادق — وهو الذى عاش فى بغداد ومرت به أزمات مشـابهة لتلك — ألا يقحم نفسه فى مشكلة المطالبة بحكم العراق هكذا بسرعة ولم يكد صهره يستقر فيه بعد ، ولكنها المصلحة الشخصية . والمثل قد ضربه داود من قبل فى استغلال أزمة خارجية للمطالبة بالحكم . والعصر هو الذى أملى هذه الظروف على كل من داود وصادق ، والفرق بين الاثنين أن الأول تفادى الخطر الإيرانى فى الخطوة الأولى ليتولى الحكم على أساس سليم فقد تحالف داود مع محمود البابانى بعـد أن تخلى الأخير عن حلفائه الإيرانيين [١] . بينما حركة صادق كانت مجرد التجاء إلى عشيرة عربية ليسير على رأسها إلى سراى بغداد دون أن يتخذ أى موقف إيجابى من الخطر الإيرانى . وعلى أى حال فقد انتصرت قوات داود على قاسم وصادق وحلفائهما من الخزاعل وزبيد ولكنهما فرا إلى عفك وجليحة[٢] فهزمتهما قوات الوزير هناك أيضاً ففر صادق إلى قبيلة كعب[٣] ، وهى قبيلة شيعية ممالئة لإيران حينذاك . وبذلك يتضح أنه كان فى ثورته على الوزير بعيداً عن التفكير فى المصلحة العامة للبلاد ، وبعد أن فقد الأمل فى أن يصل إلى غرضه آثر أن يطلب من الوزير العفو فناله وعاش هادئاً معززاً فى بغداد حتى جاءت أزمة على رضا وهجومه على بغداد فى ١٨٣١م فعاد إلى المسرح السياسى .

أما قاسم فقد فر فى اتجاه الشمال وسار نحو العشائر اليزيدية فى جبل سـنجار[٤] ، ولكن الوزير انتصر على اليزيديين وعلى قاسم[٥] . وعلى

---

(١) جودت : ١١ : ٣٠ . (٢) من عشائر المنتفق .
(٣) جودت : ١١ : ٣٢ .
(٤) سنتكلم عن العشائر اليزيدية فى الفصل الثالث .
(٥) العزاوى : تاريخ العراق : ج٦ : ٢٦٢ .

أى حال انتهت محاولات قاسم بالفشل ، ولم يستطع أن يحقق الهدف الذى كان يسعى إليه زعماء العبيد من آل الشاوى منذ أيام سليمان الكبير (١٧٨٠–١٨٠٢م) وبقى بذلك الحكم خالصاً للمماليك .

ومع ذلك كانت الثورات من أجل الحكم والمناصب العليا لا تهدأ ولم تكن مقصورة على قاسم وصادق ، بل قام الثوار أيضاً من داخل الجهاز الحكومى المملوكى نفسه ، ذلك الجهاز الذى كان داود يعتمد عليه ويسعى إلى تقويته . وكانت أخطر المؤامرات والثورات التى دبرت ضد داود تلك التى دبرها سيد عليوى سنة ١٨١٨م وثورة محمد أغا كيخيا داود حتى سنة ١٢٣٦هـ (١٨٢٠م) .

كان بطل المؤامرات الأولى سيد عليوى أغا الإنكشارية ، وكان يشغل المنصب نفسه فى عهد سعيد باشا[١] . ولكن سيد عليوى كان واسع الآمال وفى الوقت نفسه كان سليط اللسان فاستاء منه سعيد باشا واشتد غضبه عليه حتى عزم على قتله . فلجأ سيد عليوى إلى القنصل الإنجليزى ريتش Rich ، وحصل على تخفيف حكم الإعدام إلى السجن فى الوكالة الإنجليزية فى البصرة[٢] . ثم أطلق سراحه بعد ذلك ، ورحل من البصرة إلى بوشهر ، ومنها ذهب إلى كرمنشاه ثم إلى السليمانية عندما علم بثورة داود على سعيد ، وتولى قيادة قوات داود . وكان سيد عليوى يرغب كل الرغبة فى أن يشمت فى سعيد ، وقد جاء اليوم الذى انتظره فقتله على أبشع صورة بين يدى أمه[٣] ، ويبدو أن الرجل كانت أطماعه واسعة ولكنها كانت تقوم على الرمال ، فلا شك أن سيد عليوى وقد أعاده داود إلى منصبه تطلع إلى الوزارة ورأى أن القوة التى يستطيع أن يعتمد عليها هى كرمنشاه على اعتبار أنها أصبحت القوة ذات البأس الأعظم والمهددة باحتلال العراق ولا شك أنه لقى إكراماً من حكومة كرمنشاه

(١) انظر الفصل الثانى : ص ٥٤ .
(٢) يعقوب سركيس : مباحث عراقية : جـ ١ : ١٧ – ١٨ .
(٣) انظر ص ٧٧ – ٧٨ من هذا الكتاب .

خلال بقائه هناك ، ولذلك ظلت علاقاته بالشاهزاده محمد على ميرزا قوية ، وأصبح عين الشاهزاده فى حكومة داود ، وكان هذا الاتصال يعنى خيانة عظمى فى نظر داود الذى كان قد قر رأيه على التخلص من النفوذ الإيرانى منذ أن سعى إلى تولى الحكم ولذلك كان إعدام سيد عليوى أمراً يتفق مع تشريعات القرن العشرين ، ومع ذلك نرى أحد المؤرخين يرجع ذلك إلى «أن الوزير أراد أن يقضى على كل من كان يخشى منه ويتوسم فيه قدرة معارضته ليخلو له الجو[1] » .

أضف إلى هذا أن سيد عليوى كان أسير معروف ريتش Rich وكان ريتش على اتصال بالشاهزاده ، فلا نستبعد مطلقاً أن يكون داود قد خشى من أغا الإنكشارية هذا الذى كان على اتصالات واسعة النطاق تهدد كيانه تهديداً خطيراً .

ولا شك أن داود كان يشعر بأن المؤامرات الإيرانيـة هى الداء العضال الذى ينخر فى عظام العراق ، فعمل على استئصاله ولذلك أسرع بإعدام يحيي خازنداره عندما علم بتآمره مع البابانيين والإيرانيين ضده ولكن لم يلبث أن انهزم محمد أغا – كيخيا داود – سنة ١٢٣٦هـ (١٨٢٠م) فى حربه ضد إيران فخشى من نقمة داود عليه فآثر أن يفر إلى المعسكر الإيرانى ، فدفعه الإيرانيون إلى المطالبة بالباشوية وأيدوه بقواتهم وهكذا تطور التدخل الإيرانى من مجرد ضغط على كردستان إلى نفوذ قوى فى تولية باشوات السليمانية إلى التآمر مع كبار رجال حكومة بغداد ثم أخيراً تقف وراء المطالب بوزارة بغداد (محمد أغا كيخيا داود) ولكن توقيع الصلح جعل المطالب بالوزارة يعتمد على القوات العشائرية فنزل إلى الحلة واتخذها معقلا ولكن داود هزمه ونكل بالحلة سنة ١٨٢٥ .ففر الثائر إلى حمود الثامر شيخ المنتفق سنة ١٨٢٦م . ولكن النحس لازمه وهزم حمود[2] .

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٤٦ .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٩٠ ، ٢٩٢ – ٢٩٥ .

وأخذ يتجول فى العراق مثيراً القلاقل حتى كان النزاع بين داود والباب العالى فانضم إلى على باشا رضا[1] الذى قضى على آمال المماليك أجمعين وعلى آمال الطامعين فى الحكم من رجال العراق :

وواضح من هذا العرض أن سياسة داود – فى هذه الظروف المفعمة بالمؤامرات والخيانات كانت سياسة معتدلة ، وأن الأسلوب الذى كان يتحدث به الكتاب الإنجليز عن داود ووصفه بأنه كان يسيل الدماء وأن عدد ضحاياه بلغ ١٥٠٠ قتيل أسلوب مبالغ فيه جداً، لاشك أن هذه الصفات بعيدة عن الحقيقة ، وجاءت تلك الصورة بتأثير موقف داود من ريتش Rich وبتأثير الدعاية الإنجليزية التى كانت تشوه داود بسبب طرده ريتش من العراق . ولو فرض أن عدد ضحاياه بلغ هذا الرقم فليس هذا بعجيب فى بلد لم تهدأ فيه الثورة فى أى عام وكان القتال والمؤامرات أمراً عادياً فيه[2] .

وهكذا كانت أيام داود . ثورات متصلة لاتهدأ ومطالبون بالحكم ومؤامرات إيرانية فى طول البلاد وعرضها ومؤامرات فى كردستان وثورات عشائرية عربية وحروب خارجية وفتن إنجليزية . كل هذه تجعلنا نؤكد أن داود لم يستطع أن يسيطر على العراق كله خلال مدة حكمه ، ومعنى هذا أن الاضطراب كان العامل الأساسى فى إنهاك العراق وعدم تفرغ حكامه لإصلاح أموره . وهو اضطراب غل يد الحاكمين عن إصلاح أمر البلاد كما لم يمكن أهل البلاد من أن يصلوا إلى القيادات العليا .

---

(١) المصدر السابق : ٣٠٩ تفصيل ثورة حمود على داود فى الفصل الثالث .

(٢) انظر ما كتبه هود Heude فى هذا الشأن وسنتعرض للنزاع بين داود وريتش فى الفصل الخامس .

الفصل الثالث

داود وتوحيد العراق

أهم العشائر العربية فى العراق – سياسة داود إزاء العشائر العربية– سياسة داود إزاء الشيعة – أهم الإمارات والعشائر الكردية – سياسة داود إزاء الأسرة البابانية – أهم الطوائف المسيحية – سياسة داود إزاء الطوائف المسيحية – سياسة داود إزاء اليهود – سياسة داود إزاء آل عبد الجليل فى الموصل – سياسة داود إزاء ماردين .

داود وتوحيد العراق

تمهيـــد :

امتاز العراق بتقسيمه إلى أيالات خمس ، والاعتراف بحكم العصبيات فيه ، ومع ذلك كانت بغداد هى المسئولة عن الدفاع عن العراق وعن حل مشكلات الأيالات الخمس — وكلفت بغداد بطرد عشائر المنتفق من البصرة سنة ١٥٤٦م ، ولمـــا هددت الأخطار البصرة دافعت عنها بغداد حتى غفلت عن البصرة قليلا فتولى أمرها أفراسباب مؤسس أسرة حكمت البصرة اثنتين وسبعين سنة ، وكافحت بغداد طويلا حتى طردت هذه الأسرة نهائياً منها سنة ١٦٦٨ م ولكن البصرة لم تلبث أن سقطت مرة أخرى فى يد المنتفق(١) وطردهم منها حسن باشا بغداد (١٧٠٤ — ١٧٢٣ م) وضمت إليه كمتسلمية . فقد كان حسن ينظر إلى العراق على أنه وحدة واحدة تحكم من بغداد . واستطاع أن يضم إليه كردستان وماردين ، إلى جانب البصرة التى كانت تتبعها الأحساء حيث كان يحكم بنو خالد . ولم يبق من الأيالات الخمس بعيداً عن السيطرة المباشرة لبغداد سوى الموصل ، وظل الحال هكذا حتى عهد داود . على أن داود تولى الحكم فى عهد كانت فيه الفوضى ضاربة أطنابها . فالعشائر لها كيانها الشبه المستقل عن بغداد ، والسليمانية أصبحت على جانب خطير من القوة ، والموصل ثابتة فى وجه محاولات ضمها إلى بغداد ، والبصرة واقعة تحت نفوذ العشائر وتقلص نفوذ متسلمها فى داخل المدينة وخارجها ، وماردين كانت تمزقها الحروب الأهلية ، والشيعة الإيرانية والأقليات المسيحية واليهودية تزيد فى عمق التفكك فى العراق . ولذلك عمل داود على أن يعيد قبضته على باشوية

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٥ : ص ١٩٣ .

بغداد وعلى الباشويات والمدن التابعة له . (شهرزور — البصرة — ماردين) وأن يضم الموصل إليه فكان أن خاض صراعاً مريراً شغل معظم سنى حكمه تقريباً . ولذلك سندرس كل عامل من عوامل هذا التفكك وإلى أى مدى كان مؤثراً فى تعميق التفكك . وسنبدأ بالعشائر العربية ثم الكردية ثم الأقليات المسيحية واليهودية والموصل وماردين حتى نتبين من هذا كله المجهودات التى قام بها داود فى سبيل وحدة العراق .

أهم العشائر العربية فى العراق

كان العراق منذ العصور القديمة محط أنظار العشائر النازلة فى شبه الجزيرة العربية ، وكانت هذه الهجرات نتيجة لأسباب مناخية واقتصادية وسياسية اختلفت من عصر لآخر ، فنجد هجرات عربية قوية إلى العراق قبل الفتح الإسلامى . وفتح التوسع الإسلامى باب الهجرة العربية على مصراعيه ، فنزلت بالعراق أعداد كبيرة من العشائر القحطانية والعدنانية . وملأته بالعنصر العربى الجديد الذى تفوق فى العدد وفى المكانة على العشائر العربية القديمة .

وهذه العشائر العربية الجديدة كانت تحيا حياة بدوية فى أماكنها الأولى تختلف كل الاختلاف عن الحياة الريفية فى العراق . ولكن بمرور الزمن لمست بعض القبائل المكاسب الوفيرة والهدوء والطمأنينة فى حياة الاستقرار ، فاشتغلت بالزراعة . وهذا التحول من البداوة إلى حياة الريف يتطلب وقتاً غير قصير(١) وبخاصة على أطراف العراق الغربية الصحراوية ، ولذلك كانت فى العراق عشائر استقرت واشتغلت بالزراعة مثل زبيد التى نزلت فى منطقة الحلة . وهذه العشيرة توزعت إلى عشائر أخرى نتيجة لتكاثر عددها . ولتشتت بعضها بسبب الحروب وطول العهد منذ الفتوح الإسلامية ، ولكنها ظلت برغم هذا عشيرة قوية ذات بأس .

وهذه العشيرة تنقسم إلى زبيد الأكبر وزبيد الأصغر ، وهذه الأخيرة تنقسم إلى عشائر ذات أثر كبير فى تطور العراق السياسى فمنها عشيرة الدليم(٢)

---

(١) لا يزال هذا التحول مستمراً حتى الآن .

(٢) عباس العزاوى : عشائر العراق : جـ ١ : ١٢٠ — ١٢٥ ، جـ ٣ : ٣١ ، ١٠٥ — ١٠٨ .

وهؤلاء يكثرون فى منطقة الرمادى[1] . ومنها أيضاً عشيرة العبيد التى تفرعت من زبيد الأصغر فى حوالى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) وكانت زعامة العبيد فى آل الشاوى . وكانت العبيد تنزل فى المنطقة الواقعة بين بغداد والموصل .

ومن زبيد الأصغر أيضاً عشيرة الجبور وهم بنو عم العبيد . وكانت تسكن منطقة ديالى وبغداد والحلة وينزل بعض عشائرها قرب الموصل وفى الخابور مثل العبيد[2] ، ومنهم جبور الواوى فى أنحاء الحلة والرمثية[3] .

وتنافس عشيرة طى عشيرة زبيد فى عراقة القدم فقد كانت طى من العشائر التى هاجرت إلى العراق قبل الفتح الإسلامى وأصبحت لها إمارة قوية فى العهد المغولى . ونظراً لقوتها انضم إليها بعض العشائر الأخرى وكانت الرياسة فى آل أبى ريشة ؛ وكانت إمارتهم ترتكز على عانة . وكانت لآل أبى ريشة سطوة عظيمة عندما فتح السلطان سليمان القانونى العراق سنة ١٥٣٤م (سنة ٩٤١ هـ) وكانت سياسة العثمانيين ترمى إلى الاعتراف بالعصبيات المحلية الحاكمة . فتركت إمارة طى تحت حكم آل أبى ريشة[4] .

وقد انتشرت هذه العشيرة الضخمة فى العراق . وقد تمسك بعضهم بطابعهم البدوى بينما مال بعضهم إلى الاستقرار فى الريف . ومن أشهر بطونها عشيرة بنى لام التى هاجرت إلى العراق فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)[5] وكان اتجاه هذه العشيرة فى هجرتها نحو العراق الجنوبى الأوسط ، فامتد سلطانها من القرنة حتى أطراف بغداد وسبقت بهجرتها هذه عشيرة « شمر » من طى أيضاً ، ولكن شمر حينما هاجرت اتجهت نحو الشمال الغربى

---

(١) على الفرات جنوب مدينة هيت بقليل .

(٢) العزاوى : عشائر العراق : جـ ٣ : ١٥١ — ١٤٢ ، ٧٧ — ٧٨ .

(٣) مدينة على الفرات قرب الحلة .

(٤) عشائر العراق : جـ ٣ : ١٩٢ — ٢٠٢ .

(٥) عشائر العراق : جـ ٣ : ٢٠٤ — ٢٢١ ، جـ ١ : ١٧١ — ٢٥٨ .

للعراق حيث كانت إمارة طى وعشائر زبيد[1] وقد كانت أقوى هجرة لها فى القرن السابع عشر الميلادى عندما انتشرت فى المنطقة الواقعة بين الفرات وتدمر وقطعت المواصلات بين بغداد ودمشق ، ثم انحدرت إلى وادى الفرات وأصبحت المدن خاضعة لها بدل خضوعها للسلطان . وانتصرت شمر على الوالى[2] ولكن تحركات « عنزة » قلبت الأوضاع وبدأت الدائرة تدور على شمر ، فقد انضم الموالى إلى عنزة ضد شمر ، فاضطرت هذه إلى أن تترك الصحراء السورية لعنزة وتذهب هى إلى مراعى العراق الخصبة فأخضعت عشيرة طى بعد أن شنت هجمات كثيرة بلغ بعضها الموصل وبغداد والحدود الإيرانية دون أن يقوم الباب العالى بمجهود يذكر[3] .

ولم تزاحم شمر عشيرة طى فحسب ، بل زاحمت أيضاً بعض العشائر الأخرى التى سبقتها وحاربتها فى أرزاقها ، ولذلك احتدم ذلك النزاع الذى لم ينقطع بين العبيد وشمر[4] فكان هذا النزاع من العوامل التى منحت باشوات بغداد فرصة ضرب شمر بالعبيد ، والعبيد بشمر[5] .

وبينما كانت عشائر طى ومن بعدها عشائر شمر تسود شمال العراق كانت عشائر المنتفق تسود أقصى جنوبه حيث كانت تقطن ثلاث عشائر كبيرة متجاورة متحاربة هى : بنو مالك وبنو سعيد والأجود . فقد اشتد الصراع فيما بينها حتى لمست القيمة العظيمة لتوحيد قيادتها . وكانت تعيش بينها أسرة آل شبيب الثرية الشريفة الأصل ، فاتفقت العشائر الثلاث على أن تحقن الدماء وأن توحد الرياسة فى آل شبيب . وكان المعتاد فى العراق أن تسند إلى الشرفاء

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٤ : ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٢) الموالى : عشيرة من عشائر العراق .

(٣) A.Blunt: Bedouin Tribes of the Euphrates, London, 1879. vol. II. P 177 — 180.

(٤) وقد استمر العداء بين شمر والعبيد خلال العصر المملوكى عنيفاً وامتد هذا النزاع إلى القرن العشرين . (انظر العزاوى : عشائر العراق : جـ ١ : ٢٨٠) .

(٥) انظر الفصل الثانى : ص ٥٥ .

أمور الصلح وإصلاح ذات البين ، وهكذا اتفقت هذه القبائل الثلاث وأطلق عليها اسم المنتفق[1] .

ولم تكن المنتفق مقصورة على هذه العشائر الثلاث فقد قدرت بعض العشائر الأخرى قيمة التكتل والقيادة الموحدة ، أو قدرت قوة طغيان عشائر المنتفق ، فدخلت تحت لوائها ، وأصبحت هذه العشائر المتكتلة تضم العدنانية والقحطانية على السواء . وكانت بعض العشائر قد انشطرت ، فشطر داخل فى المنتفق ، وشطر بقى على حاله[2] ، وكان دخول قبائل أخرى فى عشائر المنتفق من عوامل قوتها حتى استطاعت أن تستولى على البصرة غير مرة . وقد كانت البصرة فى يدها عندما دخل السلطان سليمان بغداد سنة ١٥٣٤ م[3] .

ونظراً لأن هذه العشائر المنتفقية كانت قد اتخذت من المنطقة الواقعة غربى البصرة مجالا لمراعيها وحركاتها كانت تطمع دائماً فى البصرة وفى السيطرة على المنطقة الواقعة بينها وبين السماوة . ولذلك كانت تصطدم أو تتحالف مع عشيرة الخزاعل[4] التى كانت تنزل منطقة السماوة[5] .

وكانت تصطدم أيضاً بعشيرة كعب[6] عدوتها اللدود الطامعة كذلك

---

(١) سياحتنا مه حدود : ص ٥٥ .
أصل الكلمة متفق حرفت إلى منتفق ثم إلى منتفك .
وينكر عباس العزاوى هذا الرأى ويقول إن اسم كلمة المنتفق سابقة على التآلف بين عشائر المنتفق وإنها مأخوذة من المنتفق بمعنى من يدخل النفق وأصله اسم جدهم المنتفق . انظر سياحتنامه حدود : ٥٥ ، وعباس العزاوى : عشائر العراق : جـ ٤ : ٤ - ١٦ .

(٢) سياحتنامه حدود : ٥٥ .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٤ : ٤٩ .

(٤) عشيرة من بنى لام من طى ، وعشيرة الخزاعل قديمة ترجع إلى القرن الثامن الهجرى وربما قبل ذلك .

(٥) العزاوى : عشائر العراق : جـ ٣ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٦) عشيرة من ربيعة هاجرت إلى العراق منذ العصور الإسلامية الأولى وقد فصل الحديث عنها فى سياحتنامه حدود ٣١ - ٣٣ .

فى البصرة ، وقد استمر هذا الصراع قوياً خلال القرنين الأولين من الحكم العثمانى للعراق . وكانت عشيرة كعب قد استطاعت هى الأخرى أن تكون لنفسها إمارة قوية ترتكز على الحويزة منذ القرن السادس عشر ، وكانت شيعية المذهب وأصبحت أداة فى يد حكومة إيران للاستيلاء على البصرة . وكذلك كان الحال بالنسبة للخزاعل الشيعية ، ولذلك كانت كعب والخزاعل تتعاونان مع الغزاة الإيرانيين للعراق[1] ، بينما كانت عشيرة المنتفق فى الجنوب نداً قوياً لعشائر كعب وقوة من القوى التى استخدمها العثمانيون لصد عدوان إيران وكعب[2] . على أن الدافع المذهبى لم يكن وحده السبب فى تمرد العشائر على حكومة بغداد وانضمامها لإيران ، فقد كانت العشائر تعمل دائماً على التخلص من سيطرة الحكومات عليها والتهرب من دفع الأموال ، وكثيراً ما تعتدى عشيرة على أخرى فتثير فتنة تضطر الباشا إلى أن يتدخل لإخمادها وتأديب العشيرة المعتدية . ولذلك ملأت تمردات شمر والمنتفق تاريخ الحكم العثمانى فى العراق . وكان من الطبيعى أن تتأجج ثورات العشائر بصورة مروعة عندما شعرت هذه العشائر بضعف حكام العراق وبضعف القوة العثمانية الضاربة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . ولذلك واجه حسن باشا وخلفاؤه[3] تمردات عشائرية خطيرة ، فكان صراعاً دامياً مع بنى لام والخزاعل وشمر والمنتفق وكانت لا تسمح له الظروف إلا بأن يضرب العرب بالعرب ، والعرب بالكرد ، بدون أن يضع حلا دائماً للمشكلة العشائرية وبدون أن ينظر فى تنظيم حركات الهجرة العشائرية فى داخل العراق نفسه أو للهجرات الوافدة باستمرار على العراق . وكل ما فعلوه استخدام منصب « باب العرب » كوسيط للتفاهم

---

(١) هذا واضح خلال الغزو الإيرانى للعراق فى أوائل القرن السابع عشر وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر وفى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر أيضاً . انظر العزاوى تاريخ العراق الجزءان الرابع والخامس .

(٢) فقد كانت مقاومة المنتفق عنيفة لجيش الاحتلال الإيرانى فى البصرة بين ١٧٧٦ ، ١٧٧٩ م . انظر مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ص ٦ .

(٣) حكم من ١٧٠٤ – ١٧٢٣ م . انظر قائمة الباشوات ملحق رقم (١) .

بين الحكومة والعشائر العراقية وكان هذا المنصب يوسد إلى أحد شيوخ العبيد حلفاء الوزير أحيانا[1].

والواقع أن العيب ليس فى أسلوب علاج المشكلة العشائرية وحده فإن تكوين العشيرة وأسلوب حياتها وتقاليدها العريقة كانت من العوامل القوية التى حالت دون أن توضع سياسة تؤدى إلى هدوء هذه العشائر وإلى حملها على احترام قانون الدولة ونظامها ، ولذلك لم يشعر أفراد أية عشيرة منذ عصور طويلة بضرورة الخضوع لتنظيم سياسى أو إدارى من خارج القبيلة فتطور فى نفوسهم ولاء عظيم نحو القبيلة ، ولهذا كانت القبائل دائماً خطراً يهدد الدولة ويعرض الأمن الداخلى إلى كثير من القلق والاضطراب[2] وكان من طبائع العرب « حماية اللاجئ » (الدخالة) فمن يلجأ إلى عشيرة دافعت عنه حتى لو كان على خطأ ، وكان ذلك يؤدى إلى حروب دموية بين بعض العشائر والبعض الآخر ، وبين العشائر والحكومة ، كما كان حب الغزو من طبائعهم . وكم أشعلت الدخالة وحب الغزو من حروب بين عشيرة وأخرى ، أو بين العشائر والحكومة ، بل إن سياسة الباشوات العثمانيين التى أدت إلى منح الأراضى بطريق الالتزام للعشائر تتحمل قسطاً كبيراً من مسئولية التفاف العشيرة حول شيخها وتقوية ارتباطها بنظامها القبلى بدلا من أن ترتبط بالحكومة القائمة . كل هذا أدى إلى أن يتفكك العراق إلى وحدات عشيرية . تعتد كل واحدة منها بنفسها وتحاول أن تسيطر على سواها . ولما جاء دور المماليك كان هدفهم الأول أن يخضعوا هذه العشائر كلها لسلطان الحكومة واحترام قوانينها حتى يستقر النظام ويتوفر الأمن . ولكن حال دون تحقيق هذا الهدف الأمور التى سبق أن وضحتها[3].

---

(١) العزاوى : عشائر العراق : ج ٣ : ١٥٩ .

(٢) عبد الجليل الظاهر — البدو والعشائر فى البلاد العربية . محاضرات ألقاها بمعهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٤ : ص ٣٤ .

(٣) وهذه الأسباب هى : تكرر الغزو الإيرانى ، استمرار الهجرة إلى العراق ، والعداء المستحكم بين العشائر .

ولقد استشرت فى العراق فتن وتمردات واضطرابات على نطاق واسع كنتيجة لحروب نادر شاه فى العراق وللاضطرابات التى صحبت تولية سليمان باشا أبى ليلة على العراق . وبرغم مجهودات سليمان أبى ليلة الضخمة التى بذلها لإعادة قبضة الحكومة على العشائر كان نصيبها أن ضاعت سدى بسبب غزوة كريم الزندى للعراق[1] فكان على سليمان باشا الكبير أن يبتدئ من جديد بعلاج المشكلة بالأسلوب التقليدى نفسه ، وكان من نتيجة مجهوداته أن فقدت هذه العشائر قدرتها على المطالبة بالباشوية أو الاشتراك فى الحكم[2] . ولكن لم يكد يطمئن سليمان الكبير على إقرار النظام والأمن حتى فوجئ بعاصفة هبت من الجزيرة العربية على العراق وقذفت بعشيرتى شمر الجربا والضفير إلى العراق .

فقد أبت شمر الجربا أن تخضع للسيف الوهابى وامتشقت الحسام فى وجه آل سعود ، فدارت عليها الدائرة واضطرت إلى الهجرة إلى العراق فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر ونزلت فى شمال غرب العراق ولقيت ترحيباً من القبائل الشمرية التى سبقتها ، كما لقيت ترحيباً من سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ — ١٨٠٢ م) إذ كانت خطته ترمى إلى جمع عدد كبير من العشائر المعادية للحركة الوهابية ليضرب بها السعوديين[3] . لقد حصل الباشا على قوة عشائرية قوية ليغزو بها نجداً ، وتكاتفت العشائر العراقية الشمرية والعبيدية والمنتفقية المعادية للحركة الوهابية على مقاومة هذه الحركة تحت قيادة ثوينى شيخ المنتفق . ومع هذا كان العداء بين بعض العشائر والبعض الآخر يسير جنباً إلى جنب مع هذه الاتجاهات السياسية التى كانت تهدف إلى توحيد القيادة العشائرية لمواجهة خطر خارجى ، وهذا شأن جميع العشائر . فلا غرابة إذن فى أن نجد بين شمر والعبيد عداء مستحكماً برغم ذلك التكاتف .

وبعد هجرة شمر الجربا بسنوات قليلة هاجرت الضفير إلى العراق سنة

---

(١) انظر قائمة شاهات إيران فى الملحق رقم (٢) .

(٢) انظر الفصل الأول .

(٣) عباس العزاوى : عشائر العراق : جـ ١ : ١٣٧ — ١٤٥ .

١٨٠٤ فارة ، مثل عدوتها شمر الجربا من وجه زعماء الحركة الوهابية . وعشيرة الضفير هذه من عنزة ، وعنزة من أكبر عشائر شبه الجزيرة العربية . وكانت الضفير نفسها قوية الشكيمة ، وحركاتها صيفاً وشتاء طلباً للمرعى كانت سبباً فى الاصطدام المستمر مع شمر الجربا . ولم يلبث الصراع أن اشتد بين الجربا والضفير ، وخشيت حكومة بغداد نتائج تلك الحروب ، إذ أن انتصار الضفير من شأنه أن يوهن نفوذ الباشا . وهذا ما وقع فعلا سنة ١٨٠٩ عندما أخفقت حملة سليمان باشا الصغير وحلفائه الشمريين والعبيديين على الضفير . فهوت مكانة الباشا واستمرأت العشائر العصيان حتى أن حليفته شمر الجربا نفسها تمردت عليه ، فكانت النتيجة أن تفككت قواه وكان ذلك من العوامل التى أدت إلى سقوطه[١] . وكان انشغال عبد الله باشا (١٨١٠ — ١٨١٣ م) بقتال عبد الرحمن البابانى[٢] من الأسباب التى أفضت إلى استفحال هذا التمرد وبخاصة حينما وقعت تولية سعيد باشا بواسطة السيف المنتفقى ، ومن هنا كان تمرد العشائر خطيراً فى عهد سعيد . فقد تمردت عليه عشائر الخزاعل وزبيد وشمر الجربا والضفير ، وانتهزت الفرصة وحاصرت أربعين ألف زائر إيرانى ، من بينهم حرم الشاه فى كربلاء[٣] . ولكى ينقذ سعيد الموقف أسند قيادة الحملة ضد المتمردين إلى داود (١٢٢٩ هـ — ١٨١٤ م) .

سياسة داود إزاء العشائر العربية :

تولى داود المهمة التى أسندت إليه بكل اهتمام ، فعبأ القوة الكافية وزحف بها إلى كربلاء ، فخشيته القبائل وفكت الحصار المضروب على الزوار ، وعزل شيخ زبيد ، ونصب مكانه شفلح الشلال وأجبر عشيرة جبور الواوى على التخلى عن مواقعها الحصينة وغنم أموالها واضطر الخزاعل إلى إعلان الخضوع ورأى أن الحكمة تقتضى الصفح عنهم ووقف القتال .

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ١٨٩ — ١٩٠ .
(٢) راجع العزاوى : عشائر العراق : ج ٣ : ٢٤٥ .
(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٤ .

ويبالغ صاحب المطالع فى ذيوع صيت داود لما قام به فى هذه الحملة الموفقة ويقول إنه إنما ظفر بأعدائه لحسن قيادته ودقة نظام جيشه ، ولمجانبة قواته – بأمر منه – الأعمال السيئة التى عرفت بها جيوش الولاية منذ أمد طويل[1] .

حقيقة أنقذ داود سمعة الباشوية كما أنقذها من خطر تدخل إيرانى عنيف ، ولكن حملته هذه لا تختلف فى بعض نواحيها عن حملات أسلافه التأديبية ضد العشائر المتمردة ، حملات تنتهى بإعلان العشيرة المتمردة الطاعة والولاء للباشا ، ولكن إلى حين . فالعشائر العربية فى العراق تنحنى للعاصفة مؤقتاً ثم تعود إلى ما كانت عليه ، وتقرع السيف بالسيف ، فلعل بعد الصدام نصراً ، وإن لم ينل فالصحراء والأهوار استحكامات طبيعية يحتمون بها من جيوش الوالى .

ولما تولى داود الباشوية رأى أن العراق يتكون من وحدات عشائرية كبيرة قوية شبه مستقلة عن الحكومة ، بعضها هادئ هدوءاً مؤقتاً مثل المنتفق وزبيد وبنى لام والضفير ، وبعضها أعلن الخصومة السافرة للحكومة مثل الخزاعل وتميم[2] والباوية[3] والنجادة[4] وبنى عمير[5] والدليم وبعض عشائر شمر . وكانت بعض العشائر أيضاً قد منحت إعفاءات مالية فى مقابل خدمات عسكرية تقدمها للباشا مثل البيات[6] وعقيل[7] ، فوضع داود سياسته حيال العشائر على الأسس التالية ، وهى :

---

(١) يقول عثمان بن سند « لا تسمع لديه رشوة ولا هدية ولا تسمع بالظلم فى جيشه بل كل واحد من العسكر عارف حده . . وإن اشترى العسكر شيئاً من الأعراب ينقدونهم ثمنه قبل تسلمه بخلاف رؤساء العساكر قبله فإنهم كانوا يأخذون من الأعراب والقرى ما يحتاجون إليه بغير ثمن والفضل لهم . مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٥ .

(٢) من شمر .

(٣) من كعب تنزل شرق نهر كارون .

(٤) من الدفافعة من عنزة .

(٥) من زبيد الأصغر .

(٦) عشيرة تركية .

(٧) عشيرة عربية سيأتى الكلام عنها فى الفصل الثامن .

١ – أن يعمل على استقرار بعض العشائر فى أماكن معينة يعطيها لها لتهدأ حركتها وترتبط بمنطقتها . وبالاستقرار تتطورسريعاً نحو حياة أكثر تقدماً .

٢ – أن يعيد سيادة الحكومة قوية على العشائر وأن يحملها على احترام نظام الدولة وحكومتها وعلى أن تسهم فى تحقيق الكيان العراقى الموحد تحت سلطة الباشا .

٣ – أن يقضى على المنازعات والضغائن الشديدة بين العشائر وأن يقضى كذلك على الغزو الذى يجلب الفوضى للبلاد .

٤ – أن يستغل تلك العشائر المكلفة بالخدمة العسكرية (العقيل والبيات) فى تأديب العشائر الأخرى المتمردة .

وقبل أن يضرب بالسيف كان يحذر ثم ينذر ، ولكن العشائر ما كانت – كما تعودت – لتصيخ إلى التحذير والإنذار ، وبخاصة أن بعضها كان حليفاً لسعيد حتى النهاية مثل الدليم ، وأن بعضها قبل دخالة أعداء داود مثل الخزاعل التى آوت قاسماً الشاوى ، وقد آثر داود أن يضرب العشائر الصغيرة أولا ليتفرغ للعشائر المتمردة القوية فبعد تأديبه للباوية والنجادة وبنى عمير(١) التفت إلى الدليم وأرسل إليها وكيل كتخداه محمد أغا الذى خرج على رأس حملة قوية من بغداد فى ٢ ذى الحجة ١٢٣٣ هـ (حوالى منتصف أكتوبر ١٨١٧ م) وكانت مواطن الدليم وعرة يصعب على الجيش اجتيازها ، ويبدو أن داود باشا شعر بخطورة المعركة وأنه فى حاجة إلى نصر مؤزر ليثبت أنه قادر على تنفيذ وعيده فترهبه القبائل ويستطيع بعد ذلك أن ينفذ سياسته ، ولذلك رقى محمد أغا إلى منصب الكتخدائية ، ليشجعه على التفانى فى مهمته . ولذلك اقتحم الكتخدا المصاعب بحزم وجرأة وضيق على العشيرة المتمردة حتى اضطرت إلى أن تطلب وساطة عبد الله بك الشاوى – باب العرب – فقبل الوزير

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٤٦ – ٢٤٨ .

الوساطة وتعهدت العشيرة بدفع مبالغ وهدايا وافرة ، فعين الوزير لكل فخذ أغا ليحصل منه ما تعهد به . وفعلا دفعت العشيرة الأموال كلها فى وقت وجيز[١] .

وفى الوقت نفسه كان داود مهتماً كل الاهتمام بوضع حد للحروب التى تنشأ بين العشائر ليستتب الأمن ، ولئلا يقع فى أزمة مثل تلك التى وقع فيها سليمان الصغير سنة ١٨٠٩ أصدر الباشا أمراً عاماً وجهه إلى العشائر كافة يقضى بمنع الغزو بين الأعراب وهم مسلمون ، ولكن العشائر ما كانت لتقبل هذا المبدأ الجميل بسهولة . وفى نجد كان السيف هو الذى مهد لأن تقتنع العشائر بهذا المبدأ ، ولذلك كان لابد من أن يضرب كل عشيرة تخرج على هذا المبدأ ، فلما غزت إحدى عشائر شمر الجربا عشيرة الحديديين[٢] أرسل الوزير قواته لتضرب المعتدين . ومع ذلك لم تنجح هذه السياسة فى العراق ، مثلما نجحت فى الجزيرة العربية ، وذلك لأن داود لم يكن متفرغاً للعشائر العربية وحدها ، فإن إيران كانت تدبر وتهاجم ، وكانت قوات الباشا مشغولة فى الجبهة الإيرانية الكردية[٣] ، وفى مقاومة العشائر التى انتهزت الفرصة وتمردت وأعلنت تأييدها لقاسم وصادق المطالب بالباشوية . وقبول هاتين العشيرتين لدخالة قاسم وصادق يدل دلالة واضحة على أن عقلية العشائر لم تكن قد استعدت لأن تدرك الهدف الكبير الذى يجب أن تجالد فى سبيله أمة العراق كلها ، بل ظلت الروح العشائرية هى المسيطرة على أهداف هؤلاء الزعماء حتى ولو كان فى ذلك ضرر للحكومة التى يتبعونها . ويجب أن نؤكد هنا أن معظم العشائر التى كانت تؤيد المطالبين بالباشوية لم تكن تقبل على هذا التأييد من أجل الاشتراك فى الحكم أو من أجل تحقيق فكرة سامية ترمى إلى

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٤٨ .

(٢) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى .

(٣) كان داود منذ بداية حكمه فى صراع ضد الإيرانيين والأكراد . انظر الفصل الرابع .

التعاون فى حكم البلاد بل كانت تهدف إلى التخلص من دفع الأموال المقررة عليها أو كسب إعفاءات مالية . ولم يتضح الهدف الخاص بالاشتراك فى الحكم إلا فى ثورات العبيد والمنتفق . أما تمرد زبيد على الوزير فكان وفق مبدأ الدخالة ومحاولة من جانبها للتخلص من دفع الأموال . ولما كان فرار صادق إلى زبيد وانضمام قاسم الشاوى إليه قد صادفا الوقت الذى بدأت فيه قوات داود تزحف شمالا لتقاتل محمود البابانى وحلفاءه الإيرانيين فإن داود أسرع إلى شطر جيشه شطرين أحدهما ذهب شمالا والثانى كان بقيادة الكتخدا ومعه بعض عساكر الأكراد زحف إلى زبيد ثم بعث داود فى أثره مدداً يتألف من عشائر الديزة بى « والشمامك » سنة ١٨١٧[١] .

وفى الوقت نفسه عمل داود على تفكيك قوى شيخ زبيد بأن أسند المشيخة إلى أحد المطالبين بها وهو الشيخ على البندر فجمع هذا جموعه وأعدها للهجوم على خصمه وأسرع ضباط جيش داود إلى وضع الخطط العسكرية الفنية للوقيعة بجيش غريمه . وبفضل هذه التوجيهات انتصرت قوات الشيخ « على البندر » على قوات الشيخ شفلح الشلال وحلفائه[٢] ، هذا بينما فر قاسم إلى عفك المتحصنة بأهوارها .

واكتفى داود بانتصاره المؤقت هذا ، نظراً لأن الحروب مع إيران والكرد لا تسمح له بالتفرغ التام للمشكلة العشائرية . وشاءت الظروف أن تزداد المشكلة العشائرية تعقداً .

لم يكد داود ينتهى من تلك الثورات حتى نشبت اضطرابات فى منطقة الحلة والحسكة (الديوانية) ، فقد كانت قبيلة الصقور من عنزة قد جاءت كعادتها (سنة ١٢٣٣ هـ — ١٨١٧ م) ونزلت فى غربى المسيب[٣] وذهب بعض شيوخها لتقديم فروض الولاء ، فأكرمهم الوزير طالباً منهم مراعاة

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٥٢ الديزة بى عشيرة كردية .
(٢) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٥٢ — ٢٥٣ .
(٣) مدينة على الفرات بين الحلة والمحمودية .

الحقوق واستتباب الأمن . ولكن هذا كان أمراً غير ممكن التحقيق من جانب قبائل بدوية رحالة . فاضطر الوزير إلى تأديبها ، فأرسل إليها خازنه يحيى ، فالتقى بهم فى موقعة انتهت بخذلان جيش الوزير وأصدر داود أوامره بأن يعود يحيى أدراجه[1] .

وكان لذلك الفشل صدى بين صفوف العشائر الانتهازية التى ترى فى هزيمته هذه ضعفاً طرأ على الوزير فتضيع هيبته بينها . وهذا ما حدث فقد تمردت شمر ، كما تمردت الفتلة[2] والدليم وزوبع[3] والبوعيسى[4] والحميلة[6] ، وطمعت عفك وجليحة فى سلب زوار العتاب المقدسة[5] (النجف وكربلاء) وهكذا ماجت الفوضى بسبب هزيمة جانب من قوات الوزير أمام عشيرة عربية ، ورد هيبة الوزير إلى قلوب شيوخ العشائر فى هذه الظروف لا يتم إلا بضربات قوية لها صداها . فزحفت قوات الوزير بقيادة كتخداه فى الليل وفى أقصى سرعة ليفاجئ شمر التى غشيها من الذعر ما غشيها حينما ظهر الكيخيا فجأة على مقربة منها ، ففرت تاركة أموالها غنيمة باردة لجيش الكيخيا .

كما بعث كتخداه أيضاً إلى الصقور — وهم سبب تلك الفوضى الضاربة بجرانها فى أنحاء العراق لينتقم منهم وليستعيد هيبة الحكومة كاملة . وكانت الخطة ترمى إلى تأديب عفك وجليحة أيضاً (١٢٣٤ هـ — ١٨١٨ م) وكانت المهمة كبيرة ، فأعد لها داود ما يكفل القيام بها خير قيام[7] وأصدر تعليماته

---

(١) دوحة الوزراء : ٢٨٨ (عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ص ٢٥٦ — ٧) .

(٢) الفتلة : عشيرة عربية فى منطقة الديوانية .

(٣) زوبع : عشيرة عربية من شمر ينزلون منطقة أبى غريب والبوسفية .

(٤) من طى فى منطقة الدليم الحالية .

(٥) فى منطقة عقرقوف .

(٦) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٥٧ — ٩ .

(٧) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٥٧ — ٩ .

إلى كيخياه بأن يتخذ الوسائل الكفيلة بالقبض على الشيوخ المتمردين[١] .

وقد وصف لنا بورتر Porter معسكر الكيخيا فقال إن قواته لا تتبع فى أية ناحية أساليب القتال الحديثة من أسلحة وخطط واكتفت باستخدام البنادق ومدفعين تقريباً . وكان بصحبة الكيخيا عبد الله البابانى الذى كان فى استطاعته أن يجمع بعض القوات برغم أنه عزل من منصب باشوية السليمانية سنة ١٨١٨ م ، كما كانت مع الكيخيا بعض القبائل الموالية للوزير[٢] .

وبالقرب من مدينة الكفل[٣] دارت المفاوضات بين الكيخيا وشيوخ الصقور ، وكان أحد شيوخ العقيل المقربين من داود وسيطاً بين الكيخيا والشيوخ ، فاستطاع أن يحصل من الكيخيا على وعد بمنح الأمان للشيوخ الثائرين فمنح الكيخيا الأمان لهؤلاء . ولكنه لم يلبث أن نقض عهده عندما أتى الشيوخ مع الشيخ العقيلى لزيارته . فاعتقلهم الكيخيا وأرسلهم مكبلين فى مذلة إلى بغداد وبرر الكيخيا عمله هذا بأن الوزير أمره بأن يعتقلوا ويرسلوا إليه فى بغداد . وفعل الكيخيا كل هذا دون أن يهتم بصرخات الشيخ العقيلى بعد أن طعنه فى صميم كرامته طعنة نجلاء لأن الكيخيا أظهره كمتآمر معه وهو جد برىء من هذه التهمة[٤] .

وبعد ذلك تابع الجيش زحفه نحو بقية المتمردين وبخاصة جليحة وعفك فأقامت العساكر جسراً عند الحسكة (الديوانية) وعبرت الفرات من جهة « الشامية » إلى الجزيرة ، ثم تابعت القوات زحفها نحو القبيلتين اللتين تحصنتا واستعدتا لمعركة عنيفة مع قوات الكيخيا . فدارت معركة فى منتهى الشدة ظهر خلالها انقسام رؤساء جليحة ، فقسم طلب الأمان فقبل طلبه لإضعاف جانب الثوار ، وقسم اضطر إلى أن ينسحب إلى أهوار أخرى بعيدة عن متناول قوات الحكومة[٥] .

---

(١) Porter: Op. Cit. II. PP, 376—8 .

(٢) Ibid: Vol. II. PP. 294, 302 .

(٣) مدينة بين الحلة والنجف .

(٤) Porter: Op. Cit. II, P, 376—8 . انظر أيضاً مختصر مطالع السعود : ص٥١ .

(٥) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ص ٥١ ، العزاوى : جـ ٦ : ص ٢٦١ .

أما عفك فإنها لم تتفكك ، ولكن رأت أن منازلة الجيش مغامرة خاسرة فاحتمى جزء منها بالأهوار واحتمى الجزء الآخر بقلعة شخير ، وكان من الطبيعي أن يفضل الجيش عدم التقدم في الأهوار حتى يستولي على القلعة أولا فحاصرها في صفر (١٢٣٤ هـ - ١٨١٨ م) وأخذت المدافع تضرب القلعة المحاطة بخندق عميق ففشلت القوات في اقتحامها بسبب انخفاض مستوى الأرض الأمر الذي جعل ضرب المدافع غير فعال فشيدت المتاريس لحماية الجند من نيران المدافعين عن القلعة . ويبدو أن نيران العدو كانت أضعف مما كان يتوقعه ، فاستفاد من ظلمة الليل وشيد الكيخيا تلالا صناعية أكثر قرباً من القلعة ، وتقدمت المتاريس إلى الأمام ، وأحكمت حلقة الحصار وشدد النكير على القلعة ، واستحر ضرب المدفعية ووضعت خطة لهجوم ليلي خاطف على القلعة تحت وابل من الأمطار ، فلم يستطع المدافعون الصمود ، وفروا إلى لأهوار ، واستولى الجيش على القلعة وعلى ما فيها من غلال وفيرة ، ثم خربوها وعادت القوات إلى قواعدها ، ونال الكيخيا[1] محمد أغا - عن جدارة - تقدير ومكافأة داود له لما قام به من مجهودات أنزلت الرعب في قلوب العشائر وأعادت إليها بعض الهدوء، وأخذت بعض العشائر المتمردة تعود إلى حظيرة الطاعة وتعهدت جليحة والفتلة بأن يدفع كل منهما مبلغ خمسين ألف قرش . وأسند إلى شيخ الخزاعل مهمة جمع هذه الأموال ، وترك معه ثلاثون بيرقاً لتحصيل تلك المبالغ ، كذلك ترك الكيخيا بعض القوات مع شيخ الأقرع الذي التزمت عشيرته أن تحافظ على سد أم العويل بكل دقة وعناية وبعد هذه الترتيبات عاد الكيخيا في ٥ ربيع الأول ١٢٣٤ هـ - ديسمبر ١٨١٨م فاحتفى به الوزير وخلع عليه[2] .

ولم يكد الكيخيا يعود حتى كلف بالزحف على الدليم تلك العشيرة التي

---

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٥١ وانظر أيضاً عباس العزاوى تاريخ العراق ٦ : ٢٦١ .

(٢) مختصر مطالع السعود : ص ٥١ ، العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٦٢ .

عردت سنة ١٢٣٣ هـ (سنة ١٨١٨ م) وعادت إلى العصيان سنة ١٢٣٥ هـ (سنة ١٨٢٠ م) وامتنعت عن دفع الميرى وصممت على القتال . وبرغم أن أرض المعركة كانت لصالح القبيلة المتمردة انتصر عليها الكيخيا نصراً كبيراً وبقى الكيخيا هناك بأمر الوزير عدة أيام حتى يبث بقواته وانتصاراته الرعب فى العشائر وبعد ذلك أدب العشائر التى كانت متحالفة مع الدليم ، ثم عاد الكيخيا مرة أخرى إلى بغداد فى آخر ربيع الثانى سنة ١٢٣٥ هـ لينال عطف ورعاية الباشا الذى أنعم عليه وزاد فى مرتبه(١) .

ولا شك أن سيطرة داود على العشائر ، بعد تلك العمليات العسكرية الناجحة قد اتسعت وحلقت فوق رءوس العشائر ، وبدا كأن سياسة العنف مع العشائر بدأت تؤتى أكلها . فقد وقفت بعض العشائر العربية وقفة قوية جريئة إلى جانب الوزير خلال حربه مع إيران مثل(٢) شمر الجربا بقيادة شيخها صفوق الذى وجه سنة ١٢٣٦ هـ (سنة ١٨٢٠ م) هجمات ناجحة على قوات إيران وعلى قوات محمد أغا كيخيا داود الذى تمرد على الباشا(٣) ، ولكن بعض العشائر انتهزت فرصة تلك الحرب وتمردت ، مثل عشيرة بنى لام التى فر شيخها إلى إيران (٤) . ومع ذلك نستطيع أن نقول إن العشائر خلال تلك الأزمة الطاحنة التى وقع فيها داود بعد هزيمة كيخياه وخيانته كانت كفيلة بأن تجعل العراق كالمرجل يغلى ثورة وتمرداً . ولكن لم تقع إلا أمور عادية وذلك يدل على أن تلك السيطرة التى كسبها داود قبيل الحرب الإيرانية هيأت له استمرار سيطرته على العشائر خلال تلك الأزمة وبعدها . فقد كانت قوته قد تضعضعت بعد هذه الحرب وساءت الحالة فى مدينة بغداد وجيش الكتخدا الثائر يلقى بعض النجاح هنا وهناك (٥) . ومع ذلك لم تكن الفوضى عارمة

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٦٣ : ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٢) تفصيل الحرب بين داود وإيران فى الفصل الرابع .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٤) C. Rich: Narrative of a Residence in Koordistan, II, P. 169.

(٥) أحمد الصوفى : المماليك : ١٨٢ — ١٨٣ .

كما لم تكن على تلك الصورة التى كانت تقع فيما مضى(1) ، ولعل ذلك يرجع أيضاً إلى :

ا ــ هدوء المنتفق فى تلك الفترة .

ب ــ خشية بعض القبائل من الاحتلال الإيرانى البغيض .

حـ ــ النزاع بين شمر وعنزة(2) .

د ــ ولاء الخزاعل القوى لداود برغم شيعيتها .

هـ ــ وقوف شمر الجربا إلى جانب الوزير بكل قوة .

وكان من الطبيعي أن يكافىء الوزير هذه العشيرة التى أبدت شجاعة وإخلاصاً فى قتال إيران والتى كانت تمثل القوة الهجومية الوحيدة التى تبقت له بعد هزيمته فى كردستان (سنة ١٢٣٦ هـ ــ ١٨٢٠ م) ولذلك أقطع « عانة وما يتبعها من القرى » لصفوق شيخ شمر الجربا(3) .

وكما كافأ الوزير المخلصين له داوى جراح العشائر التى أصابتها الحرب بالدمار(4) . فقد اهتم داود من جانبه بالعشائر التى منيت بخسائر فادحة بسبب العدوان الإيرانى فأسبغ عليها عطفه ، ومن ذلك أنه رفع عنها رسوم الميرى كما اهتم بتأديب العشائر التى انتهزت الفرصة فنهبت وسلبت(5) .

بيد أن الهدوء الذى كان ينشده داود باستمرار طاعة العشائر العربية له كان عرضة من وقت لآخر للانقطاع بسبب النزاع المستمر بين شمر وعنزة ،

---

(1) بعد غزوة الشاه عباس الأول للعراق فى النصف الأول من القرن السابع عشر وقعت سلسلة طويلة من تمردات العشائر لم تهدأ إلا بعد فتح مراد الرابع للعراق . وخلال حروب نادر شاه وبعدها انفجرت الفوضى فى العراق مما أرهق أحمد باشا وسليمان أبى ليلة فى عمليات إخضاعها ، وكذلك عقب غزو كريم خان الزندى عمت الفوضى العراق مما أنهك سليمان الكبير وحلفاءه فى سبيل إخضاعها بينما لا يواجه داود بعد حروبه ضد إيران فوضى مثل تلك التى ذكرتها .

(2) Blunt: Op. Cit II. P. 177 — 180 .

(3) مطالع السعود : ٢٦٦ : عن العزاوى عشائر : جـ ١ : ١٥٣ .

(4) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ ــ ٢٨٢ .

(5) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٨١ ــ ٢٨٤ .

فقد حدث أن اشتبكت قوات شمرية بقوات عشيرة عنزة فكان النصر فى « يوم بصالة » لشمر[1] فجمعت عنزة جموعها لتثأر ، وعنزة ضخمة العدد ، فهزمت شمر . ورأى داود أن فى هزيمة شمر مضيعة لنفوذه فإن شمر كانت صديقة للباشا ، وأدت له خدمات جليلة ، وانتصار عنزة سيجعل لهذه العشيرة الكبيرة العدد سطوة ترهب . ولا شك أن داود خشى أن تقع أزمة خطيرة مثل تلك التى وقع فيها سليمان الصغير سنة ١٨٠٩ وقضت عليه . ولذلك اتبع سياسة حكيمة لعلاج الموقف ، فقد منح شيخ شمر الجربا ثلاثين ألف قرش دفعة واحدة[2] ليضمد جراحها ، وليعيد إليها ثقتها بنفسها . وبالتالى قدرتها على مواجهة عنزة . ومع ذلك شهدت السنوات الأربع الأخيرة من حكم داود ثورتين : ثورة عنيفة لشمر — وأغلب الظن أن الباب العالى كان مشجعاً لها على استمرارها فى الثورة — وثورة عنيفة قام بها شيخ المنتفق كان للإنجليز ولمسقط ولكعب دور كبير فى استعارها .

فإن شمر الجربا هذه التى أنقذها الوزير من الانهيار بعد هزيمتها أمام عنزة ثارت عليه ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) ولم تهدأ شمر وظلت المشكلة حتى سنة ١٨٣٠ صعبة الحل ، فى وقت كان فيه داود فى حاجة ماسة لأن يعم الهدوء العراق . وأغلب الظن أن هناك علاقة قوية بين تمرد هذه العشيرة على الوزير واحتدام النزاع بين داود والسلطان . فيذكر لنا لايار Layard أن شمر الجربا نالت عطف السلطان ورضاءه[3] ، وكان السلطان يستخدم العشائر فى الولاية كأداة من أدوات توهين سطوة الوزير وضربه إن هو فكر فى التمرد على خليفة المسلمين . ولكى يقضى الوزير على تمردها هذا سير عليها تشكيلاته العسكرية وبخاصة عندما بلغت غاراتها أطراف بغداد (صيف ١٨٣٠ م)[4]

---

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٥١ .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٣) Layard: Nineveh, I, P. 94

(٤) Groves: Op. Cit. P. 24

ولم يستطع الوزير أن ينال منها شيئاً ولذلك كانت عوناً كبيراً لعلى رضا خلال الصراع بينه وبين داود . وكان لصفوق – شيخ شمر الجربا – دور كبير فى هذا الصراع :

وبينما كانت شمر فى أقصى الشمال تعيث فساداً فى تلك النواحى كانت العلاقات بين داود باشا وشيخ المنتفق حمود الثامر تزداد توتراً يوماً بعد يوم . حقيقة ظل حمود هادئاً منذ أن تولى الوزير الباشوية ، ولعل ذلك لأن الوزير لم يستثره نظراً لمشكلات الوزير المعقدة مع إيران وكردستان . ويبدوأن حموداً ركن إلى السكينة خلال الحرب الإيرانية نظراً لشدة العداء المستحكم أيضا بين المنتفق وشيعة إيران . وعلى أى حال ما كان لباشا قوى أن يترك هذه العشائر القوية مسيطرة على جزء كبير من جنوب العراق دون أن يعمل على إعادة قبضته عليها . وكانت السيطرة على عشائر المنتفق تتطلب مجهودات كبيرة ، ولذلك آثر داود أن يترك هذه المشكلة حتى تهدأ الثورات فى العراق ويصبح متفرغاً للمنتفق ، فإن هذه العشائر على اتصال قوى بسلطان مسقط منذ أيام سليمان الكبير ، وعلاقاتها بكعب قوية . ولذلك فإن تمردها له شكل أخطر من تمرد العشائر الأخرى وبخاصة أن ثوينى شيخ المنتفق وسلف محمود الثامر فى مشيخة المنتفق كان أعنف ند لسليمان الكبير ، بل وكان من المطالبين بباشوية العراق . وكانت مشيخة المنتفق هذه أكثر المشيخات استقراراً فقد تولى ثوينى المشيخة بين (١١٩٣ – ١٢١٣ هـ) (١٧٧٩ – ١٧٩٧ م) مع استثناء سنوات قليلة . وحكم حمود الثامر من ١٧٩٧ إلى ١٨٢٥ م . وطول مدة الحكم هذه وقوة عشائر المنتفق تجعلان هذه العشائر كأنها شبه مستقلة عن الحكومة ، وتقويان فيها روح الاعتزاز بوحدتها العشائرية . هذا بينما كانت سياسة داود ترمى إلى تقوية قبضة الحكومة على العشائر واستغلال خيرات البلاد إلى أقصى حد ممكن . لذلك كان لابد من أن يصطدم داود بحمود ، ولكى يحقق الوزير أهدافه بدأ ينشر دعاية مؤداها أنه بسبيل عزل حمود ، وهو يرمى من وراء ذلك إلى أن يأتى إليه كل طامع فى المشيخة ، فيضرب المنتفق بالمنتفق وهو الأسلوب المتبع حتى

ذلك الوقت فى إخضاع العشائر المتمردة . وبالفعل أخذ عدد من شيوخ المنتفق يذهبون إلى بغداد ليعيشوا فى كنف وزير داود ولينالوا منه المناصب .

رد حمود على هذه الإجراءات بأن عمل على جمع شمل أعداء الوزير حوله ، فأرسل عدداً من العشائر التابعة له لتأييد ثورة الحلة وشد أزر محمد أغا — كيخيا داود السابق — فى قتاله لداود ، ولكن داود انتصر على محمد أغا وعلى حلفائه ، وأخضع الحلة ففر محمد أغا إلى المنتفق[1] وكان ينتظر أن يسرع داود إلى شن هجوم عام على المنتفق ، ولكنه لم يفعل .

كانت خطة داود — الذى كان فاهماً تماماً لأصول قواعد القتال عند العشائر المتفقية — هى أنه كلما طالت المدة زاد التفكك فى المنتفق وأنه لا صبر لعشائر عربية على حرب طويلة شاملة منظمة .

وفى الوقت نفسه كان داود يبحث عن الشيخ القوى الذى يستطيع أن ينازل حموداً . ولذلك وضع شيوخ المنتفق الذين أتوا إليه موضع التجربة فوجه شيوخ المنتفق لقتال عفك وقاسم الشاوى الملتجئ إليها . وخلال ذلك اكتشف داود عقيل بن محمد بن ثامر حليفاً فأسند إليه مشيخة المنتفق فى ١٤ صفر ١٢٤٢ هـ (سبتمبر ١٨٢٦ م) ، وفى الوقت نفسه سير الميراخور سليمان أغا ليضرب عشيرة الأقرع[2] فى الدغارة[3] ليفتح الطريق إلى المنتفق ، ونال الميراخور نصراً مؤزراً[4] .

أعطى الوزير لعقيل بن محمد التعليمات التى تكفل له النجاح فبين له أهمية التمهل فى قتال غريمه ، وأعطاه الأسلحة الكافية وكتب الباشا لمتسلم البصرة أن يعلن عزل حمود . فرد حمود على هذه الترتيبات بأن استنجد بعشيرة كعب وأرسل رسولا خاصاً إلى السيد سعيد سلطان مسقط ليتعاونوا جميعاً على قتال داود واحتلال البصرة . وقد انضمت كعب إلى المنتفق لما كان بين العشيرتين

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٩٠ .

(٢) من شمر .   (٣) شرق النجف .

(٤) عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٩٠ .

من علاقات اقتصادية وسياسية عدائية أحياناً وسلمية أحياناً أخرى . فقد كانت البصرة دائماً محط آمال كعب ، وكانت لذلك فى نزاع مع المنتفق . ولكن فى عهد داود أصبحت العلاقات ودية بين المنتفق وكعب نظراً لأن داود قوى قبضته على العراق الأمر الذى يضعف أمل كل من المنتفق وكعب فى المحافظة على كيانهما ضد نيات داود ، واستنجدتا بسلطان مسقط لما كان بينه وبين داود من عداء فى ذلك الوقت ولما كان له من أطماع فى البصرة .

بدأ القتال بهجوم برى قاده فيصل وماجد — ولدا حمود — على البصرة بينما كانت قطع من أسطول مسقط تهاجم المدينة ، وكانت هذه القوات البحرية البرية المهاجمة للبصرة متفوقة على القوات المدافعة عنها برغم أن النجدات أتتها سريعاً من الزبير . فأرضى الوزير قائد الأسطول العمانى بمبلغ من المال فانسحب إلى قواعده[1] وبقى ماجد وفيصل وحدهما ، ولم نسمع عن تأييد كعب للمنتفق ويئس فيصل من استمرار الحرب . ولكن ماجداً أصر على استمرارها وعلى الاستيلاء على البصرة والانتقام منها . فذهب فيصل إلى أبيه بينما لم يطق ماجد القتال وحده ، فخاض فى النهاية معركة خاسرة عاد على أثرها إلى أبيه وأفل نجمه (١٢٤٢ هـ) فلم يلبث حمود أن فر إلى الصحراء بينما تقدم عقيل بن محمد بن ثامر إلى مقر حكومته . وانتهى بذلك عهد حمود . ويقال إنه ذهب إلى بغداد وعاش فيها حتى توفى ١٢٤٧ هـ — ١٨٣١ م[2] ، أو ذهب خلال الطاعون إلى حلب حيث مات . ولم يبق من أخبار حمود سوى أن أقول إنه كان برغم صراعه العنيف ضد داود وضد غيره ضريراً[3] .

ويبدو أن عقيلا كان شديداً فى توطيد الأمن فى منطقة نفوذه فسارت الأمور فى عهده هادئة . ولما نشب الصراع بين داود وعلى باشا رضا الذى جاء لخلعه سنة ١٨٣٠ م كان من الطبيعى أن يستعين داود بعقيل شيخ المنتفق ،

---

(١) سياحتنامه حدود : ٣٢ ؛ مختصر مطالع السعود : ص ٦١ وانظر الفصل السادس .
(٢) العزاوى : عشائر العراق : جـ ٤ : ١١٢ .
(٣) عبد الله الناصر : تاريخ السعدون : ٣٩ / ٤٠ .

ولقد لبى عقيل نداء داود . وقد لعب العداء بين العشائر دوراً هاماً فى الكفاح بين داود وعلى رضا . فلا شك أن على رضا قرب صفوق شيخ شمر إليه لعدائها للوزير ولعدائها القديم للمنتفق . فكان من الطبيعى أن يستميت عقيل بمن بقى معه من عشائر المنتفق ضد شمر الجربا المؤيدة بالوزير الجديد والتى انضم إليها عدد من شيوخ المنتفق ، فدارت الدائرة على عقيل وهزم أمام صفوق شيخ شمر وكبا الحصان بعقيل فمات ، بينما أطلق على صفوق سلطان البر(١) .

سياسة داود إزاء الشيعة :

الشيعة فى العراق يمثلون قسماً كبيراً من الشعب العراقى ، بعضهم كان عشائر عربية ، وبعضهم ينزل كبريات المدن العراقية . فعدد من العشائر العربية شيعى المذهب مثل الخزاعل وبنى لام . وكانت هذه العشائر ذات أثر خطير فى بعض الأحيان . فقد تعددت ثوراتها كلما هبت الحرب بين إيران والدولة العثمانية مع أن السلطان سليمان القانونى اتخذ موقفاً كريماً منهم . بعكس موقف الشاه عباس أو موقف الشاه إسماعيل من السنة . وكانت حدة الصراع وطوله قد جعلا العشائر الشيعية تستمرئ العصيان والتمرد كلما شعرت بضعف القوة العثمانية أو بتأييد إيرانى(٢) . وقد ملأت هذه الثورات العشائرية ذات الصفة المذهبية تاريخ العراق وخاصة خلال وعقب الغزوات الإيرانية . ولذلك قبلت عشيرة الخزاعل الشيعية دخالة قاسم الشاوى فأصبح مركز الوزير مهدداً(٣) . واستطاع الوزير أن يعيدها إلى حظيرة الطاعة والهدوء بل فعل معها أكثر من هذا ، فقد أشرك شيخها فى تدبير أمور البلاد . وكان شيخها عوناً له على العشائر وكان يكلف بأعمال إدارية ومالية هامة(٤) . ولا شك أن داود

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ١٨ — ١٩ .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٥ : ٢٠ .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٨٦ (انظر الفصل الثانى) .

(٤) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٥٢ .

كان يتجه هذا الاتجاه لأمرين : أولهما ضمان تأييد عشيرة قوية له تعينه على العشائر الأخرى ، والثانى أن يسلب الإيرانيين أداة قوية لإثارة المشكلات فى وجهه .

ومع ذلك ظلت الاتصالات قوية بين شيوخ العشائر العربية الشيعية وحكام إيران [1] . ونظراً لما كان لهذه العشائر من قوة قادرة على إحراج مركز الوزير وتهديد كيانه فى داخل العراق نفسه ، دأبت إيران على تأييد هذه التمردات العشائرية ، وفى الوقت نفسه عملت على كسب ولاء عدد أكبر من العشائر العربية بتحويلها إلى المذهب الشيعى . وكانت الدعاية الشيعية هى وسيلة إيران لتحقيق هدفها ، هذا وقد ظهر هذا الاتجاه خلال حكم داود . فكان دعاة الشيعة يجوبون العراق الأوسط مبشرين بمذهبهم بين العشائر [2] . وكانت العقيدة الإسلامية لدى هذه العشائر سطحية ومعلوماتهم عن الدين لا تستطيع أن تقارن الدعايات الشيعية . وكانت قوة المذهب الشيعى فى إيران والعراق منذ زمن طويل سبباً فى تسهيل المهمة على دعاة الشيعة . ولم يواجه داود هذه الدعاية بسياسة إيجابية ، مع أن تحول العشائر إلى المذهب الشيعى قصد به أن يكونوا فى متناول أيدى الحكام الإيرانيين الشيعة ليصبحوا أداة هدم وتفكك فى كيان الشعب العراقى [3] .

إن داود عندما كان يتجه إلى توحيد العراق تحت حكمه كان يعالج المشكلة من الجانب السياسى والاقتصادى فقط دون أن يعالجها من الناحية الاجتماعية أو المذهبية . وما كان ليتمكن من القيام بإتمام التوحيد من الناحية الاجتماعية والدينية إلا إذا استطاع أن يقضى على التدخل الإيرانى فى شئون العراق وعلى الدعاية الشيعية الإيرانية ، وهذا كان غير ممكن لعدة أمور أهمها : —

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق . جـ ٥ : ٢٠ .

(٢) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٦١ .

(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٦١ .

ا — إن وجود المزارات الشيعية فى النجف وكربلاء وغيرهما يجعل عين إيران دائماً على العراق .

ب — إن قوافل الزوار كل عام كانت تعبر العراق إلى المزارات مما يولد فى النفوس العطف على أئمة الشيعة والميل إليهم والعراق يستفيد اقتصادياً من هؤلاء الزوار .

حـ — اعتماد شيعة النجف وكربلاء على تأييد وحماية إيران فقد هدد الشاه وأوعد عندما هاجم الوهابيون كربلاء (١٨٠١ م) وهدد حينذاك بمهاجمة العراق فكان الشاه هو البطل المدافع عن العراق بينما كان سليمان الكبير المملوك السنى الفاشل فى الدفاع عن كربلاء(١) .

د — بل كان أئمة الشيعة فى النجف إذا أعوزتهم الأموال ذهبوا إلى الشاه يسألونه أن يمدهم بما هم فى حاجة إليه أو يطوفون بإيران لجمع التبرعات .

هـ — الإصلاحات المعمارية التى كان يقوم بها رجال شاه إيران فى المزارات تقوى الثقة بين الشيعة من يوم لآخر بأن هناك من بين أصحاب الصولة من يقف وراء الشيعة .

وقد نشطت هذه الإصلاحات منذ أن تولى فتح على شاه العرش ، وكانت نشطة أيضاً منذ السنة الأولى التى تولى فيها داود (٢) . وكان من الطبيعى أن يترك داود — مثل أسلافه — هذه الإصلاحات تأخذ مجراها العادى لأن مجىء الزوار إلى العراق كان من أركان الاقتصاد العراقى ، وكان أهم هذه الإصلاحات فى مزارات النجف وكربلاء .

---

(١) L. Corancez: Histoire de Wahabies, Paris, 1809. P. 28—9.

(٢) أجرى فتح على شاه إصلاحات فى كربلاء سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٨ م) وبهمة الشيخ جعفر آل كاشف الغطاء الذى توجه لمقابلة الشاه فى طهران فى أمر تعمير الحائر بعد نكبته على يد الوهابيين وأخذ الشيخ يطوف بإيران مشجعاً على التعمير . (الدكتور عبد الجواد الكليدار : تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام بغداد : ١٣٦٨ : ٥٦) وأجرى إصلاح المئذنتين بأمر الحاج محمد حسين خان اسبهانى وزير فتح على شاه سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٣ م) .

وكانت تشع من النجف وكربلاء والحلة والبصرة روح معادية للمماليك وللأتراك على وجه العموم . وكانت هذه الروح تظهر قوية فى الثورات ضد الحكام . تلك الثورات التى كانت تتفجر فى كل من كربلاء والحلة والنجف . فلقد ثارت كل من كربلاء والحلة فى وقت متقارب عندما اشتدت الحرب بين داود وإيران بين ١٨٢٠ — ١٨٢٣ م . وكانت الثورات فى كل من النجف وكربلاء والحلة عنيفة . فأرسل على للنجف سنة ١٨١٨ م حملة أدبت طائفتى الزقرت والشمرت المتمردتين بها [1] .

كان موقف داود من هذه الثورات المذهبية فى أول الأمر حرجاً إذ كانت جيوشه مشغولة بنضال الإيرانيين والدفاع عن بغداد نفسها حتى بدأ يتنفس الصعداء . فالتفت إلى المدن العراقية التى تعاونت مع الغزاة وكانت على رأسها كربلاء والحلة .

وقد بدأ داود أولا بتحذير أهل كربلاء من الاستمرار فى غيهم وأنه عفا عما سلف ، وآن لهم أن يعودوا إلى طاعته وأن يدفعوا ما عليهم من أموال لخزينة الباشا وأن يحلوا تشيكلاتهم العسكرية . وأغلب الظن أن المدينة لم تكن ثائرة فى وجه الباشا من أجل المذهب وحده ، بل من أجل النهب والسلب أيضاً ولذلك جرد عليها داود قواته وحاصرها سنة ١٢٤١ هـ — ١٨٢٤ م حتى اضطرت إلى العودة إلى الطاعة وتعهد أهلها بدفع الأموال[2] .

وفى السنة نفسها كانت الحلة متمادية فى ثورتها[3] . وكانت إيران هى مدبرة هذه الثورة التى كان على رأسها محمد أغا — الثائر المطالب بالباشوية وكان من الطبيعى أن يلجأ إلى تأييد الشيعة له ، وذلك لأن الباشا الذى رشحه الشاه ليحكم بغداد . وكان من الطبيعى أن يعبىء داود قواته لمواجهة هذا الخطر ،

---

(١) وادى المطية : تاريخ الديوانية : ٢٣ — ٢٤ .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٨ .

(٣) الغريب أن أحداثاً جسيمة وقعت فى العراق لم يذكرها لطفى ومع ذلك أورد هذه الثورة واهتم بها نوعاً . تاريخ لطفى : ج ١ : ١١٦ .

وبخاصة عندما دخل حمود شيخ المنتفق المعركة ضد داود إذ أن النزاع بين داود وحمود بدأ حينذاك[1] .

قاد أحمد – كيخيا داود الجديد – قواته إلى الحلة وحاصرها وانتصر على المدافعين فيها ، وفر محمد أغا إلى المنتفق بينما استسلمت المدينة للكيخيا . ويقال إن أعوان محمد أغا فى كربلاء قتلوا . وبعد ذلك ترك الكيخيا حامية من العقيليين فى الحلة وعاد أدراجه [2] . ولم تكد تمر فترة قصيرة حتى اندلعت نيران الثورة مرة أخرى . ويقال إن السبب يرجع إلى أن العقيليين ظلموا الأهلين ومسوا شعائرهم المذهبية [3] . وهذا أمر غير مستبعد إذ أن العقيليين سنة وغلبوا الشيعة فى المدينة على أمرهم . وعلى أى حال لم تستطع الحامية الصمود وأصبحت الحلة بيد أهلها [4] فأسرع داود بإرسال جيش جديد لتأديبها واستطاع أن يستردها مرة أخرى ، وفى هذه المرة نالت الحلة تدميرا وتخريباً شديدين ثم عفا الوزير عن أهلها [5] .

ويحدثنا مؤلف تاريخ الحلة عن أن حكومة بغداد بعد أن عفت عن أهل الحلة اتفقت معهم على الإيقاع بقبيلة آل قشعم فحاربوهم وأجلوهم عن أراضيهم وفى أواخر حكمه واجه داود تمرد عشيرة كعب الشيعية[6] .

إن مجهودات داود نحو السيطرة على شيعة العراق فى سبيل توحيد العراق تحت حكمه لم تتمخض إلا عن وحدة صورية مؤقتة لم تلبث أن تتفكك : ولم يوفق كما لم يوفق فى وضع حل حاسم لمشكلة الشيعة التى تمتد جذورها إلى أوائل العصر الإسلامى ، وظلت مشكلة عويصة تقض مضاجع حكام العراق

---

(١) انظر العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ص ٢٩٠ وما بعدها .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٨ – ٢٨٩ .

(٣) يوسف كركوش الحلى : تاريخ الحلة : ٧٠ .

(٤) يوسف كركوش الحلى : تاريخ الحلة : ٧٠ ، ٧١ .

(٥) يوسف كركوش الحلى : تاريخ الحلة : ٧١ .

(٦) فى بستان (خوزستان الحالية) . انظر الفصل السادس .

حتّى القرن العشرين . هذا إلى أن الفرق فى العراق كانت موزعة إلى فرق متعادية ومغالية .

وعقيدة على إلهى[1] أشد هذه العقائد غلواً فى كردستان ومثلها فى الغلو الزيدية[2] والكاكائية [3] والقزلباشية [4] . وكانت تعتنق هذه العقائد عشائر قوية . فكان ذلك من عوامل شدة التفكك فى العراق .

أهم الإمارات والعشائر الكردية :

الأكراد سلالة منحدرة من أصل قديم كان يتكلم باللغة الاندو- أوربية . وقد جاءوا إلى كردستان من آسيا عبر إيران ، وحافظوا على أسلوب حياتهم هناك[5] . واشتهروا بالاستعداد للخدمة العسكرية ، شأنهم فى ذلك شأن سكان الجبال . وغالبيتهم سنيون ، ولكن وحدة الدين والمذهب لم تكن لتتغلب على العوامل الطبيعية التى وزعت كردستان إلى إمارات متعددة . ومع أنها عانت ما عاناه العراق من غزوات مغولية كان نصيبها من الدمار أقل . وهى مثل العراق خضعت للدول التركمانية حتّى الاحتلال الصفوى . وقد اعترف السلطان بالعصبيات الحاكمة فى كردستان. وكانت أشهر تلك العصبيات العصبية البهدينانية فى العمادية التى تدعى أنها من سلالة العباسيين ، وقد بدأ حكمها سنة ٧٤٠ هـ – سنة ١٣٢٩م [6] وأبقاها السلطان سليم على إمارتها سنة ١٥١٤م والعمادية تقع فى أقصى شمال العراق وهى أقرب إلى الموصل منها إلى بغداد .

---

(١) يقال لهم النصيرية أو العلوية . تعتبر علياً إلها . انظر عباس العزاوى : الكاكائية فى التاريخ ١٠٠ – ١٠٣ ،وكذلك محمد أمين زكى: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان: ٣٠٥ – ٣٠٦، محمد أمين زكى : خلاصة تاريخ الكرد : ٣٠٥ – ٣٠٦ .

(٢) المرجع السابق : ٣٠٠ – ٣١٤ .

(٣) يعتقدون فى التناسخ ولا يتلون القرآن – انظر العزاوى : الكاكائية : ٣٥ و ٥٥ و ٦٢ و ٨٢ .

(٤) القزلباشية : طريقة مأخوذة من الطريقة الصفوية .

(٥) الدكتورة دولت صادق ، الجغرافية السياسية : ٤٠٧ – ٤٠٨ .

(٦) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٤ : ٢٨٣ .

وكانت منذ البداية تابعة لبغداد [١]. ويبدو أن ضعف باشوات بغداد أبعدها عن دوام سيطرة بغداد عليها . فكانت أحياناً تحت قيادة كركوك وأحياناً تحت قيادة بغداد ، ومرة تعاون الدولة العثمانية ضد إيران ومرة أخرى ضدها[٢] وفي عصر المماليك كذلك لم تدخل بوضوح تحت نفوذ بغداد القوى[٣] .

أما الإمارة الصورانية فى أربيل فقد ضعفت فى عهد سليمان القانونى بسبب توليته عليها حاكماً يزيدياً . هذا إلى أن العثمانيين كانوا يضربون الإمارة الصورانية بالعمادية . ولم تنتعش الإمارة الصورانية إلا على يد محمد باشا الراوندوزى (ميركور) أو (كورپاشا) فى عهـــد داود فى وقت كانت فيه الإمارة البابانية تتدهور بسرعة .

وعدا ما ذكرناه كانت توجد عصبيات عشائرية كردية قوية أهمها :

(١) الجاف ، فى منطقة السليمانية على الحدود بين إيران والعراق . منها من كان ينزل فى « زهاو » ، ومنطقة زهاو منطقة نزاع بين إيران والدولة العثمانية . ونظراً لكثرة انتقال عشائر الجاف عبر الحدود العراقية — الإيرانية كانت سبباً فى اضطراب العلاقات بين الدولتين[٤] .

(٢) بشدر : فى منطقة السليمانية ، ومنها تكونت أسرة بابان فى السليمانية[٥] .

(٣) البلباس : عشيرة كردية قوية فى منطقة أربل أزعجت كلا من إيران والدولة العثمانية[٦] .

(٤) الديزة يى : وهذه كانت إمارة قوية قبل العهد العثمانى وزاحمت إمارة طى فى منطقة أربل[٧] .

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٥ : ١٣١ و ٢١٩ و ٢٦٣ و ٢٧٩ .

(٢) صديق الدملوجى : إمارة بهدينان : ص ٣٧ — ٣٨ .

(٣) صديق الدملوجى : إمارة بهدينان : ٤٠ — ٤٧ .

(٤) العزاوى : عشائر العراق : جـ ٢ : ٢٨ — ٢٩ .

(٥) العزاوى : عشائر العراق : جـ ٢ : ٩٨ — ١٠٠ .

(٦) المصدر السابق : ١٠٩ .

(٧) العزاوى : عشائر العراق : جـ ٢ : ١٤٤ — ١٤٥ .

(٥) الهماوند : عشيرة فى منطقة بازيان : قرب السليمانية نافست البابانيين[١] .

(٦) عشائر اليزيدية : وهم من الأكراد لهم شخصيتهم القائمة بنفسها لمعتقداتهم الغريبة الغامضة[٢] ولأسلوب حياتهم الذى يختلف عن أسلوب بقية الأكراد ولاعتقاد الحكام العثمانيين والبغداديين أنهم كفرة يجب قتالهم ، وذلك يرجع إلى فتوى صدرت من شيخ الإسلام فى القرن السادس عشر . وكان ذلك سبباً فى عمق الكراهية بين اليزيديين وحكام العراق ، وبخاصة أنهم كانوا يستطيعون قطع الطرق الهامة المارة بين الموصل والشام ، ولذلك كان خطرهم يتردد صداه فى العراق كله وفى الآستانة ، وكانت الموصل عاجزة عن السيطرة عليهم ، فكلفت بغداد بدرء خطرهم وجعلت ماردين تابعة لبغداد لهذا السبب[٣] . ولكن الحملات العنيفة لم تكن تنتهى أبداً بإخضاعهم الإخضاع التام لأن جبالهم منيعة فلا يلبثون أن يستأنفوا نشاطهم المعادى ، وهم وحدهم الذين تمسكوا بمعتقداتهم الخاصة بينما معظم كردستان سنى المذهب .

تلك كانت العشائر الكردية الكبرى التى لعبت أدواراً هامة فى تاريخ كردستان والعراق ، وخاصة فى عهد المماليك ، وكانت تلك العصبيات الكردية هى الحاكمة بينما كانت الرعية فى القرى تسمى كرمانج .

وعندما استولى السلطان سليم على كردستان خلال حربه ضد إسماعيل الصفوى لاحظ أن الكرد كرهوا الحكم الصفوى بسبب الخلاف المذهبى بين أهل السنة والشيعة وبسبب أن الشاه إسماعيل فرض عليهم حكاماً إيرانيين . فأبقى السلطان سليم العصبيات الحاكمة على حالها ، وأعاد الحكام الأكراد إلى حكوماتهم فى إطار التبعية للسلطان العثمانى[٤] .

---

(١) العزاوى : عشائر العراق : ج ٢ : ٧٧ — ٧٨ .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٤ : ٤٣ .

(٣) إسماعيل جول : اليزيدية قديماً وحديثاً بيروت ١٩٣٤ : ص ١١٢ — ١١٣ : تاريخ ماردين ورقة ١٣٨ — ١٤١ . Olivier ; Op. Cit, Iv. p,244,

(٤) رحلة المنشى البغدادى : ٥٦ .

وكان الأمراء الأكراد على وجه العموم يقدرون قيمة موقع بلادهم الجبلية الصعبة الممرات بين بلاد السلطان وبلاد الشاه ، ولذلك كانوا يستعينون بالإيرانيين إذا هددهم العثمانيون، ويستعينون بالعثمانيين إذا ما هددهم الإيرانيون ولا يهمهم فى ذلك كون الدولة فى حرب أم فى سلم مع إيران[1] .

وهذا لا يتنافى مع مذهبهم السنى القوى . فإن الأمراء كانوا يقبلون المساعدة الإيرانية لغرض سياسى معين لوقت معين حتى إذا ما تحقق للأمير حلمه فى التخلص من الضغط العثمانى انقلب على حلفائه الإيرانيين ليطردهم من بلاده . ولقد اشترك الأكراد فى الحرب ضد إيران تحت قيادة حسن باشا والحماس المذهبى وكراهية الحكم الإيرانى يدفعانهم إلى التضحية فى هذه المعركة فلما اصطدم الجيش البغدادى بجيش الأفغانيين السنيين لقيت دعاية الأفغانيين كل ترحيب لدى الزعماء الأكراد وتخلوا عن قائدهم أحمد باشا (١٧٢٦ م) ، حتى لا يشهر سنى السيف فى وجه سنى . وفى الوقت نفسه كان الأكراد قد شعروا بوطأة الحكم البغدادى على يد حسن باشا وأحمد باشا فعملوا على التخلص منه ، فوقعت المعارك الطاحنة بين حكام بغداد والعصبيات الكردية ومن يأتى من الإيرانيين .

ولذلك كانت كردستان ميدان صراع لا يهدأ ، وكانت عبئاً ثقيلا على كاهل بغداد . وكانت إيران تستخدم العصبية الكردية — التى كانت تحت حكمها — فى إثارة القوضى هنالك . وكان موقف حكومة إيران موقف المهاجم غالباً فى كردستان ؛ وكانت جيوشها تمرح فيها حتى يشتد الأمر على العراق فتندفع قوات باشا بغداد لتأديب الكرد الذين كانوا يسمحون لهذه الجيوش بأن تحتل أجزاء من الإمبراطورية العثمانية . ومع ذلك كان باشوات بغداد كثيراً ما يحتاجون إلى القوة الكردية ليضربوا بها العرب المتمردين أو ليضربوا المطالبين بالباشوية . فكانت هذه الحاجة من أسباب ضعف سيطرة بغداد على كردستان .

---

(١) محمد أمين زكى تاريخ الكرد وكردستان : ٢٢٣ .

ومن ناحية أخرى كانت بلاد الكرد مهيأة كل التهيؤ لقيام أسرات حاكمة متعددة متجاورة متنافرة . ومن تلك الأسرات التى دوت أحداثها فى التاريخ الأسرة البابانية التى أسستها شخصية كردية حفظتها لنا الأساطير ، وهى شخصية فقيه أحمد الذى ينسب إليه تأسيس وجاق بابان .

وقد تفوقت هذه الأسرة على جيرانها ولمع نجمها عندما منح السلطات سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ - ١٦٧٠ م) سنجق « قره جوالان » [١] إلى أحد أحفاد فقيه أحمد [٢] . وكان وجود الدولة الإيرانية الطامعة المتربصة على حدوده الشرقية سبباً فى أن يشعر البابانيون بأن هناك قوة يمكن أن يعتمد عليها إذا ما شقوا عصا الطاعة على السلطان ، وكانت إيران من ناحيتها مستعدة فى معظم الأحوال لأن تمد اللاجئ إليها بقوات إيرانية ليتولى قره جوالان ، وكانت طبيعة بلاد الأكراد فى الوقت نفسه - مثل جغرافية اليونان - سبباً فى توزع الحكم هناك إلى إمارات صغيرة ، وسبباً فى أن تصبح عدة مدن ووديان ذات حصانة تكفل لصاحبها أن يدافع عنها . وأخذت الأسرة البابانية تتوسع على حساب الإمارات المجاورة لها مثل الصورانية والبهدينانية حتى أصبحت تسيطر على راوندوز وكفرى وحرير وقزلجه وسروجك وقره طاغ وأربل، وامتد نفوذها إلى كركوك . وكانت عشيرة الجاف كذلك تتبع البابانيين ، وكانت هناك مصاهرة بينهما . وامتدت حدود البابانيين حتى نهر تاهت فى الشمال وإلى زنكباد والدربند الغربى حيث كانت الحدود بين باشوية بغداد وسنجق السليمانية مبنية بخط من الحجارة ، كما امتدت تلك الحدود بين الزاب ونهر ديالى (سيروان)[٣] . ولذلك يمكن أن نسمى الباشا البابانى بباشا كردستان . وأبلغ دليل على قوة الباشوات الأكراد فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر

---

(١) السليمانية فيما بعد .
(٢) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ٦٠ .
(٣) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ٦٢ .

أن أحدهم استطاع أن يبنى مدينة السليمانية (1) لتكون قاعدة جديدة بتلك الأملاك الواسعة . ولقد أصبح الباشوات البابانيون بالفعل الند الخطر للمماليك .

سياسة داود إزاء الأسرة البابانية :

كانت لهذه الأسرة أحداث جسام زعزعت غير مرة مركز المماليك وظهرت خيالة الكرد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كقوة ذات بأس شديد وذات أهمية كبرى للمماليك فى أوائل عهدهم . ولا شك أن استخدام المماليك لخيالة الكرد فى ضرب المتمردين وشعور البابانيين بقوتهم بعد تفوق إيران على المماليك سنة ١٧٧٦ م والفوضى التى طحنت العراق بين عهدى عمر وسليمان الكبير ، كل هذه العوامل كانت سبباً فى أن يشعر الأكراد بأن تبعيتهم لبغداد وعهد الوزراء العظام قد انتهى ، وأنه آن لهم أن يطالبوا بباشوية بغداد وإن لم يستطيعوا عملوا على الاستقلال عن بغداد وعلى الاتصال مباشرة بالسلطان (2) . ولقد حاول عبد الرحمن البابانى غير مرة أن يحقق هذه الأهداف ولكنه فشل فى محاولاته لأنها كانت فى وقت شباب حكومة المماليك . على أن الحكم البابانى وصل إلى ذروته عندما أصبح عبد الرحمن هذا من القوة بحيث أنه هو الذى نصب الوالى المملوك عبدالله باشا على بغداد . ولكن الباب العالى ما كان ليوافق مطلقاً على أن يحقق رغبة عبد الرحمن فى تولى باشوية بغداد ، نظراً لما عرف عن البابانيين من ميل سريع لإيران ، ولعل عبد الرحمن حاول أن يحقق هدفه الآخر بأن يستقل عن بغداد وأن يكون متصلا رأساً بالباب العالى ليحقق تمتعه بالحكم الذاتى وليكون على قدم المساواة على الأقل مع حاكم بغداد الذى تولى الحكم بوساطة السيف الكردى . ولكن هذه المحاولة أخفقت أيضاً على يد داود عندما ثبت هو ومن

---

(١) بناها إبراهيم بابان باشا ، بدأ فى تشييدها ١١٩١ هـ — ١٧٨٤ م ، وسماها السليمانية تيمناً باسم سليمان الكبير والى بغداد من (١٧٨٠ — ١٨٠٢ م) .

(٢) انظر : محمد أمين زكى تاريخ السليمانية : ١٦ .

معه من رماة المماليك فى موقعة كفرى (١٢٢٨ هـ - ١٨١٢ م)[١] . ويمكننا أن نقول إن عهد عبد الرحمن باشا البابانى كان الوقت الذى استطاع فيه البابانيون أن يبلغوا ذروة مجدهم وأن آمالهم فى عهده ومن بعده انحصرت فى التخلص من الضغط الإيرانى والمملوكى ما أمكن ، بالاستعانة بكل منهما فى سبيل تحقيق هذا الهدف .

وتولى محمود الحكم على السليمانية عقب وفاة أبيه عبد الرحمن (١٢٢٨ هـ - ١٨١٣ م) برضاء الشاهزاده محمد على ميرزا ، فأدى عزل سعيد باشا لمحمود باشا إلى تعاون إيرانى - كردى ضده ، وانفصمت عرا هذا التحالف عندما تحالف داود مع محمود ضد سعيد باشا سنة ١٨١٥ م على أساس أن يتخلى محمود عن حلفائه الإيرانيين . وعقب تولى داود الباشوية وجد الباشا أن محموداً - وقد عجز عن مقاومة ضغط الشاهزاده - قد مال إلى إيران . فأدى ذلك إلى الصراع بين داود ومحمود وتطور الأمر إلى حرب مع إيران[٢] .

وقد كانت القوة الكردية حينئذ خطراً شديداً على داود وهو لم يكد يثبت أقدامه بعد . ولم يكن هذا الخطر كامناً وراء قوة البابانيين العسكرية فحسب ، بل كان أيضاً وراء ذلك التعاون الكردى الإيرانى الذى يحط من قدر الباشا المملوكى فى نظر الباب العالى ويصمه بالعجز عن ضمان ولاء الكرد للسلطان . ولم يكن فى استطاعة داود فى هذا الموقف المبكر من حكمه إلا أن يتبع الأساليب القديمة فى مواجهة التمردات الكردية عندما أراد أن يقلم أظافر محمود بالطريقين المعهودين وهما :

ا - تضييق الخناق عليه بالسيطرة على بعض المواقع الكردية الاستراتيجية الهامة مثل كوى وأربل وألتون كوبرى[٣] .

ب - اجتذاب أحد الأمراء البابانيين إلى جانبه[٤] .

---

(١) انظر الفصل الأول .

(٢) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٠٢ - ١٢٥ - ١٢٨ .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٦ : ٢٥١ .

(٤) جودت : جـ ١١ : ٣٠ .

وكلتا هاتين الخطتين العسكرية والسياسية سهلة التحقيق فى البداية نظراً لأن قرة باشا كردستان مهما عظمت مهددة بخطرين :

ا — الجيش البغدادى المملوكى .

ب — خيانة أعضاء الأسرة البابانية للباشا البابانى الحاكم .

وهكذا كانت التربة خصبة لتدبير المؤامرات ضد محمود باشا ولعثور داود على حلفاء أقوياء له من بين أعضاء الأسرة البابانية نفسها ، فحالفه عبد الله باشا المطالب بحكم السليمانية ، وكذلك حسن بك — أخو محمود — الذى كان بسبيله ليكون رهينة محمودباشا لدى الشاهزاده فى كرمنشاه، إلا أن الحرب سارت لصالح محمود البابانى وحليفه الشاهزاده[1] فاضطر داود إلى أن يبقى محموداً على السليمانية سنة ١٨١٨ م وعلى كوى وحرير وكانتا قد منحتا لحسن بك الذى استدعاه داود إلى بغداد .

وبعد ذلك النصر الذى أحرزه محمود نجده يطالب داود بأن يعيد إليه أخاه حسن بك كما طالبه ببعض المناصب الأخرى مثل ضم أربل وآلتون كوبرى إليه . وأرسل محمود أمه للتفاوض مع داود فى هذا الشأن [2] . وفى الوقت نفسه كانت الظروف فى السليمانية وبغداد تقضى بتعاون محمود وداود ضد الخطر الإيرانى المتزايد فى مايو — يونيو سنة ١٨٢٠ فقد كان فى بلاط السليمانية مبعوث إيرانى يدعى « باقرخان » يطالب محموداً بدفع ثلاثين ألف تومان [3] للشاهزاده ، وكان هذا عبئاً مالياً ثقيلا على محمود . وكانت مطالبات الإيرانيين لا تنتهى . ومن ثم كان محمود فى حاجة إلى داود فى هذه الأزمة كما كان داود فى حاجة إلى محمود ليخلص العراق الشمالى من النفوذ الإيرانى ،

---

(١) اضطر داود إلى عقد الصلح مع الشاهزاده ومع محمود بسبب فرار صادق بك إلى زبيد . جودت : ج ١١ : ٣٠ .

(٢) رحلة ريچ : ٧٥ — ٩٠ — ٩٢ — ٢٦١ .

(٣) عملة إيرانية فضية .

كان أمل الشاهزاده أن يكون له رأى دائماً فيمن يتولى حكم كردستان .
لذلك كان تآزر باشا كردستان مع باشا بغداد أمراً ضرورياً إذا أراد كل منهما أن يتخلص من الضغط الإيرانى . ولم يكن أمام محمود باشا من قوة أخرى يستطيع أن يعتمد عليها ليواجه الضغط الإيرانى غير قوة داود العسكرية لأن كردستان تابعة لبغداد ، وبغداد تابعة للإمبراطورية العثمانية ، وغزوها غزو للدولة العلية . وإذا لم تتخذ الدولة فى بعض الأحيان الإجراءات الكفيلة بإنقاذ كردستان من الجيوش الإيرانية فلا يرجع ذلك إلا لأن المهمة فيما يرى الباب العالى ملقاة على باشا بغداد ، الذى عليه أن يحمى العراق بأسره من الخطر الإيرانى ، وكان محمود باشا قد تألم كل الألم من مطالبة الشاهزاده له بالأموال [1] . وقد آن الأوان لأن يتفاهم الطرفان وأن يواجها الخطر الإيرانى وفق خطط مشتركة . ولما كان وجود حسن بك فى بلاط داود واستبعاد أربل وآلتون كوبرى من نفوذ محمود باشا من دواعى الفرقة بين محمود وداود ، فإن هاتين المسألتين كانتا أساس المفاوضات التى جرت بين داود وأم محمود سنة ١٨٢٠ .

وقد كللت المفاوضات بين داود وأم محمود بالنجاح ، وكان من نتائج هذه المفاوضات أن أرسل داود حسناً إلى أخيه محمود . وينحى ريتش Rich باللائمة على داود لتسليمه حسن إلى أخيه الموتور منه فيقول إن داود عندما علم أنه « لا خير يرجى من حسن بك » قبل أول عرض عرضه عليه محمود باشا وسلم حسن بك إلى أخيه دون الاكتراث بمصير حسن بك . ويستطرد ريتش Rich معرضاً بموقف داود فيقول إن داود سلم أيضاً عبد الله باشا وبالأحرى غدر به غدراً شنيعاً بتسليمه إلى محمود باشا فأصبح عبد الله تحت رحمة ابن أخيه الذى لو كان فى موقف المنتقم منه لأسرع إلى القضاء عليه سراً وعلناً . ولكن لم يخطر على بال محمود باشا شىء من هذا القبيل بل عامله بالحسنى ومنحه منطقة من أحسن مناطق كردستان [2] » .

---

(١) رحلة ريج : ٧١ . (٢) رحلة ريج : ١٠٤ .

واضح مما سبق أن ريتش يحمل داود وزر خيانة الحليف لحليفه ، وأن داود في نظره باع حسناً لمحمود ، وأن سلوك المماليك جرى على هذا النحو من الغدر والخيانة . فهل حقاً خان داود عهده لحسن وتخلى عنه فعلا وسلمه لأخيه الموتور ؟ وأن داود سلك السلوك نفسه نحو عبد الله ؟.

ليتضح لنا الموقف يجب أن نتذكر أن داود وريتش كانا قد دخلا في المرحلة الختامية من صراعهما (وأنه متحامل على داود فيما كتب) .

ولا شك أن هذه الصورة التي رسمها ريتش لداود [1] — والتي أراد بها أن يشوه أعمال داود — ليست موجودة إلا في مخيلة ريتش ، فإن محموداً كان يعمل على أن يقضي على النزاع الدموي المدمر بين الأمراء البابانيين ، وشعر أن من واجبه توحيد كلمة الأسرة ، وأن ذلك يتأتى عن طريق جمع كبرائها ، وتبصيرهم بالهوة التي ينزلقون نحوها باستمرار تناحرهم هذا ، لعله يقضي على المؤامرات البابانية التي تدبر في كل من كرمنشاه وبغداد ، وذلك بجلب الأمراء البابانيين من كل من كرمنشاه وبغداد إلى السليمانية [2] ، وأن يكون هؤلاء تحت عينه ، وأن يمنحهم من المناصب ما يكفل لهم حياة كريمة ، ولذلك استدعى محمود أولئك البابانيين الذين كانوا في كرمنشاه ، كما استدعى حسناً من بغداد وأتى بعمه عبد الله من بغداد وطلب إليه أن يبتعد عن مجال المؤامرات الإيرانية . وكان محمود يقـــدر تماماً أن الشاهزاده لاشك سيؤلب عبدالله أو عثمان عليه إذا ما رفض أن يدفع الثلاثين ألف تومان ، ولذلك اجتمع عبد الله وعثمان ومحمود أمام شيخ خالد النقشبندي [3] ، وأقسموا على أن يسلم كل من الثلاثة أي كتاب يأتي إليه من الترك أو من الإيرانيين إلى الشيخ خالد وأن يفتحه في دار الشيخ خالد وبحضور جميع من اتفق على ذلك [4] . ولكن

---

(١) كلاوديوس ريج : رحلة ريج في العراق : ١٠ .

(٢) رحلة ريج : ١٠ .

(٣) انظر الحديث عن الشيخ خالد في الفصل الثامن .

(٤) رحلة ريج : ١٠٣ .

عبد الله تسلم كتاباً من الشاهزاده يستقدمه فيه إلى كرمنشاه لينيط به حكم السليمانية . وكتم عبد الله الأمر عن محمود لحاجة فى نفس يعقوب . ولكن مخابرات داود التى اكتشفت خيانة سيد عليوى [1] كشفت أيضاً العلاقات السرية بين عبد الله والشاهزاده فأسرع داود إلى إخبار محمود باشا بما يكتبه عبد الله ويدبره الشاهزاده . فوضعه محمود تحت المراقبة ليتأكد من خيانته للعهد حتى إذا ما تأكد من اتصاله بالشاهزاده ومن استعداده للفرار إلى كرمنشاه ألقى القبض عليه [2] . ولقد ثبتت خيانته بالفعل فألقى محمود القبض عليه ثم أخذته الشفقة فأفرج عنه برغم معارضة داود . وكان داود محقاً فى أن يتمسك باستمرار باعتقال عبد الله ، فقد فر بعد ذلك إلى كرمنشاه . ومع هذا كله لم يتورع ريتش Rich فيما كتبه من اعتقال عبد الله ثم الإفراج عنه عن أن يتهم الوزير بأنه باذر بذور الشقاق والتنافر بين أفراد الأسرة البابانية .

ويشير ريتش إلى أن عثمان بك — أخا محمود الكاره للنفوذ المملوكى ، والذى كان يحتقر داود ، والذى كان لا يميل للأتراك — رجل شريف فى كل ما عمله من حيث رغبته عن تولى السليمانية لاعن طريق الشاهزاده ، وإنما عن طريق تنازل محمود نفسه له . فإن ريتش يروى أن محموداً كان يلح فى التنازل عن حكم السليمانية لعثمان بك ، وأن عثمان من جانبه يصر بقوة على عدم قبول هذا التنازل لأنه كان يرى فى أخيه الأكبر الزعيم السياسى القادر على أن يقيل البلاد من عثرتها ، وأن محموداً فى حاجة إلى أن يبقى عثمان إلى جانبه وأن داود هو الذى يعمل على إبعاده عن السليمانية حتى ينفرد بمحمود فيكون القضاء على محمود سهلا ما دام عثمان بعيداً عنه [3] .

وقصة رغبة تنازل محمود باشا لعثمان لم يروها سوى ريتش ، وإننى لا أكذب ريتش فيما ذكره من أن محمود باشا أبدى أمامه رغبته فى التخلى

---

(١) انظر الفصل الثانى .
(٢) رحلة ريج : ١٠٣ .
(٣) رحلة ريج : ٢٢٤ .

عن الحكم وأن ريتش سأله أن يستمر في القيام بأعباء منصبه لصالح آلاف الرعية ، فقد يكون ما أظهره محمود أمام ريتش نفثة مصدور عبر بها عما يعتمل في صدره من ألم ممض بسبب سوء أحوال أسرته . وهذا لا يدل على الرغبة الحقيقية في التنازل . وهذه الرغبة لا تستقيم مع التيار الذى كان يندفع فيه محمود نحو التحالف مع داود ولا تستقيم مع اعتقال محمود لعثمان في هذا الوقت بالذات كما لا تستقيم مع ما عرف عن محمود من شدة تمسكه بالمنصب[1].

ولقد اغتر ريتش بما ذكره محمود من أنه لن يتخلى عن داود مطلقاً ، فأسف كل الأسف على ذلك الباشا الكردى الطيب القلب الذى كان يلعب به داود ويغدر به ثم يكسبه ببضع كلمات طيبة [2] . ولقد مد الله في عمر ريتش قليلا حتى رأى أن الكارثة التى حلت بجيش كيخيا داود في حربه ضد إيران ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ — ١٨٢١ م) كان لمحمود دور أساسى فيها .

إن التحامل واضح فيما كتبه ريتش عن داود ، وهو في كتابته هذه يبين الجانب الرئيسى من اتجاهاته السياسية نحو استغلال الأقليات ، وما الأكراد إلا أقلية كبيرة وسط المجموع العراقى . ولذلك يعمل ريتش Rich جاهداً على أن يكون باشا السليمانية متعاوناً معه ومتمشياً مع أهداف سياسته . ومتى أصبح باشا السليمانية مع القنصل الإنجليزى أصبحت لديه قوة رهيبة تستطيع أن تزلزل كيان باشا بغداد . وقد كان نفوذ ريتش Rich قوياً في كل من الموصل والبصرة أيضا . ومعنى هذا أنه يصبح قوة عسكرية وسياسية على جانب عظيم من الخطورة تستطيع أن تبقى الباشا في كردستان أو أن تعزله ، وبخاصة إذا ما كانت العلاقات بين القنصل وكرمنشاه قوية أيضاً . ولقد كانت علاقات ريتش Rich مع الفرس ودية[3] . وكان يعطف على عبد الرحمن البابانى وعلى آماله ، وكان صديق عثمان ويكبر فيه نقمته على الترك[4] . وهكذا كان يعمل

---

(١) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٤٩ — ١٥٩ .

(٢) رحلة ريج : ٢٣١ .

(٣) Rich: Narrative of a Residence. Vol. II P. 18 .

(٤) رحلة ريج : ٦٧ ، ٦٨

ريتش على إثارة الروح القومية فى الكرد لا لمصلحة الأكراد أنفسهم ، ولكن ليجعل منها قوة خطيرة يعتمد عليها فى مناهضته باشا بغداد أولا وفى تفكيك قوى العراق ثانياً .

وأيا كان الأمر فقد استمرت كردستان فى طريقها المعتاد خلية لمؤامرة مرشح بابانى للسليمانية تواجهها مؤامرة لمرشح بغداد ، واستمرت كردستان تعانى أشد العناء من اجتياح الجيوش لبلادها ، ثم جاءت الكوليرا سنة ١٨٢١ فقضت على عدد ضخم من سكان كردستان ، وبالتالى وهنت قوى باشا السليمانية العسكرية . وفى الوقت نفسه استمر النفوذ الإيرانى فى كردستان [١]. وعلى هذا النحو كان تاريخ بابان .

ولم تشذ عن هذا المجال سوى حركة ذات مغزى قام بها أحمد بك ، أخو داود وكيخياه . فقد جهزه داود بجيش كبير وكلفه بتنظيم شئون كركوك ، فارتعدت فرائص محمود وفر إلى إيران . ويصور لونجريج[٢] الهجوم الذى شنه أحمد هذا بأن النية كانت تتجه إلى إسناد السليمانية إلى أحمد بك . وهذه خطوة لها أهميتها من حيث توطيد حكم أسرة داود فى أكبر مركزين فى العراق ، وهما : بغداد والسليمانية . وليس هذا إلا نتيجة لرغبة داود فى توحيد العراق فى يده . ولكن داود قدر صعوبة بقاء أحمد فى حكم كردستان وما قد ينجم عن ذلك من فتن واضطرابات تثيرها العصبيات الكردية فعاد إلى السياسة التقليدية وأسند السليمانية إلى عبد الله باشا .

لقد كانت المصلحة الشخصية والمصلحة العامة معاً تقتضيان العمل على إبعاد النفوذ الإيرانى عن كردستان ، وذلك الأسلوب من السياسة هو الذى كان يستطيعه داود فى ذلك الوقت . فلا شك أن معاهدة أرضروم (سنة ١٨٢٣) التى عقدت بين الدولة العثمانية وإيران وحددت الحدود لم تنفذ بحذافيرها ، فقد ظل الإيرانيون يحتلون لواء حلوان [٣] ، وظلت مؤامراتهم مستمرة فى كردستان فلم تغير المعاهدة من العلاقات العراقية — الإيرانية شيئاً .

---

(١) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية ١٥١ — ١٥٦ .
(٢) Longrigg: Four Centuries p 246.
(٣) رحلة المنشى البغدادى ٤٣ — ٤٤ .

وكان من الطبيعى أن تضعف السليمانية نتيجة لهذه الحركات العسكرية المتكررة المدمرة وأن تقوى على حسابها جارة ناشئة . وهذا ما حدث عندما تولى حكم راوندوز محمد باشا[1] كور الصلب العود والذى تطلع إلى أن يحل محل البابانيين فى كردستان . ولعل داود مال إليه لأنه كان ضد إيران وكان ضد البابانيين الذين وضعوا كردستان غير مرة تحت أقدام إيران ، ولم يعد داود ينتظر كبير فائدة من السليمانية المخربة المحتضرة فقوى أواصر العلاقة بينه وبين باشا راوندوز الذى كان أشبه بالباشا الشبه المستقل الذى لم يخضع للشاه ولا للسلطان[2] . وأخذ محمد باشا كور يوسع نفوذه حتى استطاع أن يستولى على سورجك وخوشنا وحرير ورانيه ، والأخيرتان كانتا للبابانيين[3] ، وتدخل بشكل سافر فى شئون العمادية التى تصطرع فيها قوى المدينة كأخواتها من المدن الكردية للاستيلاء على الحكم[4] .

وكانت سياسة داود إزاء إمارات كردستان المتنافرة شبيهة إلى حد كبير بسياسة الباب العالى إزاء باشوياته ، يضرب باشوية بأخرى . ولذلك نجد داود يحض « محمد باشا الراوندوزى على مقاتلة محمود باشا بابانى . بيد أن محموداً استطاع بمساعدة الجيش الإيرانى إرجاع جيش راوندوز القهقرى[5] . وكان ذلك سبباً فى توتر العلاقات بين إيران والدولة العلية ، فأرسلت الدولة العثمانية أسعد أفندى للتحقيق فى هذه المشكلة ، وأراد أسعد أفندى أن يستجوب محموداً ولكن هذا أبى أن يأتى إلى بغداد . ويفسر صاحب تاريخ السليمانية عدم حضوره

(١) أسس محمد باشا الراوندوزى هذه الإمارة سنة ١٨١٠ م فى راوندوز وكبر شأنها على يد محمد باشا الكبير (١٨٢٦ — ١٨٣٤) ولكن الدولة قضت على إمارته وفق سياستها نحو إعادة الحكم المباشر إلى ولاياتها (تاريخ السليمانية : ٢٤٢ — العزاوى : تاريخ العراق جـ ٧ ٣٢ .

(٢) تاريخ السليمانية : ١٥٠ — ١٥١ (Porter: Op, Cit. II. P. 470 — 1)

(٣) الدملوجى : بهدينان ٤٤ — ٤٥ .

(٤) الدملوجى : بهدينان ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥

(٥) تاريخ السليمانية ١٥١ .

بأنه خشى من غدر داود به . على حساب المثل القائل : «اتق شر من أحسنت إليه [1] » . ولعل هذا أيضاً من التجنى على داود .

وعلى أى حال فإن انتصار محمود باشا البابانى على محمد باشا الراوندوزى واتباع داود تلك السياسة التقليدية غير المجدية واستمرار التدخل الإيرانى فى كردستان لم يكفل لأى من المتنازعين كسب نصر دائم فى كردستان . ولكنه لاشك أكد للدولة العثمانية أن داود غير قادر على فرض سلطة الدولة العثمانية على كردستان وتطهيرها من القوات الإيرانية .

فهل كان فى استطاعة داود أن يشن حرباً فى كردستان تدين على أثرها لوالى بغداد بصورة كاملة تامة ؟

الواقع أنه لم يكن فى استطاعة داود أن يشن حرباً على نطاق واسع ضد كردستان ليفرض عليها حاكماً يدين فقط بالولاء لبغداد لما يتطلب ذلك من حملة تجتاز مضايق كردستان وتجتاح جبالها وتستولى على معاقلها معقلا إثر معقل [2] . وماكانت لدى داود من القوات ما يكفل له نصراً مؤزراً فى هذه العلمية الحربية الخطيرة التى ربما تنتهى بكارثة مروعة على أثر استنجاد البابانيين بإيران . ولم تستطع حكومة من الحكومات أن تسيطر على العراق الشمالى سيطرة كاملة إلا بعد أن عينت الحدود بدقة بين العراق وإيران، وأصبحت ولايات العراق تحت الحكم المباشر للباب للعالى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حيث وجه السلطان ضربة حاسمة — لم تتدخل فيها إيران — إلى البابانيين قضت عليهم . فقدكان سقوط بغداد سنة ١٨٣١ فى يد على رضا باشا مقدمة للقضاء على دربيكات العراق . وكانت السليمانية مهيأة بضعفها وشيخوختها السريعة

---

(١) تاريخ السليمانية ١٥١ .

(٢) يحدثنا Gibb أن الباب العالى لم يكن فى استطاعته أن يخضع العصبيات الكردية الحاكمة بسبب تضاريس مناطقها الجبلية وهذا كان شبيهاً بموقف داود .

Gibb & Bowne: Islamic Society and the west. Lt. I, P. 175.

لأن تسقط سريعاً فى يد العثمانيين ، ولكن مناعة جبالها واضطراب العلاقات الإيرانية ــ العثمانية أجل القضاء عليها إلى سنة ١٢٦٧ ﻫ (سنة ١٨٥٠م [١]).

أهم الطوائف المسيحية :

كانت العناصر الأساسية لشعب العراق هى العشائر العربية والكردية وسكان المدن من عرب وكرد وأتراك فى بعض الأنحاء ، وإلى جانب هذه التشكيلات البشرية الكبيرة توجد أقليات مسيحية ويهودية وهذه منتشرة فى البلاد العراقية كلها .

ومنذ الفتح الإسلامى كان أهل الذمة يكونون طبقة الزراع وأصحاب الحرف وقد تركهم الإسلام على دينهم واشتهر منهم عدد اشتغل فى الشئون المالية والتجارية والطب[٢] . ولم يكن هؤلاء الذميون فى العراق على مذهب واحد، بل كانوا موزعين إلى مذاهب شتى ، فكان منهم نساطرة[٣] وكاثوليك ويعاقبة [٤] . وكانت الموصل من أهم معاقل المسيحية فى العراق ، وقد لعب المسيحيون دوراً فى الدفاع عنها ضد قوات نادر شاه (١٧٤٣) كما لعب إخوانهم مسيحيو البصرة دوراً نشيطاً فى الدفاع عنها ضد قوات كريم خان الزندى (١٧٧٥ – ١٧٧٦) .

وكانت منازل مسيحيي الموصل فى أوائل حكم داود حوالى ١٫٦٠٠ منزل، وكان عدد منازل الموصل كلها عشرة آلاف منزل تقريباً . وكانت لهم ثلاث عشرة كنيسة هناك [٥] .

---

(١) تاريخ السليمانية : ١٦٢ .

(٢) حتى : تاريخ العرب : ج ٢ : ٤٤٩ .

(٣) النساطرة : أصحاب نسطور الذى ظهر فى عهد المأمون العباسى ، قال إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هى هو : الشهرستانى : الملل والنحل : ٥٣٥ .

(٤) اليعاقبة : نسبة إلى يعقوب وقالوا بما قاله النساطرة من حيث الأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو : الشهرستانى الملل والنحل : ٥٤١ .

(٥) Heude: Op, cit, P. 218

وفى صاوج بولاق [1] كان يعيش ثلاثمائة نسطورى وكانت عقائدهم المسيحية واهية مثل إخوانهم قرب الموصل وبحيرة وان [2] « Van » ومعظم مسيحيى العراق من هؤلاء النساطرة ولهم بطريقان : واحدة فى الإمارة البهدينانية وهى تسمى بطريقية سان سيمون ، والثانية فى دير « رهبان هرمز » بالقرب من الموصل ، ويمتد نفوذ بطريركية سان سيمون إلى معظم أجزاء العراق باستثناء ماردين وديار بكر. أما بطريق النساطرة الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكى الكلدى فمقره بغداد ويتولى براءة المنصب من بابا روما مباشرة ، وسكان قرقوش أكثرهم مسيحيون من الكنيسة السريانية (اليعقوبية) .

وكانت بغداد تحتوى على ستين أسرة من الكاثوليك المنتمين لكنيسة روما وإلى جانبهم كان يوجد أرمن ونساطرة [3]. وكان للكاثوليك معبد يعمل فيه الرهبان الكرمليون ، أما بطريركية الأرمن الكاثوليك فمقرها لبنان [4] . كذلك يوجد فى بغداد مسيحيون كلدان [5] هاجروا إليها من تلكيف [6] طلباً للعمل . وبطريق الكلدان الموجود فى « قوج هانه » يشترك فى أى حرب يقودها أمير حكارى ضد إيران [7] . هذا بينما يهاجر كاثوليك بغداد ، بل وكاثوليك حلب إلى البصرة حيث كانت لهم أعمال تجارية واسعة هناك ولهم فيها كنيسة ألحق بها مستشفى الآباء الكرمليين [8] . وينتشر المسيحيون كثيراً فى كركوك وأربل ، [9] وخاصة الأرمن فينتشرون فى طول البلاد وعرضها : بعضهم

---

(١) وتقع صاوج بولاق على الحدود العراقية الإيرانية .

(٢) هذا رأى الرحالة الإنجليزى بورتر Porter, ، انظر Porter : II, 485—6.

(٣) Dupré: Op, cit. I, P 98

(٤) Grant: the Nestorians, London, 1841, P. 27, 34

(٥) Heude; Op. cit. P. 182.

(٦) Dupré: Op. cit. I. P. 176

(٧) Narrative of a Residence, II p. 104. (فى حكارى شمال العمادية) .

(٨) رحلة ريج : ١٩٧ .

(٩) Buckingham: Travels in Assyria, II, 155—6

فى بغداد هاجر إليها من إيران بسبب سوء الأحوال الاقتصادية هناك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وبعضهم فى البصرة وكردستان [١] وماردين [٢] والموصل [٣] . ووصف أرمن البصرة بالذكاء وبأعمالهم الاقتصادية الناجحة وهم يعملون كتجار أو سماسرة وقد كفلت لهم معرفتهم باللغة العربية والتركية والفارسية ميزات تجارية هامة لا شك أنها كانت من عوامل تقدمهم التجارى وخاصة أن بعضهم كان يتكلم الإنجليزية والبرتغالية والهندية أيضاً . وكانت هذه الميزات سبباً فى أن يكونوا مفيدين للمقيم البريطانى فى بغداد ، ولذا نجده يعطف عليهم ويتخذ منهم موظفيه . فكان منهم أغاميناس المخلص الوفى للمستر ريتش وللإنجليز [٤] وكان وكيل ريتش فى ماردين الأسقف الأرمنى جيوشينوتاباس .

وزاد من ارتفاع شأنهم أنهم كانوا تحت الحماية البريطانية . وكان القنصل البريطانى ريتش لا يعطف عليهم وحدهم فى الواقع ، بل كان يعطف على المسيحيين بوجه عام [٥] .

وغير هذه من الطوائف المسيحية يوجد اليعاقبة فى بلاد الكرد ولهم بطريقهم فى دياربكر ويصفهم ديبريه Dupré بأنهم أميون جهلة [٦] .

سياسة داود إزاء الطوائف المسيحية :

وكانت معاملة المسيحيين فى العراق طيبة فى العهد العثمانى وفى عهد داود فلم نسمع عن أى شكوى أو اضطهاد دينى أو ضغط مالى ، ولكن كانت هناك أمور داخلية دعت الوزير ورجاله إلى التدخل فيما يحدث بين الطوائف من نزاع ، والطوائف المسيحية فى نزاع لا ينقطع .

---

(١) رحلة العمرى : ٢٤ .

(٢) Heude: Op. cit. P. 200 .

(٣) Dupré: Op. cit. T.I. P. 80. .

(٤) رحلة المنشى البغدادى : ٧٩ .

(٥) Groves: Op. cit. P. 26

(٦) Dupré: op cit. I. p. 81—100

فماردين كانت حافلة بالمنازعات بين المسيحيين فيها ويقول جروفز Groves إن ويوده ماردين كان يشجع تلك الخلافات ليحصل من الطرفين على الأموال [١] . ولا نستبعد ذلك على حاكم ماردين ، ولكن ننكر على جروفز إبراز حكام العراق بصورة مثيرى الفتن بين المسيحيين ، وكانت أحوال المسيحيين فى ماردين سيئة بسبب الفتن العديدة ، وكثيراً ما كان يستعر القتال وتسفك الدماء بين اليعاقبة والكلدان [٢] .

وكان لذلك النزاع بين الكلدان واليعاقبة صدى قوى فى بغداد وفى دوائر المسيحيين فإن جروفز Groves – وهو مبشر بروتستانتى – يتهم الأسقف الكاثوليكى بعزل بطريق الكنيسة اليعقوبية فى ماردين . وكان هذا الأسقف الكاثوليكى أكثر من غيره قرباً من باشا بغداد . ويتهمه جروفز أيضاً بأنه هو الذى أوعز إلى أئمة مساجد بغداد بنشر فكرة عدم استلام الكتب المطبوعة بقصد عرقلة نشاط جروفز Groves . إن العداء بين جروفز وذلك الأسقف الكاثوليكى ترجع إلى ما بين الكاثوليك والبروتستانت من عداء مذهبي مستحكم وإلى أن جروفز كان أول مبشر بروتستانتى إنجليزى يستقر فى العراق . ولم يجد جروفز أى اعتراض من جانب داود ورجاله [٣] بل سمح له بفتح مدرسة لتعليم الصغار . وسمح له ببيع الإنجيل وعقد الاجتماعات الدينية فى حرية تامة . وكان من الطبيعى أن تتسع دائرة معارف جروفز بسرعة نظراً لأن المقيمية البريطانية احتضنته فهو مبشر إنجليزى بروتستانتى وهذا ما لم يكن متوفراً لها من قبل . وقد تعدى نشاطه حدود بغداد فوصل إلى حلب وماردين والموصل ويوشير . وأصبحت حلقات اتصالاته واسعة كما كانت آماله كبيرة فى أن يفتح مدرسة فى الموصل ، ولكن كل هذه الآمال جاءت فى سنة ١٨٣٠ – ١٨٣١ وهى سنة الحروب والأوبئة والفيضانات فتوقف نشاطه التبشيرى وفقد زوجته

(١) Groves: op. cit P. 8, 27—8

(٢) Groves: op. cit., P. 31—43.

(٣) انظر عن التعليم الأجنبى فى العراق فى الفصل الثامن .

ورحل مع رجال المقيمية عن بغداد وتترس المسيحيون وراء الأبواب خوفاً من الوباء ومن اللصوص . وقد أمضى جروفز حياته فى العراق فى وضع أسس نشر المذهب البروتستانتى ومقاومة المذاهب الأخرى، وبخاصة المذهب الكاثوليكى الذى كان مبشروه فى العراق يعملون منذ أمد طويل ، والكاثوليك — كما هو معروف — يتطلعون إلى فرنسا ، ولذلك لم يكن عداء جروفز للكاثوليك خالصاً لله فقد كان النزاع بينه وبين الكاثوليك تلهبه الأهداف السياسية لكل من فرنسا وإنجلترا . وكان طبيعياً أن نجد القنصل الفرنسى يهتم بالكرمليين وأن نسمع عن شائعات من الجانب الكاثوليكى تحاول إساءة سمعة الإنجليز (١) .

حقيقة كان المسيحيون يعانون نوعاً من الضغط وكانت لهم حياتهم الخاصة. داخل إطار المجتمع العراقى (٢) ، ويمكن أن أؤكد أن ذلك الضغط ليس براجع إلى تعصب دينى ، بل لأن الأقلية المسيحية دائماً كانت تعمل فى نطاق عصبيتها وشعورها بالضعف يقودها إلى التماسك والتآزر فيما بينها مع شعور بالخوف والرهبة فى المحيط الإسلامى الكبير الذى يعيشون فيه ، وكان ذلك الشعور بالضعف من العوامل التى جعلتهم يتقربون أو يتقرب إليهم القنصل الإنجليزى فكان منهم عيونه ، ومنهم من تولى مناصب الحكم فى الموصل، وكان من رجال ريتش من قبل (٣) . وكانوا يحضرون ديوان ريتش وحفلاته الرسمية (٤) . ولا شك فى أن ذلك يزيد فى كراهية بعض الأهالى لهم نتيجة للشك فى مثل تلك العلاقات . والواقع أن تلك الشكوك كانت أيضاً تساور الفرنسيين الذين كانوا يعتقدون أن الإنجليز لا يسعون فقط إلى احتلال العراق، بل أيضاً إلى تحويل أهلها إلى الدين المسيحى . وللفرنسيين — برغم ما نعرفه من مبالغتهم فى مثل هذه الأمور لتشويه سمعة وأعمال الإنجليز أعدائهم فى السياسة والمذهب — حق

---

(١) Groves: op, cit. p. 138

(٢) Rich: Narrative of Residence, II, P. 24

(٣) Alexander: op. cit. P. 289

(٤) Ainswarch: A personal Narrative, II, P. 76

فى أن يعتقدوا ذلك . فلقد كان ريتش Rich نفسه يعتقد أن الدين الإسلامى هو العقبة فى سبيل إصلاح أمور العراق[1] . ويعتقد جروفز Groves أن عدداً كبيراً من مسلمى الموصل قابل للتحول إلى الدين المسيحى . وكان جروفز نشطاً فى حماية المسيحيين وإبقائهم على دينهم ، وكذا تايلور القنصل الإنجليزى الذى حمى ابنتين لبستانجى داود باشا لأن أباهما الذى أسلم أراد منهما اعتناق الدين الإسلامى مثله [2] .

وعلى أى حال يدل عدم اتهام الرحالة المسيحيين أو المسيحيين فى العراق لداود ورجاله بالتعصب على أن التسامح الدينى كان أساس معاملة الحكومة للمسيحيين .

سياسة داود إزاء اليهود :

الأقلية الثانية الهامة غير المسلمة فى العراق هى اليهود ، وهؤلاء استوطنوا العراق منذ عهود سحيقة وربما كانت أحوالهم فى العهد العباسى أحسن من أحوال المسيحيين[3] .

وقد وفد على العراق فى ذلك العهد عدد كبير من اليهود وتولوا مناصب خطيرة وكانت لهم فى بغداد مستعمرة [4] ظلت مزدهرة حتى سقوط بغداد فى يد المغول سنة ١٢٨٥[5] .

وكانوا يعيشون فى العراق دون أن تحدث بينهم خلافات مذهبية [6] ، وقدر عددهم فى مطلع القرن التاسع عشر فى بغداد بحوالى ٢٥٠٠ أسرة يهودية [7] ويقدر عددهم فى عهد داود فى السليمانية بحوالى ٣٠٠ بيت أى حوالى

(١) Groves: Op. cit. P. 53

(٢) Ibid: 22 — 3

(٣) المقدسى : ١٨٣ (عن فيليب حتى تاريخ العرب : القاهرة جـ ٢ : ٤٤٩) .

(٤) ياقوت : جـ ٤ : ١٠٤٥ (عن فيليب حتى تاريخ العرب : جـ ٢ : ٤٤٩) .

(٥) فيليب حتى تاريخ العرب . الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٤٩ : جـ ٢ : ٤٥٠ .

(٦) Heude: Op Cit. 182

(٧) Olivier: Op. Cit. IV. P. 324—5, Dupré, Op. Cit. I, 173—4

١٥٠٠ ـــ ١٨٠٠ نسمة[١] . وفى ماردين يوجد منهم حوالى ثمانمائة يهودى[٢] ، ويوجدون بنسب مختلفة فى عانة[٣] . ولهم جالية وكنيسة فى كفرى وهم فى بنجوين يتاجرون بين سنة وهمدان[٤] ، وهم حوالى الألف فى الموصل[٥] .

ويحدثنا كدورى عن مشاعر وإحساسات اليهودى فيقول إنه لا وطن له ، وإن هذا الشعور بعدم الاستقرار يدفعه إلى أن يعمل لنفسه ولبنى جلدته فقط دون أهل البلاد التى ينزل فيها وينتفع منها وأن الخيانة عنده ليست خيانة السلطان أو الباشا أو الجار المسلم ، وإنما الخيانة هى تلك التى تكون موجهة لإسرائيل[٦] . فهم يتطلعون إلى أرض الميعاد ولكنهم كانوا أضعف من أن يرفعوا سلاحاً فى وجه الدولة العثمانية فى سبيل هدفهم هذا[٧] .

وكان اليهود يشتغلون بأخطر الأعمال التجارية والمصرفية وفى الوقت نفسه يشتغل بعضهم بأحقر أنواعها ، وهم فى عملهم شرهون غشاشون نفعيون لا يهتمون بالمبادئ . ويكونون فى البصرة وبغداد جماعة مستقلة شأنهم فى ذلك شأن إخوانهم فى مدن العالم قاطبة لا يتزوجون من غير جنسهم ، فحافظوا على سحنتهم المعروفة .

وقد امتازوا بمهارة فى أعمالهم التجارية والمصرفية ، وكانوا يتكلمون بالعربية وأحياناً يكتبون بالعبرية . وقلة منهم تعرف الفارسية والتركية فتفوق عليهم أرمن البصرة الذين كانوا يعرفون عدداً آخر من اللغات الحية إلى جانب ماذكر .

وكان تلاعب اليهود فى أعمالهم التجارية[٨] لا يثير الحكام فى عهد داود

---

(١) المنشىء البغدادى : ٥٩ .

(٢) Dupré: Op. Cit. I, p. 80.

(٣) Ainsworth: Op. Cit. II. P. 409

(٤) Rich: Narrative of a Residence I,P.

(٥) Oliver: Op. Cit. IV. P. 268—9.

(٦) E. Kedourie: England and The Middle East. London. 1956, P. 84

(٧) رحلة تيبور : ٤

(٨) فى مختلف العصور كان اليهود موصومين بهذه الصفة .

فحسب، بل كانوا أيضاً يثيرون الوكيل الإنجليزى فى البصرة ، ومع ذلك يمكن أن نقول إن هذه الأقلية كانت ذات فائدة كبيرة لكل من حكام العراق ووكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية فى العراق . فمنهم من دبر المؤامرة[1] التى أودت بسعيد ، ومنهم من كانوا صرافى داود ومن كان يتآمر معه ضد صادق أفندى [2] ومنهم من كان يتعاون مع ريتش فيعطيه إحصاءات عن دخل إحدى مدن العراق الهامة . ذلك الميل المتبادل بين اليهود وريتش يرجع إلى أن الأقلية اليهودية تسعى دائماً إلى حماية أجنبية وتاريخها الطويل يؤكد هذه الحقيقة . ويرجع ذلك إلى أن الأقلية اليهودية تخشى ذلك المجتمع العربى الإسلامى الضخم الذى تعيش فيه وتبتزه ولا تشاركه آلامه وآماله ولا يهمهم إلا مصالحهم . وأروع مثل على ذلك فى العراق مؤامرة عزرا فى مسألة سك النقود باسم سعيد باشا . وهذه المسألة تؤكد لنا أنه كان لليهود مركز هام فى الآستانة يجعلهم قادرين على تحقيق آمالهم فى بغداد ، ويؤكد لنا أيضاً أن الآستانة كانت من مصلحتها أن يتولى أمر الشئون المالية والتبادل المالى وسك العملة يهودى لأن اليهود أقدر على نقل الأموال من بغداد إلى الباب العالى وإلى أصحاب النفوذ فى الآستانة . ومن ناحية أخرى كان اليهود بالفعل رباطاً بين بغداد وأجزاء الإمبراطورية من الناحية المالية ، كما كانوا ينقلون أنباء بغداد إلى الآستانة وبالعكس .

ومنذ أن تولى داود الحكم كان عليه أن يرسل بعض الأموال إلى الباب العالى وأن يكون تحت يده مبالغ كافية لسد حاجاته ، وذلك يوجب عليه أن يكون فى سرعة فوق العادة . ولم يكن أمامه سوى اليهود ، فطلب منهم أن يمدوه بالأموال على (كمبيالات) تستحق الدفع فى مواعيد محددة ، ولكن أثرياء اليهود امتنعوا عن ذلك . فقبض على عدد منهم وطالبهم بتقديم الأموال بسرعة ، وكان الصراف

---

(١) راجع النزاع بين سعيد وداود (الفصل الثانى) .

(٢) راجع مقتل صادق أفندى (الفصل السابع) كان صادق قد جاء من الآستانة لعزل داود من باشوية بغداد .

باشى قد استغل من قبل يهود بغداد فى سبيل سد مطالب كبار الموظفين وكان حساب يهود بغداد مع يهود الأستانة قد توقف لارتفاع ديون يهود بغداد ولكن لم ينثن رجال داود عن الاشتداد فى مطالبتهم معتقدين أن اليهودى لابد أن يكون لديه من الأموال مهما ساءت الحالة العامة ما يفك به ضائقته . وفعلا أفاد التهديد فى إرغام اليهود على تقديم المال نظير كمبيالات وهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن هذه الكمبيالات لا تساوى عندهم قيمة الورقة التى كتبت عليها [١] .
وهنا لم يختلف داود عن أسلافه فى معاملة اليهود وهو موقف قد يلام عليه ولكن تاريخ اليهود وعقلية داود التى شابهت عقلية على بك الكبير من حيث جمع الأموال اللازمة للإصلاح عن طريق المصادرة حفزته على أن يقوم بهذا العمل . على أن دور اليهود السياسى والاقتصادى دور غير شريف فى معظم فصوله . فهم كانوا تحت الحماية البريطانية [٢] ولعبوا دوراً غير شريف فى الأزمة بين داود وريتش إذ كانوا له عضداً ويعبر ريتش عن أسفه بعد خروجه من بغداد لمصير هؤلاء اليهود . ويقول إن أملهم الوحيد هو الفرار من بغداد [٣]

ولقد عمل داود فعلا على الانتقام منهم فصادر أموال جماعة كثيرة منهم حتى اضطر بعضهم إلى ترك بغداد [٤] . وفروا إلى مسقط حيث كان يحكم السيد سعيد [٥] عدو داود وحليف الإنجليز الذين يدعون حماية الأقليات . على أن هذا لا يدل على أن هجرة يهودية على نطاق واسع قد نظمت للفرار من ضغط داود . فإننا نجد يهودياً على رأس نقابة الصرافين وهو إسحاق اليهودى الذى كان من مستشارى داود والذى اشترك اشتراكاً فعالا فى مأساة مقتل صادق أفندى [٦]

---

(١) بغداد كوله من : ٤٤ .

(٢) Grovese: Op. Cit, P 26

(٣) Rich: Narrative of Residence, II, p. 183

(٤) الأعظمى : مختصر تاريخ بغداد . ٢٣١ – ٢٣٢

(٥) J.R. Wellsted: Travels in Arabia-London, 1839-Vol. I. P. 15, 22

(٦) بغداد كوله من : ٤٤ .

وهكذا كان لليهود أدوار خطيرة فى مشكلات العراق الكبرى . فى مصرع سعيد ، وفى النزاع بين داود وريتش ، وفى مصرع صادق أفندى ويقال إن أول إصابة بالطاعون ظهرت فى الحى اليهودى القذر (١٨٣١ م)(١)

سياسة داود إزاء آل عبد الجليل فى الموصل :

دانت الموصل للحكم العربى منذ الفتوح الإسلامية وعاشت تحت تأثيرات مختلفة كالعصبية الكردية فى كردستان والعشائر العربية النازلة بالقرب منها بين دجلة والفرات كعقيل وطى وغيرهما . كذلك عاشت تحت تأثير الأقوياء من حكام الشام حتى ارتفع شأنها بتولى عماد الدين زنكى الحكم فيها وبقيام إمبراطورية نور الدين محمود التى خلفتها إمبراطورية صلاح الدين الأيوبى التى بلغت الموصل . وهى بذلك تكون المنطقة العراقية الوحيدة التى كانت تولى وجهها نحو الشام فى أوقات عديدة من التاريخ الإسلامى الوسيط . ولكن اتجاه الموصل هذا لم يلبث أن تحول عن الشام عندما ارتبط مصيرها بمصير العراق فى إبان الدولة الإيلخانية والقره قوينلية والآق قوينلية والصفوية . حتى كان الفتح العثمانى فأكد للموصل كيانها وجعلها ولاية من ولايات الدولة العثمانية . ولكن ضعف سلطة الباشوات وضعف السلطنة نفسها أديا إلى أن تصبح العصبيات المحلية هى المسيطرة على المدينة . وكان هذا الوضع سبباً فى نزاع لا ينقطع بين زعماء المدينة وبين الطامعين فى الحكم . ولما كانت الدولة غير قادرة على أن تعالج بالقوة كل فتنة فى ولاياتها المتعددة الكثيرة الفتن فإنها كانت تلجأ إلى أسلوب آخر لتهدئة الأمور فى ولاياتها . فكانت تستقدم أشرافاً من سلالة النبى أو علماء من الحرمين إلى المدينة التى تستعر فيها الفتن مثل الموصل ، فقد استقدمت بعض العمريين إلى الموصل لهداية الناس إلى الطريق القويم (٢) . ولكن إصلاح أمر ولاية كهذه لا يتم عن طريق حديث التقوى والصلاح لأن الإصلاح يجب أن يقوم على أساس فهم مشكلات المدينة

(١) Longrigg : Four Centuries. p. 265

(٢) سليمان صايغ : تاريخ الموصل : ٢٦٦ .

وأسبابها ووضع العلاج على أساس هذه الدراسة . ولذلك استمرت أسباب الفتن قوية لا فى الموصل وحدها ، بل فى معظم مدن العراق أيضاً ، لأن المشكلات عميقة فى تاريخ العراق والحلول ارتجالية وقتية غير مدروسة . ولكن التطور التاريخى لكل مدينة على هذه الشاكلة لابد أن ينتهى إلى ظهور شخص قوى قادر على مواجهة مشكلات المدينة وبسط الأمن فى ربوعها فيكسب بذلك عطف الناس وحبهم . وهذا ما حدث فى الموصل وهو ما حدث فى معظم أيالات الدولة من حيث قيام أسرات أو عصبيات حاكمة . ولقد قدم الجليليون [١] خدمات كثيرة للدولة العثمانية خلال غزو نادر شاه للعراق وكان لهم الفضل الكبير فى مقاومته مقاومة مجيدة توجت بانسحاب جيوشه عن الموصل ثم عن العراق [٢] . ولذلك نالت هذه الأسرة عن جدارة حكم الموصل ونالت الموصل تحت حكم حسن باشا الجليلى الطويل (١٧٣٠ — ١٧٥٧) أسعد أيامها وأمجدها ثم لم تلبث أن أخذت تعانى مر العناء — مثل أخواتها فى العالم العثمانى — من الصراع بين أفراد الأسرة الواحدة فى سبيل الحكم ومن استمرار تعدى الأكراد على المدينة [٣] . فأخذت الموصل تنهار بسرعة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر واجتاحها طاعون سنة ١٧٧٢ فقضى على خمس سكانها تقريباً [٤] .
ولكن ظلت للجليليين سمعة قوية فى الآستانة التى كانت تنظر إليهم كعيون لها على باشوات بغداد . بل كانت الموصل النقطة الحساسة التى كانت تنبه الباب العالى إلى قوة باشا بغداد ، وما وصل إليه من أطماع . فلقد كانت بغداد منذ عهد حسن باشا قد فرضت زعامتها على العراق واختل التوازن بين الولايات

(١) بدأ حكم أسرة الجليلى سنة ١٧٢٦ م (١١٣٩ هـ) وكان عبد الجليل الجد الأعلى للأسرة مستوطناً ديار بكر ثم نزح إلى الموصل . واشتهر بيته بالثراء والنجابة . وكان لموقفهم الرائع من هجوم نادر شاه على الموصل صداه العميق التأثير فى الآستانة (١٧٢٦) انظر تاريخ الموصل : ٢٧٥ .

(٢) تاريخ الموصل : ٢٧٤ .

(٣) تاريخ الموصل : ٢٠٢ .

(٤) تاريخ الموصل : ٢٩٢ .

تمام الاختلال فى عهد حسن باشا وأحمد باشا . وكان هذا التفوق لبغداد أمراً تحتمه طبيعة التطور . فإن مقاومة إيران ألقيت على كاهل بغداد ولا يمكن أن تسند إلى باشا الموصل أو إلى باشا البصرة لأن موقع بغداد هو الذى يتحكم فى هذا الصدد . ومن ناحية أخرى كان لبغداد ماض تليد لا فى زعامة العراق وحده ، بل فى زعامة العالم الإسلامى فلا تستطيع مدينة فى العراق أن تدعى ما لبغداد العاصمة القديمة من أحقية فى السيادة الأدبية التى كانت تسير معها الأحقية فى السيادة العسكرية والإدارية فى القرن الثامن عشر .

على أن الموصل شاطرت بغداد مجد الدفاع عن العراق ضد جيوش نادر شاه . وبذلك حفظت لنفسها مكانة وتاريخاً تفوقت به على مدن العراق الأخرى . ولكنها لم تستطع التفوق على بغداد لأن التطور كان يقضى أن تتحول الموصل إلى التبعية لبغداد نظراً لتفوق حكام بغداد على حكام الموصل منذ ولاية حسن باشا الذى ضم ماردين ونصيبين(١) — وكلتاهما وراء الموصل من الغرب — إلى نطاق حكمه . أضف إلى هذا أن العمادية وأربل — وهما وراء الموصل أيضاً من شرق وشمال — تابعتان لبغداد . ولذلك كانت الموصل مشمولة بنفوذ باشا بغداد الذى كان يسعى دائماً إلى توحيد العراق تحت حكمه . وهى خطة سار عليها باشوات بغداد منذ حسن باشا ، ومن ثم كان ضغط بغداد على الموصل ملحوظاً فى عهد المماليك لتنضوى الموصل تحت جناحهم مثلما انضوت شهرزور والبصرة من قبل . والموصل مثل تلك الأيالتين لم تستطع مواجهة الأخطار التى تهددها إلا بوساطة مساعدات بغداد . ولذلك كان لباشوات بغداد فرص عديدة للتدخل فى شئون الموصل ومحاولة السيطرة عليها . وتلك الخطة سار عليها على باشا (١٨٠٢ — ١٨٠٧) إذ كان يولى ويعزل الحكام فى الموصل (٢) . وسار عليها سليمان باشا الصغير (١٨٠٧ — ١٨١٠) فكان بذلك من العوامل التى أدت إلى إرسال خالد أفندى إلى العراق . فقد كانت

---

(١) تاريخ ماردين : ورقة ١٣٨ — ١٣٩ .
(٢) مختصر المستفاد ١٦٣ — ١٦٤ .

الموصل نقطة النهاية لما كان يتحمله الباب العالى من تفوق للنفوذ المملوكى فى العراق . وإن تدخل باشا بغداد فى الموصل بشكل عسكرى عنيف معناه أن نفوذ باشا بغداد قد وصل إلى ذروته وأنه آن للباب العالى أن يتدخل، وبخاصة أن موقع الموصل على الطريق بين بغداد والشام ووسط العصبيات الكردية المتأرجحة بين تركيا وإيران كان يمنح من يستولى عليها قوة عظيمة من حيث السيطرة على كردستان وعلى الباشوات العثمانية الأخرى شمال الموصل وغربها . وكان هذا الموقع بلا شك يغرى باشوات بغداد بالموصل ، وبخاصة أنهم مضطرون إلى إرسال الحملة إثر الحملة ضد البابانيين فى كردستان وضد اليزيدية فى سنجار . فإذا ما استولى على الموصل باشا بغداد أصبح قادراً على أن يضرب البابانيين بقوة أشد وأعنف دون الاعتماد على وعود باشوات الموصل من آل عبد الجليل بتقديم المساعدات لحملات بغداد ضد السليمانية وهى وعود لم تكن تتحقق فى معظم الأحيان(١) .

هذا إلى أن باشوية الموصل كانت كبيرة نسبياً ويمكن أن تقدم ٦٠٠ فارس و ٢٠٠ من السياهبة ، وكان تعداد الإنكشارية من ٦٠٠ — ٧٠٠ مقاتل عدا حرس الباشا (٢) ، وكانت تضم عدداً ليس بالقليل من السكان كان يقدر بحوالى خمسين ألف نسمة (٣) . وكان معظم دخل الموصل من الجمارك ومعظم تجارتها مع بغداد . فقوتها الاقتصادية والسياسية مستمدة من بغداد وهذا مما يجعل الموصل تحت عين بغداد . ولا شك أن هذا الوضع يجعل بعض حكام الموصل من الجليليين يعمل على التخلص من نفوذ حكام بغداد عليهم. ويتجلى هذا فى التعاون بين باشا الموصل وباشا السليمانية مع خالد أفندى ضد سليمان باشا الصغير (١٨١٠ م) ذلك التعاون الذى كلل بالنجاح من حيث طرد سليمان

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٦٣ .

(٢) Dupré: Op. Cit. I, P. 177, 119, 121

(٣) موزعين كالآتى : ٢٥٠٠ كاثوليكى ، ٥٠٠ نسطورى ، ٢٦٠٠ يعقوبى وعدد من اليهود والباقى عرب وكرد وترك .

الصغير من بغداد . ولكنه لم ينجح فى تخليص السليمانية أو الموصل من نفوذ المماليك . فقد انتصر عبد الله (باشا بغداد ١٨١٠ — ١٨١٣) على عبد الرحمن باشا البابانى فى كفرى سنة ١٨١٢ بفضل داود ، فقضى على أمل عبد الرحمن فى الاستقلال عن بغداد . ثم قام عبد الله باشا بتأديب باشا الموصل لتقاعسه عن معاونته فى ضرب الباشا الكردى الثائر[١] .

ولا شك أن السليمانية والموصل — وقد شعرتا بأنهما تعانيان ضغطاً واحداً مصدره سيطرة بغداد — عملتا على التعاون ضد بغداد . ولكن ظروف كل من البلدين لم تسمح بهذا التعاون على نطاق واسع ؛ وذلك لأنهما كانتا فى حاجة ماسة إلى عقلية تدير أمور هذا التعاون وفق خطة مشتركة وترتيبات متناسقة. وهذا ما فشل فيه حكام السليمانية وحكام الموصل . وبذلك استطاع باشا بغداد أن يضرب السليمانية تارة والموصل أخرى .

وكان من الطبيعى أن تفتر حركة التوحيد فى عهد سعيد الضعيف ولكن عندما تولى داود الحكم تطلع إلى الموصل ، وكان عليها أحمد باشا الجليلى ، وهذا الأخير كان يسعى إلى التخلص من نفوذ والى بغداد . ولاشك أن ضعف سعيد أطمعه فى ذلك ، لكن داود كان يرمى إلى توحيد العراق وتقوية قبضته عليه ، فاصطدم الطرفان ولجأ داود إلى الآستانة يطلب عزله من منصبه ولم يكن بوسع داود إلا أن يسلك هذا المسلك نظراً لأن مشكلات العراق فى أول عهده كانت خطيرة ومتعددة ، فلما كان رأى باشوات بغداد معتبراً فى الآستانة بشأن من يتولى حكم الموصل وكان داود مخلصاً للباب العالى وبخاصة أن وجود خالد أفندى بين رجال الحكم كان يسهل لداود تحقيق أهدافه ، فإن الباب العالى لبى طلب داود وأرسل إليه فرماناً خالياً من الاسم ليملأه داود حسب ما يراه ، فأسند الباشوية إلى حسن الجليلى[٢] . ولكن هذا الباشا لم يتمتع بمنصبه إلا بضعة

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢١٣ .

(٢) المماليك فى العراق : ١٦٤ — ١٦٥ .

أيام لتى ربه فى نهايتها بينما أحمد باشا الوالى السابق التجأ إلى داود طالباً منه العفو والوساطة لدى السلطان ليستعيد ثقته ومنصبه . فقام داود بواجب الضيافة وكتب إلى السلطان طالباً العفو عنه وإسناد المنصب إليه فأعيد إلى منصبه(١) . وحقق داود غرضه الأول وهو وجود حاكم على الموصل يتبع بغداد . ويفهم القنصل ريتش Rich هذه المسألة من زاوية أهدافه السياسية فى العراق فهو يلتى التبعة على داود فيما يقع فى الموصل من اضطراب . ويقول إن يده وراء كل مؤامرة أو اضطراب(٢) . والحق إن ريتش Rich كان لا يقبل مطلقاً أن يتم توحيد العراق تحت حكم هذا الباشا المعادى للنفوذ الأجنبى ، وكان استمرار النزاع بين الموصل وكردستان من جهة ، وبغداد من جهة أخرى ، هو من مصلحة ريتش ، وكانت علاقة ريتش قوية بباشا الموصل(٣) . ثم إن الموصل كانت تعج بالمسيحيين ،وهؤلاء كما ذكرت كانوا أقرب إلى القنصل من غيرهم ؛ومن ثم كان من الممكن جداً أن تستخدم الموصل كعقبة كأداء أمام أهداف داود نحو تأكيد وحدة العراق وأنه لأمر ذو مغزى أن يقيم ريتش أربعة أشهر فى الموصل قبل أن ينفجر النزاع بينه وبين داود(٤) . والحق إن ريتش لم يكن فى حاجة ليخلق مشكلات بين الموصل وبغداد فقد كانت المشكلات موجودة تنتظر من يستغلها .

ولكن طرد ريتش سنة ١٨٢٠ من العراق قضى على الفتنة فى الموصل وهى فى مهدها وفشلت محاولات ريتش فى الوقيعة بين الموصل وبغداد . وبعد رحيله استمر نفوذ داود قوياً فى الموصل . وفى خلال الحرب ضد إيران سنة ١٨٢٠ وضعت قوات الموصل تحت قيادة داود القائد العام للجبهة العراقية ولكن الموصل فى ذلك الوقت كانت تسير نحو الانهيار السريع نظراً لاحتدام

(١) جودت : ١١ : ١٢ – العزاوى ٦ : ٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٢) Alexander: Op. Cit. P. 257

(٣) Rich: Narrative of Residence in Koordistan, II. P. 24—28

(٤) انظر الفصل الخامس .

النزاع بين الأسرة الجليلية والطبقة العليا من رجال الشعب المطالبة بالاشتراك في الحكم ،وبخاصة أن الباشوات الجليليين فى هذه الفترة كانوا يستغلون الشعب الموصلى استغلالا اقتصادياً سيئاً . فقد كان رجال الحكومة يحتكرون تجارة الغلال ، واشتد سخط الأهالى حتى بلغ الذروة خلال حكم يحيى باشا الجليلى (١٢٤٢ هـ) — (١٨٢٦ م) .

وقد أدى هذا الاحتكار إلى ضيق اقتصادى شديد حل بالأهالى ولذلك انفجرت ثورة شعبية عنيفة ضد يحيى باشا ولم يستطع الباشا أن يقف فى وجه هذا الانفجار الشعبي الذى كان يقوده العمريون فى المدينة فاضطر إلى الخروج منها والالتجاء إلى داود[1] .

كان داود كما قلنا يسعى إلى تحقيق وحدة العراق ، ولكن تولية حكام فى الموصل برضا الشعب وبقوة الشعب وطرد الوالى الذى كان ينال رضا داود أمر يؤدى غالباً إلى ضياع نفوذ داود إذا ما اعترف هو بالأمر الواقع وأبقى من اختاره الشعب والياً على الموصل . لقد كان أمل داود هو السيطرة على الموصل ، لكن قيام حكم فتى جديد لاشك سيوقف هذه الوحدة لأن الحكم الجديد سيتخذ من الموصل مركزاً للتوسع لا للخضوع لحاكم آخر . ومن ثم كان قيام هذا النوع من الحكم ضد أهداف سياسة داود فى توحيد العراق . ولكن بقاء حكم الجليليين الضعفاء على الموصل يؤدى إن آجلا أو عاجلا إلى ضم الموصل إلى بغداد .

رأى داود الخطر يهدد نفوذه فى الموصل ، وأن بقاء هذا النفوذ هناك مرتبطاً بعودة يحيى باشا إلى منصبه ولكنـــه لا يستطيع أن يتدخل عسكرياً فى الموصل ليفرض باشا عليها ، فهذا أمر من صميم أعمال السلطان . وتدخل داود على تلك الصورة سيساء فهمه فى الآستانة مثلما أسىء فهم حركات سليمان الصغير فى الموصل من قبل . ولذلك عمل أولا على أن يصل إلى أهدافه عن

(١) تاريخ ماردين : ١٦١ ، لطفى ج ١ : ٢٣٤ .

طريق موافقة الباب العالى على تثبيت يحيى على الموصل . فكتب للباب العالى بهذا المعنى . وقد أدرك الباب العالى أن وراء تأييد داود ليحيى باشا أهدافاً أخرى وأصبح الباب العالى يعتقد أن داود هو سبب هذه الفتن وخاصة أن خالد أفندى كان قد أعدم ولم يعد بالآستانة من يدافع بحرارة عن وجهة نظر داود . ومن ثم كان الباب العالى فى قرارة نفسه يريد أن يكف يد داود عن أمور الموصل، وأن تعامل الموصل كأيالة مستقلة بنفسها . ولكن الظروف ما كانت لتسمح للباب العالى أن يقف فى وجه هذه النيات التى كانت لدى داود . فقد كانت الحروب فى أوربا ومشكلات الدولة لا تسمح للدولة بأن تتخذ فى ذلك الوقت خطوات جريئة قوية لوقف حركة توحيد العراق تحت حكم باشا بغداد . ولذلك رأى الباب العالى أن يغض الطرف عن أهداف داود فى الموصل وأن يوافق على تثبيت يحيى فى حكمها(١) ، حتى يأتى الوقت الذى يستطيع فيه الباب العالى أن يعيد التوازن بين الأيالات العراقية أو بسط حكم السلطان المباشر على العراق كله .

وهكذا نال داود موافقة الباب العالى على إعادة يحيى باشا إلى الموصل فأمده داود بقوة عسكرية استطاع بها أن يشق طريقه عنوة إلى الموصل(٢) . ولكن فرض يحيى على شعب الموصل لم يكن إلا حلا مؤقتاً للمشكلة فلم يلبث الثوار أن طردوا يحيى نفسه فى شوال ١٢٤٤ هـ — ١٨٢٨ م على أثر ثورة تزعمها قاسم العمرى وعدد من أعيان المدينة(٣) . وعزم شعب الموصل على أن يبعد هذه الأسرة عن حكمه فنصبوا عليهم أحد أعيان الموصل(٤) .

وكان قاسم العمرى يهدف من وراء طرد الجليليين إلى أن يحل هو محلهم فى حكم المدينة . ولما كان داود قد أصبح له الكلمة العليا فى تنصيب ولاة

---

(١) تاريخ لطفى : ١ : ٢٢٤
(٢) تاريخ ماردين : ١٦١
(٣) المماليك فى العراق : ١٨٨
(٤) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٩٩

الموصل ، فإن الثوار يمموا وجوههم شطر بغداد طالبين منه الموافقة على إبعاد الجليليين عن الحكم . ولكن داود لم يكن ليطرح أهدافه فى الموصل بمثل هذه السرعة . فاتخذ جانب الأسرة الجليلية حتى أعيدت إلى حكم الموصل فعلا سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٥)هـ وكان من الطبيعى أن ينتقم الجليليون من الموصليين من أتباع العمريين . فأنزلوا أشد العقاب بأعدائهم ونفوا بعضهم إلى تلعفر ، ولكن هؤلاء الثوار أبوا أن يضعوا السلاح وأخذوا يعملون على إعداد قوة ضاربة من أبناء تلعفر نفسها ومن العرب ، ثم دبروا هجوماً على الموصل كلل بالنجاح بعد حرب دارت فى شوارع المدينة . وعلى أثر هذا النصر الدموى أعلن الشعب الموصلى « قاسم العمرى حاكماً عليه » . وفى هذه المرة التجئوا إلى الباب العالى مباشرة ملتمسين منه أن يصادق على تولى قاسم باشا حكم الموصل ، ولم يلتفتوا هذه المرة إلى داود . فجاء تعيين قاسم من السلطان . ولم يسع داود أمام هذا الوضع إلا أن يقبل الأمور على علاتها مؤقتاً . ولا شك أن تولية قاسم كانت من الخطوات الأولى التى اتخذها الباب العالى للحد من نفوذ داود ، فلقد أوشك النزاع بين داود والسلطان أن يندلع لهيبه ووجد السلطان أن إبعاد الموصل عن متناول يد داود أمراً تحتمه ظروف النزاع المقبل ، بل إن هذا النزاع يتطلب وجود باشا على الموصل يكون معادياً لداود . وهكذا كانت سياسة الباب العالى فى ذلك الوقت ترمى إلى وقف عملية توحيد حكم العراق تحت يد باشا بغداد كوسيلة من وسائل إضعاف نفوذ داود . ولم يسع داود إلا أن يخضع لأوامر السلطان بتولية قاسم على الموصل ، ولكن إلى حين . فقد حاول أن يعزله من منصبه مستغلا ما كان لباشوات بغداد من حقوق فى هذه الناحية وقيل إن السلطان أجابه إلى مطلبه ولكن قاسماً استطاع أن يتحايل على التتار الذى كان يحمل فرمان عزله وأخذه منه فبقى فى المنصب[1] . وهى قصة غير مستساغة لأن الباب العالى لو كان جاداً فى عزله لأصدر فرماناً آخر ولكن هذا لم يحدث فربما كانت خدعة لتضليل داود لأن السلطان كان قد قرر

---

(١) سليمان صايغ : جـ ١ : ٣٠٥

القضاء على مماليك العراق . ولم يستطع داود بعد ذلك أن يعود إلى محاولاته لانشغاله بمشكلة صادق أفندى[1] . فقد تعاونت مشكلة تدخل داود فى أمور الموصل وامتناعه عن تقديم المساعدة المالية للسلطان فى حربه ضد الروسيا[2] والشائعات الضخمة عن الدخل الكبير للباشا[3] على إقناع الباب العالى بأن داود فى العراق يهدد السلطان بخطر شديد إذا ما اندلعت نيران الحرب بين السلطان ومحمد على — والى مصر — ولذلك أسرع السلطان بإرسال على رضا باشا لطرده من العراق . وكان من الطبيعى أن يستعين على رضا بعدو داود اللدود ، قاسم العمرى .

وأغلب الظن أن قاسماً فى تعاونه مع على رضا ضد داود كان يرمى إلى أن يتولى بغداد نفسها . وقد جردها الطاعون من جيشها وشل رأسها المفكر داود؛ وكان داود يعلم أن مصيره الموت إن وقع فى يد قاسم ، ولذلك عمل على ألا يقع فى يده ولقد اتهم بأنه دبر مؤامرة لإدخال قاسم إلى بغداد ثم قتله . ومن المظنون جداً أنه لم تكن هناك مؤامرة وإنما خشى داود على نفسه فأراد أن يختبئ حتى تعهد له وجهاء بغداد بألا يستسلم إلا إلى على رضا نفسه . والشعب البغدادى رأى ما حل بالمدينة من خراب فاستقدم قاسماً دون حرب أو جدال ليتولى أمر بغداد . ولكن تمسك قاسم بالانتقام من داود؛ وتعدت قوات قاسم على بغداد مما أكد للشعب البغدادى أن قاسماً يعمل على فرض نفسه عليهم وأنه يضمر نيات خطيرة نحوهم . فكان ذلك من العوامل التى جعلت الناقمين على قاسم يلتفون حول داود وصهره صالح بك ليتخلصوا من هذا المنتقم وأدى ذلك إلى أن يصر البغداديون على مقاومة على رضا ما دام هو ورجاله على تلك الشاكلة .

---

(١) جاء صادق أفندى سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٣٠) م لعزل داود فقتله داود فكان ذلك من أسباب الحرب بين داود وجيش السلطان بقيادة على باشا رضا والى حلب .

(٢) ١٨٢٩ م .

(٣) تاريخ لطفى جـ ١ : ٢٩٣

وعلى أى حال ظلت الموصل تعانى من الصراع الداخلى ، وكان عليها أن تواجه محاولة جديدة لتوحيد كردستان الشمالية تحت حكم واحد . وكان القائم بهذه العملية محمد باشا أمير راوندوز ، ولكنه لم يستطع أن ينجح لا فى الموصل ولا فى الدفاع عن نفسه أمام الجيش العثمانى الذى كان يعمل على إعادة الحكم العثمانى المباشر فى العراق كله . وبذلك عاد حكم الباشوات العثمانيين إلى كردستان بعد القضاء على قوة بغداد[1] .

ولم تستطع الموصل أن تقف وحدها على قدميها فظلت تابعة لنفوذ باشا بغداد حتى انتهى حكم الأسرة الجليلية نهائياً سنة ١٢٤٩ هـ — سنة ١٨٣٣ م وأصبحت منذ ذلك الوقت تحت الحكم العثمانى المباشر[2] .

سياسة داود إزاء ماردين :

وإلى الشمال الغربى من الموصل تقع مدينة ماردين[3] . وكانت من المدن ذات المكانة الممتازة فى الدولة العثمانية . ولذلك رفع منصب حاكمها إلى رتبة « الويوده »[4] . وكانت سلطته تمتد إلى نصيبين حتى منطقة اليزيديين الذين ينزلون منطقة جبل سنجار . وكانت ذات قلعة حصينة بموقعها لا ببقائها ، وبها عدد من المدافع ، وحرس للويوده يتكون من خمسين جندياً :

---

(١) سليمان صايغ ج ١ : ٣٠٦ — ٣٠٨

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٧ : ٢٦

(٣) هى ماردس Mardes .

انظر :

I. Kinnier: Voyage dans L'Asie mineur et le Kourdistan, Paris, 1819.Vol,II, P. 218

(٤) الويوده : حاكم منصبه أعلى من منصب المتسلم وأقل من منصب باشا من الدرجة الثانية ، والويوده يحكم ولاية صغيرة أو مدينة لا تكون جزءاً من إحدى الباشويات . وقد تكون أحياناً تابعة للسلطان مباشرة . والويوده يتمتع بكل ميزات الباشا من الدرجة الثانية ولكن أقل منه نوعاً ، وهو يقود قواته تحت القيادة العليا للباشا الكبير (أى الباشا ذو الثلاث أطول) .

انظر :

Oliver: Travels in the Ottoman Empire, London, 1801, Vol, I. 189

وكانت فى بداية الحكم العثمانى للعراق تابعة لديار بكر[١] ولكنها لم تلبث أن اقتطعت منها وأضيفت إلى باشا بغداد ثم عاد العثمانيون وأضافوها إلى ديار بكر مرة أخرى سنة ١٠٥٨ هـ — ١٦٤٨ م[٢].

ولما تولى حسن باشا باشوية بغداد سنة ١٧٠٤ م عمل على توحيد العراق تحت حكمه وقدر قيمة ماردين كنقطة هامة تسيطر على المواصلات بين بغداد والآستانة ، وكقاعدة هامة تستخدم فى تأديب عشائر اليزيدية التى لا تهدأ ثورتها . وكانت بغداد دائماً هى المكلفة بإخضاع هذه العشائر الممتنعة بجبالها الصعبة الاجتياز . ومع ذلك ظل الباب العالى ينتهز الفرصة المناسبة لإبعاد ماردين عن النفوذ البغدادى ، إلا أنه أخفق فى محاولاته وظلت ماردين تابعة لمماليك بغداد[٣] .

وفى أوائل القرن التاسع عشر كانت المدينة على جانب من الأهمية فقد قدر ديبريه Dupré تعدادها بحوالى سبعة وعشرين ألف نسمة تقريباً . منهم ٢٠ ألف تركى إلى جانبهم أقلية مسيحية ويهودية ضئيلة[٤] . ولكنها — مثل معظم المدن الموجودة فى الدولة العثمانية — كانت تقاسى فوضى الحروب الأهلية حتى إنها من جراء ذلك أشرفت على الخراب . فقد كان أهلها منقسمين إلى « يعقوبية » و « ملية » فإذا حكم ملى طارد خصومه وهكذا دواليك[٥] . وزاد فى شدة هذه الفوضى أن حكام بغداد منذ عهد سليمان الكبير كانوا غير قادرين على السيطرة على ماردين . وخاصة فى عهد سعيد باشا[٦] وبسبب تلك الفوضى أصابها الشىء الكثير من الخراب والدمار ، وهذا ما كانت عليه

---

(١) Dupré: Op. Cit. I. P. 79, 80

(٢) تاريخ ماردين ، ورقة ١٣٨ — ١٣٩

(٣) تاريخ ماردين : هذه الناحية واضحة فيما كتبه عبد السلام أفندى المعنى الماردينى عن تاريخ ماردين منذ تولية حسن باشا (١٧٠٤) وبعد وفاة أحمد باشا (١٧٤٦ م) .

(٤) Dupré: Op. Cit. I p. 80

(٥) تاريخ ماردين : ورقة ١٤٠

(٦) H. Garnier: Voyage en Perse, Tour, 1854, P. 81—2

عندما تولى داود الباشوية . وكان موقفه كذلك من يزيدية سنجار الذين كانوا دائماً فى حالة ثورة ضد الحكام برغم الضربات الشديدة التى نزلت بهم فى عهد كل من سليمان الكبير وعلى باشا وسليمان الصغير . ولقد واجه داود هذا التمرد نفسه من عشيرة اليزيدية وهى الممتنعة فى جبالها ، هذا إلى أن ماردين لم تعد قادرة على أن تقوم بهذه المهمة ولا الموصل القريبة من هؤلاء اليزيديين .

ولم يستطع داود فى أوائل عهده أن يتخذ إجراء كفيلا بوقف تلك الفوضى المدمرة فى ماردين وفى بلاد اليزيديين . وذلك بسبب حروبه ضد البابانيين وضد إيران وضد العشائر العربية وضد الثوار عليه فى مختلف بقاع العراق . ومع أن ماردين بعيدة جداً عن بغداد وتجتاحها تلك الفوضى الطاحنة كان أمر العزل أو النصب فيها واجب الطاعة . وما أشبه هذا الموقف بموقف ولاة بغداد من فرمانات السلطان الواجبة الطاعة . ونظراً لهذا الضعف الذى كان عليه ويودة ماردين لم يكن داود ليعتمد عليه إلا فى التافه من المساعدات العسكرية . وكان هذا الضعف أيضاً سبباً فى أن يعالج الويودة مشكلات ماردين عن طريق الالتواء ليثبت على قدميه أمام الأحزاب المتعارضة فى المدينة[1] . وقد استطاع أن يسلك هذا الطريق بنجاح فى كثير من الأحيان لأنه كان من حقه تعيين بعض شيوخ العشائر الكردية الواقعة فى نطاق نفوذه مثل عشيرة الكرد الملية . ولكن أحياناً تقوم فتنة دموية لأن الويودة فضل شيخاً على آخر . ولسنا فى حاجة لأن نروى كل ما كان يدور فى ماردين من فتن وثورات متشابهة الأهداف محدودتها . وغالباً ما تقتصر على عزل شيخ وتنصيب آخر . واستمر هذا الحال حتى (١٨٢٠ م — ١٢٣٦ م) .

فى تلك السنة اتخذ داود سياسة معينة نحو ماردين وقرر أن يقضى على الفتن فيها . وكلف الويودة سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) بأن يقوم بهذه المهمة . وجمع داود أبناء الفتن هناك وخرج من ذلك إلى أن حزب « الداشية » هو سبب الفتن والفساد . فأمد الويودة بقوة من الجيش ليقضى على هؤلاء المتمردين.

---

(١) تاريخ ماردين : ورقة ١٥٣

ولكى ينجح الويودة فى مهمته استعان بالمليين واستطاع أن يهزم الثوار فى ذى الحجة ١٢٣٦ هـ - أغسطس ١٨٢١ م [١] .

ومن ناحية أخرى قدر الوزير أهمية بقاء الحاكم فى منصبه مدة طويلة . لأنها تكسبه خبرة بالحكم وتبصره بمشكلات المحكومين . ولذلك كان تعيين عبد القادر سنة ١٢٣٦هـ ويودة على ماردين - وهو الذى خبر مشكلات ماردين من قبل - لمدة ثلاث سنوات أمراً ينطوى على بعد نظر فى حكم هذه المدينة النائية المتعددة المشكلات[٢] .

ونتيجة لما أصاب العراق من إرهاق مالى بسبب الحرب الإيرانية ، ولما كان يقوم به داود من إصلاحات مكلفة ولرغبته القوية فى تقوية قبضة الحكومة على ماردين وعلى الزيدية - الذين حموا قاسماً الشاوى الثائر على الوزير - عمل داود على أن يقضى على الفتن التى تثيرها عشيرة الزيدية وعلى الفتن فى ماردين نفسها ليجمع على مايظن - ما يمكن جمعه من أموال من المدينة ؛ ولذلك أرسل سنة ١٢٣٩هـ (١٨٢٣م) الويودة خليل أفندى البغدادى الذى كان يشغل منصب متصرف فى بغداد . فقام هذا بفرض ضرائب ورسوم جديدة وضاعف الضرائب على التجار فأدى ذلك إلى ثورة الأهالى عليه فعزله الوزير واستقدمه إلى بغداد[٣] .

وفى ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) زاد اهتمام داود بتلك النواحى المضطربة ، ولكنه فى هذه المرة كان يبغى إصلاح أمورها بأموال من بغداد تنفق عليها ؛ وفى الوقت نفسه كان يرى فى استمرار تمرد الزيدية ووجود قاسم الشاوى بينهم خطراً يهدده . ولذلك نصب أحد المماليك عليها وزوده بخمسمائة مقاتل وأعطاه مبالغ وفيرة وكلفه بأن يعيد الأمن إلى نصابه وأن يصلح اقتصاديات تلك المنطقة ؛ ويبدو أن الويودة لم يقم بالمهمة خير قيام[٤] . وفى السنة نفسها

---

(١) تاريخ ماردين : ورقة ١٥٧

(٢) المصدر السابق : ورقة ١٥٧

(٣) تاريخ ماردين : ورقة ١٥٧

(٤) تاريخ ماردين : ١٦٠

أيضاً جرد داود حملة على عشائر اليزيدية وأدبها وطارد المتمردين منها ؛ ومع ذلك يمكن أن نقول أن إخضاع عشائر اليزيدية (١) والقضاء على فتن ماردين لا يمكن أن يتم بتلك الأساليب التقليدية مطلقاً، ولقد كان أمر الإصلاح المثمر بعيداً عن متناول يد داود لعدة أمور .

١ – إن داود لم يفرغ من مشكلات الحرب والفتن إلا لفترة لا تزيد على العامين بينما عملية ربط العشائر العنيفة مثل اليزيدية تحتاج إلى سنوات طويلة إن لم تحتج إلى قرن على الأقل .

٢ – إن السياسة الاقتصادية التي كان يرمى داود من ورائها إلى تحسين أمور ماردين لم تكن تحت رقابة كافية وكانت لفترة محدودة .

٣ – أن رواسب الماضي الكثيفة كانت تحول بين داود والقيام بإصلاحات مجدية .

وهكذا كان العلاج الذى قام به داود فى نواحى ماردين وفى منطقة سنجار وقتياً واستمرت ماردين – مثل غيرها من مدن العراق – عرضة للفتن المدمرة التى لا تنقطع : وزاد من ضعف وانهيار تلك المنطقة اجتياح الطاعون لها سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) . وعندما زحف على رضا باشا على بغداد لطرد داود منها اشترك ويودة ماردين فى الحملة ضد داود سنة ١٢٤٦ هـ – ١٨٣٠ م وكلف قاسم باشا العمرى – والى الموصل – بأن يذهب بقواته أولا لاستلام بغداد التى قضى عليها الطاعون ، فذهب معه ويودة ماردين ، ودخل المدينة ، ولكن إصرار قاسم باشا على استلام عدوه داود أدى إلى ثورة بغداد وإلى مقتله هو وويودة ماردين (٢) .

وعلى أى حال ظلت ماردين بعد استيلاء على رضا على بغداد تابعة لها حتى ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ م) ولكنها ظلت أيضاً فى انهيار مستمر بسبب استشراء الحروب الأهلية .

---

(١) تاريخ لطفى : جـ ١ : ١١٦ – ١١٧

(٢) انظر تفاصيل مقتلهما فى الفصل السابع .

الفصل الرابع

داود ومقاومة التدخل الإيراني

أطماع إيران فى العراق – السياسة الروسية – القتال بين داود ومحمود -- الحرب بين الدولتين الفارسية والعثمانية – محمد على يمسك عن نجـــدة داود – معاهدة أرضروم الأولى – استمرار النزاع .

داود ومقاومة التدخل الإيراني

أطماع إيران فى العراق :

كان العراق غاية من غايات الفرس فى العصر الحديث مثلما كان فى العصور الوسطى والقديمة . فمنذ أن انتزعت جيوش السلطان سليمان القانونى العراق من الصفويين كان العثمانيون والإيرانيون — على السواء — يقرعون السيف بالسيف أو المؤامرة بالمؤامرة فكانت الحروب عديدة ونتائجها فى كثير من الأحيان لا تدانى تكاليفها . فإيران تقذف بالجيش إثر الجيش والدولة العثمانية تحض ولاتها على الدفاع وتشحن المدن بالحاميات (١) وتدفعها إلى اجتياح الأراضى الإيرانية إذا اشتمت ريح ضعف فى حكامها أو قواتها الدفاعية ، فكان أن اجتاح حسن باشا — والى بغداد ١٧٠٤ — ١٧٢٣ مقاطعات إيران الغربية فلقب بفاتح همدان وارتفع بذلك إلى مصاف العظماء فى تاريخ العراق . ومن بعده نال ابنه أحمد شهرة مدوية لمواقف البطولة التى وقفها خلال استماتته فى مقاتلة نادر شاه(٢) .

ومع ما كان عليه ذلك الصراع من عنف فقد وقعت معاهدتا سنة ١٦٣٩ و ١٧٤٦ ولم تشأ العقلية الإيرانية أو العثمانية أن تعين الحدود العراقية — الإيرانية أو أن تحدد تبعية العشائر الكردية الشاتية فى إيران الصائفة فى كردستان . وكانت المعاهدات بين البلدين قد شطرت الشعب الكردى بينهما ، كما كانت هناك ثغرات كبيرة تسبب نزاعاً لا يفتر وتجعل المعاهدات وقتية وغير ذات قيمة فعلية . ومعاهدة ١٦٣٩ م — وهى التى اتخذت أساساً للمعاهدات التالية لها

(١) Longrigg: Op. lit., P. 51-74-137-162.

(٢) العزاوى : تاريخ العراق — ج ٥ فيه تفصيل لحوادث حروب حسن باشا وابنه أحمد ضد إيران . وحديقة الوزراء خير المؤلفات الموثوق بها عن عصر حسن باشا وأحمد باشا .

حتى ١٨٤٧م – خبرمثال لما أقول[١] فقد تركت سقر وزهاب ودرنة فى هذه المعاهدة دون أن تعين حدودها بدقة[٢] كما كانت الهجرات تثير ارتباكاً شديداً فى تحديد تبعية القبائل وهذا الارتباك فى التحديد كان فرصة لتقلب القبائل على الطرفين ، وكان هناك نوع آخر من الهجرات الموسمية يثير أيضاً مشكلات معقدة بين حكام العراق وإيران فى العراق مزارات الشيعة المقدسة . هذا إلى أن بغداد والبصرة أصبحتا أسواقاً كبيرة للتجارة الأوربية الإيرانية – الهندية فيتقاطر التجار إلى العراق فى قوافل ضخمة ، كما تتقاطر عليه قوافل الزوار التى تحمل رفات من أسعدهم الحظ – فى نظر الشيعة – بتحقق أمنيتهم وهى أن يدفنوا بجوار حفيد النبى عليه الصلاة والسلام[٣] وكان هؤلاء الزوار يعاملون أحياناً معاملة سيئة[٤] من فرض رسوم باهظة إلى تهديد القبائل لهم بنهبهم مما كان يثير فى نفوس حكام الفرس روح الانتقام وهم الحاقدون على ما يتمتع به الحكام المماليك من أموال العراق الكثيرة . ويوضح لنا عدد الزوار السنوى لمزارات العـــراق وهو بين ١٥ – ٢٠ ألف زائر مدى خطورة هذه المشكلة من الناحيتين الدينية والاقتصادية[٥] . على أن هذه الناحية الحساسة التى كانت فى كثير من الأحيان مصدر تهديد للسلام بين البلدين – كانت أقل خطورة من المشكلة الكردية . فمنذ فتح سليمان القانونى العراق كان الأمير الكردى الذى لاينال مآربه فى بغداد يفر إلى إيران لينال هدفه بحد السيف الإيرانى[٦] وعلى هذا النحو سارت الأمور خلال العهد العثمانى والمملوكى . وكانت السياسة الإيرانية ترمى من وراء ذلك إلى أن تشارك الأتراك فى حكم

---

(١) نصوص المعاهدة موجودة فى Hurewitz: Diplomacy in the Middle East, Vol.I, وانظر كذلك محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ٦٥ العزاوى : عشائر العراق . جـ ٢ : ٢٩

(٢) Ibid

(٣) Fontanier: Op. Cit. I, P. 323

(٤) راجع موقف سعيد وداود من مشكلة الزوار – الفصل الثانى .

(٥) سعاد العمرى : ص ٤٢ .

(٦) تاريخ السليمانية : يوضح هذه الفكرة خير وضوح .

شهرزور وبأن يكون لها رأى فيمن يتولى باشويتها . فكانت هذه الأمانى من أسباب كثرة الاصطدام حتى أصبحت محكاً لقياس قوة استعداد الحكام فى بغداد لمواجهة المواقف[1] .

وفى عهد عبد الله باشا (١٨١٠ — ١٨١٣) كان الشاه أشد رغبة من ابنه محمد على ميرزا فى الاستيلاء على بغداد ويعبر أحد ساسة الفرس عن مشاعره فى هذا الصدد فيقول : وا أسفاه على وقوع تلك البلاد الجميلة بين أيدى ذلك الشعب ؟؟ لو أنها كانت لنا (والله سيمنحنا إياها) فيالها من بلد ستصير فردوساً .

وكانت التيارات السياسية فى أوربا من العوامل التى أشعلت نار حقد الإيرانيين على الأتراك لأن السلطان عقد معاهدة صلح مع قيصر روسيا فنكزت إيران لتصيد العراق . لكن السفير الإنجليزى استطاع أن يلطف الجو بين الدولتين بأن أقنع الشاه بسحب ترشيح عبد الرحمن بابان للسليمانية [2] وهكذا كانت للإنجليز قدرة على وقف أو تأجيل حرب بين إيران وبغداد . فقد كان نفوذهم فى إيران قوياً وكذلك كان فى بغداد أيام سعيد ، فهذا الباشا الضعيف سمح للنفوذ الإنجليزى الفارسى أن يشتد فى العراق حتى إن الشائعات كانت تتردد هنا وهناك عن أن العراق على شفا الوقوع بين يدى الشاهزاده محمد على ميرزا حاكم كرمنشاه[3] .

ولما كانت العراق محط آمالهم ، وما كان الشاه لينسى كارثة كربلاء (١٨٠١) ، وكانت الثمرة قد آن اقتطافها ، فإن الشاهزاده محمد على ميرزا أخذ ينظر من جديد إلى فتح العراق كله لا السيطرة على شهرزور فقط . وكانت مقدمات هذا الاتجاه عدواناً إيرانيا مستمراً على الحدود العراقية — الإيرانية

---

(١) ظهر هذا واضحاً منذ حكم على باشا (١٧٠٢ — ١٨٠٧) العزاوى تاريخ العراق جـ ٦ : ٣٢٥ — تاريخ السليمانية : ٦٥

(٢)
J. Morier: A Second Journey through Persia, Armenia and Asia Minor, le Constantinople, London, 1812, P. 364 / P. 222

(٣) راجع علاقة داود بسعيد وأسباب الثورة عليه فى الفصل الثانى .

منذ انتصار داود فى موقعة كفرى (۱۸۱۲) على عبد الرحمن البابانى ، كما ازدادت العراقيل فى وجه المفاوض العثمانى . وكانت العقبات الكبرى التى تواجه المتفاوضين هى :

(ا) مطالبة إيران بأن يكون لها رأى فى تعيين حكام السليمانية .

(ب) دفع حكام السليمانية مبالغ سنوية لإيران .

(حـ) مشكلة القبائل الرحل المتنقلة بين الأراضى العثمانية والإيرانية .

(د) مشكلة معاملة حجاج العتبات المقدسة .

(هـ) المشكلة الكردية وقبول اللاجئين(۱) .

ونظراً لتعقد تلك المشكلات كانت المفاوضات غالباً ما تنتهى دون الوصول إلى الهدف المنشود فتظل بذرة النزاع نابتة .

على ذلك النحو دارت المفاوضات بين الباب العالى والشاه بشأن تلك المنازعات ،وانتهت المفاوضات دون أن تبت بتاً قاطعاً فى أية مشكلة من تلك المشكلات إلا من حيث تنازل إيران عن الأموال التى كانت تأخذها سنوياً من عبد الرحمن بابان وكانت حوالى عشرة آلاف تومان .

وفى حياة عبد الرحمن نالت إيران نفوذاً كبيراً جداً فى كردستان حتى إنها كانت تحتل معظم المناطق المشكوك فى تبعيتها لكل من الطرفين وبعض المناطق التابعة للعراق . فقد كانت تحتل لواء حلوان وهو يشمل « زهاو » ودرتنك وقصر شيرين (۲) .

وكان عبد الله باشا وسعيد باشا أضعف من أن يقفا موقفاً حازماً من إيران وكانت سياسة داود مناهضة منذ البداية لإيران فتحالف داود مع محمود البابانى ضد سعيد على أساس تخلى محمود عن الإيرانيين .ومنذ أن تولى داود

---

(۱) جودت : جـ ۱۰ : ۱۲۱ — ۱۲۲

(۲) جودت : جـ ۱۰ : ۱۲۲

باشا الحكم لم يحضر فى أية مناسبة يحتفل بها معتمد الشاه فى بغداد . وكانت أسس حلفه مع محمود بابان مضيعة للنفوذ الإيرانى فى كردستان وقد منحه داودكوى وحرير مكافأة له على تخليه عن إيران [1] . وكانت إيران متحفزة لتلهم العراق ، وتحول هذا التحفز إلى رغبة جامحة أثارتها السياسة الروسية ، التى بدأت تنفذ سياسة مرسومة فى الشرق الأدنى . وكانت إيران قد تلقت منذ وقت وجيز صفعة معاهدة كلستان المهينة حتى أصبحت كتابعة لسانبطرسبرج [2] وهذا هو العامل الجديد الذى ظهر فى المشكلة العراقية الإيرانية وأعنى به مؤامرات عملاء الروسيا فى إيران لإثارتها ضد الدولة العثمانية .

السياسة الروسية :

فى سنة ١٨١٧ م لم يكن هناك أمل للإيرانيين فى أن يستردوا شيئاً من ممتلكاتهم المفقودة بمساعدة حلفائهم القدماء (الإنجليز) . بينما أرسل القيصر الجنرال يارمولوف Yarmoloff الحاكم الجبار والقائد العام للقوقاز على رأس بعثة دبلوماسية مهيبة إلى طهران ، وبدل أن يتنازل الجنرال عن شىء من الممتلكات التى استولت عليها الروسيا من إيران قدم اقتراحاً بعقد حلف إيرانى — روسى ضد الدولة العثمانية . وطالب فى هذا الحلف بأن تمنح القوات الروسية ممراً عبر الأراضى الإيرانية فى استراباد وخراسان لتصل هذه القوات إلى خيوه ، كما اقترح أيضاً إمداد الجيش الإيرانى بالضباط وبالقيادة الروسية . ولكن كل هذه المقترحات رفضت فى هدوء وعادت البعثة الروسية إلى بطرسبورج محملة بالهدايا وإن كانت ممتلئة غيظاً من إيران [3] ، ولا شك أن هذه التلميحات عن التوسع فى ناحية الغرب كان لها صداها فى البلاط الإيرانى .

---

(١) جودت : جـ ١١ : ٣٠ .

(٢) Hoskins: British Routes to India, London, 1926, P. 137
وانظر نصوص معاهدة كلستان فى Hurewitz: Op. cit., Vol. I. وانظر .
ظروف عقدها فى Sykes: A History of Persia, London, 1951, Vol. II P, 313, 315

(٣) Ibid

على أن العوامل الأخرى المؤدية إلى النزاع بين إيران والدولة العثمانية كانت على صورة أشد خطورة لأن خطة كرمنشاه لم تقف عند مؤامراتها فى كردستان فقد نشطت كرمنشاه فى جمع الأعوان من كبار الحكام ومن الزعماء العرب أيضاً وهى ترمى من وراء ذلك إلى السيطرة على كردستان بالضغط العسكرى والسياسى . وبشغل الباشـــا فى بغداد بالمؤامرة تلوالمؤامرة حتى يعجز عن منازلة كرمنشاه ويضج العراق من عجز الباشا فيثور ويضطرب ويخلع الباشا ليأتى آخر ربما يكون من المماليك الموالين لإيران . ومصداق ذلك اشتداد المؤامرات الإيرانية داخل بلاط داود نفسه ، ولذلك قضى على الرءوس الخائنة وعمل على أن يبعد محموداً عن الشـــاهزاده بالنصح والترهيب[1] فأرسل مهرداره عبد الله أغا إليه لينصحه بالابتعاد عن الشاهزاده وعبثاً حاول المهردار[2] لأن محموداً كان يعتقد أن قوة كرمنشاه عظيمة بينما تولى داود الحكم منذ وقت قصير بحد السيف الكردى ثم إن الباشا لا يستطيع أن يشن ضده حرباً فى هذه الظروف ولكن محموداً أخطأ التقدير لأن داود باشا كان مصراً كل الإصرار على ضرورة القضاء على النفوذ الأجنبى فى العراق أياً كان مصدره ، الفرس أم الإنجليز . وكان الباشا قد زود مهرداره بالتعليمات التى يجب أن يسير عليها إذا ما رفض محمود العودة إلى حظيرة الدولة العثمانية فكلفه بالاستيلاء على كوى وحرير فى هذه الحالة ، فقام عناية الله بمن معه من قوات معززة بجند أربل وعشائر الشمامك[3] وديزه يى واستولى على كوى وحرير[4] ، وأسندها إلى حليفه حسن — أخى محمود البابانى — الذى انضم إلى داود .

القتال بين داود ومحمود :

وكان من الطبيعى أن يستنجد محمود بحليفه الشاهزاده فأمده هذا بعشر آلاف مقاتل وكانت هذه العمليات العسكرية السياسية المبدئية الناجحة التى

---

(١) ، (٢) جودت : جـ ١١ : ٣٠

(٣) الشمامك والديزة يى عشيرتان كرديتان وقفهما داود على الخدمة العسكرية .

(٤) جودت : ١١ : ٣٠

وجهها داود إلى محمود تنذر بأن محموداً يكاد يختنق فاستنجد مرة أخرى بالشاهزاده فلباه هذا بسرعة ليضمن السيطرة على الموقف وأخذت قوات الشاهزاده تقرع أبواب العراق بعنف(١) .

وهكذا أصبح لزاماً على داود أن يخوض الحرب مرغماً مع جارته الكبيرة ومن ورائها إيران بأسرها . وكانت إيران فى ذلك الوقت قد سبقت الدولة العثمانية فى إدخال النظم العسكرية الحديثة فى جيوشها بالقدر الذى سمحت به ظروف إيران، وبخاصة أنه لم يكن لديها فرق إنكشارية لتعرقل هذا التطور . فكان لدى الشاهزاده محمد على ميرزا — وأخيه عباس ميرزا — من الجيوش النظامية والمدفعية المدربة ما يستطيعان أن يخوضا بها معركة ناجحة ضد حاكم شرقى . ولاشك أن توزيع الولايات على أولاد الشاه قوى الرغبة فى أن يستولى الفرس على العراق . وكانت بغداد هى الاتجاه الذى يمكن أن يسير فيه محمد على ميرزا إن أراد التوسع .ولتتحقق أمنيته هذه يجب أن يخوض حرباً عنيفة ضد الدولة العثمانية ، وهذا يحتاج إلى إعداد وتنظيم جيوش كبيرة . نعم إن نشاط الشاهزاده محمد على ميرزا وأخيه عباس فى تنظيم الجيوش إنما كان نتيجة درس تلقوه من الروس خلال المعارك التى خاضها الفرس ضد الروسيا فى العقدين الأول والثانى من القرن التاسع عشر ، واستغلوا هذه القوات الحديثة التنظيم أولا فى قتال الدولة العثمانية (٢) ، فأخذ الفرس يعملون على استبدال فرق نظامية بالقوات العشائرية ،واعتنى عباس ميرزا بالمدفعية . وكان تحت قيادته وحده جيش قدر تعداده بحوالى ١٠ر٦٤٠ مقاتلا ، عدا القوات غير النظامية . أما إذا خاض الشاه الحرب بنفسه فإن عدد الجيش الإيرانى يرتفع إلى ١٠٠ ألف بل وإلى ٣٠٠ ألف مقاتل.و هذه جيوش كفيلة فى الحقيقة باجتياح العراق تماماً . فلم يكن فى العراق من الباشوات منذ سليمان الكبير من استقر فى حكمه هادئاً لمدة كافية يستطيع خلالها أن ينظم جيشاً على الطراز الحديث(٣) . ولذلك

(١) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٤٠

(٢) A. Wilson: Persia, London, 1922, P. 321

(٣) تفصيلات وافية عن الجيش الإيرانى فى :
Fraser: Narrative of a journey in Korasan, 211, 225 — 227 Wilson: Persian Gulf P.321. Heude: Op. cit. P. 186

كانت قوى بغداد هزيلة أمام عدوتها كرمنشاه . ويصور لنا الرحالة الإنجليزى « هود Heude » قوة بغداد العسكرية تصويراً يؤكد أن العراق سيجثو على ركبتيه عند أول لقاء بين الجيشين البغدادى والإيرانى وأن قوة العراق أضعف من أن تقف فى وجه المؤامرات الداخلية العنيفة [١] .

إن هذه الحرب التى استعد لها أمير كرمنشاه بقواته الكثيفة لم تكن حرباً على نطاق ضيق مثلما حدث أيام أسلاف داود منذ أيام سليمان الكبير ، وإنما كانت حرباً على نطاق واسع . ونطاقها كان أكبر من نطاق تلك التى شنها كريم خان الزندى وإن اتفقت معها فى الدوافع والأسباب . حرب قصد بها الوصول إلى بغداد والاستيلاء عليها لتكون عاصمة الشاهزاده الواسع الآمال . ولاشك أن هذه النيات هى التى طورت أساليب العلاقة بين الإيرانيين والعراقيين ، فلقد تكشفت المؤامرات الفارسية فى بلاط سعيد ثم فى بلاط داود من بعده عن أن تيار النفوذ الإيرانى بعد أن ملأ كردستان بدأ يصب فى بغداد لتغمرها مؤامرات لفظت دوا ماتها علاقات لحمتها المنفعة الشخصية وسداها خيانة مصالح البلد ، إما لعدم تقدير قيمة تلك الخيانات أو لمصلحة دولة أجنبية . وكان على رأس المتصلين بالشاهزاده القنصل الإنجليزى ريتش ، وكانت لهذا القنصل أهداف تتعارض مع مصالح داود [٢] .

جاء هجوم جيش الشاهزاده على الأرضى العراقية من ثلاث جهات :

(ا) جيش بقيادة محمد على أغا البياتى على رأس عشرة آلاف جندى موجه إلى كردستان .

(ب) وجيش بقيادة حسن خان الفيلى [٣] وعساكر اللر لمهاجمة مندلى .

(حـ) وجيش ثالث بقيادة على خان كلهر [٤] لمهاجمة بدره جسان .

فأسرع داود إلى إخبار دولته بهذا التعدى العنيف وحشد قواته ووضع

(١) انظر الفصل الثانى .
(٢) انظر الفصل الخامس داود ومقاومة النفوذ الأجنبى .
(٣) الفيلية عشيرة كردية .
(٤) عشائر الكهلر (الكلور أو الكلهور) كردية تابعة لإيران .

خطته على أساس صد كل هذه القوات المتقدمة . فبعث بقوة على رأسها خليل أغا كتخدا البوابين إلى مندلى . وأرسل عبد الفتاح الباشى أغا السابق إلى بدره وجسان ؛ وتولى الكيخيا محمد أغا قيادة القسم الأكبر من جيش داود وزحف به فى اتجاه السليمانيه ليمنع الاتصال بين الجيوش الإيرانية وقوات محمود البابانى .

وبينما كان داود يعد الخطط لمواجهة الهجوم الإيرانى ويكلف القوات بالمهمات والواجبات انفجر خطر شديد فى العراق العربى ، هدد داود وهزه هزة عنيفة . ذلك أن صادق بك فر إلى شيخ زبيد ليحقق آماله فى تولى الباشوية وصادق بك هو صهر داود وكان يطمع فى الحكم .

وكان لابد لداود أن يعدل من خطته لمواجهة هذا الخطر الجديد ، فسحب داود كيخياه ووجهه بقواته صوب زبيد ووجه عبد الله باشا البابانى فى اتجــاه السليمانية – كركوك ، وأرسل محمــد باشا ابن خالد باشا وعشائر الديزه يى والشمامك للتعاون مع عبد الله . فاجتمعت هذه القوات فى كركوك . فكان اجتماعها هناك من الأسباب التى منعت محمود باشا من الزحف على كوى لما كان ينطوى عليه ذلك الزحف من تهديد بقطع خطوط مواصلات محمود البابانى أما القوات الإيرانية فى مندلى وبدره وجسان فإنها اكتفت بذلك الانتصار المبدئى الذى أحرزته . وقيل إن الشاهزاده كان يستعد لقيادة قواته بنفسه لهجوم عام فعسكر فى باى طاق ومع ذلك فقد بدأ الفتور يسود معظم ميادين القتال . وبدأت مراسلات عقد الصلح بين الطرفين .

يقول جودت إن قوات محمود والشاهزاده عجزت عن إحراز النصر أو التقدم فى وجه المقاومة العنيفة التى صادفتها حتى إن الشاهزاده آثر أن يوقف الحرب ويعقد الصلح(١) .

---

(١) جودت : جـ ١١ : ٣٠ – ٣٢ – العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٥١ ، تاريخ السليمانية : ١٤١ .

واعتقادى أن الأمر كان على غير مايرويه لنا جودت ، فالموقف كان لصالح الشاهزاده ، وأن داود هو الذى وقع فى مركز فى منتهى الحرج فقواته كانت مشغولة فى شمال وجنوب العراق ولم يستطع أن يحرز نصراً. ولو كان الأمر ينطوى على عجز من جانب الشاهزاده وحليفه محمود لكانت شروط الصلح متعادلة بين الجانبين على الأقل ، ولكنها كانت فى حقيقة الأمر ضد مصالح داود فى غالبيتها العظمى فلقد اشترط الشاهزاده أن يبقى محمود بابان حاكماً على السليمانية وأن تضم إليه ثانية كوى وحرير ، وأن يمنع عبد الله من متابعة تقدمه نحو السليمانية وهذا كله فى مقابل إعلان محمود الخضوع لباشا بغداد [1] .

ومن ناحية أخرى كان النفوذ الإيرانى على أشده فى كردستان عقب هذا الصلح — فقد ائتلفت الأسرة البابانية بفضل الوساطة الإيرانية ونال حليف الوزير — أى عبد الله البابانى — كوى وحرير عن طريق معتمد الدولة الإيرانية [2] وسلم حسن بك إلى أخيه محمـــود [3] ولم ينل شيئاً من المناصب ، وهكذا كان توزيع المناصب بيد الإيرانيين . وخفت يد داود باشا كثيراً عن كردستان .

على أن هناك سبباً قوياً آخر دفع الوزير إلى سرعة الموافقة على هذا الصلح الخاسر . فلقد لبت الآستانة نداء داود وكلفت ولاة الموصل وحلب ومرعش وسيواس وأطنة بأن يخفوا لمساعدة باشا بغداد فى قتاله ضد إيران . ونظر الباشا إلى هذه المساعدة من زاوية أخرى . فقد اعتقد أن وجود تلك القوات العثمانية الكثيفة فى بغداد من شأنه إضعاف هيبة الباشا والمماليك وتهديد كيانهم فى العراق . وكانت هناك سابقة خطيرة على هذه الصورة وقعت أيام عمر باشا سنة ١٧٧٥ عندما استنجد هذا الباشا بالسلطان لصد

---

(١) جودت : جـ ١١ : ٣١ — ٣٢ تاريخ السليمانية : ١٤١

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٥٥

(٣) رحلة ريج : جـ ١ : ١٠

هجوم كريم خان الزندى ، فما كان من الباب العالى إلا أن أرسل باشواته بقوات كثيفة إلى بغداد ، ولم تقم هذه القوات بقتال الفرس وإنما عزلت الباشا وقتلته ، وحرمت المماليك من الحكم زهاء أربع سنوات ولعل داود قدر أن الصورة قد تتكرر ومحاولات الباب العالى للتخلص من حكم المماليك كامنة تنتظر الفرصة . ففضل داود أن يعقد ذلك الصلح مع الشاهزاده وكتب إلى الباب العالى بأن لاحاجة به إلى قوات أولئك الولاة [1] .

ولكن لماذا أسرع الشاهزاده إلى الدخول فى مفاوضات الصلح مع أنه كان يتطلع إلى العــراق ومزاراته ولديه من القــوات ماىمنحه شرف الحصول عليها ؟

لقد دخل الشاهزاده هذه الحرب وحده دون أن يقف من ورائه الشاه بقواته ، وقتال داود والاستيلاء على درة من درر الإمبراطورية العثمانية يتطلب حرباً شاملة ضد الدوله العثمانية ، هذابينما كانت العلاقات الفارسية العثمانية لاتدعو لإعلان حرب فى تلك الفترة ، بل كانت الدولة الإيرانية قد بعثت إلى السلطان وإلى محمد على والى مصر بفيلين وسفراء لتكتيل القوى الإسلامية ضد العدوة المشتركة الروسيا التى أخذت تحتك بإيران ووضعت إيران على بساط البحث المشكلات المعقدة بين البلدين وهى مشكلات الحدود العراقية وزوار العتبات المقدسة واتفق على أن تحل هذه المشكلات وأن تكف إيران عن الضغط على كردستان وأن ترفض قبول اللاجئين إليها وأن يعامل تجار الدولتين معاملة متساوية [2] . وهذا يفسر لنا غضبة حكومة بمباى على القنصل الإنجليزى ريتش لعلاقته بمحمد على ميرزا وميله إليــه فإن خطة محمد على ميرزا فى ذلك الوقت كانت مناقضة لخطة الشاه كما هو واضح بل كانت للشاهزاده أطماع فى العرش الإيرانى وفى العراق أغضبت أباه [3] .

---

(١) جودت : ج ١١ : ٣٢

(٢) جودت : ج ١١ : ٣٤ - ٣٥

(٣) Alexander: Op. Cit. P. 254

على أن ذلك الصلح الذى عقد بين داود والشاهزاده لم يحل بالدقة المشكلات المثيرة للنزاع بين البلدين فكل المشكلات ظلت كما هى دون حل ، وكذلك انتهت المفاوضات الفارسية – العثمانية فى الآستانه دون أن تضع الأسس السليمة لحل المشكلات . ولذلك لم تلبث العلاقات أن عادت إلى توترها السابق .

الحرب بين الدولتين الفارسية والعثمانية :

فداود كان يكره أن يرى نفوذه منهاراً فى كردستان، وكان الشاهزاده يريد أن يجنى ثمار نجاحه الجزئى فى حملته السابقة التى أبقت محمود البابانى فى منصبه . فأرسل من لدنه من يطالب محموداً بالأموال (١) وطالب محموداً بأن يحصل عبدالله على كوى (٢) . ولكن عبدالله رفض هذا المنصب الصغير وفر إلى الشاهزاده ، فى الوقت نفسه الذى كانت فيه قوات أمان الله خان (٣) حاكم سنة تغير على زهاو . ولاشك أن وجود مبعوث إيرانى يطالب محموداً بالأموال ويطالب بمنح عبد الله كوى ثم فرار هذا الأخير إلى كرمنشاه قد أدى إلى العداء بين محمود ومحمد على ميرزا . وبالتالى أدى إلى تفاهم بين محمود وداود وبدأت العلاقات الإيرانية – العراقية تشتد توتراً يوماً بعد يوم. وكلما اشتدت الأزمات تدوى المؤامرات الخطيرة ومن تلك المؤامرات مؤامرة ترمى إلى عزل داود دبرها يحيى خازندار داود المتصل بالشاهزاده فأعدمه داود بسرعة (٤)، وراقب بدقة حركات ريتش المعادية (٥)

---

(١) رحلة ريج فى العراق : ج ١ : ٧٥

(٢) تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٥٥

(٣) كان أمان الله خان يحكم سنة وهى على مقربة من الحدود العراقية الإيرانية ولعب دورا كبيراً فى المؤامرات ضد حكام السليمانية .

تفاصيل النزاع بين محمود باشا وعبد الله باشا، وفشل محاولات محمود سبيل ترابط الأسرة البابانية فى الفصل الثالث .

(٤) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٥٢

(٥) التفصيل فى الفصل السابع .

وبطبيعة الحال فتحت كرمنشاه أبوابها للفارين من العراق برغم ماكان قد اتفق عليه من عدم تدخل إيران فى أمور كردستان ومن عدم قبول اللاجئين بل إن كرمنشاه أصبحت أيضاً معقلا للحانقين على داود باشا [1] .

شعر داود بأنه مقبل على حرب أخرى وكانت العلاقات بين عباس ميرزا والباب العالى قد عادت إلى التوتر الشديد ، وأخذ الباب العالى يستعد لحرب مع إيران وكانت تلك السفارات بين الدولتين أموراً مظهرية تخفى وراءها استعدادات كل منها للنيل من الآخر ، فكانت الدولة تعمل على تقوية جيوشها فى العراق ، فأرسلت إلى داود فرقة من المدفعية والخيالة تضم خمسة عشر مدفعاً وخمسماية جمل محملة بالعتاد . والدولة فى الواقع كانت عاجزة عن أن تخوض حرباً شاملة واسعة النطاق بسبب ثورة المورة وعلى باشا ينينا Yanina وعصيان عبد الله والى عكا . وكانت إيران تقدر ماوقعت فيه الدولة من أزمات واضطرابات فعملت على أن تنتهز الفرصة لتنال من غريمتها هذه المرة . وكانت حوادث الحدود من الأسباب المباشرة التى أدت إلى إشعال نيران هذه الحرب .

فقد حدث أن عشيرة كانت تابعـــة لديار بكر أخذت تنتقل بين الأراضى العثمانية والإيرانية واستقرت فى نهاية مطافها فى الأراضى العثمانية . فطالبت إيران بإعادتها إليها . ولم تتمهل فى سبيل الحصول على غرضها فهاجمت الأراضى العثمانية ١٢٢٥هـ — ١٨٢٠م . وبينما كان الموقف يتطلب إجراء حاسماً من جانب الدولة لم تظهر بمظهر القوة فى إزاء العدوان الإيرانى . وإنما أرسلت السفارات إلى بلاط الشاه،والشاه يعلم ماوقع فيه السلطان من ورطة فتلاعب الإيرانيون بسفراء السلطان ، وأثاروا مشكلة الزوار الإيرانيين والحجاج ، وأنهم يعانون كثيراً من ابتزاز حكام الدولة العثمانية لهم ، ويرد جودت على هذا الادعاء بأنه لم تحدث تعرضات للزوار منذ أيام سعيد باشا وأن طريق الحج كان آمناً . وبدا واضحاً أن

(١) أمين زكى : تاريخ السليمانية :١٤٢ – ١٤٣ . ومختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ص ٥٢

إيران تسعى لتقحم حرباً على الدولة العثمانية ويدفعها السفير الروسى إلى هذه الحرب دفعاً، والحق أن قيام تلك الحرب يرجع إلى الدور الذى لعبه الوكيل الروسى فى إيران فقد أدرك الوكيل الروسى مازاروفتش Mazarovitch قيمة استغلال أطماع عباس ميرزا فى التوسع والفتح لتوجيهها ضد الدولة العثمانية حتى يكون هذا التوسع على حساب الدولة العثمانية عدوة روسيا وبيد إيران عدوتها أيضا . وآمال عباس ميرزا كانت واسعة . كانت قواته مجهزة لحرب مع السلطان، فاستولت قواته على طوبراق وعلى «بتليس» و«أرجيش» (صفر ١٢٣٦هـ) (نوفمبر ١٨٢٠م)، وكانت الدولة العثمانية قد أعلنت الحرب وحشدت الجيوش ووحدت القيادة العامة تحت قيادة والى أرضروم وكلفت ديار بكر بالتعاون مع والى بغداد لقتال الفرس (رجب ١٢٣٦ هـ)، (١٨٢١م) . وكان الشتاء قد أوقف العمليات الحربية بين الطرفين حتى إذا ماهل الربيع بدأت القوات العثمانية بالقيام بهجوم مضاد فحوصرت قلعة طوبراق وانتصرت قـــوات عباس ميرزا على والى ديار بـــكر ، ولكن تفشى الكوليرا أضعف قواته وأضاع عليه ثمرة انتصاراته فطلب الصلح [١].

وأما فى الجبهة العراقية فقد عبأ داود قواته لتلبية أوامر الباب العالى فى قتال الإيرانيين والمحافظة على ولايات السلطان الشرقية . فسير جيشاً إلى زهاو وأصدر أوامر إلى عبد الفتاح أغا بأن يغادر بغداد بقواته بلاد بنى لام ويتوجه إلى زنكباد[٢] فذهب إليها وعسكر على رأس ألف وخمسماية خيال .

وفى هذه الحرب كان الشاه أشد رغبة من ابنه فى الاستيلاء على العراق [٣] فالحرب هنا عامة بين أكبر قوتين إسلاميتين فى الشرق الأوسط وكان على كل من محمد على ميرزا وداود أن يحافظ على كيانه فى ولايته وأن يحافظ على الإمبراطورية التى يتبعها .

كانت العمليات الأولى التى اتجه إليها الشاهزاده هى أن يخلع محموداً

---

(١) جودت : جـ ١٢ : ٣ - ١٢

(٢) فى كردستان .

(٣) لونكريك : أربعة قرون : ص ٢٤٤

باشا السليمانية الموالى لبغداد ليضع مكانه عبد الله باشا فجهزه الشاهزاده بالقوات وسيره إلى كردستان ، فأسرع الكخيا إلى كردستان (رمضان ١٢٣٦هـ) فعسكر فى شروانه ،ولم يستطع الكخيا أن يعبر بقواته نهر ديالى لنجدة محمود وكانت قوات محمود فى الوقت نفسه تضعف نظراً لانسحاب كيخسرو — أمير الجاف — من جيش محمود وانضمامه إلى جيش عبد الله .

وكانت قوات عبد الله فى الوقت نفسه أيضاً تتلقى إمدادات من الشاهزاده ومع ذلك لم يستطع أن يشن هجـــوماً مباشراً على السليمانية ولا على جيش الكيخيا المعسكر فى «باريكه» (١) فانقض على زهاوونكباد ونهبهما . وبعد عيد الفطر (١٢٣٦هـ) كان الجيشان مستعدين لخوض معركة حاسمة أعد لها كل من الطرفين مايستطيعه من عتاد . ومع ذلك لم يكن الفيصل فى المعركة حركة عسكرية بارعة أو شجاعة نادرة وإنما كانت الكوليرا هى القاضية (٢) .

كان معسكر الكيخيا فى «باريكه» فى مكان سيئ المناخ قارى ، وكانت تموينات الجيش مختلة وانتشر الوباء فى المنطقة فاستشرى بين صفوف الجيش وأفنى منه أعداداً كبيرة وعجزت البقية الباقية عن الحركة لما أصابها من ارتباك فكانت هذه ظروفاً خدمت عبد الله أجل خدمة (٣) ، إذا لم يبق مع الكيخيا إلا حوالى ٣ آلاف مقاتل وأربعين مدفعاً (٤) وهى مدفعية قوية نسبياً ، ولكنها لاتجدى لضعف قوة المشاة .

كان على الكيخيا أن يؤجل خوض المعركة مع عبد الله بعد أن أصيب جيشه بتلك الكارثة . ولكنه أصر على خوض المعركة ، وهنا اختلف المؤرخون فى تفسير هذه الخطة السيئة التى أجهزت على البقية الباقية من جيش داود فى كردستان .

---

(١) فى كردستان وتقع شرقى تورخورماتو التابعة للسليمانية .

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٧١ — ٢٧٣

(٣) المصدر السابق .

(٤) تاريخ السليمانية : ١٤٤

يقول عثمان بن سند إن داود وقد أدرك مدى الضعف الذى أصاب قواته فى الشمال ، أرسل الإمدادات إلى ميدان المعركة يقودها أخوه أحمد بك ، وكتب داود إلى الكيخيا يمنعه من الاشتباك مع العدو لما فى ذلك من خطر على بقية القوات ويستدعيه ليتباحث معه فى بعض الأمور السرية .

وشعر الكيخيا أن هذه التعليمات الجديدة صدرت من الوزير لأنه غير راض عنه ، وخشى الرجل على نفسه فرفض تلبية رغبة الوزير وأصر على خوض المعركة وعدم الذهاب إلى بغداد . وهنا يتهمه عثمان بن سند بالخيانة والتواطؤ مع عبد الله باشا والشاهزاده على إبادة البقية الباقية من جيوش داود فى كردستان . وفى مقابل ذلك يزحف الجيش الإيرانى على بغداد فيفتحها وينصب عليها الكيخيا والياً بدلا من داود (١) .

وقد وقعت المعركة فعلا فى يوم الإثنين ٢٠ ذى الحجة ١٢٣٦ . (أغسطس ١٨٢١) فكانت كارثة خسر فيها الكيخيا الراجل والراكب وسقطت المدفعية فى يد العدو ، وفرت الفلول التعسة إلى كركوك وفى أعقابها القوات الإيرانية المنتصرة (٢) .

وعلى الوتر نفسه يضرب مؤلف دوحة الوزراء (٣) . أما سليمان فائق فيختلف عن هذين المؤرخين فهو يرجع هزيمة الكيخيا إلى تفشى الأمراض فى الجيش وإلى عدم خبرة الكيخيا بالحروب الشاملة وأنه لما عثر حظه فى الموقعة شعر أن داود سيصب عليه جام غضبه لأنه بهزيمته تلك فتح الطريق أمام العدو إلى بغداد دون عائق . فآثر أن يفر إلى الشاهزادة (٤) ويبدو لى أن رواية مؤلف ناسخ التواريخ « يمكن أن تعطى أصدق صورة لما حدث فإنه يقول إن محمود البابانى هو الذى اتصل قبل المعركة بالشاهزاده واتفق معه على أن ينضم إلى قوات إيران عندما تبدأ المعركة فيهزم الكيخيا . وعلى هذا الأساس

---

(١) مختصر مطالع السعود : ٥٣

(٢) تاريخ السليمانية : ١٤٦ (٣) رسول الكركوكى : ص ٢٩٧

(٤) سليمان فائق : مرآة الوزراء عن العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٧٥

وضعت الخطة الإيرانية ونجحت لأن محموداً نفذ وعده وبعد ذلك توجه محمود والكيخيا إلى نواحى كركوك(۱).

فأغلب الظن أن الكيخيا شعر بمسئولية إضعاف الجيش بسبب اختياره لمعسكره فى باريكة وبسبب الوباء، وأدرك أن التراجع يفقده مركزه فأصر على خوض المعركة فإن كان نصراً نال المزيد من رضاء الوزير وأظهر أنه كان على حق، وإن كان هزيمة فليس لديه إلا أن يولى وجهه شطر أعداء داود لأنه مقضى عليه لا محالة إن هو ذهب خائباً إلى بغداد، ومن المستبعد أن يعمل الكيخيا على تشتيت القوات التى بقيت تحت يده فى معركة يديرها ضد الشاهزاده وهذه القوات فى الوقت نفسه كانت ضعيفة والاتفاق فى ناسخ التواريخ تم بين محمود والكيخيا وليس بين الكيخيا وعبد الله كما يقول عثمان بن سند ورسول حاوى. (۲)

وأغلب الظن أنهما فهما أن الكيخيا خان منذ البداية لأن كلا منهما كتب الحادثة بعد وقوعها وظهور نتائجها فاعتقدا أن هناك اتفاقاً سابقاً بين الكيخيا وعبد الله والشاهزاده، ولاشك أن هذه العلاقة - إن كانت صحيحة - لم تظهر إلا بعد هزيمة الكيخيا وإلا لما خاطر داود بإرساله على رأس جيشه إلى الشمال. ومن ثم كانت حركة الكيخيا هذه دون سابق إصرار ولكن الظروف اضطرته إلى أن يفر من وجه داود، وأخطأ الكيخيا حين اختار محموداً حليفاً له، فقد عاد محمود حليفاً لإيران. وإيران كانت فى حرب مع الدولة العثمانية، ولذلك كان من المستحيل أن يبلغ الكيخيا هدفه فى تولى أرفع منصب فى العراق إلا بحد السيف الإيرانى، ولاشك أن هذا التطور الجديد فى تدخل إيران كدولة محاربة تعمل على تنصيب أحد المماليك على بغداد كان اتجاهاً جديداً فى السياسة الإيرانية:

وهذا الاتجاه الجديد يفسر لنا الحنق الشديد الذى ظهر جلياً فى دوائر الباب العالى حتى صدر فرمان بقتال الإيرانيين وبقتال الكيخيا الخائن (۳).

(۱) ناسخ التواريخ: قسم القاجارية: عن العزاوى: تاريخ العراق: ج٦ص٢٧٦-٢٧٧
(۲) مؤلف دوحة الوزراء.
(۳) مختصر مطالع السعود: بمبى ص ٥١

وأياً كان الأمر فإن هزيمة الكيخيا فتحت الطريق أمام الإيرانيين إلى بغداد وجعلت كردستان تحت قدمي الجيش المنتصر (١) . ولم يستمر فى المقاومة سوى قلعة كركوك ، ووجد الشاهزاده أن فى ضرب الحصار على كركوك مضيعة للوقت وأن الأجدى هو ترك هـذا « الجيب » خلفه ليظفر بالهدف الأكبر ، فزحف فى اتجاه كفرى ودلى عباس حتى نزل الخالص (٢) .

أخذ داود يعمل على مواجهة هذا الموقف الخطير بأن اتخذ موقع الدفاع وطلب من حكومة الآستانة أن تمده على جناح السرعة بالإمدادات اللازمة لصد جيوش إيران . وكانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت منهمكة فى حربها مع إيران فى الجبهة الشمالية وفى حروب المورة وثوارت باشواتها ولم يكن فى وسعها أن تمد داود بجيش كبير .

محمد على يمسك عن نجدة داود :

ولذلك اتجه السلطان إلى جلب العون من الوالى الذى شق طريقه إلى الولاية عن طريق الشعب الذى يحكمه وانتزع فرمان التولية من السلطان انتزاعاً ذلك هو محمد على والى مصر . إذ ليس فى استطاعة أحد من ولاة الدولة سواه أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة . وهذا ما قيل فى محمد على باشا قبل أن يفتح الجزيرة العربية ويصل إلى الاحساء . وقد تألق نجمه بعد ذلك ، وتفوق على غيره من باشوات الدولة العثمانية بتغلبه على الوهابيين (٣) وكان محمد على يعمل على إعداد جيش وطنى وأسطول كبير .

وأغلب الظن أن السلطان عرض على محمد على باشا أن يقدم المعونة

(١) يحدثنا المنشىء البغدادى أن كردستان أصبحت فى حكم العجم وتؤدى لإيران كل سنة عشرين ألف تومان عدا الهدايا . رحلة المنشىء البغدادى : ٦١

(٢) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٤٦

(٣) ذكرى البطل الفاتح إبراهيم : إبراهيم باشا فى بلاد العرب للدكتور عبد الحميد البطريق .

لوالى بغداد [1] لنفس الأسباب التى من أجلها كلف السلطان محمد على بمحاربة ثوار المورة[2] وبخاصة أن محمد على أصبح مسامتاً للبصرة فعلا لأن قواته التى فتحت البلاد الوهابية وصلت إلى قرب أطراف العراق الجنوبية وهذه المنطقة من الناحية الفعلية وقعت تحت الإدارة المصرية فهو بذلك من أقوى وأقرب الولاة من ميدان المعركة فى العراق . أما من الناحية العسكرية فإن خطوط المواصلات بين العراق ومصر طويلة جداً ، فكانت تكاليفها ضخمة هذا إلى أن محمد على فى ذلك الوقت لم يهتم لا بالأحساء ولا بنجد وانسحب منهما على اعتبار أن إدارتها ترهق الحكومة المصرية .

وكان محمد على قد شعر بأن السلطان على وشك أن يكلفه بمهمة مساعدة داود . ونلحظ هذا فيما جاء فى كتاب محمد على لابنه إبراهيم :

« إن . . . عباس ميرزا قد نقض العهد وأعلن الحرب............
وإن ما هو مجمع للأشقياء من جزر الموره وكريد . . . قد غض الطرف عن النظر فى أمرها . . وإن مسألة على باشا ال تيه دلنلى لما تنته على صورة يمكن وصفها بها . فتبين لنا من كل ما تقدم أن قد نفخ فى بوق الحرب ضد العجم وأن قد ألقى حبل الجزائر المذكورة على غاربها وأنه بهذه الصورة قد هبت علينا ريح العمل فى سبيل الدولة والملة وتبدت لنا صفحات الخدمة إما فى إحدى هاتين الجهتين أو فى كلتيهما معاً ... غير أنه لما كان أمر تأدية هذه الخدمات وتسوية هذه المصالح متوقفاً على وجود العساكر الوفيرة فلأن همتك وإن أعز مأمولى لهو أن تتفضلوا بالمبادرة وتوجيه العناية إلى تحريك ابننا إسماعيل باشا ... و .... الدفتردار ... للقيام بغزوات طيبة نافعة لكى

---

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ : معية تركى : صحيفة ٣٠٥ أمر رقم ٧٦ من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ .

(٢) كانت الدولة العثمانية تلقى عبء القضاء على الثورات والحروب التى تشن ضدها على كاهل الولاة فى الأقطار المجاورة لتلك الحروب وهى فى الوقت نفسه تستخدم هذا التكليف فى إضعاف الولاة ليستمروا خاضعين للسلطان العثمانى .

ترسلوا هؤلاء السودانيين فى هذه الأيام على الوجه المطلوب وأن تصرفوا لآلى همكم فى عمل ما فيه الخير لنا .... [1] ».

وكان لهذا التوقع أثره الكبير فى فتح أبواب جديدة أمام محمد على فكان عليه أن يحدد بالضبط الخطر الذى يتهدد العراق ، ومدى تقدم الإيرانيين . ومن الحليف ومن العدو وهو من وراء[2] هذا كله يرمى إلى هدف ثان وهو حماية نجد والبلاد الواقعة تحت الحكم المصرى من المؤامرات التى قد يدبرها له الفرس لأنه عضو فى قوة الدفاع العثمانية، بل عضو خطير [3] .

ولذلك أصدر محمد على أوامره بالتحفظ على الإيرانيين الذين يوجدون فى بلاد تحت الحكم المصرى[4] وكتب إلى عماله فى البلاد العربية محذراً من المؤامرات الإيرانية ، وطلب منهم فى الوقت نفسه أن يمدوه بما لديهم من أنباء القتال فى الجبهة العراقية . وهذا كل ما فعله محمد على بالنسبة للقتال ضد الفرس ، فعندما طلب منه السلطان بعد ذلك أن يبعث بابنه إبراهيم باشا والى جدة إلى بغداد عمل « محمد على » على التخلص من هذه المهمة ولذلك كتب للصدر الأعظم يقول :

« ... إن سفر المشار إليه بمأمورية إلى جهة بغداد مع عساكر كثيرة يكون منتجاً لفوائد عظيمة ، ولكن بما أنى مشغول بـ ... مشكلة كريد و... « محا » فإن ذلك الصدد يلزم الإستعلام عنه أولا من عبدكم ...... غير أنه حيث

---

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ : معية تركى أمر رقم ٤٠ تحريراً فى ٤ ربيع الأول ١٢٣٧ (٢٠ نوفمبر ١٨٢٢) من محمد على إلى والى جدة .

(٢) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ : معية سنية وثيقة ٤٦ صفحة ٢٩ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٣٧ من محمد على إلى محافظ المدينة المنورة حسن بك .

(٣) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ : معية سنية وثيقة ٤٥ صفحة ٢٩ بتاريخ ربيع الأول ١٢٣٧ . من محمد على إلى حسن بك محافظ المدينة المنورة .

(٤) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ : معية تركى صحيفة ٣٥ — ٣٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ .

يلزم الذهاب بعساكر كثيرة وتداركات قوية وإجراء التدابير الضرورية لدى المقابلة نظراً لبعد مسافة بغداد وكثرة الأعجام وقوتهم، فإذا صدرت الإرادة السنية بتهيئة لوازم السفر والمهمات الحربية فى هذه السنة المباركة والذهاب بعساكر ومهمات كثيرة فى السنة الآتية فإنى أذهب فى السنة الآتية بنفسى[1]

وهكذا أمسك محمد على حتى نهاية الحرب عن إمداد داود باشا فى حربه ضد أعداء الدولة العثمانية ولعل السبب فى التخلص من هـذه المهمة أن ولايات العراق لا تعنيه كثيراً فى ذلك الوقت إلا فيما يتعلق بنجد وما يهددها من أخطار ، فموقفه من هذه الحرب سلبى تماماً ، يجمع الأخبار عن طريق رجاله فى بلاد نجد ويهتم جداً بتتبع ما يحدث فى العراق . ولكن كل هذا دون أن يقوم بعمل إيجابى فى الحرب العراقية – الإيرانية .

نخلص من هذا كله إلى أن محمد على باشا لم يطلب منه رسمياً التدخل العسكرى لتأييد داود إلا فى شعبان ١٢٣٨ (إبريل ١٨٢٣) [2] وأن محمد على حتى فى هذا الوقت المتأخر من الحرب مع إيران تخلص من هذا التكليف .

فكان على داود أن يوطن نفسه منذ البداية على مواجهة الموقف وحده فإن وصول الإمدادات إلى داود فى بغداد من مصر أو من الآستانة يتطلب وقتاً ليس بالقليل ، وهذا إذا كانت هناك إمدادات .

أدخل داود قواته فى قلعة بغداد وأغلق أبواب المدينة ووزع مسئوليات الدفاع على الفرق المسلحة وكانت مسئولية الدفاع عن المدينة ملقاة أساساً على كاهل الإنكشارية وفى الوقت نفسه جمع عدداً من المتطوعين وجهز حرسه الخاص بصورة تجعله مستعداً لخوض المعركة الفاصلة الوشيكة الوقوع ، ومما

---

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ : معية تركى صحيفة ٣٥ أمر ٧٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ . من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم .

(٢) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ : معية تركى : صفحة ٣٥ أمر ٧٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم .

ثبت دعائم هذا الدفاع ما أبداه الأهالى البغداديون من رغبة صادقة فى التعاون مع الباشا فى قتال الفرس والدفاع عن مدينتهم . هذا بينما أخذت عشائر العراق تتدفق على الوزير وكانت حصون بغداد وأسوارها لا تزال متينة .

ولا شك أن شحن المدينة بالرجال والعتاد والمؤن ووجود أموال كثيرة بين يدى الباشا قد قوى ثقته فى أن ينجح دفاعه وأن يعجز محمد على ميرزا عن فتحها مثلما عجز نادر شاه من قبل (١٧٣٢) م بعد أن سيطر على معظم العراق . على أن داود — برغم انحصاره فى بغداد — كانت لديه قوة هجومية لها بأسها فى شغل قوات العدو بعيداً عن أسوار المدينة فيخف الضغط عنها ، فإن عشائر العراق التى وقفت إلى جانبه صدقت عزيمتها فى قتال « الروافض » فكان لصفوق — شيخ شمر الجربا — مواقف انتصر فيها على قوات الكيخيا السابق محمد أغا (١) .

على أن الامتحان الذى كان يمكن أن يكشف لنا مدى قوة داود الدفاعية لم يقع ، فإن الحصار لم يلبث أن أخذ يخف شيئاً فشيئاً لأن الكوليرا وقد أصبحت من العوامل الحاسمة فى الحروب العراقية تفشت بين الجيش الإيرانى وقامت بالمهمة التى عجز عنها جيش داود (٢) .

ومن حسن حظ داود أن الكوليرا لم توهن قوى الشاهزاده فحسب، بل أصابته هو نفسه أيضاً وكأن القدر شاء أن يصرع بالكوليرا ألد عدوين لداود : الشاهزاده محمد على ميرزا، والقنصل السابق ريتش .

وكان هذا التطور من الأسباب التى دعت الشاهزاده إلى طلب الصلح

---

(١) أما المدينة فقد ظلت أمورها عادية حتى قرعت أسماع الشعب البغدادى أنباء وصول الجيش الإيرانى إلى هبهب على مسيرة يوم واحد تقريباً من بغداد وعندئذ كثرت حركات الفرار من بغداد إلى الجهات الآمنة فى الغرب كالحلة مثلا . وفى الوقت نفسه بدأت الأزمة الاقتصادية تشتد وتضيق حلقاتها إلا أن داود كان لديه أموال كافية وخزائنه ممتلئة بالذخائر والمؤن ولم يكن يخشى الخيانة الداخلية . العزاوى : ج ٦ : ٢٨٠ — ٢٨١

(٢) تاريخ السليمانية : ١٤٧

ويقال إن الشاهزادة كتب إلى أحد كبار رجال الدين [1] فى بغداد وهو الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء . وهنا رواية أخرى تقول إن الوزير هو الذى طلب من الشيخ موسى المذكور التوسط فى عقد الصلح وليس أمر المبادرة بخطير لكى نحدد من منهما طلب الصلح أولا . فالظروف فى الجبهة العراقية كانت تتجه نحو السلام إذ وضح أن استمرار الحرب غير مجد للطرفين فداود ممتنع فى قلعته وليست لديه قوة هجومية كافية لهزيمة الشاهزاده وقوات الشاهزاده فقدت قدرتها على ضرب حصار مجد على أسوار بغداد التاريخية :

اختار داود اثنين من المدرسين ليتفاوضا مع الجانب الإيرانى فى تفاصيل الصلح [2] فعرض الجانب الإيرانى على الجانب البغدادى تعيين عبد الله على السليمانية كما أن المفاوض الإيرانى عمل على أن يكسب شيئاً لمحمد أغا — الكيخيا السابق — فطلب إسناد كوى وحرير إليه . فكتب داود إلى السلطان بما اشترطه الإيرانيون ، وكان من الطبيعى أن يشتد السلطان فى رفضه المطالب المتعلقة بالكيخيا السابق . فقد أصبح فى نظر المعسكر التركى خائناً خطراً يهدد تعيينه فى منصب ما بوقوع اضطرابات قد تنتهى بوقوع العراق فى يد الفرس [3] فعدل الإيرانيون مطالبهم وجعلوا كوى وحرير من نصيب محمد باشا بن خالد باشا البابانى ، فعقد الوزير اجتماعاً ضم علماء بغداد وأعيانها ، وانتهت المداولات إلى الموافقة على عروض الشاهزاده ، على أن ينسحب الجيش الإيرانى من الأراضى العراقية وعلى أن يعيد العشرة آلاف رأس التى كانت قد نهبتها قوات الشاهزاده من الخالص.

ولما كان المرض يشتد على الشاهزاده كان الجيش الإيرانى يزداد ارتباكاً وخاصة أن الشاهزاده أمر بالانسحاب وعبر نهر ديالى وتعرضت قواته خلال

---

(١) كانت المفاوضات بين إيران وبغداد تتم أحياناً بوساطة كبار رجال الدين فى الدولتين مثلما حدث أيام نادر شاه — حديقة الزوراء : ٢٤٠ — ٢٦٣

(٢) هما محمد أغا بن أبى دبس ومحمد سعيد بن النائب الكركوكى العزاوى ج ٦ : ٢/٢٨١

(٣) الأعظمى : مختصر تاريخ بغداد : ٢٢٦

الانسحاب لهجمات قوات صفوق، وأخيراً صرع المرض الشاهزاده فى أواخر صفر سنة ١٢٣٧ م أكتوبر ١٨٢١ م . (١)

على أن الهدوء الذى خيم على الجبهة العراقية لم يكن إلا لفترة وجيزة ، وذلك لأن القتال كان لا يزال مستمراً فى كردستان الشمالية وأرضروم ، ولم تكن وفاة محمد على ميرزا لتفت فى عضد الإيرانيين أو لتجعلهم يتخلون عن أملهم فى الاستيلاء على العراق . فقد خلف محمد حسين ميرزا أباه على كرمنشاه وكان هذا أشد من أبيه رغبة فى الاستيلاء على بغداد . وكان نشاط الشاه فى ذلك الوقت قد اشتد عن ذى قبل (٢)

قابلت الدولة العثمانية هذه الاستعدادات الإيرانية الواسعة بإصدار أوامرها إلى ولاة ديار بكر والموصل وبغداد بمهاجمة الأراضى الإيرانية والاستيلاء عليها (ربيع الأول ١٢٣٧) (٣) فاستعد داود — للجولة التالية مع الإيرانيين — وأصبح قادراً على أن يؤلف قوة هجومية وأمر عليها كيخياه الجديد الحاج طالب كيخيه (٤) .

زحف الحاج طالب على رأس عشرة آلاف مقاتل نحو الحدود، ولكن سرعان ما شن محمد حسين ميرزا هجوماً مضاداً بأربعين ألف مقاتل ، وإزاء هذه القوة المتفوقه آثر الحاج طالب أن يتجنب الدخول فى معركة مع جيش حسين ميرزا .

ولما كان عبد الله قد أعيد إلى السليمانية خلال مفاوضات الصلح بين داود ومحمد على ميرزا فإن محموداً البابانى كان يتحين الفرصة ليعود إلى الميدان ويجلس مرة أخرى على كرسى الحكم ، وكان الضعف الذى أصاب جيش الشاهزاده محمد على ميرزا ووفاة الشاهزاده نفسه من العوامل التى جعلت

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨١ — ٢٨٢

(٢) تاريخ السليمانية : ١٤٧

(٣) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٢

(٤) من المماليك .

محمود البابانى يعود إلى الجانب المتفوق ، وفعلا جهزه داود بالقوات لمهاجمة السليمانية وعبد الله حليف إيران وانتصر محمود عليه ودخل السليمانية فى ١١ شعبان سنة ١٢٣٧ هـ (أوائل مايو ١٨٢٢) م ولكن السليمانية كانت تقاسى أشد انهيار اقتصادى ومعنوى بسبب الأمراض وأخذ عبد الله ومحمود يتبادلانها بالحرب والمؤامرات (١)

أما فى جبهة القتال بين الميرزا والكيخيا فإن جيش الميرزا أصابه ما أصاب جيش أبيه، وبدا كأن المفاوضات بين طهران والآستانة ستكلل بالنجاح وفعلا اتفق على شروط معاهدة الصلح (ذى الحجه ١٢٣٨ – أغسطس ١٨٢٣ م)(٢) واختير محمد نجيب أفندى قيوكتخدا محمد على باشا – والى مصر – سفيراً للدولة العثمانية للتصديق على المعاهدة (٣) وهى المعاهدة التى عرفت باسم « معاهدة أرضروم الأولى » .

معاهدة أرضروم الأولى :

تقضى هذه المعاهدة بتأكيد معاهدة سنة ١٦٣٩ وبعدم تدخل إحدى الدولتين فى شئون الأخرى، وبخاصة فيما يتعلق بالكرد، وألا تقوم الدولة الإيرانية بفرض سيطرتها على الرعايا التابعين للدولة العثمانية . وإذا ما عبرت إحدى عشائر الدولتين الحدود إلى الدولة الأخرى خلال هجراتها الصيفية أو الشتوية فعلى باشا بغداد وممثل ولى العهد الإيرانى أن يتفقا على الضرائب التى تفرض على هذه العشائر وإيجار المرعى حتى لا يترتب على ذلك سوء تفاهم بين الدولتين؛

ونصت المعاهدة على أن يؤخذ من التجار والحجاج الرسوم المعتادة دون ان يطالبوا بأى شيء من المغارم فلا يدفع الحجاج الذين لا يحملون متاجر

---

(١) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٤٨ – ١٥١

(٢) جودت : جـ ١٢ : ١٣

(٣) الوثائق التاريخية : محفظة ٩ : بحرا برا تركى وثيقة رقم ٥ ورقة رقم ٥ – بتاريخ ٨ بيع الأول ١٢٣٩

شيئاً من الرسوم ، وأما الذين يحملون معهم تجارة فتجبى على هذه التجا ة الضريبة الجمركية فقط . وكذلك تعامل إيران التجار العثمانيين بالمعاملة بنفسها .

ويدفع الرعايا والتجار الإيرانيون الضرائب نفسها التى يدفعها رعايا وتجا الدولة العثمانية وهى ٤٪ من قيمة التجارة ، ويمنح التاجر تذكرة تثبت دفعه للضرائب القانونية المطلوبة منه .

ولما كان انتقال العشائر سبباً جوهرياً أدى إلى هذه الحرب فقد وضعت فى المعاهدة نصوص تقضى بأن تضع الدولتان حداً لتذبذب العشائر بين إيران والدولة العثمانية . كما نصت المعاهدة على اتفاق الدولتين على عدم قبول أى دولة منهما للأشخاص الفارين من الدولة الأخرى ، كما اتفق على أن تعاد ممتلكات الإيرانيين فى الآستانة إلى أصحابها وأن البضائع التى كانت تحت التحفظ (تحت الحراسة) أو صودرت بأوامر من باشوات الدولة العثمانية ترد إلى أصحابها بعد إثبات حقهم فيها .

كذلك نظمت المعاهدة طريقة حصول الوارث الإيرانى على إرث الأب المتوفى ببغداد ، والتحفظ عليه . ولكى تتم الأمور فى بساطة وعلى بساط البحث المتبادل الودى اتفق على أن يرسل كل بلاط كل ثلاث سنوات وزيراً إلى بلاط الطرف الآخر .

كذلك نصت المعاهدة على إعلان العفو عن أولئك الذين فروا من إحدى الدولتين إلى الأخرى على ألا يعاقبوا على خيانتهم السابقه وعلى ألا تطالب إحدى الدولتين الأخرى بتعويضات عن الخسائر التى سببتها الحروب أو تكاليفها [1].

استمرار النزاع :

لم تأت هذه المعاهدة بشىء جديد ، ووضعت فى صورة خطوط عامة بينما الحدود العراقية - الإيرانية فى حاجة إلى نظرة جغرافية دقيقة من حيث طبيعة هذه الحدود ومناخها وأسلوب حياة العشائر الكردية النازلة هناك ومدى قوة

(١) انظر نص المعاهدة فى مجموعة الوثائق التى نشرها Hurewitz
Diplomacy in the Near and Middle East. Vol. I, pp. 90-92

الحكومة المركزية وتبعية تلك العشائر لها . ولم تكن العقلية السياسية الإيرانية والعثمانية إلى الآن قد ارتقت بعد لتضع معاهدة تفصيلية للحدود المشتركة . فلم يثر انتباه الدولتين إلا مشكلة العشيرة التي كانت السبب المباشر فى الحروب وأما تنظيم أمر العشائر على حدود العراق مع إيران والتدخـل الإيرانى فى كردستان فإنه كان يتطلب تحديداً دقيقاً ينص على تبعية كل عشيرة وعلى أراضيها ووضع خريطة مفصلة للحدود لتكون مرجعاً عند الخلاف .

فكان من الطبيعى أن تعود الخلافات بين بغداد وكرمنشاه بشأن المشكلة الكردية وبشأن الحدود بين الدولتين . فلقد بقيت القوات الإيرانية تحتل لواء حلوان مع أن معاهدة ١٨٢٣ تجعله تابعاً لبغداد وكانت زهاو وحدها تؤدى عشرة آلاف تومان للشاهزاده وهو مبلغ جسيم نسبياً (١) . على أن النزاع الذى دب فى كردستان بين محمود باشا وعمه عبد الله باشا وما ترتب عليه من تدخل إيرانى سافر حطم ركنا هاماً من هذه المعاهدة (٢) . وزاد المشكلة تعقيداً ظهور « قوة راوندوز » فى ذلك الوقت وتوسعها على حساب البابانيين(٣) ولقد شكا داود هذا التدخل الإيرانى إلى الباب العالى فبعث الباب العالى بأسعد أفندى للتحقيق فى هذه المشكلة .

ويروى لنا أسعد أفندى بالتفصيل المحادثات السياسية التى دارت بينه وبين داود والإيرانيين وهى محادثات أظهرت أن المشكلة الكردية لم تكن مستقله فى حد ذاتها، وإنما كانت مرتبطه بمشكلة زوار العتاب المقدسة . فقد اتهم المفاوض الإيرانى داود باشا بأنه يأخذ « الباج » (٤) على الزوار الإيرانيين ويفرض ضرائب مستحدثة على رفات من يدفنون فى العتبات المقدسة (٥) . وقام أسعد أفندى بتحقيق المسألة وكان من الطبيعى أن يبرئ داود ساحته فى

---

(١) رحلة المنشئ البغدادى : ٤٣.

(٢) جودت : ج ١٢ : ١٥٣ — ١٥٤

(٣) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٥١

(٤) ضريبة تفرض على المسافرين فى أماكن معينة .

(٥) جودت : ج ١٢ : ٢٨٢ — ٢٨٤

هذا الصدد (١) . ولاشك أن المهمة التى كان يرمى إليها أسعد أفندى من هذه المفاوضات لم تكن فقط لإقرار الأموربين طرفى النزاع داود والشاهزاده ، بل كان يهدف إلى كسب إيران عضواً فى الجامعة الإسلامية التى تعمل الدولة العثمانية على تحقيقها للوقوف فى وجه التكتل الأوربى ، ذلك التكتل الذى ظهر بأجلى معانيه الدينية والسياسية فى ثورة اليونان ، وبرزت فيها الروسيا كأعنف خصم للدولة العثمانية وأن الدول الإسلامية يجب أن تتعاون ضد هذا الخطر المشترك(٢) محادثات تبودلت فيها الآراء السياسية العالية ونوقشت المشكلات بكل صراحة ومودة ، وكان الحلف على وشك أن يوقع وإذا بالسفارات تذهب وتعود دون الوصول إلى حل عملى للمشكلات أو إلى قيام تعاون حقيقى بين الدولتين وهذا يرجع إلى عدة أمور :

١ـ عدم الثقة المتبادل بن الدولتين .

٢ـ إن الحكم فى كل من الدولتين موزع على حكام لهم سياستهم شبه المستقله عن سياسة الحكومة المركزية .

٣ـ عمق الكراهية المذهبية بين الشيعة والسنة حينذاك .

٤ـ عدم وضع الفريقين يدهم على الداء نفسه وعلاجه بدقه واستخدام عبارات « عدم التدخل » و « عدم قبول اللاجئين » . فقد كانوا ينظرون إلى النتائج قبل أن يدرسوا مسببات هذه النتائج . إن علاج المشكلة الإيرانية ليس فى المعاهدات التى تعقد بين إيران والدولة العثمانية ، وإنما فى دراسة مسببات تلك النتائج أولا ، وهذا هو الذى حدث بعد ذلك على يد خورشيد باشا ودرويش باشا عندما درسا شئون العراق من الناحية الجغرافية والاقتصادية والبشرية والسياسة . . . الخ ووضعا التقارير والبحوث فى ضوء هذه الدراسات الدقيقة التى نظمت الحدود بين الدولتين سنة ١٨٤٧ م . (٣)

---

(١) جودت : ١٢ : ٢٨٣

(٢) جودت : جـ١٢ : ٢٩١ – ٢٩٢

(٣) يعتبر كتاب سياحتنامه حدود وكذلك تقرير درويش باشا دراسة قيمة للعراق ولمشكلة الحدود الإيرانية العراقية .

وعلى الرغم من أن الباب العالى كان يعمل على توحيد كلمة المسلمين لقتال الكفار، وعلى وجه الخصوص الروسيا ومع أن الظروف كانت تخدم الباب العالى فى مسعاه هذا نظراً للتوتر الشديد الذى وضح بين القيصر والشاه الذى كان ينظر إلى معاهدة كلستان نظرته إلى وصمة عار فى جبين الدولة الإيرانية . أقول إنه على الرغم من كل هذا ظلت سياسة كرمنشاه ثابتة نحو كردستان وبغداد من حيث قبول اللاجئين وإمداد البابانيين بالقوات (١) . وكان من الطبيعى أن تتوزع قوى الإسلام فحرب بين روسيا وإيران منذ ١٨٢٦ — ١٨٢٨ لا يشترك فيها السلطان ، وأخرى بين روسيا والدولة العثمانية بعد موقعة نافارينو لا يشترك فيها الشاه ونتيجة كل من الحربين كانت نصراً عسكرياً ودبلوماسياً للروسيا ٢) وتمثل ذلك فى معاهدتى تركما نجاى (فبراير ١٨٢٨) ومعاهدة أدرنه سبتمبر ١٨٢٩ (٣) .

ولم يبق ما يستحق الذكر من أمر العـــلاقات بين داود وإيران عدا تلك المنازعات بشأن الكرد . ولكن يحدثنا أحد المبشرين الأوربيين فى بغداد — المستر جوفز Groves نقلا عن أحد مدرسى مدرسته وكان من المسلمين فيقول إن داود — وقد أعلن عداءه للسلطان بقتله صادق أفندى سنة ١٨٣٠ — سيلقى بنفسه بين يدى عباس ميرزا وإن بغداد ستقع بذلك فى أيدى الفرس (٤) .

وليس لدينا رواية أخرى تؤيد هذا القول مع العلم بأن داود بعد أن حلت كوارث الطاعون والفيضان بجيشه وبمدينته أراد أن يستمر فى القتال بما بقى تحت يده من قوات ولم يذكر أحد أنه ألقى بنفسه فى أيدى الفرس فهذا النبأ واحد من تلك الأنباء التى كان يلقى بها بعض الأفراد للأجانب فيكتبونها دون تثبت .

---

(١) تاريخ السليمانية : ١٤٩ — ١٥٥ .

(٢) Morfill: The Story of Russia 1930 PP. 286—287

(٣) انظر المعاهدتين نصوص فى: Hurewitz: Op. Cit. Vol, I

(٤) Groves: Op. Cit. P. 65

الفصل الخامس

داود ومقاومة النفوذ الأجنبي

تطور النفوذ الإنجليزي – النزاع بين سليمان الصغير وريتش –
نمو نفوذ ريتش – النزاع بين داود وريتش – طرد ريتش –
تسوية الأزمة – مشروع الملاحة البخارية .

داود ومقاومة النفوذ الأجنبي

تطور النفوذ الإنجليزي :

قامت الدولة العثمانية على أنقاض الدولة السلجوقية الإسلامية وعلى أنقاض الإمبراطورية البيزنطية المسيحية ، فألهب سقوط القسطنطينية الروح الصليبية التي لم تهدأ قط في أوروبا ، وانطلقت عاتية في شبه جزيرة ايبيريا التي خرجت منها المحاولات الأولى الناجحة في مهاجمة جناح المسلمين من الخلف على متن البحار إذ أثبتت التجارب مناعة الإسلام في البر (١) فكان أن اكتشفت البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح وأن تدفقت الجيوش العثمانية على الطرق العالمية القديمة لعلها تدرك جناح الإسلام قبل أن ينكسر ، ولكنها لم تدركه إذ وصلت إلى ميدان القتال متأخرة فلم تبلغ غرضها وأصيبت دول الشرق الأدنى بشلل اقتصادى مؤقت ولم يقض عليها نظراً لأن الطرق القديمة كانت منافساً له قيمته لطريق رأس الرجاء الصالح . ولأن بلاد ما بين النهرين ووادى النيل ينتجان ما يكفى سكانها وما يستدعى جلب تجارة أجنبية تستبدل بمنتجات وطنية أحياناً .

وكانت أوربا فى القرن السادس عشر تنقب عن كل ميناء يمكن أن يفتح للتجارة ، فصدرت الامتيازات الأجنبية التى منحت أولا لفرنسا حليفة السلطان ، ثم حصلت عليها بقية الدول الأوربية. وأخذت العلاقات الاقتصادية بين الدول الأوربية والدولة العثمانية تقوى ، فأنشئت الوكالات الأجنبية فى موانى الخليج العربى الهامة وفى ميناء البصرة على أن هذه الحركة لم تثر فى العراق روحاً جديدة ، فظل العراق متعباً يسير حسب نظام معين لا يوقظه من سباته إلا جيش

(١) Pannikar: Asia & Western Dominance. P. 28

فارسى جرار يدق بعنف أبوابه حتى يدفعه إلى الوراء جيش عثمانى ضخم . ثم يعود العراق إلى مشكلاته الداخلية التقليدية . بينما الأوربيون فى الخليج العربى فى صراع هو جزء من ذلك الصراع الكبير فى أوربا وفى مياه الهند . ولا تصل إلى الخليج من تلك الأعاصير إلا ذيولها القوية نوعاً ما عند مدخله والواهنة عند نهايته . ولذلك شاهدت مسقط من الصراع العنيف بين الفرنسيين والإنجليز ما لم تشهده البصرة . وبخاصة فى غضون حرب السنوات السبع التى كشفت للإنجليز عن أهمية الطريق بين أوربا والهند عبر العراق وبادية الشام وحلب ، فقد كان أسرع طريق لنقل الأخبار والبريد ، فدخلت علاقة الإنجليز بالعراق فى دور جديد[1] .

وكان العراق بدوره قد دخل فى دور جديد ، فإن انحلال إمبراطورية نادر شاه الهجومية خلف وراءه فى الخليج وفى العراق أسرات أثبتت مقدرتها فى صد وإبعاد الخطر الفارسى . كأسرة البوسعيد فى مسقط والمماليك فى العراق . ونظراً لتلك الأهمية التى أصبحت للعراق جعل الإنجليز وكالتهم فى البصرة قنصلية سنة ١٧٦٤ م . فلم تعد مهمة الوكيل البريطانى أن يرعى الأمور التجارية فحسب ، بل كان عليه أيضاً أن يضمن سير التتار حاملى البريد حتى حلب وهذا يتوقف على وجود باشا قوى على علاقة طيبة بالإنجليز يتعاون معهم ويتعاونون معه . ولذلك نجد هذه العلاقات تنشط جداً خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فكم من حملة مشتركة شنتها القوات البرية المملوكية وقطع بحرية إنجليزية ضد بنى كعب ، وكم من مرة يستنجد فيها سليمان باشا الكبير بالقنصل الإنجليزى ليتولى باشوية بغداد أو ليزيل من طريقه المطالبين بها وليصفى العلاقات بينه وبين صاحب مسقط ، وكان سليمان باشا فى الوقت نفسه فى حاجة إلى الأسلحة لصد الخطر الوهابى ، فكان الإنجليز يمدونه بها ، بل إن سليمان نفسه كان مديناً للقنصل الإنجليزى لاتوش ، وهكذا كان الذهب من أساليب الإنجليز فى كسب صداقة حكام الشرق[2] .

---

(١) الدكتور صلاح العقاد . الاستعمار البريطانى فى الخليج الفارسى : ٢١

(٢) Longrigg: Op. cit. 197 — 206 وأحمد الصوفى : المماليك فى العراق ٨٩

وفى نهاية القرن الثامن عشر هز بونابرت الشرق بحملته على مصر وبمكاتباته إلى تبو صاحب حاكم ميسور وسلطان مسقط ونياته الواضحة لضرب الإنجليز فى مستعمراتهم الشرقية . فأسرعت حكومة الهند إلى اتخاذ التدابير السريعة لمواجهة هذا الموقف الجديد الخطير فاحتلت ميسور ، واستغلت الضغط الاقتصادى على مسقط لإبعادها عن مجال الفرنسيين بينما بقى ممثل فرنسا فى العراق لا يقوى على القيام بعمل إيجابى نظراً لسابق خدمات الإنجليز لسليمان باشا الكبير . على أن هذه التطورات وما تلاها من أحداث جسام كانت تتطلب من الإنجليز اهتماماً أكبر . ولذلك قام اللورد إلجين Ellgin سفير إنجلترا لدى السلطان بمساع ناجحة فى سبيل الحصول على براءة تولية هارفارد جونز Harford Jones Brydges قنصلا فى بغداد سنة ١٨٠٢ [١] إلا أن العلاقات العثمانية — الإنجليزية لم تلبث أن توترت وتفوق النفوذ الفرنسى فى الآستانة . وبدأ سبا ستيانى — السفير الفرنسى — يلعب الدور الذى كان يلعبه من قبل السفير الإنجليزى . فكان تعيين سليمان باشا الصغير (١٨٠٨) بترشيح وتأييد منه [٢] ولكن سرعان ما تلاشى النفوذ الفرنسى فى الآستانة وطهران بسبب معاهدة تلست (Tilsit) التى منحت للإنجليز فرصة ذهبية لاستعادة نفوذهم فى الخليج وفارس والعراق وكانت حكومة الهند قد أرسلت كلاوديوس جيمس ريتش[٣] Claudus Rich فى ذلك الوقت قنصلا فى بغداد . وفى العام التالى وقعت معاهدة الصلح بين السلطان وإنجلترا (١٨٠٩) .

---

(١) كانت هذه البراءة تنص على أن يعين هارفارد جونز بريدجز Harfard Jones Brydges قنصلا فى بغداد ليحمى مصالح البريطانيين فى الباشوية والمسافرين تحت العلم الإنجليزى وأن تحدد الضريبة بـ ٣٪ من ثمن البضائع ولا يتدخل فى شئونه ولا يسجن ولا يفتش بيته ولا توضع فيه قوات ويعفى معاونوه وخدمه من الخراج والضرائب وأى شكوى منه تحال على السلطان وحده وأن يسمح له بالتسلح فى المناطق الخطرة وأن يساعده رجال السلطان فى عمله .

راجع نصوص المعاهدة فى : Aitchison: A Collection of Treaties, Vol. X

(٢) جودت : جـ ٨ : ١٧٠ — ١٧٢

(٣) ولد المستر ريتش فى سنة ١٧٨٧ وتعلم اللغات العربية والتركية والفارسية وبعض اللغات الأوربية الأخرى وكانت شركة الهند فى حاجة إلى مثل هذه الكفاءة فعينته الشركة سكرتيراً =

النزاع بين سليمان الصغير وريتش :

أرسل ريتش إلى بغداد فى ظروف حرجة محملا بأعباء ثقيلة . كان عليه أن يقضى على النفوذ الفرنسى فى بلاط باشا بغداد ، وأن يقاوم مشروعات فرنسا فى هذه البلاد ، ويراقب حركات رجالها وخططهم ، وأن يستقى الأخبار التى تهمه وتهم مصالح الشركة التى يمثلها عن طريق شبكة واسعة من الجاسوسية وكان عليه أخيراً أن يعنى بخط البريد بين الهند وحلب والآستانة . ومع ضخامة المهمة الملقاة على عاتقه فإنه لم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين . بينما كان المستر مانستى Manesty القنصل الإنجليزى فى البصرة حينذاك قد أمضى عشرين عاماً فى منصبه (١) . فكانت دهشة رجال المقيمية كبيرة عندما شاهدوا قنصلهم الجديد الشاب الذى كان عليه أن يقيل النفوذ الإنجليزى من عثرته فى بغداد (٢) التى كانت نقطة الارتكاز فى مشروع فرنسا لغزو الهند . وكان التفكير الاستعمارى فى الهند يعمل على إحباط هذا المشروع عن طريق كسب صداقة إيران بتقديم بغداد لها كثمن لتخليها عن فرنسا (٣) .

لا شك أن ذلك الموقف يدفع القنصل الشاب إلى إثبات شخصيته أمام سليمان باشا الصغير الفرنسى الميول وأمام مانستى Manesty الذى يريد أن يطويه تحت جناحه ، وأمام رجال المقيمية الذين شكوا فى مقدرته ، وبدأ يضع لنفسه أسساً للسياسة التى يجب أن يتبعها ليحقق أهدافه السياسية الكبرى وأهدافه الشخصية وكان ريتش متشبعاً بأفكار وأساليب جون مالكولم Malcolm

---

= المستر لوك قنصل بريطانيا العام فى البحر المتوسط فلما توفى عين مساعداً للمستر ميست Misset فى مصر وأقام فترة فى الإسكندرية واختلط بالمماليك وتعلم ألعاب الفروسية ثم سافر إلى حلب متنكراً فى زى مملوك ثم إلى مكة واستطاع أن يدخل الكعبة ثم رحل إلى الهند عن طريق العراق الذى عاد إليه قنصلا سنة ١٨٠٨

Constance Alexander: Bagdad Bygone days, P. 5—31

(١) Alexander: Op. cit, P. 38

(٢) Ibid, 32

(٣) Ibid, 51

السياسية (١) فكل منهما كان يؤمن بأن الأتراك والشرقيين على وجه العموم حريصون كل الحرص على التقاليد الشرقية وعلى أساليب الأبهة والعظمة ، وأن كسب احترام الشرقيين يجب أن يكون على أساس احترام تقاليدهم واتباع أساليبهم فى الأبهة والعظمة (٢) .

وهو مثل مالكولم أيضاً يؤمن بضرورة اتباع سياسة أكثر حزماً إزاء الأتراك . ومن خطابات أرسلها لصهره فى بمباى فى صيف ١٨٠٩ م يمكن أن نتبين منها الخطوط الأساسية للقواعد السياسية التى كان يتبعها ريتش : فهو يقول إن الدولة العثمانية فى ذلك الوقت كانت على أسوإ حال من الفوضى والعصيان (٣) وأن التركى لا يقف مؤزراً لآخر إلا إذا استشعر من وراء ذلك فائدة له ، أو كان مضطراً إلى ذلك .

وعلى هذا الأساس قرر ريتش أن يكون مهيباً فى المدينة حازماً مع السلطات الحاكمة فيها وذا الصدارة والإجلال فى الاحتفالات ، وصاحب الأبهة والفخامة فى غدواته وروحاته فى المدينة وخارجها . واستطاع أن يظهر بهذا المظهر الفخم فعلا . وأصبح الناس يحتشدون فى الطرقات لمشاهدته بملابسه الرسمية يتلألأ فى هالة من العظمة والأنفة على صهوة جواد أصيل ومن أمامه وخلفه الخدم والأتباع (٣) .

وهو فى سبيل تحقيق نظريته هذه ابتعد عما يحط من هيبته ، أو يثير الريب حول ممثل دبلوماسى لدولة كبرى. فلم ينزل مثل سابقيه إلى الميدان التجارى وطالب حكومة الهند بأن تبذل له بسخاء لكى يقوم بمهمته خير قيام ، وكان هذا من أسباب النزاع بينه وبين شركة الهند الشرقية التى كانت تعارض الإسراف فى نواحى الأبهة والمظاهر (٤) .

---

(١) سياسى إنجليزى مشبع بروح مدرسة الهند السياسية الاستعمارية ويرجع إليه الفضل فى توطيد أقدام الإنجليز فى الخليج العربى .

(٢) Alexander: Op. Cit., P. 39

(٣) Alexander: Op Cit, ., P. 39, 42,46,48,53

(٤) Ibid: 62—3

كانت مظاهر تلك العظمة تثير فى المدينة حديثاً يفاضل فيه بين الباشا والقنصل ويتناول وصف خيالته ونظامها ورونقها حتى رأى البعض أن عشرة آلاف منهم كفيلون بالقضاء على الوهابيين (١) ويبدو أن سليمان باشا الصغير لم يشعر بخطورة هذا القنصل إلا بعد أن تم التفاهم البريطانى العثمانى سنة ١٨٠٩ . فقد كانت علاقاته مع القنصل طيبة ، ولم يقطع علاقاته بالإنجليز خلال الحرب بين الدولة العثمانية وإنجلترا (١٨٠٧) لأن المصالح التجارية كانت تتطلب منه ذلك . فإن قطع تلك العلاقات يؤدى إلى عدم تدفق الأموال على خزانة بغداد . وهكذا كانت الأحوال السياسية فى بغداد غير تلك التى فى الآستانة (٢) بل إن صلح ١٨٠٩ قابله نزاع شديد بين الباشا وريتش . فقد أصبحت رغبة الباشا ملحة فى الحد من تلك المظاهر، فاصطدم سليمان باشا الصغير بريتش . ولم يكن من السهل الوصول إلى حل سريع للأزمة برغم تفاهة مظهرها لأن ذلك من أسس السياسة التى يتبعها ريتش وليست مجرد رغبة شخصية. هذا إلى أن ريتش كان يعتقد أنه يقوم بواجب إنسانى وهو مقاومة الدكتاتورية المملوكية وأن يقف فى وجه الباشا الطاغية . وأغلب الظن أن ريتش كان يسمع كلمات التشجيع والتعظيم من أفواه حاشيته التى تتألف من يهود وأرمن ووطنيين مرتزقة بغية كسب ثقته (٣) . على أن ريتش كان على علاقة ببعض الشخصيات الكبرى فى المدينة، وهؤلاء لهم آمالهم ولهم أسلوبهم الخاص فى المخاتلة فى مدينة تعج بالمؤامرات التركية والفرنسية وبالمؤامرات البريطانية أيضاً . ونظراً لما وصل إليه ريتش من مدى فى سبيل تحقيق أهدافه كان الباشا المملوكى المتأثر بجميل الفرنسيين قد أخذ يعمل على وقف القنصل عند حده ؛ وذهب سليمان الصغير إلى حد أن أهمل تعنيف الباب العالى له بخصوص الإساءة

---

(١) Rich: Narrative of a residence in Koordistan Vol. II, P11

(٢) Duprés: Voyage en Perse, Vol. I, 192—3

(٣) Alexander: Op. cit., P. 53

إلى القنصل، بل وهدد ريتش بالعزل . وتدخل فى أمر البريد البريطانى (١)، فكما وضح لنا Duprés لم يكن باشا بغداد يتقيد باتجاهات السلطان السياسية دائماً . (٢) بل كلما اشتد الباب العالى فى الضغط على الباشا زاد هذا فى التضييق على ريتش ضارباً — بالامتيازات التى وافق عليها السلطان (٣) سنة١٨٠٢ — عرض الحائط ، ولكن الاتجاه العام للسياسة الأوربية وصداها فى الآستانة كان يسير ضد اتجاه الباشا الذى أصبح مكروهاً من السلطان لوهابيته ولعدم دفعه لما تعهد به للسلطان من أموال (٤) فاضطر سليمان باشا إلى مهادنة القنصل ووافق على تسوية اقترحها عليه البريطانيون فى سـنة ١٨١٠ تأيدت لهم فيها جميع الامتيازات التى سبق أن حصل عليها الإنجليز (٥) .

ولم يكن تراجع سليمان هذا بسبب التهديد العثمانى له فقط ، بل كان أيضاً بسبب اقتصاديات العراق إذ أنها تتأثر بشكل واضح لو توقفت التجارة العراقية الهندية ، وكان هذا السلاح من أمضى الأسلحة التى استخدمها ريتش فى نزاعه مع الباشا فقد كتب ريتش يقول « إن الباشا لن يخضع ما لم يتأكد من فقده للبصرة (٦) . وهكذا لعبت التجارة الهندية ، دورها فى إخضاع باشا بغداد للنفوذ الإنجليزى ، وفى ارتفاع أسهم ريتش ، وقد ازداد مركزه قوة عندما جاء خالد أفندى مكلفاً بعزل الباشا . فاتصل خالد بريتش وأبدى القنصل له أسفه لما وقع فيه العراق بسبب غباء الوزير ورجاه أن يبقى بغداد — برغم ذلك — تحت حكم الباشا إذ نعمت بغداد فى عهده بأيام سلام وأمن : وكان من الطبيعى أن يحسن الباشا علاقته بريتش لعل فى دفاعه عنه خيراً وقد تصدق

(١) Alexander: Op. cit., P. 53—7

(٢) Duprés: Op. cit., 192—3

(٣) انظر الملحق رقم (٢) عن سلاطين الدولة العثمانية .

(٤) Alexander: Op. cit. 55—8 جودت : ج ٨ : ١٧٠ – ١٧٢

(٥) C. Atchison: A Collection of treaties, engagements and sanads, Vol. XI, P. 10—11.

(٦) Alexander: op. cit. p. 59

وساطته مثلما صدقت وساطة أسلافه من قبل . ومع هذا يتهم ريتش بأن له دخلا فى مصير الوزير المظلم [١] وواقع الأمر أن خالد أفندى كان مكلفاً بعزل الباشا وكان ريتش قد بلغ هدفه بتوقيع سليمان باشا الصغير على التسوية السالفة الذكر . ولم يعد ريتش فى حاجة ملحة إلى أن يستبقى فى وزارة بغداد باشا كان ممالئاً للفرنسيين أعداء إنجلترا وللوهابيين أعداء الدولة العثمانية الذين عكروا صفو الخليج على الإنجليز. حقيقة إنه حمى ديوان أفندى أحد موظفى سليمان باشا، ولكن هذا من صميم سياسة ريتش . لأن ديوان أفندى اليوم قد يكون باشا الغد [٢] ومن ناحية أخرى كان عبدالله باشا (المطالب بالباشوية) من مرشحى المقيم البريطانى لتولى الباشوية بعد وفاة سليمان باشا الكبير [٣] فلا شك والأمر هكذا أن ريتش لعب دوره بمهارة ، فكان طرد سليمان الصغير على هوى ريتش.والظروف هيئت لأن يظهر ريتش بمظهر الشـــخصية الكبرى التى تعادى فتنتصر ويقع غريمها فى أزمة فتعمل على إقالته من عثرته ، وهو فى خلال ذلك يضع أهدافه فوق كل اعتبار .

نمو نفوذ ريتش :

وبطبيعة الحال ازداد نفوذ ريتش قوة على قوة خلال حكم عبد الله باشا. فنشط ريتش فى ربط البلاد بشبكة جاسوسية واسعة وفى التدخل فى أمور الباشوية الداخلية ، مستغلا حقه فى حماية من يلجأ إليه ، فحمى فيمن حمى سعيد بك ابن سليمان الكبير من بطش عبد الله باشا سنة ١٨١٣ [٤] فكانت فرصة استغلها سعيد ليعاود الكرة فيهاجم عبد الله واستطاع أن يدخل بغداد على جثة سلفه وأصبح لاجئ الأمس باشا اليوم ، فتعالت مكانة القنصل فى بغداد كما تعالت مكانة دولته فى أفق السياسة الأوربية بعد واترلو . وكان ريتش

---

(١) زكى صالح : موجز تاريخ العراق : الطبعة الأولى ١٠٥ – ١٠٦

(٢) وكان ديوان أفندى هذا ممن قدم لريتش مساعدات إبان نزاعه مع الباشا .

(٣) Longrigg: Op. cit P. 2/5

(٤) يعقوب سركيس : مباحث عراقية : ج ١ : ١٠ عن وثيقة كتبها معاصر .

خلال هزائم نابوليون الأخيرة فى زيارة لأوربا وعادمنها شامخ الأنف وبخاصة إنه أصبح وكيل بريطانيا فى بلاد تركيا العربية ووضعت البصرة تحت إشرافه(١).

ثم إن علو كعب أمته أتاح له أن يحصل على المزيد من النفوذ والعظمة فقد عاد من أوربا وقد أسند إليه حق الحماية والإشراف على دير النمساويين Austrian Monastry فاستطاع بذلك أن يكف يد ريموند Raymond(٢) ممثل فرنسا فى بغداد — عنهم .

وبينما كانت حكومة لندن تضفى هكذا على قنصلها ذلك الرواء من العظمة والأهمية كانت حكومة الهند لا تزال ترى فيما يقوم به ريتش من مظاهر الأبهة إسرافاً يفوق حدود مهام وظيفته(٣) .

ولقد قدم لنا الرحالة الأوربيون صورة صادقة واضحة لنفوذ وعظمة القنصل البريطانى فى بغداد فى عهد سعيد ، وعندما تولى داود الباشوية كانت المقيمية البريطانية من أكبر مبانى المدينة وأحسنها (٤) رونقاً وتطل على دجلة حيث يرسو أمامها يخت مستعد للقيام برحلات القنصل فى كل لحظة . وفى كل صباح يعقد القنصل ديوانه وفيه تدبر وتناقش الموضوعات المهمة — على غرار ديوان الباشا — ويحضره كبار رجال المدينة وكثير من المسيحيين ويؤمها فى الحفلات وفى مختلف الأوقات فرس وترك ويهود ودراويش وأرمن وبالمقيمية سكرتيران وجراح وتراجمة وسائسو خيول وخدم من عرب وفرس عدا حرس المقيمية العجم بطبوله وأبواقه فتضرب « النوبة » فى كل صباح ولعل ريتش أراد أن يجعل من المقيمية « سرايا » أخرى تدبر فيها شئون البلاد ،

---

(١) Alexander: Op. Cit P. 244—245

(٢) كانت فترة الهزائم النابليونية فترة ضعف للنفوذ الفرنسى إلى حد كبير فى العراق حتى جاء الكونت فيجورى Vigereux ممثلا لبلاده فى بغداد سنة ١٨١٦ — وكان شخصية محبوبة متزنة ولكن انهيار مركز فرنسا لم يسمح له بأن يقف على قدم المساواة مع زميله ممثل انجلترا فى العراق .

(٣) Buckingham: Travels in Mesopotamia II. P.212—3

(٤) نقلت المقيمية فى سنة ١٨١٨ إلى المبنى المطل على دجلة .

ويبدو أنه طبق أفكاره نفسها فى البصرة التابعة له . فكانت وكالة البصرة صورة مصغرة من مقيمية بغداد، وكان لدى مساعد ريتش هناك من أربعين إلى خمسين فارساً من أحسن الفرسان الذين شاهدهم هود (أواخر ١٨١٦) .

ومهما بلغت قوة نفوذ ريتش فى عهد عبد الله باشا فإنها لم تصل إلى ما وصلت إليه فى عهد سعيد باشا . فيحدثنا الرحالة الإنجليزى بكنجهام Buckingham عن أن كلمة ريتش هى المسموعة بغض النظر عن رأى الديوان . وأصبحت المقيمية ملجأ الفارين من وجه السلطات الحاكمة خلال الصراع الذى نشب بين سعيد وداود .

وقد وقف ريتش على الحياد خلال الصراع بين داود وسعيد لأن داود كان قد حصل على فرمان توليته وعلى عزل سعيد ونفيه . ولذلك اكتفى ريتش بأن يتبع سياسته فى تكبيل زعماء بغداد بمعروفه . فكان يقبل اللائذين به والفارين من وجه أعدائهم فى المدينة . فقد حمى مثلا درويش باشا كيخيا سعيد السابق[1] وريتش بهذه السياسة يهدف إلى أن تكون هذه الشخصيات الهامة طوع الإنجليز فيما بعد . ولتأكيد معنى هذا الحياد المظهرى أمضى ريتش الفترة الحرجة بين يناير ومارس ١٨١٧ خارج المقيمية . وكان فى الوقت نفسه على اتصال بالباشا الجديد . وعندما عاد ريتش إلى المدينة نشد معونته كل من الغالب والمغلوب « فكانت النسوة يلقين بأنفسهن على أقدام ريتش متضرعات أن ينقذ أزواجهن أو أبناءهن أو إخوتهن من صارم العقاب أو من سيف الانتقام الذى يتوقعون امتشاق داود له حتى إن زوجة ريتش افتخرت ـ بقولها : إن الناس يرون ريتش ثابتاً فى مكانه بينما الباشا يقتل فيخلفه آخر وهكذا »[2].

هذا النمو فى النفوذ البريطانى كان يسير جنباً إلى جنب مع نمو المصالح السياسية والاقتصادية بين العراق والهند والخليج . فقد دارت فى رءوس ساسة

---

(١) Alexander: P. Cit. PP. 85—86, 25, 251
Buckingham: Travels in Mesopotamia, II. PP. 210, 214
Heude: Op. Cit. P. 49, 137, 166—167

(٢) Alexander: op. cit. p. 251

حكومة الهند اتجاهات قوية نحو احتلال جزر معينة من جزر الخليج العربى لتأمين طرق التجارة وكانت هذه سياسة مالكولم وهى سياسة آمن بها ريتش .

فقد نادى باتباع سياسة أكثر قوة وعنفاً لكى تستطيع إنجلترا أن تنجز أعمالها فى الخليج، ولكى تحترمها فارس . ولكى تحول دون نجاح المؤامرات فى فارس وتركيا فقد نادى بهذه الخطة أيضاً بعض موظفى حكومة الهند حتى يتمكن الإنجليز من السيطرة على طرق التجارة عبر العراق ومن جعل التجارة البريطانية فى الخليج مرتكزة على قواعد ثابتة ، وكانت هذه الأفكار تلتقى مع آراء ريتش ، ولاشك أنه كان يشعر تمام الشعور بأهداف الإنجليز فى الخليج. بل لاشك أن ريتش تباحث مع هود Heude فى خطة غزو العراق فى أسرع وقت وبأقل التكاليف . وما كان واضع خطة الغزو هذه ليستطيع أن يضعها على أساس سياسى دقيق دون أن يكشف له ريتش عن هذا الجانب السياسى . ومن ثم فقد وجد ريتش من يشاطره آراءه من حيث سهولة وقوع العراق تحت الحكم البريطانى ولا شك أن تبلور هذه الفكرة فى عقلية بعض الإنجليز يثير فى القنصل الشاب — الذى يرى فى الحكم الإنجليزى للعراق إنقاذا له مما هو فيه من سوء حال — روح القيام بالدور الذى لعبه أمثاله فى الهند . وبخاصة أن فكرة فتح العراق واستغلال النزاع بين والى الموصل وبغداد من أجل تحقيق تلك الفكرة كانت واضحة أمامه [1] على أن هذا يتطلب توطيد الصلات القوية بينه وبين باشوات العراق وبخاصة الموصل وكردستان ليظل باشواتها على نزاع دائم مع باشا بغداد كما يتطلب تفكيك المجتمع العراقى تفكيكاً أكثر مما هو عليه فكلما زاد تفكك المجتمع العراقى سهلت السيطرة عليه ، وهذه السياسة تتطلب من القنصل عدة أمور :

(١) أن يسيطر على الجهاز الحكومى تماماً .

---

(١) رحلة ريج : ٣٦

Alexander: op. cit. pp. 39, 251, 256.
B.Fraser: Narrative of journey in Koodistan, pp. 2-7.
Rich: Narrative of a journey to ...... Babylon. pp. 52-53.
Heude: Op. Cit. pp. 44. 45, 180-181.

(٢) أن يستغل العصبيات والأقليات الموجودة .
(٣) أن تكون لديه شبكة واسعة من الجاسوسية تمده بالمعلومات اللازمة
وسيتضح لنا أن هذه هى السياسة التى سار عليها ريتش فى العراق حتى أدت إلى طرده منه على يد داود باشا .

كان ريتش على اتصال وثيق بالأقليات المسيحية الأرمنية واليهودية فى بغداد وخارجها . فاليهودى مثلا يجد فى الحماية امتيازات اقتصادية أو تسهيلات تجارية فى مقابل تقديم المعلومات السياسية والاقتصادية إلى القنصل ، وهى معلومات ذات قيمة كبيرة ، وبخاصة إذا كانت صادرة من يهودى اشتغل بالتجارة والمال منذ مدة طويلة فى العراق حتى خبر منتجات البلاد وإمكاناتها ودخلها وخرجها . ومن المسيحيين من يدفعه الشعور بالضغط إلى التعاون المزرى مع القنصل وبخاصة أولئك الذين وفدوا على البلاد فراراً من قسوة مواطنهم الأولى فى أرمينيا فكان منهم جواسيس ورجال المقيمية المخلصون (١).

والمسيحيون والأرمن واليهود منتشرون فى طول البلاد وعرضها ويعرفون دقائق أمورها السياسية والاجتماعية . ففى البصرة أيضاً كان المقيم البريطانى ينشر جناح حمايته على كل من اليهود والمسيحيين ، بل كانت أمور البلاط مكشوفة أمام القنصل عن طريق بعض اليهود فإن اليهودى عزرا — الذى دبر مؤامرة سك النقود أيام سعيد وأصبح بتوصية من خالد أفندى فى منصب صراف باشى — كان على اتصال قوى بريتش حتى بعد طرد هذا الأخير من بغداد .
وكانت مجتمعات مسيحية ذات شأن على اتصال قوى بريتش ، ومن تلك المجتمعات مسيحيو ماردين — فزعيم طائفتهم كان وكيل ريتش فى ماردين ولا شك أن ريتش كان على وجه العموم يعطف على الأقليات العراقية الوطنية منها والوافدة ويعطف على المسيحيين فهم أقرب الناس إليه إذ أن هذه الأقليات المسيحية كانت أسرع من غالبية سكان البلاد إلى قبول الأفكار الغربية ، ويعطف ريتش على اليهود لأنهم أعرف الناس بأمور البلاد وهم فى حاجة إلى

---

(١) Groves: Op. Cit. 36, 53, Mignan, Op. Cit. P. 87-88.

نوع من الحماية ، بل يعطف على اليزيديين ، وكان هؤلاء يحترمون المسيحيين لأن الأتراك عدوهم المشترك[1] .

وكان حق الحماية واللجوء إلى المقيمية من أقوى الأسلحة لا لبسط النفوذ الإنجليزى فى العراق فحسب ، بل أيضاً لإظهار الباشا بصورة أنه غير حر التصرف فى كل شيء وأن هناك من يحد من سلطته ويكفها فى بعض الأحيان . ولا يغيب عن الذهن أن القنصل ورجاله كانوا يقومون بأعمال سياسية اقتصادية تبشيرية فى آن واحد ونستطيع أن ندلل على هذا بأن ريتش كان يختار بعض وكلائه من زعماء الطائفة المسيحية [2] وكان أغا ميناس يقوم بأعمال تبشيرية [3] وريتش نفسه كان يشجع منذ صباه على إرسال البعثات التبشيرية إلى الشرق[4]

وإنه لأمر ذو مغزى أن يكون المنشئ البغدادى الفارسى الأصل وميناس الأرمنى وعزرا اليهودى من أشد المخلصين لريتش وللإنجليز على وجه العموم .

النزاع بين داود وريتش :

ذلك ما كان عليه ريتش من نفوذ عندما تولى داود الباشوية . وكان ريتش يعتقد أن داود تولى الباشوية على جثة صهره سعيد [5] ومع أن حكم سعيد كان يعج بالمساوئ فإن ريتش لا يهاجم حكم سعيد . ولا شك أن ريتش أراد أن يكون له نفس النفوذ القوى الذى كان يتمتع به أيام سعيد ولذلك قرر أن يذهب فى زيارته الرسمية لداود على أروع صورة .

تحدد يوم ٢٦ مارس سنة ١٨١٧ ليهنئ القنصل الباشا الجديد بمنصبه فبدأ الموكب فى ذلك اليوم من المقيمية يتقدمه ضاربو الطبول وعازفو الفلوت وستة من الخيالة وعدد من الأتباع يفسحون الطريق وفرقة من حرس المقيمية ،

---

(١) Rich: Narrative of a Residence. II. p. 184, Alexander: op. cit. pp. 229, 284. Ernest: Background. p. 122.

(٢) Alexander: Op. Cit p. 229

(٣) Groves: Op. P. 53

(٤) Alexander: op. Cit p 7.8

(٥) إن سيد عليوى - فى الواقع يتحمل تبعة مصرع سعيد .

ويرافقه الضابط هود ومساعد ريتش الأول ، وسكرتيره وجميعهم يمتطون صهوة جياد أصيلة وفى مؤخرة الموكب عدد من الأتباع ومن ورائهم رعاع المدينة يصفقون،وعلى جانبي الطريق وقف أهل بغداد يشاهدون روعة القنصل وحاشيته .

وعندما بلغ الموكب الفناء الخارجى للسراى ترجل المقيم وصحبه وساروا إلى حيث يجلس الباشا مجتمعاً بديوانه (١) وعلى هذا النحو ظهر ريتش بهذا المظهر الفخم ولكن العهد قد تغير فعلا فإن داود كانت له مشروعاته وكان يقدر مدى خطورة قنصل من هذا الطراز على مستقبل البلاد السياسى . وكانت لديه من الدوافع ما يجعله يسىء الظن بريتش، فقد كانت العلاقات بين داود ومحمد على ميرزا منذ البداية متوترة وتطورت إلى نزاع سافر . وخلال هذة الأزمة التى تهدد كيان الباشا — الذى لم يثبت مركزه بعد فى حكم البلاد — كان ريتش على اتصال بمحمد على ميرزا (نهاية ١٨١٧) وطلب منه حاكم كرمنشاه أن يمده بضباط إنجليز وبالسلاح ، وتحمس ريتش لهذا العرض ، فهو لا شك يقدر خطورة وجود ضباط فرنسيين يقودون وحدات الجيش الإيرانى . ويقدر مدى النتائج المترتبة على كسب الإنجليز لصداقة محمد على ميرزا ، فكتب ريتش إلى بمباى عارضاً عليها اقتراح الشاهزاده وعلق على هذا مقترحاً بأن تعمل حكومة الهند على توطيد أواصر الصداقة بينها وبين أمير كرمنشاه وأن تبعث إليه بهدية صغيرة . وأن يلبى طلب الشاهزاده جزئياً . فأسرعت حكومة لندن إلى الرد السريع الحاسم على قنصل بريطانيا فى بلاد تركيا العربية وبصرته بحقيقة مركزه وأنه لا يحق له التدخل فى اختصاصات الوزير البريطانى فى طهـــران ثم بصرته بالموقف السياسى على حقيقته وهو ما لا يستطيع أن يلم به كما يلم به سفير الملك لدى بلاط الشاه أو كما تلم به حكومة بمباى فقد كانت هناك إشاعات قوية عن نيات ابن الشاه العدوانية نحو العراق .

Heude: Op. Cit. P. 171-2 (١)

وهكذا كان رد حكومة بمباى صفعة قوية لريتش لم يستطع إزاءها إلا أن يفغر فاه دهشة وحسرة [1] .

وهناك وجه آخر لهذه المشكلة التى أوقع ريتش نفسه فيها ، فلقد كان محمد على ميرزا عدو داود الأول وكان داود يستشعر خطورته منذ البداية وكان تعاون داود مع محمود باشا البابانى يقوم على أساس تخلى الأخير عن حلفائه الإيرانيين ، وتم لداود ما أراد ولما غير محمود تبعيته حمل عليه داود[2] ولما علم داود أن أغا الإنكشارية سيد عليوى كان على اتصال بالشاهزاده فصل رأسه . ولا شك أن داود علم بما كان من اتصالات بين ريتش والإيرانيين فقد ردد ريتش أن داود سيتهمه بأنه يعمل على إثارة الفرس والكرد ضده[3] ولقد ثبتت لداود اتصالات ريتش بالشاهزاده وكانت مواقف ريتش فى هذا الصدد ضد مصلحة داود . وفى الوقت نفسه الذى كان فيه ريتش ينادى بمساعدة الشاهزادة كان يصور حكم داود لحكومته على أسوإ صورة (يوليو ١٨١٩) (شوال — ذو القعدة ١٢٣٤) فهو يقول إن أمور الباشوية فى انحدار سريع نحو الفوضى الطاحنة لتهور وسوء تصرف الباشا [4] .

والواقع أن ريتش كان مستاء من داود ومن حكومته . ولما أراد أن يذهب إلى كردستان فى رحلة ظن داود أن وراء هذه الرحلة ما وراءها فهو ذاهب إلى بلاد بذرة المؤامرة فيها سريعة الإنبات والتوريق ، وروح العصيان هناك فى غير حاجة إلى إثارة ، والمتغلبة فيها ضعاف ولكن فى جموح . ومع ذلك سمح له داود بالسفر فليس له أن يمنعه على اعتبار ما يتوقع منه ، وذهب ريتش إلى السليمانية (مايو ١٨٢٠) حيث التقى بمحمود باشا بعد أن عاد الأخير إلى حكومته بفضل قوات الشاهزادة . ويؤكد ريتش فى غير موضع أنه

---

(١) Alexander: Op. Cit. P. 251.

(٢) انظر الفصل الثالث : الفصل الخامس :

(٣) Rich: Narrative of a Residence II, P. 180.

(٤) Alexander: op. Cit. 266, 295-6

كان يتحاشى ، كما يقول التحدث فى السياسة[1] ، ولكن لم يحدث مطلقاً أن حديثاً بينه وبين محمود باشا خلا من الناحية السياسية، وقد كان فى بلاط محمود فى ذلك الوقت مبعوث من قبل الشاهزادة يطالب محمود باشا بثلاثين ألف تومان، وأوضح محمود لريتش عجزه عن مقاومة الشاهزاده وإن الأتراك الذين يشتدون فى ضغطهم على الكرد للتخلى عن الإيرانيين لايستطيعون صد جيوش كرمنشاه[2]. وإبان تلك المحادثات كان بلاط محمود يموج بالمؤامرات ، ويرجع ريتش الاضطراب الذى عم كردستان إلى داود باشا وإلى خداع باشا بغداد لباشا السليمانية وأن هذا الخداع من طابع الحاكم التركى. وريتش خلال كل هذا كان يعمل على تحريك الشعور القومى فى قلب محمود باشا ، ولكن مساعيه هذه باءت بالفشل وهو بتحريكه الشعور القومى فى قلوب الكرد يبقى الكرد بعيدين عن الاندماج فى الوطن العراقى الكبير تحت حكم بغداد فيزداد تفكك هذا الوطن وتكون الفرصة مناسبة لبريطانيا للسيطرة على العراق ومهما كانت أغراض ريتش من تحريك هذا الشعور القومى فلا شك أنه كان ضد مصالح باشا بغداد .[3]

وميل ريتش للكرد واضح كل الوضوح وهو ميل له مغزاه فهو يرفع من قدرهم فوق الأتراك ويبرز زعماءهم فى إطار رائع عظيم[4] . وما هذا إلا لأنه يعمل على جعل الكرد يلتفون حـول قوميتهم لينفصلوا عن بغداد فيتحقق هدفه مع العلم بأن الكرد كانوا أسوأ حالا من غيرهم من سكان العراق. على أن عملية تفكيك العـراق إلى وحدات صغيرة مستقلة يجب أن تشمل فيما تشمل الموصل وكانت الموصل — مثل السليمانية — لا تزال تقاوم نفوذ بغداد وكانت هذه البقية الباقية من المقاومة لنفوذ بغداد هى التى حاول ريتش استغلالها لتفكيك العراق، وبخاصة أن الموصل كانت معقلا من معاقل المسيحية. هذا بينما كان

(١) رحلة ريچ : ٥١
(٢) رحلة ريچ : ٢٢٩
(٣) رحلة ريچ : ٢٢٩
(٤) رحلة ريچ : ٦٨

داود مثل سلفه سليمان الصغير يحاول أن يطوى الموصل تحت جناح بغداد .
وكانت حركة التوحيد هذه تتعارض مع أهداف ريتش . والواقع أن الموصل كانت هى الأخرى تموج بالمؤامرات . وكان لريتش فيها أعوان من خدامه ولذلك كان الوزير معذوراً فى اتهامه لريتش لأن لهذا الاتهام شواهد قوية تبرره حيث إنه كان يثير الفتن بين باشويتى الموصل وبغداد (١) .

ولكى يحقق ريتش أهدافه كاملة كان عليه — كما سبق أن ذكرت أن يسيطر على الجهاز الحكومى ، وكان حق حمايته للأفراد أقوى وسيلة استخدمها لبلوغ هدفه هذا . ولقد مرت بنا أمثلة قوية لهذه الناحية . ولقد استطاع بهذه الوسيلة أن يكون لنفسه حزباً فى داخل المدينة إلى جانب أولئك الذين يقدم لهم خدمات على صور أخرى كالحصول على منصب مثلا . فكان سيد عليوى ممن لجأ إلى الإنجليز (٢) وكذا درويش باشا (٣) كيخيا سعيد وغيرهم وكان باشا الموصل (٤) من أصدقائه وكذلك المتولى السابق للإمام الأعظم (٥) هذا إلى جانب عدد ليس بالقليل من شيوخ القبائل ووجوه المدينة (٦).

وعلى هذا النحو ظهر نفوذ ريتش الخطر على أمن البلاد وما كان للباشا وقد راقب هذا الخطر خلال سنى اشتداده أن يسكت عنه فلم يكن هناك بد من صدام شديد بين القنصل والباشا الذى يريد أن تعود قبضة الحكومة قوية على البلاد وأن يرد القنصل إلى مركزه الطبيعى وأن يحد من عنفوانه ويخفض قواته العسكرية التى ربما كانت تشد أزرها مدفعيه موجودة فى المقيمية (٧) .

(١) رحلة المنشئ البغدادى : هامش ص٩ Rich: Narrative of a Resident II, p. 24

(٢) يعقوب سركيس : مباحث عراقية : جـ ١ : ٢٠
Alexander: op. Cit. pp. 295-296

(٣) Heude: Op. Cit P; 137, 166-167

(٤) رحلة ريج : ٢٥٢

(٥) رحلة ريج : ٣٢

(٦) إن من يتتبع رحلة ريتش فى العراق يجد أن أصدقاء ريتش كانوا من كبار رجال العراق ومن أصحاب النفوذ فيه .
انظر : Rich: Narrative of a Residence in Koodistan, London, 1836

(٧) Fontanier: Voyage dans I'Inde, Vol. I, p. 175

هذا فى وقت كانت فيه التطورات السياسية العسكرية فى الخليج العربى تسير فى تيار من العنف والفوز الذى أحرزه الأسطول البريطانى فى رأس الخيمة وغيرها وقد رفعت هذه التطورات حرارة العمل لدى ريتش فألهب الجو فى العراق بجرأته وتحرشه بالوزير لعله بذلك يدخل العراق فى حظيرة النفوذ البريطانى ويكون له الفضل فى أن سياسة العنف والاحتلال التى نادى بها ملكولم وآمن بها ريتش تكون قد تحققت سنة ١٨٢٠ بل كانت الإشاعات تتردد هنا وهناك عن قرب احتلال الإنجليز لفارس (١) .

هذا الالتهاب الذى عم الخليج كان له صداه فى العراق ، ولا شك أن نشوب النزاع بين داود وريتش فى هـــذه الظروف كان سيتخذ صورة عنيفة وكان اندلاع النزاع كما هى العادة — فى حاجة إلى سبب مباشر فكانت المشـــكلة الاقتصادية هى ذلك السبب .

كان من المعروف — حسب الاتفاقيات السابق عقدها بين باشوات العراق والإنجليز — أن الضريبة الجمركية على البضائع الإنجليزية هى ٣ ٪ بينما كان الوطنيون يدفعون ٧٪ ومعنى هذا أن السوق التجارية كانت لصالح التجار الأجانب وكانت الباشوية فى حاجة إلى كل قرش ،وكانت الامتيازات الأجنبية تحرج مركز الباشا المالى والسياسى ، وبينما كان ريتش فى كردستان (صيف ١٨٢٠) انفجر شغب فى البصرة بين العرب والمتسلم فكتب تايلور (وكيل ريتش فى البصرة) إليه بما وقع . فطالبه ريتش بالوقوف على الحياد وبأن يبسط حمايته على رعية بريطانيا وأن ينسحب إلى بوشير فى حالة وقوع عدوان على هؤلاء يهدد الوكالة البريطانية . وهكذا يبدو لنا أن ريتش كان يتوقع حدوث صدام عن قريب فوضع خطة لإحراج مركز الباشا . وعلم ريتش وهو فى الموصل —من أحد جواسيسه— أن ممتلكات سكوبودا Scooboda التاجر الأوربى تحت الحماية البريطانية — قد صودرت بأمر الباشا وأن الباشا فرض ضريبة بلغت ١١¾٪ على بضائع التاجر الإنجليزى ستورمى Sturmy

(١) Fraser: Narrative of a journey in Koordistan, pp. 422-425

وكان الباشا قد قام بذلك فعلاً وهو بذلك لا يكترث لا بالاتفاقات ولا بالامتيازات، بل إن الباشا اشتد فى معاملة الرعايا الإنجليز وسرت هذه المعاملة السيئة لهم إلى رجاله من حكام العراق مثل حاكم ماردين .

أسرع ريتش إلى الاحتجاج على تلك الإجراءات وشكا الأمر إلى بمباى والآستانة ولندن . وقدم شكواه إلى أحد اللوردات – فرفع هذا الأخير شكوى ريتش إلى كاسلريه ليحيطه علماً بما أصاب الامتيازات البريطانية فى العراق وليفتح عينيه على الموضوع قبل أن تأتيه شكوى عثمانية ضد ريتش قد يساء فهمها . ثم عقب ذلك اللورد على هذا العمل بأن بعث إلى ريتش صورة لما كتبه إلى كسلريه لكى يشجعه فى موقفه من داود (١) وكان لهذا التشجيع أثر قوى فى نفس ريتش إذا ازداد صلابة فأصبح الموقف أكثر تعقيداً وبخاصة بعد عودة ريتش من الموصل إلى بغداد ، وبدا كأن العاصفة على وشك الوقوع وكأن اليوم الذى أعد ريتش له ترتيبات واسعة النطاق قد جاء ، وآن لريتش أن يستخدم ما فى جعبته ، وأن يقدم له أعوانه فى المدينة ما ينتظره منهم من فداء ، والموقف فى ظاهره يوحى بانتصار القنصل ، فلم يكن داود تحت مطرقة واحدة بل تحت مطارق عديدة وعنيفة . وها قد هب القنصل ضده ، ومعنى قيام القنصل ضده أن الباشا على خطأ والناس جميعهم سيدركون أن الباشا هو المخطئ . ذلك ما كان يتصوره ريتش (٢) .

طرد ريتش :

أما داود فقد قدر ما قد يثيره القنصل من اضطراب فى المدينة بعد عودته إليها ، وأنه سيقوم باتصالات مع البغداديين ، ولريتش بينهم أصدقاء ولداود فيهم أعداء ، والأرض خصبة للمؤامرات ولذلك لم تعد المعركة بين داود وريتش مقصورة على المشكلة الجمركية بل أصبحت أيضاً صراعاً من أجل

(١) Alexander: Op. Cit, p. 295-6

Rich: Narrative of a residence in Koordistan, II, p. 180.

(٢) Alexander: Op. Cit. p. 297

البقاء فى بغداد . فإن انتصار القنصل على الباشا لا يعنى فى هذه الظروف سوى الضياع لداود نهائياً . وانتصار داود على القنصل يسمح له بالتفرغ للقضاء على التمرد الداخلى والخطر الإيرانى .

واشتد داود فى ضغطه على ريتش منذ عودته حتى اضطر ريتش إلى أن يطلب من داود التصريح له بمغادرة بغداد ، وكان داود قد رفض أن يمنحه التصريح ، وبينما كان ريتش فى طريق عودته إلى المقيمية سمع من أحد جواسيسه أن الباشا فى سبيل ضرب الحصار على المقيمية فأسرع ريتش إلى العمل وأعد خطط الدفاع ، وقسمت المقيمية إلى قطاعات ووزعت القيادات العسكرية على عدد من ضباط شركة الهند كانوا فى ضيافة المقيمية فى ذلك الوقت ، ووزع الجند على المواقع الاستراتيجية فى المقيمية ، وأشرف هو على جميع مواقع الدفاع (١) . وكأنه فى ميدان القتال ينتظر واترلو أخرى . وخطط القائد الماهر يجب أن تمتد إلى ما وراء خطوط القتال ليثير الفوضى فى أراضى العدو . ولقد كان ريتش يعتقد أن أهل بغداد المغبونين سيهبون لمشاركته شرف قتال الباشا الطاغية وأن ثورة عارمة ستندلع عقب انطلاق الرصاصة الأولى (٢) وأيا كان الأمر فقد كان على داود أن يسرع إلى اتخاذ تدابير تكفيه شر ما قد يقدم عليه ريتش بعد أن أوقف الملاحة فى البصرة ، وحصن المقيمية وأعلنها حرباً شعواء ، فأرسل داود ثلة من جنده لحصار المقيمية وسد منافذ المدينة لمنع من عساه أن يفر من الإنجليز ، ووضع مدفعاً على الضفة المقابلة للمقيمية ليسيطر به عليها (٣) وتقدمت ثلة الجند إلى قرب المقيمية . وتحدثنا مترجمة حياة ريتش عن الرعب الذى نزل فى قلوب هؤلاء الجند عندما شاهدوا استحكامات المقيمية فانقلبوا على وجوههم وارتدوا إلى مقهى مجاور . ولسنا فى حاجة إلى تفنيد كل تلك المبالغات . فمن الواضح أن قوة القنصل لا تكمن وراء ما كان

---

(١) Alexander: Op. Cit, p.222, Llyod, Foundation in the dust, London. 1947, p. 44.

(٢) Alexander: Op. Cit, p. 299, Fontainer: Op. Cit, I, p. 176.

(٣) Alexander: Op. Cit, p. 298-9.

بعده من خطط دفاعية وإنما كانت فى علو كعب دولته وفى الامتيازات التى حصلت عليها . وخلال ذلك كانت محاولات تبذل لتسوية النزاع . وذهب بعض رجال الحكومة لمفاوضة ريتش فما كان من القنصل إلا أن انفعل وهاج وماج والتقط عصا وطفق يطارد بها من أتى لمفاوضته حتى طردهم شر طردة من المقيمية (١) وعلى أى حال فإن ريتش عاد وغير خطته إذ اعتقد أن بقاءه سجيناً لايفيد إلا الباشا الذى ربما يريد أن يحتفظ به رهينه . وعلى هذا الأساس أراد ريتش أن يفوت على الباشا غرضه ، وقبل وساطة الدفتردار وعزرا اليهودى وذهب لمقابلة الباشا الذى منحه تصريح الخروج فى مقابل حصول الباشا من ريتش على اعتراف من الأخير بأنه عومل معاملة حسنة وأنه يغادر البلاد بمحض إرادته . ولا يستبعد أن يكون داود قد ضغط على ريتش حتى اضطره إلى كتابة هذا الاعتراف فلا شك أن داود قدر ما ستكون عليه العاصفة الدبلوماسية التى سيثيرها ريتش بعد خروجه من بغداد فاحتاط للأمر وأخذ هذا الإعتراف طوعاً أو كرهاً .

إن المنشىء البغدادى صور لنا النزاع على صورة برر بها نكبة ريتش فى آماله وفى قيام البغداديين لنجدته فقال : « لو كان ....يريد إثارة الفتنة آنئذ .. لفعل ولوجود عون له الينكجرية والأعيان ورجال بغداد وسائر الناس ممن كانوا معه فينقادون لرغبته ويستولون على بغداد لما يحملون له من ود ، إلا أن الرجل كان محباً للسلام وعمل الخير بدرجة قصوى(٢) » .

إن شواهد الأمور تشير إلى أنه لو استطاع لفعل وإلى أنه قد غرر به ولم يدرك أنه فى بلد إسلامى ينظر إليه نظرته إلى كافر مندوب دولة كافرة لا تسعى إلا لتقويض أركان الإسلام ، أضف إلى هذا أن الانكشارية لم تهب لنجدة ريتش ولم يحدث شىء من هذا القبيل .

على أن موقف داود من إلغاء الامتيازات الأجنبية يعتبر بعيداً عن الأصول

---

(١) Alexander, Op. Cit. 298-9

(٢) المنشىء البغدادى : ٢١ .

الدبلوماسية فهذه الامتيازات لم تكن مقصورة على العراق ، بل كانت تشمل الدولة العثمانية بأسرها وفارس أيضاً ، فشملت الشرق الأوسط كله تقريباً ، وأصبحت كالمبدأ العام الدولى لا يمكن التغاضى عنه فى مكان والتمسك به فى آخر ومن ثم كان خروج ريتش من العراق أمراً تقبله الدبلوماسية الإنجليزية ، ولكن حقوق الإنجليز يجب ألا تمس فى نظرهم وما كان داود بقادر على ذلك ، فلم يكن وقت إلغاء الامتيازات الأجنبية قد أزف بعد ، بل كان يعيش فى عصر تستغل فيه هذه الامتيازات على أسوإ صورة ، فإن الامتيازات عندما منحت سنة ١٥٣٥ لم تكن تضر الدولة العثمانية ولا الشرق فى شىء لأنه كان قوياً ، ولكنها أصبحت كارثة على الشرق الأوسط عندما ضعف وبخاصة فى وقت أصبحت فيه المصالح البريطانية تقوم على أساس إمبراطورى ، وأصبح الشرق الأدنى عموده الفقرى (١) .

ومن ناحية أخرى كانت تجارة العراق مع الهند البريطانية قد بلغت درجة من الأهمية لا يستطيع معها داود أن يستغنى عنها باستمرار عدائه للإنجليز . فكانت التجارة الهندية سبباً فى تراجع سليمان الصغير أمام ريتش (١٨٠٩ ، ١٨١٠) وكان داود أيضاً مضطراً إلى أن يتراجع بسببها وأن يعمل سريعاً على إعادة التجارة إلى نشاطها السابق ولذلك طالب داود ريتش — قبل خروجه من بغداد — بأن يفرج عن البضائع الموجودة على السفن فى البصرة (٢) .

وأخيراً غادر ريتش بغداد وهو يتألم أشد الألم لما خلفه وراءه من قلوب مفعمة بالحزن على فراقه (٣) وهذا فى الواقع صحيح بالنسبة لليهود ومن كان يتعاون معه ، فلم يكن أمام أمثال هؤلاء إلا أن يفروا من بطش داود بهم .

Ernest: Background of the Middle East, P. 121, 123. (١)

(٢) رحلة المنشئ البغدادى : ١٩ .أحسن من كتب فى هذه الناحية المتعلقة بالامتيازات .
Scott: The law Affecting Foreigners in Egypt.

(٣) رحلة المنشئ البغدادى : ٢٠
Rich, Narrative of a residence in Koordistan, II, p. 184.

وصل ريتش إلى البصرة بعد ثمانية أيام من مغادرته لبغداد (١٩ مايو ١٨٢١) وبقى فيها أربعة وعشرين يوماً قام خلالها بتصفيه أعماله فى العراق ، فحل العصبة التى كانت تلتف حوله وسرح بعضها واستبقى سباهية البصرة ثم رحل إلى بوشهر ومنها ذهب فى رحلة أثرية إلى شيراز كانت خاتمة رحلاته فقد أصابته الكوليرا ومات فى ٧ محرم ١٢٣٧ (١٨٢١) .

تسوية الأزمة :

أسدل الستار على حياة ريتش ولكن المشكلة التى أثارها ظلت تدوى فى الهند والآستانة ولندن وبغداد . فلقد كان للاحتجاجات البريطانية أثرها القوى فى الآستانة فضغطت على داود ، وهو فى الوقت نفسه محاصر بالقوى الإنجليزية أو القوى المحالفة ، ومهدد بغزو إيرانى عنيف فقبل تسوية سنة ١٨٢٢ (١)

وكانت هذه التسوية تقضى بما يلى :

١ — الاعتراف بالفرمانات والمعاهدات السابق عقدها بين الإنجليز والدولة العثمانية أو أسلاف الباشا .

٢ — ضمان سلامة وكلاء الحكومة الإنجليزية ومن كان تحت حمايتهم .

٣ — تأكيد حق القنصل البريطانى فى منح (الحمايات) .

٤ — من حق القنصل البريطانى أن يحتفظ بما يراه ضرورياً من خدم

٥ — عدم فرض أية ضريبة على السفن الإنجليزية بعد مغادرتها البصرة فى طريقها إلى بغداد .

٦ — تحديد الرسوم الجمركية بـ ٣٪ .

٧ — إذا فر بحار إنجليزى أو هندى من السفينة لا يضطر إلى اعتناق الإسلام وإذا فعل يعاد إلى السفينة حتى لا يتعطل سيرها .

٨ — بالبحث وجد أن الضرائب التى فرضت على بضائع المستر ستورمى

---

(١) التاريخ هنا تقريبى ، ولم يذكر اتشسون Aitchison تاريخ تقديم وثيقة التسوية ولا تاريخ توقيعها . انظر الملحق رقم (٥) .

وما فقده المستر سكوبودا Scooboda قد حدثت بمحض الصدفة Sturmy وليست لخطة موضوعة ، وقد أعيدت إليهما حقوقهما[1]. ومعنى هذا أن داود لم يستطع الصمود أمام الضغط البريطانى ، ويقول أحد المؤرخين إن الإنجليز لم يكسبوا شيئاً جديداً ، وإنهم لم يحصلوا منه إلا على الاعتراف بحقوق قديمة[2] والحق أن هذا الرأى ينطبق على الناحية الرسمية فقط أما من الناحية الفعلية فقد كسب الإنجليز عدم التعرض لهم أو لمشروعاتهم فيما بعد ، وكسبوا استمرار اعتبار المقيمية ملجأ للفارين من وجه داود لأسباب سياسية أو اقتصادية وكسبوا [3] استمرار ظهورهم بمظهر فخم على الأسلوب الذى وضع ريتش نظامه [4] وهو نظام أصبحت القناصل فى البلاد العربية الأخرى يطالبون بتطبيقه فى مقار قنصلياتهم على غرار ما هو مطبق فى بغداد ، مثلما حدث فى مخا [5] . ومجموع هذا كله يمثل رسوخ قدم الإنجليز وأنهم فى طريق السيطرة على العراق .

حقيقة سارت العلاقات البريطانية — العراقية على أسلوب ودى ، ولم يظهر بعد ذلك ما يعكر صفو هذه العلاقة بين داود والمستر تايلور Taylor خليفة ريتش ولكن فى خلال ذلك كان داود لا يسلم قياده لهم ، مع أنه كان فى حاجة ماسة إلى عقلية أوربية لتدبر أمر تدريب الجيش الجديد وإعداده . فلم يستدع قيادة إنجليزية وإنما أسند الأمر للفرنسى ديفوDevaux ولقد جاهد تايلور فى سبيل إحلال إنجليزى محل الفرنسى وعرض على الباشا أن تشكل له فرقة من السباهية الهنود لتكون نموذجاً للنظام المقبل للجيش ولم يوفق تايلور فى محاولاته[6] . ومع ما نعتقده من مبالغات فيما كتبه فونتانييه Fontanier

(١) راجع الملحق .

(٢) زكى صالح : ١٢٠

(٣) Groves: Op. Cit. 22, 23, 60

(٤) سعاد العمرى : ٥٨

(٥) الوثائق التاريخية — محفظة ١٦ — بحراً . براً — وثيقة ٨٢ (مقتبسة من المكاتبة الواردة من قنصل إنجلترا العام فى مصر إلى استراتفورد كاننج سفير إنجلترا فى الآستانة) .

(٦) Fontanier: Op. Cit. I, p. 192.

عن السياسة الإنجليزية فى العراق ، فإن تايلور لا شك كان يعد العراق لوضع جديد كان فى طريقه إليه إذ أن الانقلاب الصناعى لم يترك بلداً إلا وكان له فيه أثر ضخم ، وصاحبه صراع استعمارى طبع أحداث القرن التاسع عشر بطابعه فجعله عصر التوسع الاستعمارى .

مشروع الملاحة البخارية :

ففى العراق نشطت بريطانيا فى تحقيق مشروع تسيير السفن البخارية فى نهرى العراق إذ آمن كثير من الساسة الإنجليز بأن طريق العراق بين الهند وأوربا بديل لطريق السويس وأقصر منه وأقل تكاليفاً وأكثر أمناً . ولهذا النشاط الإنجليزى دافع آخر وهو مقاومة الخطر الروسى . وقد أدرك الإنجليز قيمة الإرهاصات الأولى لهذا الخطر الروسى[1] حقيقة كانت الأطماع الروسية فى الهند وإيران وفى بلاد ما بين النهرين ضعيفة إلى أيام القيصر بولس الأول الذى قويت فى عهده تلك الأطماع . ثم اشتدت فى عهد إسكندر الأول وخير مثل لها معاهدة تلست .

وابتداء من انهيار نابليون أصبحت للروسيا فى الشرق الأوسط سياسة توسعية واضحة المعالم . فكانت تلك الفتوحات الواسعة فى إيران[2] (سنة ١٨١٣) ولم تعارض إنجلترا فى هذا التوسع لأنها كانت تعمل على عقد معاهدة «كاليش» مع الروسيا واستمر التحالف حتى سنة ١٨٢٢ عندما خرجت بريطانيا من الكونسورتو الأوربى[3] وكانت الروسيا خلال الفترة الواقعة بين واترلو وخروج إنجلترا من الكونسورتو الأوربى تقوم بنشاط فى العراق ، فكانت لها يد فى المؤامرات التى دبرتها إيران ضد سعيد باشا (١٨١٣ – ١٨١٧) لعزله[4] وما كانت هذه إلا بداية للنشاط الروسى الواسع فى الشرق ، إذ كانت الروسيا فى ذلك الوقت

---

(١) Alexander: Op. Cit., p. 42.

(٢) راجع معاهدة كلتسان (١٨١٣) فى Hurewitz: Op. Cit. Vol. I

(٣) زكى صالح : ١٢٠

(٤) حسين مؤنس : ٣٦٢

تنظر بعين نهمة إلى الأراضى الواقعة وراء حدودها الشرقية (١) . وكانت يد القنصل الروسى فى تبريز وراء عدوان محمد على ميرزا وعباس ميرزا على أراضى الدولة العثمانية ولاريب أن هذا النشاط الروسى كان يقصد من ورائه حينئذ مناوأة الإنجليز فى مناطق نفوذهم . (٢)

وعلى أى حال شعر ريتش بالخطر الروسى المهدد للعراق فكتب مبصراً أولى الأمر من الإنجليز بضرورة السيطرة على طريق العراق المؤدى إلى الهند(٣) والواقع أنه كان للروس فى العراق عيون على شاكلة أولئك الذين كانوا يعملون مع الإنجليز (٤) . وكان الكرد يرهبون الخطر الروسى (٥) وأخذ النشاط الروسى يتزايد سنة بعد أخرى حتى قال أحد الساسة البريطانيين إن ما لايفعله الإنجليز فى العراق من مشروعات سيقوم الروس بعملها ، فقد أصبح للروس سفن تجارية فى الفولجا وبحر الخزر وسيصبح لهم كذلك فى بحر آرال . وعلى أغلب الظن فى دجلة والفرات أيضاً . . فهم سيعملون فى آسيا كل مالا نقوم نحن بعمله من الأمور النافعة (٦) . ويقصد بالفقرة الأخيرة مشروع الملاحة النهرية فى الرافدين . والواقع أن بعض الساسة الإنجليز كانوا منذ أوائل العقد الثالث من القرن التاسع عشر فى نشاط ضخم لتأكيد فكرة صلاحية الفرات للملاحة النهرية وأنه خير من طريق السويس من حيث قلة التكاليف وتوفير الزمن ، إذ أن طريق الفرات يختصر عشرة أيام والسفن فيه تسير من ٥ — ٧ أيام فى نهر على جانبيه حياة نشطة فتتمكن من التزود بالمؤن وبالوقود إما من الخشب أو فحم البتومين الذى كشف عن بعض مواطنه فى العراق . أضف إلى هذا أن طريق الخليج والفرات غير معرض لمثل تلك الأعاصير

---

(١) Alexander: Op. Cit., pp. 250,256

(٢) Sykes: A Hist. of Persia, II, p. 316

(٣) Alexander: Op. Cit., p. 256

(٤) Groves: Op. Cit., p. 66

(٥) Rich: Narrative of a residence in Koordistan, II, p. 180

(٦) نقلا عن زكى صالح : ١٢٣ .

Chesney: Narrative of the Euphrates, p. 76.

التي تهب على البحر الأحمر، ثم إن السفن ستتجه مباشرة من البصرة إلى بمباى دون المرور على كولمبو ولن تسير القوافل فى طريق العراق فى الصحراء إلا يومين فقط بينما تسير خمسة أيام فى طريق مصر . أما فى الفرات فإنه — إذا ثبت أنه صالح للملاحة — فتسير المراكب حتى بيره جك ومنها براً إلى حلب فالإسكندرونة ،وأما فى دجلة فإلى بغداد فديار بكر فسيواس وطرابزون ومنها إلى الآستانة . وطريق الفرات يفضل طريق مصر نظراً لبعد الخليج والعراق عن ميدان التنافس بين الدول الأوربية . ولكى يثبت الإنجليز عند رأى واحد قررت لندن وبمباى تكملة البحوث التى بدأها Ormsby, Eliot وكان جيمس تايلور من المتحمسين لنجاح المشروع ودراسة ما قد يقف فى وجهه من عراقيل .

وكانت هناك فعلاً بعض عقبات اعتقد أنها ستقضى على المشروع ومنها خطورة العرب على الملاحة ولكن ثبت أن هذه الخطورة غير ذات قيمة إذا كانت السفن سائرة فى وسط النهر . هذا إلى أن مستوى الأراضى المزروعة على جانبى النهر منخفضة فيمكن للسفن أن تسيطر عليها بمدافعها . مع العلم بأن سلاح العرب كان فى الغالب السيف والحربة ، وإذا ما وجد أحد الباشوات على علاقة ودية مع الإنجليز مؤيداً لمشروعاتهم فلا شك أن الأمور تسير على ما يرام(١) .

وقد كان داود باشا فعلاً مقتنعاً تمام الاقتناع بأهمية هذه الخطوط النهرية وقد عرضت عليه إحدى الشركات الإنجليزية أن يشترى سفينة بخارية لتعمل بين بغداد والبصرة . ومن ناحية أخرى وضع هو مشروعات لتسهيل هذه الملاحة النهرية ، فشق قناة جديدة بين دجلة والفرات طولها حوالى ٣٠ ميلاً وعلى هذا الأساس قدر تايلور Taylor أن الرحلة من بغداد إلى إنجلترا تستغرق ٢٣ يوماً ومن بغداد إلى بمباى ١٢ يوماً فقط وكانت سفن البريد تستغرق ١٥ يوماً من البصرة إلى بمباى إبان هبوب الرياح الموسمية

---

(١) J. R. Wellestd: Travels in Arabia. London 1839. pp. 297, 303

Groves: Op. Cit., Oliver, Op. Cit., pp. 4-10, 437.

Mignan: Travel in Chaldeae. pp. 35-36.

بينما كانت السفن الصغيرة تستغرق أسبوعين وستكون هناك رحلتان شهرياً بين الهند وبالعكس (١)

ولاشك أن هذا التفاهم حول تنشيط التجارة عبر العراق وفق الأساليب الحديثة قوى العلاقة بين داود والإنجليز، ولذلك نجد الضباط الإنجليز — إلى جانب ديفو الفرنسى — يتولون قيادة الجيش الجديد (٢) ويبدو أن تايلور Taylor أراد أن ينتهز الفرصة لينال من داود أكبر قسط من الامتيازات فإن الباشا كان فى حاجة ماسة إلى الأسلحة والذخائر التى ترد إليه من الهند وفى حاجة إلى استمرار المجهودات الإنجليزية نحو تحقيق مشروع الملاحة البخارية. ولذلك تقدم تايلور يطلب مطلباً جد خطير وهو التصريح بإنشاء نقط مراقبة على الفرات توضع فيها قوات إنجليزية حتى يمكن إخضاع العشائر العربية المهددة لخطوط المواصلات الحديثة. وهذا معناه سيطرة الإنجليز على العراق (٣). ولم يلب داود مطلب الإنجليز هذا، وليس بصحيح أنه وافق على منح مثل هذه الامتيازات الخطيرة لأنه لم يظهر بعد ذلك أن الإنجليز نالوا شيئاً من هذا القبيل (٤). على أن هذا التفاهم بين داود وتايلور لا شك كان له أثره القوى فى أن يدفع الإنجليز إلى الإبقاء عليه فى بغداد وفى أن يتخلى السلطان عن فكرة عزله وفى أن يدافع سفير إنجلترا فى الآستانة عن داود (٥).

ولكن كيف يستقيم هذا مع امتناع حكومة الهند عن إمداد داود بالأسلحة والذخائر قبيل عزل السلطان له ؟

ويقول المؤرخ الإنجليزى Coke (٦) إن حكومة الهند كانت تعلم ما يبيته السلطان لداود ولذلك رفضت هذه الحكومة أن تمد داود بما طلبه من سلاح.

---

(١) Groves: Op. Cit., p. 11

(٢) Groves: Op. Cit., p. 29

(٣) Fontanier: Op. Cit., I, p. 193

(٤) لم يثبت أن داود وافق على هذه الامتيازات.

(٥) العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : ج ٦ : ص ٣١٠

(٦) Coke : Bagdad. p. 156

والواقع ان حكومة الهند كانت ترى فى داود قوة ناهضة قوية ستهدد النفوذ الإنجليزى والمصالح الإنجليزية عندما تتم مشروعات داود الإصلاحية . وهى قوة كان الإنجليز لا ينظرون إليها بعين الارتياح مثل نظرتهم إلى قوة محمد على . ولقد كان موقفه من ريتش سابقة خطيرة أبرزت نوايا هذا الباشا المصلح ولكن بما أنه أصبح متفاهماً – فى الفترة الأخيرة – مع رجالها حول مشروعاتهم فى العراق فلا مانع أن يبقى فى الحكم لتتم مشروعاتهم على ألا يقوى إلى الدرجة التى يصبح فيها خطراً على مصالحهم . ولذلك امتنعت حكومة الهند عن إمداده بالسلاح . وعندما ظهر أن الباشا الجديد على رضا هو الآخر مقتنع بأهمية مشروع الملاحة البخارية لم يعد للإنجليز حاجة فى بقاء داود فى بغداد فإن جسنى F. Chesney سنة ١٨٣٠ كان يستعد فى ذلك الوقت للقيام برحلة نهرية لاختبار صلاحية الفرات للملاحة ، وبدأ جسنى Chesney الرحلة إلى حلب حيث كان على رضا باشا هناك وعرض على جسنى Chesney تطهير ميناء سليوكيا القديم(١) وأن يعيد فتح الفرات للملاحة (٢) فلا يحتاج الإنجليز إلى داود ولن ينالوا خيراً إذا وقفوا إلى جانبه ضد جيوش على رضا . ولذلك لم تكن هناك فائدة ترتجى من وجود تايلور Taylor إلى جوار داود خلال الأزمات التى انتهت باستسلام داود إلى على رضا فى ١٨٣١ م (٣) .

---

(١) السويدية .

(٢) F. Chesney, Expedition for the Survey of the rivers Euphrates and Tigzis, London, 1850, Vol. I, p. 447.

(٣) J.B. Fraser: Mesopotamia and Assyria, p. 255.

الفصل السادس

سياسة داود فى الخليج العربى

ارتباط البصرة والأحساء ببغـــداد – علاقة البصرة بمسقط – الأحساء بين داود ومحمد على – النزاع بين داود وسلطان مسقط نهاية حكم داود فى البصرة

ارتباط البصرة والأحساء ببغداد :

البصرة مفتاح العراق الجنوبى . وميناء العراق الكبير على الخليج العربى وكانت لذلك على علاقة قوية بالقوى المتصارعة فى الخليج(١) . كانت علاقتها قوية خلال حكم أسرة أفراسياب بالبرتغاليين وبالإنجليز وبإيران . ولما كان البرتغاليون أعداء الشاه فإنه تحالف مع الإنجليز ضد البرتغاليين ، وهؤلاء البرتغاليون وجدوا فى آل أفرسياب حلفاء طبيعيين لهم نظراً لأن الشاه كان يطمع — مثل أسلافه — فى البصرة . وعلى أى حال كان مصير السيادة فى الخليج للأقوى أى للإنجليز . وأصبح للإنجليز وكالة نشطة فى البصرة منذ ١٦٣٥ . ولم تسهم البصرة فى سياسة الخليج إلا فى الناحية البرية فقط . فإن أمر الخليج كان بيد الأساطيل القوية بينما كان أسطول العثمانيين فى البصرة قد هوى إلى مستوى منحط جداً . ولذلك سار توسع أسرة أفراسياب فى اتجاه الأحساء حتى أصبحت الأحساء تابعة للبصرة ، ولذلك عندما أعيدت البصرة إلى حكم السلطان المباشر بعد طرد أسرة أفراسياب منها سنة ١٦٦٨ م أصبحت بغداد مسيطرة أيضاً على أمور الأحساء وإن كان حكمها غالباً مسنداً لبنى خالد(٢) ؛ وهكذا أصبحت بغداد مسئولة عن مشكلات البصرة والأحساء معاً .

وكانت البصرة مهددة — مثل الأحساء — فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر — بقوة إيران المتزايدة منذ ارتقاء كريم خان الزندى العرش الإيرانى وبقوة الوهابيين السريعة النمو . وكان الخطر الإيرانى سبباً فى توحيد

(١) فتح العثمانيون البصرة سنة ١٥٤٦ لكى يقاتلوا البرتغاليين فى الخليج وفى مياه الهند وبعد ذلك استولى العثمانيون على الحسا وعلى ساحل عمان أيضاً .

(٢) Longrigg: Op. Cit. pp. 103-111

قوى المنتفق وبنى خالد المتعادين ضد الجيش الإيرانى (١٧٧٥) . فكان أن استعان سليمان أغا — متسلم البصرة — بالمنتفق وبنى خالد فى الدفاع عن البصرة .

وكان هذا التعاون بين المنتفق وبنى خالد مع سليمان أغا — متسلم البصرة ١٧٧٥ — يرجع إلى مقت المنتفق الشديد للإيرانيين ، ولأن فى وقوع البصرة فى يد إيران تهديداً خطيراً لاقتصاديات وكيان المنتفق وفيه نصر مؤزر لعشيرة كعب عدوة المنتفق . ولما كان لعشيرة كعب أسطول قوى — ولم يكن لدى سليمان أغا أسطول يذكر — فإنه اتصل بسلطان مسقط[1] وطلب منه أن يشد أزر المدافعين عن البصرة بأسطوله ، وكان المماليك من قبل قد رفضوا تأييد هجوم كريم خان على مسقط ، وكانت لمسقط مصالح اقتصادية فى البصرة[2] ولذلك تعاونت مع المماليك ومع المنتفق وبنى خالد ضد هجوم كريم خان على البصرة . على أن هذا الهجوم الإيرانى لم يكن يهم فقط القوى العربية الموجودة على شواطئ الخليج ، بل كان يهم أيضاً القوة الإنجليزية فيه ، وذلك لأن التجارة البريطانية كانت تستلزم تطهير الخليج من القراصنة ، بينما كانت عشيرة كعب تشتغل بالقرصنة . وفى الوقت نفسه كان كريم خان يضيق الخناق على ممثلى الشركة لديه[3] . وهكذا التقت مصلحة المماليك مع مصلحة عشائر جنوب العراق مع مصلحة مسقط والإنجليز .

تعاونت هذه القوى ضد الغزاة الإيرانيين وثبت فى الميدان حتى النهاية أسطول مسقط والمنتفق وبنو خالد والأهالى بزعامة سليمان أغا ، ولكن انسحاب المقيم الإنجليزى كان مخجلاً[4] . ومع أن البصرة استسلمت بعد دفاع مجيد

---

(١) كانت بمسقط تحت حكم أسرة سعيد منذ طرد مؤسسها أحمد الفرس من عمان ومسقط سنة ١٧٤٩ وكان اتجاه مسقط نحو الخليج الفارسى فاهتمت بأسطولها .

(٢) انظر الفصل الرابع عن العلاقة الاقتصادية بين مسقط والبصرة .

(٣) Wilson : Persian Gulf. London 1951. p. 185

(٤) انظر الفصل الأول .

كان المنتفق قد ثابر على حمل لواء الكفاح ضد الإيرانيين حتى غادر الجيش الإيرانى العراق سنة ١٧٧٩ (١) .

وعلى أى حال أظهرت هذه الحرب عدة نواحى ضعف فى إمكانيات البصرة الدفاعية وفى أحوالها السياسية :

ا — أظهرت المماليك كأنهم غير قادرين على صد الهجمات الإيرانية عليها وبالتالى أن البصرة يمكن أخذها من المماليك .

ب — كانت عشائر المنتفق وبنو خالد تكون الجزء الأكبر من قوة الدفاع عن المدينة .

جـ — إن الدفاع من البحر كان موكولا لأسطول مسقط ولقطع الأسطول الإنجليزى التى أرسلتها شركة الهند الشرقية .

وكانت هذه النواحى الثلاث هى التى سيطرت — بل وجهت — تاريخ البصرة فإن سليمان أغا كوفئ — لما أبداه من جلد فى دفاعه عن البصرة — بباشوية بغداد وشهرزور والبصرة . ومع أن الإنجليز لعبوا دوراً مزدوجاً فى تلك الحرب وجد سليمان الكبير أنهم أصبحوا قوة سياسية وعسكرية واقتصادية لا يستهان بها فوطد علاقته بهم(٢) . هذا بينما حظى سلطان مسقط بمكافأة رصدها السلطان العثمانى له من خزانة البصرة لتعاونه الصادق فى الدفاع عن بلاد السلطان(٣) . أما المنتفق فقد طمعوا فى البصرة على اعتبارهم حماتها ، بل تطلع

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ص ٨٠

(٢، ٣) إن جيليان Guillian يرجع تاريخ أمر السلطان العثمانى بمنح حاكم مسقط تلك المكافأة السنوية إلى زمن سلطان — إمام عمان منذ ١٨٠٠ — وذلك لإسهامه فى الدفاع عن البصرة ضد الوهابيين . هذا بينما يرجع رودلف Rudolf Reute تاريخ منح هذه المكافأة إلى سنة ١٧٥٦ م (١١٧٠) ولا شك أنه نقل عن بادجر Badger ولم يحدث فى ١٧٥٦ حصار للبصرة أو شيء استلزم مساعدة مسقط لها ولا حتى فى العقد الخامس من ذلك القرن ، ولم تحاصر البصرة بعد ذلك إلا سنة ١٧٧٥ عندما هاجمتها جيوش كريم خان الزندى واشتركت مسقط اشتراكاً فعالا فى المعركة .

انظر : Guillian: Documents sur L'histoire, la geographie et le commerce de L'Afrique Orientale, Paris, Tome Premier, Deuxieme Partie p. 188, Rudolf, Reute : Said bin Sultan, London, 1929, p. 44, Badger, hist. pp. 169-170

شيخ المنتفق ثويني إلى الحصول على الباشوية . فدار كفاح شديد بين سليمان الكبير وثويني ، انتهت بعجز الأخير عن متابعة الصراع ضد الباشا ، بل بضرورة التعاون بين سليمان الكبير وثويني ضد خطر الوهابيين الداهم . فقد استولوا على الأحساء سنة ١٢١١ هـ ولجأ بنو خالد إلى العراق وتعاون الباشا الكبير والمنتفق وبنو خالد مرة أخرى ضد هذا الخطر الخارجي ، ولكن دون جدوى[١] . وخلال هذه الأزمة ظهرت أيضاً مسقط على المسرح مرة أخرى (١٧٩٨) .

علاقة البصرة بمسقط :

فقد حدث فقر شديد بعمان سنة ١٢١٣ (١٧٩٨) وأصبح الإمام فى حاجة ماسة إلى الأموال[٢] ولذلك تطلع إلى المكافأة السنوية التى كانت مقررة له من خزانة البصرة ليستعين بها على أموره ، ولكن لم يجد صدراً رحباً فى العراق فاضطر إلى أن يصالح القواسم ليتفرغ للبصرة وليشن عليها هجوماً بحرياً ، فاحتج سليمان الكبير على هذه الاستعدادات وعلى هذا التهديد . وعمل على أن يواجه هذا التهديد بتقوية أسطوله البحرى فطلب من شركة الهند الشرقية البريطانية أن تمده بسفينتين ليستخدمهما فى صد أسطول مسقط . ولكن مصالح الشركة فرضت عليها ألا يقع الإمام والباشا الكبير فى أزمة حادة لأن كليهما من أصدقاء الإنجليز فتوسط مانستى Manesty المقيم البريطانى فى البصرة وقتذاك بين الإمام والباشا الكبير وسويت المشكلة بين الطرفين[٣] .

ثم عاود إمام مسقط المطالبة بحقوقه مرة أخرى وبأن تتعاون بغداد ومسقط تعاوناً جدياً ضد الوهابيين ولكنه لم يجد أى تعاون صادق من « على باشا بغداد » (١٨٠٤) فما كان من الإمام إلا أن هدد بالانضمام للوهابيين إن لم يتفق معه الباشا[٤] . ولكنه نال المكافأة ولم ينل الحلف مع بغداد[٥] .

---

(١) ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد : جـ ١ : ١٠٨ — ١٠٩

(٢) Badger: Hist. of the Imams and Sayyids of Oman, p. 238

(٣) Selections: Op. Cit., Vol. XXIV P. 172-3

(٤) Badger: Op. Cit., P. 238

(٥) Corancez: Op. Cit., P. 58

وكان من الطبيعى أن يستفيد سعود الكبير من هذا النزاع فعمل على أن يضرب البصرة بالأسطول العثمانى، ولكن تدخل الإنجليز بمدهم المعونة لسلطان مسقط أبعده عن التحالف مع الوهابيين، بل اتجه إلى التخلى عن مشروعاته فى البصرة والتحول إلى معاودة القتال ضد الوهابيين(١) .

وكان الوهابيون فى الواقع يمثلون أشد الأخطار على إمام مسقط ولكن هذا لم يمنع مسقط من أن تستمر فى تجارتها الواسعة التى كانت تدر عليها دخلا كبيراً . فكان هذا الدخل الكبير والإمكانات المادية الواسعة والموقع البحرى الممتاز والاتصال السياسى العسكرى بدول أوربا بشكل قوى ووجود أسطول عمانى كبير يمخر عباب البحر من البصرة إلى بندر عباس إلى بمباى وسواحل الهند حتى أملاك الإمام فى شرق إفريقية كان كل هذا قد أدى إلى أن تصبح مسقط ذات أهمية كبرى فى ميدان التنافس الدولى فى البحار الشرقية .

فكان العمانيون يتخذون جانب الفرنسيين تارة والإنجليز تارة أخرى حتى رجحت كفة الإنجليز الذين أصبحوا القوة الأولى فى مياه الهند والذين كانوا ينظرون بعين القلق إلى قراصنة الخليج، وخاصة بعد أن ارتبط القواسم القراصنة بالدعوة الوهابية . وفطن السيد سعيد — سلطان مسقط — منذ أوائل حكمه(٢) إلى أهمية الهند له من الناحيتين التجارية والعسكرية وقد تيقن أنه لا يستطيع أن يحقق أهدافه السياسية والعسكرية، وبخاصة فى البحرين بدون تأييد الإنجليز(٣) . وعندما كان الإنجليز يتخلون عنه كان يبحث عن أى حليف آخر مثل الفرنسيين أو الإيرانيين(٤) ولكننا لم نسمع عن رغبته فى التحالف مع باشوات بغداد ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن المماليك لم يظهروا تحمساً فيما سبق للتحالف مع مسقط، وإلى أن سبيل تحقيق هذا التحالف غير ممكنة لأن البحرية المملوكية ضعيفة ومقاومة المماليك للوهابيين كانت تعتمد على الجيوش

---

(١) Aitchison: Op. Cit. Vol. XII. PP. 178—180

(٢) تولى السيد سعيد الحكم سنة ١٨٠٤ .

(٣) Aitchison: XII, P. 188

(٤) Rudolph Reute: PP. 29, 34, 35

البرية ولأن أهداف السيد سعيد كانت إقليمية فى نطاق الخليج العربى نفسه وفى البحرين بالذات ، وهذه أهداف لا ارتباط لها بأهداف المماليك ، وكان المنتظر أن يتحالف السيد سعيد مع محمد على ضد الوهابيين ، لأن الوهابيين كانوا خصوم مسقط ومصر معاً . ولكن السيد سعيد رفض هذا التحالف مع أن محمد على كان فى حاجة إلى أسطول مسقط[1] . ولا شك أن السيد سعيد كان يخشى هذه القوة الفتية المصرية التى كانت تقترب من الخليج والتى لابد أن تزاحمه . ولذلك كان موقفه من تقدم القوات المصرية معادياً بدليل أنه قبل اللاجئين الوهابيين[2] .

الأحساء بين داود ومحمد على :

وبينما كان السلطان سعيد قد اتخذ هذا الموقف المعادى من محمد على ورفض التعاون مع جيشه الزاحف على الخليج العربى كان داود أيضاً قد أعلن إرسال قواته إلى الأحساء ليطهرها من الوهابيين فاتحاً بذلك جبهة ثانية ضدهم كان سلطان مسقط قد رفض أن يفتحها[3] .

حقيقة كان من واجب داود — كباشا من باشوات الدولة العثمانية — أن يقدم المساعدة اللازمة لجيش إبراهيم . ولكن كانت هناك اعتبارات قوية قد دفعت داود لأن يسرع إلى احتلال الأحساء قبل أن تصلها قوات إبراهيم التى كانت تخوض المعركة الحاسمة على أبواب الدرعية بنجاح . فقد قدر داود أهمية الأحساء وأهمية ارتباطها بالعراق ، وهو فى الوقت نفسه كانت له آمال واسعة فى توحيد العراق من كردستان إلى الموصل وكركوك والبصرة تحت الحكم المركزى فى بغداد . وسهل الأحساء امتداد لسهل العراق وتابع له :

وقدر داود أيضاً خطورة وجود قوات باشا عثمانى آخر قوى ترابط

---

(١) Durant-Veil: Les Campagnes Navales. Paris 1935. T.I.P. 116

(٢) Reute: Op. Cit. P. 36

(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٥٠

على مقربة منه وفى أراض كانت تحت سيطرة بغداد طيلة القرنين الماضيين، وخاصة أن جيش محمد على باشا الذى كان فى طريقه إلى الأحساء بقيادة إبراهيم هو الذى قضى على المماليك فى مصر ويخشى أن يقع الصدام بين النظامين، النظام الجديد فى مصر والنظام المملوكى فى العراق، ويترتب على ذلك موقف خطير . وهذه القوة المجاورة الجديدة يمكن أن يستخدمها السلطان إذا أراد بداود شراً[1] .

وفى الوقت نفسه كان إبراهيم باشا يقدر أهمية الأحساء كقاعدة استراتيجية ذات مصادر طبيعية وبشرية كبيرة يمكن أن تمنح الوهابيين فرصاً كبرى لاستمرار المقاومة . فقد كتب لأبيه يقول « وبعد فتح الدرعية . . . تضبط الحسا وميناء القطيف »[2].

ولكن أهمية الأحساء لإبراهيم فى ذلك الوقت كانت استراتيجية فقط ؛ ومن ناحية أخرى كان بنو خالد حكام الأحساء لاجئين لدى باشا بغداد، ينتظرون اليوم الذى يعودون فيه إلى مقر حكومتهم، ولذلك كانوا عند إشارة داود لما كلفهم بفتح الحسا وأرسل معهم قوات من المنتفق تشد أزرهم . وقد عرف عن المنتفق أنهم أشد أعداء الفرس والوهابيين كما كانت الأحساء ملاذاً للمنتفق غير مرة . وعلى أى حال كانت العمليات الحربية التى قامت بها القوات المنتفقية وقوات بنى خالد سهلة ناجحة واستولوا على الأحساء دون عناء سنة ١٨١٧[3] .

ولم يكد ينتهى إبراهيم من تدمير الدرعية حتى أخذت قواته تتجه صوب

---

(١) جودت : ١١ : ٥٩

(٢) الوثائق التاريخية : محفظة ٥ : معية سنية — بحراً براً وثيقة ٩٤ (٩ رمضان ١٢٣٦ هـ) من إبراهيم إلى محمد على، ويعلل عثمان بن سند رغبة إبراهيم فى الأحساء بأن وسوس له بعض الوهابيين وحسن له ملك الحسا وأخبره بما فيها من الأموال والنخيل والزكوات التى كادت تحاكى بعض بلاد النيل وهو تعليل لايحتاج إلى تعليق — مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٥٠ .

(٣) جودت ١١ : ٥٩

الأحساء وقد طهرت من الوهابيين ، فاحتلها ووضع الحاميات المصرية فيها . ورفع يد عامل داود عن الأحساء . فكان لهذا الإجراء صدى قوى فى بغداد ولكن الأحساء كانت من بلاد السلطان وتقرير نوع الحكم فيها من شأن السلطان وإن الأولى كما يقول داود نفسه «أن يشرب العاقل من أعلى النهر» فكتب للسلطان طالباً كف يد إبراهيم عن الأحساء . ويقول عثمان بن سند إن السلطان محمود الثانى أرسل فرماناً إلى محمد على — والى مصر — يأمره فيه بأن يخلى إبراهيم الأحساء ، وأن إبراهيم سحب قواته فعلا بسرعة من الأحساء وسلمها إلى عمال داود فيها (١٨١٧) [١] .

والواقع أن الباب العالى كان راضياً عن منح الأحساء لداود ، وكان إبراهيم فى حاجة إلى الأحساء ليقضى قضاء تاماً على قواعد الوهابيين ثم يعود إلى الحجاز ليستريح من عناء الحرب الشاقة فسحب قواته من الأحساء بعد انتهاء العمليات الحربية فكان ذلك من عوامل التقاء رغبات كل من بغداد والآستانة ولذلك استعاد بنو خالد الحكم فى الأحساء بعد خروج إبراهيم منها .

ولم تكن عودة إبراهيم إلى الحجاز تعنى أن السياسة المصرية تركت أمر الخليج لشأن النازلين حوله ، فقد كانت الأطماع والحركات السياسية والعسكرية الإنجليزية تملأ الخليج العربى — حتى باب المندب ومخا — ضجة وانفعالا . فقد اتخذت سياسة الإنجليز فى العقدين الأول والثانى من القرن التاسع عشر طابع العنف واشتدت فى عنفها هذا عندما ظهرت القوات المصرية على شواطئ الخليج العربى وبلغ ذروته عندما شنت قطع الأسطول الإنجليزى — تؤيدها قطع من أسطول مسقط هجوماً مدمراً على رأس الخيمة سنة ١٨١٩ . وأعقب ذلك تعاون عمانى إنجليزى ضد بنى عجلان الثائرين على سلطان مسقط . وهذه العشيرة العربية تنزل فى أقصى جنوب غرب سلطنة عمان [٢] .

---

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ص ٥٠

(٢) هذه العشيرة تنزل فى جنوب غرب سلطنة عمان وجعلان مكانها .

ونتيجة لهذه الحركات العسكرية العنيفة اهتزت دوائر الآستانة والقاهرة وبغداد ، وبدا كأن الخليج العربى وما يطل عليه وساحل بلاد العرب مقبل على مستقبل غامض تطل من ورائه مدافع الأسطول الإنجليزى ولا قدرة لأية مشيخة أو إمارة عربية أن تدافع عن تلك السواحل . أما الدولة العثمانية وولايتاها بغداد ومصر فلم يكن لديها أسطول فى الخليج ، ولذلك كان خطر الإنجليز كبيراً . ومن ذلك الوقت عملت بريطانيا على بسط سيطرتها على البلاد الساحلية الهامة فى الجزيرة العربية وعلى السواحل المطلة على باب المندب .

تنبه الباب العالى ومحمد على وداود إلى هذه الأخطار ، فقد كان محمد على يخشى من وقوع تلك المناطق فى يد الإنجليز فيسهل احتلالهم لباب المندب ومنه ينفذون إلى السويس[1] .

أما الباب العالى فكتب لمحمد على يقول « إنه لا يجوز ائتمان الدول الأجنبية ولا الاعتماد على أقوالهم . . . وإنه لا يجوز نسيان أصول استعماراتهم »[2] . وخشى الباب العالى وداود أن تمتد أطماع الإنجليز إلى الأحساء حيث ميناء القطيف ذات الموقع العسكرى الهام وهى فى الوقت نفسه مواجهة للبحرين التى يطمع فيها السيد سعيد سلطان مسقط[3] ، وكان داود يشك كل الشك فى نيات الإنجليز وبعد النظر السياسى يؤيده فى ذلك . ونتيجة لهذه المخاوف كتب داود إلى الباب العالى مبيناً الخطر الذى يتهدد القطيف . وكان لكتاباته تلك صدى قوى فى الآستانة إذ أنها أكدت مخاوف السلطان الذى تلقى فى الوقت نفسه من السفير الفرنسى ما يؤيد رسائل داود[4] .

---

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ٤ : معية تركى : صفحة : ٦٣ بتاريخ ١٣ (رمضان ١٢٣٦) .

(٢) الوثائق التاريخية : محفظة ٦ : معية سنية مسلسل ٢٠٨ (٢٦ ذى الحجة ١٢٣٤) .

(٣) Chesny: Expedition, I. P. 469

(٤) الوثائق التاريخية : محفظة ٧ : معية سنية مسلسل ٢٠٩ بتاريخ (٩ جمادى الآخرة ١٢٣٦) .

النزاع بين داود وسلطان مسقط :

وهكذا كانت الاتصالات قوية ومستمرة بين العواصم الثلاث (الآستانة- بغداد - القاهرة) لتتبع حركات الإنجليز فى الخليج العربى ،وكان داود عين الباب العالى فى الخليج . وكان محمد على عينه وجنديه المنفذ فى مياه البحر الأحمر حيث كانت أزمة أخرى تتعقد فى « مخا » على يد الإنجليز أيضاً . وهى أزمة اعتقدت دوائر الآستانة وبغداد والقاهرة - أن السياسة الاستعمارية هى التى خلقتها لتحويل تلك الإمارات كلها إلى وضع شبيه بذلك الوضع الذى صارت إليه إمارات الهند وكان يساعد بريطانيا على ذلك وجود قوة بحرية عربية على جانب من الأهمية تتعاون مع الإنجليز وبذلك يصبح لهم حليف يعملون باسمه وقد أصبح إمام مسقط (السيد سعيد) فعلا بأسطوله وبتأييد الإنجليز أقوى قوة عربية فى الخليج وفى بحر العرب حتى زنجبار وبلغت قوته ذروتها فى الخليج العربى فى أوائل العقد الثالث من القرن التاسع عشر وتطلع سلطان مسقط إلى مجد عريض - وفى تاريخ أسرته ما يدفعه إلى السيطرة على أهم المواقع على جانبى الخليج . وبدأ السيد سعيد فى تنفيذ خطته فعلا .

كان أول ما تطلع إليه السيد سعيد فى تحقيق سيطرته على الخليج هو تأكيد سيادته على أملاكه القديمة كبوشهر (١) . وأراد غير مرة أن يحقق هدفه فى البحرين ولكن السياسة البريطانية لم تكن مستعدة للذهاب فى تأييد السيد سعيد إلى حد تشجيعه على الاستيلاء على البحرين .

وزادت مخاوف داود من استمرار زيادة النفوذ العمانى والإنجليزى فى الخليج وزيادة النفوذ الإنجليزى فى العراق وبخاصة عندما وصل الأمر إلى أن ريتش القنصل البريطانى -كان يسعى إلى أن يقيم حكومة لنفسه داخل حكومة العراق . ومن ثم كان داودينظر إلى حلفاء الإنجليز بعين الريبة والسخط

---

(١) Rudolph Said: Op. Cit., P. 42—44

فى آن واحد ويعمل على عرقلة خطط مسقط فى الخليج وفى مياه بحر العرب وبلاد العرب نفسها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وفى الوقت نفسه عمل على أن يقضى على الامتيازات الاقتصادية التى كانت للإنجليز ولمسقط فى البصرة . فلما وجد أن هذا الخطر لا يهدده وحده، بل يهدد محمد على أيضاً عمل على إيجاد تعاون بينهما ضد هذا الخطر المشترك والباب العالى من ورائهما يدفعهما إلى مقاومة هذه الأطماع الاستعمارية بكل ما فى وسعهما (١) . ولذلك أخذ داود يكتب لمحمد على باشا عن عدد السفن الإنجليزية التى أبحرت من بمباى ويحدد خط سيرها ويكتب له بتفاصيل ماحدث بين قوات سلطان مسقط — المؤيدة للإنجليز — وبنى جعلان (٢) وهذا التآزر العمانى الإنجليزى الواضح فى ضرب بنى جعلان فيه خطورة بلا ريب على داود وهو قد قرر أن يقضى على النفوذ الأجنبى فى العراق ما أمكن(٣) .

وكان من الطبيعى أن يلتهب الجو بين داود وريتش — الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد — ويتحول الأمر إلى نزاع سافر بينهما وانتهى الأمر بطرد ريتش من العراق ، وكان من الطبيعى أن يتعاون الإنجليز وسلطان مسقط ضد داود حتى يستعيد الامتيازات الاقتصادية التى كانت لهما فى البصرة وكان داود قد ألغى هذه الامتيازات ليجمع موارد البلاد كلها فى خزانة بغداد . وكان هذا يتطلب منه تقوية قبضته على العراق كله وعلى البصرة بنوع خاص فقد أصبحت هى محط النزاع بينه وبين الإنجليز . ولكن وجود إمارة المنتفق يحول دون تحقيق هدفه هذا . وكان المنتفق فى منطقة البصرة هم أصحاب اليد الطولى فى خارج البصرة وداخلها . ومقاومة التدابير الإنجليزية يتطلب تركيز القوة

---

(١) الوثائق التاريخية : محفظة ٧ : معية سنية : بحراً براً : مسلسل ٢١١ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول (١٢٣٦) .

(٢) دفتر ٤ : معية تركى : صفحة ٢٢٩ من الجناب العالى إلى الصدر الأعظم بتاريخ (١٢ رمضان ١٢٣٦ هـ) .

(٣) انظر الفصل السابع ، مقاومة داود للنفوذ الأجنبى .

فى يد الحكومة وإخضاع العشائر التى يمكن أن يستغلها أعداء البلاد[١] . ولما كان نفوذ متسلم البصرة منذ أيام سعيد ضعيفاً جداً وأضعف من أن يقف على قدميه أمام الوكيل الإنجليزى أو أمام حمود شيخ المنتفق — عمل داود على تقوية مركز المتسلم ، فمنحه سلطات واسعة جعلته يقف قوياً أمام الإنجليز خلال الأزمة بين داود وريتش ، بل إن داود اتجه إلى أن يربط البصرة به ربطاً أسرياً فأرسل أخاه متسلماً عليها ، ولكن داود فضل تنصيبه فى منصب الكتخدائية[٢]

وعلى أى حال كان المتسلم فى عهد داود أكثر قوة ومقدرة من أسلافه . وكان هذا نتيجة للتطور الجديد الذى دخل على أهمية البصرة . وكان من الطبيعى أن يتحين سلطان مسقط والمنتفق والإنجليز الفرصة لتوجيه ضربة إلى داود . وفرص التدخل فى العراق المتعدد المشكلات واسعة فقد اتخذ النزاع بين داود وحمود شيخ المنتفق وسيلة لتدخل مسقط ، بل وكعب[٣] التى أزعجها ازدياد نفوذ داود، وعندما اشتد ضغط داود على المنتفق وكعب استنجدتا بمسقط وأطمعوا سلطانها فى البصرة وحرضوه على امتلاكها . ولا شك أن السيد سعيد سلطان مسقط كان يتطلع إلى السيطرة على البصرة أو على الأقل يتطلع إلى أن يحكمها أحد أعوانه لصالح مسقط ، وكان لدى المنتفق مطالب بباشوية بغداد أعنى به محمد أغا الكيخيا الثائر على داود . وتولية محمد أغا على بغداد بتأييد المنتفق والأسطول العمانى يعنى عودة عهد سعيد باشا (١٨١٣ — ١٨١٦) بامتيازاته الوافرة للمنتفق ولمسقط وللإنجليز ولذلك اشتد النزاع بين السيد سعيد وداود منذ ١٨٢٥ وبدأ سلطان مسقط يستعد لنجدة كعب والمنتفق .

كان سلطان مسقط لا يقوم بحركة عسكرية فى الخليج العربى إلا بعد أخذ رأى الإنجليز . ولذلك اتصل سلطان مسقط بالمقيم البريطانى فى بوشهر

---

(١) كان المنتفق على علاقة مستمرة بمسقط منذ أيام سليمان الكبير .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٦ .

(٣) لقد أزعجها مطالبة داود لها بالأموال : خورشيد : سياحتنامه حدود ٣١ — ٣٢ .

وأبدى رغبته فى محاصرة شط العرب وكما هى عادة الإنجليز ظهروا أولا بمظهر الوسطاء بين بغداد ومسقط. وقبل السيد سعيد وساطتهم، فكتب المقيم فى بوشهر لزميله فى البصرة المستر تايلور أن يتفاوض مع داود باشا بشأن دفع المكافأة للسيد سعيد، وكانت تعليمات حكومة الهند البريطانية تقضى بأن تكون التسوية عادلة وودية. ولما كان تايلور قد فشل فى الوصول إلى تسوية مع داود فإن الإنجليز أبلغوا سلطان مسقط أنه فى حل من أن يتدخل ويتخذ الإجراءات المناسبة. ولكن الإمام لم يستطع أن يقوم بحملة على البصرة بسبب تهديد أتاه من جانب محمد على فى هذه السنة (١٨٢٥)[١].

وفى يوليو ١٨٢٦ عاود السيد سعيد استعداداته العسكرية ليقوم بحملة فى الخليج فتوجه إلى بوشهر ليسوى بعض الأمور هناك، ثم أبحرت قطع أسطوله إلى البصرة لتلبى نداء قبيلة كعب والمنتفق، وقام الأسطول العمانى بالضغط على البصرة من ناحية البحر بينما كانت القوات المنتفقية تضغط فى قوة على المدينة من ناحية البر ولم يكن لدى داود أسطول بحرى يمكنه أن يواجه الهجوم البحرى العمانى فاحتمى المتسلم بأسوار المدينة حتى تطول مدة الحصار فتتفكك قوات المنتفق. وفى الوقت نفسه عمل المتسلم على تفكيك القوة المهاجمة بأن قدم بعض الأموال لقائد الأسطول العمانى الذى اكتفى بهذه المكافأة وآثر السلم مع بغداد. وقد جاءت هذه الحملة فى الوقت الذى أخذ فيه يشتد اهتمام السلطان سعيد بممتلكاته فى شرق إفريقية. وبذلك كتب لهذه الحملة العمانية الفشل وأدى تراجع أسطول مسقط إلى انهيار آمال المنتفق ومن بعد ذلك أخذت قوة مسقط فى الخليج تنهار وتتفكك فضعف تهديد مسقط للبصرة وضعفت الروابط السياسية بينهما[٢].

---

(١) Aitchison: XII, 192

(٢) صلاح العقاد: ٩٢ — ٩٣.

نهاية حكم داود فى البصرة :

وقد كشفت هذه المعركة عن نقص خطير فى قوى الدفاع عن البصرة. فإن عدم وجود أسطول للدفاع عن ميناء العراق الكبير أمر يتنافى مع مركز العراق الجديد ومع الأطماع المتعددة التى تهدده ولذلك عمل داود على أن يكون له أسطول يدافع عن البصرة. ولكن لم يكن لديه قواعد لبناء السفن ولا فنيون ليقوموا بذلك وليس هناك من مصدر لشراء السفن منه إلا بمباى. فطلب منها ولكنها رفضت طلبه. ويعلل لونجريج[1] Longrigg هذا الرفض بأن بمباى شعرت بأن صراعاً على وشك الوقوع بين داود والسلطان. ومع ذلك كان من مصلحة الإنجليز أن تبقى البصرة مجردة من حماية بحرية، وبذلك فشل داود فى الحصول على أسطول للبصرة. ولكنه مع هذا عمل على أن يعوض حرمان البصرة من أسطول قوى بمتسلم قوى حازم يستقر مدة طويلة فى البصرة فيمكنه أن يحل تلك المشكلات التى تتعرض لها المدينة من وقت لآخر. فقد كان قصر مدة الحكام من الأسباب الجوهرية التى تضعف نفوذ المتسلم وتعرقل تطبيق النظام فى المدينة ولذلك نجد عزيز أغا يحكم البصرة من ١٨٢٦ — ١٨٣١ (أى حتى عزل داود باشا)[2].

وقد حدثت فتنة فى المدينة خلال الصراع بين داود وعلى رضا ووقف المتسلم يدافع عن مركزه، ولكن مصير البصرة كان معلقاً بمصير بغداد. فلما سقطت بغداد أسقط فى يد متسلمها وفر إلى إيران. ونظراً لما كان بين البلدين من صلح فقد سلمته إيران لعلى رضا[3] وبذلك انتهت حكومة داود فى البصرة وفى بغداد فى آن واحد. ولكن على رضا جنى ثمار التوحيد وظلت البصرة متسلمية منضمة إلى باشا بغداد. كما ظلت الأحساء تابعة للعراق حتى استولى عليها محمد على بعد ذلك.

---

(١) Longrigg: Four Centuries. P. 265

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٧ : ٢٥

(٣) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٧ : ٢٥

الفصل السابع

الصراع بين داود والسلطان

محاولات السلطان طرد المماليك – مصرع صادق مبعوث السلطان
على رضا يتولى مهمة طرد المماليك – الطاعون والفيضان –
بغداد تقاوم – استسلام داود – ملحمة المماليك .

الصراع بين داود والسلطان

محاولات السلطان لطرد المماليك :

إن عهد داود الذى عرفت عنه الرغبة الصادقة فى الإصلاح الشامل كان ينطوى على رواسب كثيفة من الماضى البعيد والقريب . رواسب حالت دون الإسراع فى ذلك الإصلاح وعرقلته ، بل منحت القوى الكارهة للحكم المملوكى المصلح فرصاً واسعة للنيل منه ثم القضاء عليه . ولقد كان السلطان منذ قيام حكم المماليك يعمل جاهداً على إعادة حكمه المباشر على إيالة بغداد ، بل على العراق كله . فحاول محاولته الفاشلة فى منع أبى ليلة (١٧٤٩ — ١٧٦١) من أن يستهل قائمة الولاة المماليك .

ومنذ هذه المحاولة الفاشلة والباب العالى يفكر جدياً فى إعادة حكمه المباشر على العراق كلما توفى الباشا المملوك فى بغداد أو قتل أو وقع فى أزمة زعزعت مكانته . فكان الباب العالى يعين ولاة من عنده ليحكموا العراق حكماً مباشراً وليقضوا على الحكم المملوكى فى العراق[١] . وهذه التعيينات ليست إلا حركات سياسية ترمى إلى جس نبض أحوال العراق ، ومدى قوة الفرصة للتخلص من الحكم المملوكى فيه ، وإلى جانب هذه المحاولات السياسية السلمية كان الباب العالى لا يتوانى عن استخدام القوة فى سبيل تحقيق هدفه هذا . وقد سنحت له فرصتان لاستخدام القوة . وذلك عندما نشبت الحرب بين كريم خان الزندى وعمر باشا بغداد (١٧٦٤ — ١٧٧٥) . ولكن الباب العالى لم ينجح إلا فى إبعاد المماليك نحو ثلاثة أعوام عن حكم بغداد . فقد عجز « ولاة الخارج » عن أن يثبتوا أقدامهم فى حكم العراق وعن أن يكسبوا ثقة

(١) حدث هذا بعد وفاة أبى ليلة سنة ١٧٦١ م وبعد مقتل على باشا سنة ١٨٠٧ م .

الأهالى الذين وصل بهم الوعى إلى تمسكهم فى معظم الأحيان بالموافقة على من يتولى الباشوية . ولما كان التخلص من الحكم المملوكى أمراً صعب المنال بعد ذلك كان هدف المحاولة الثانية — التى قام بها خالد أفندى سنة ١٨١٠م — التخلص فقط من الباشا المملوك وإحلال والى عراقى من غير المماليك ، عسى أن يكون ذلك مقدمة للقضاء عليهم . ولكن الحكم المملوكى قد استعاد مكانته لأن خالد إنما اعتمد على القوة المملوكية وعلى قوى عراقية أخرى .

ونظراً لأن خالد أفندى كان هو المختص بشئون العراق فى الآستانة وقد خبر بنفسه صعوبة التخلص من المماليك فى العراق ، ولأن داود تولى الباشوية بموافقة الباب العالى دون وساطة أجنبية ، وأنه ليس هناك من فرق بينه وبين أى باشا عثمانى تعينه الدولة برغبتها هى سوى أنه كان مملوكاً ، ولأنه قاوم جهد المستطاع العدوان الإيرانى كما قاوم الخطر الإنجليزى العمانى فى الخليج العربى نامت فكرة الباب العالى فى إقصاء المماليك عن الحكم حتى قتل خالد أفندى سنة ١٨٢٣ م . هذا إلى أن الباب العالى كان مشغولا فى ذلك الوقت بالمشكلات الأوربية المعقدة .

ثم تجددت فكرة القضاء على النظام المملوكى حينما وضحت للسلطان نيات داود نحو توحيد العراق كله تحت حكمه واستغلال إمكانات العراق الاقتصادية لتنفيذ مشروعاته التجارية والعسكرية ، وقد كان محمود الثانى على عرش آل عثمان فى ذلك الوقت وكان يؤمن — كما آمن داود — بإنشاء جيش جديد وفق الأساليب الحديثة وبنظام الحكم المركزى . وكان داود قد سبق السلطان إلى تكوين القوات النظامية ، ولكن وجهة النظر اختلفت فى نقطتين أساسيتين :

١ — أن السلطان كان يعمل على تطبيق نظام الحكم المركزى المباشر بأن يقضى على حكم العصبيات ، ومنها العصبيات فى الروم ايلى وفى العراق وفى ليبيا .

٢ — أن داود كان يعتقد أن تحت حكمه تتوحد الباشويات العراقية وتستغل إمكاناته لجعل العراق الموحد قوة عسكرية على غرار ما كان يتبعه محمد على فى مصر .

إن فكرة داود كانت ترمى إلى القضاء على الدربيكات(١) فى العراق وفكرة السلطان كانت ترمى كذلك إلى القضاء على الدربيكات فى دولته . ولذلك كان تدخل داود — وهو دربيك كبير — فى أمور الموصل يمنح داود قوة يستطيع بها مقاومة سياسة السلطان نحو إعادة الحكم المباشر إلى العراق كله — بشكل أقوى . ولذلك عمل السلطان على أن يحول دون سيطرة داود على الموصل.

ثم إن الحكم المملوكى فى نظر السلطان عبارة عن عصبية تحكم وفق نظام قديم مكروه ، ويقول بعض المؤرخين إنه بينما كان السلطان يقضى على النظام الانكشارى فى كل الإمبراطورية ظل داود محتفظاً بحرسه المملوكى ومعنى هذا أن يظل النظام القديم على حالته(٢) والواقع أن الحرس المملوكى لم يكن وحده هو القوة التى تثبت دعائم النظام المملوكى فى العراق ، فهو عبارة عن جزء من القوة التى ألفها داود ، فقواته كانت تتألف من كتائب الانكشارية المنحلة التى أصبحت من الفرق النظامية ومن القوات العشائرية التى أوقفها على الخدمة العسكرية . هذا فى وقت توقف فيه ورود المماليك من جورجيا منذ أن استولت عليها روسيا ، فالخطورة على السلطان ترجع إلى الاتجاه الشعبى الإصلاحى الذى كان داود قد اتجه إليه .

ولا شك أن السلطان كان ينظر إلى النفوذ الأجنبى فى الدولة العثمانية وفى الولايات التابعة لها والشبه مستقلة منها بنوع خاص — على أنه أداة لهدم

---

(١) الدربيك تركية بمعنى أمير الوادى . وقد فطن عثمان بن سند إلى خطورة هؤلاء الدربيكات على مستقبل العراق . ولكنه لم يذهب إلى أنهم خطر على الإمبراطورية العثمانية كلها ربما لأنه لم يستطع أن يعمم المبدأ على الدولة كلها لأن الأمر فوق تفكيره المحدود بحوادث العراق .

(٢) Coke: Op. cit., P. 255

الدولة وتفككها إلى ولايات مستقلة أو شبه مستقلة يسهل على الدول الاستعمارية ابتلاعها .

فقد شوهت الحملة الفرنسية على مصر والنفوذ الفرنسى بعد ذلك سمعة ولاة العراق وكذلك سمعة الوالى فى طرابلس فلم يتخذ سليمان الكبير أى إجراء معاد ضد القنصل الفرنسى ، كما وقع يوسف باشا بطرابلس سنة ١٨٠١ م معاهدة مع الفرنسيين ليفتح طريق الاتصال بين فرنسا ومصر عن طريق ليبيا (١) .

وتولى سليمان الصغير الباشوية سنة ١٨٠٨ م بتأييد النفوذ الفرنسى . وبدا واضحاً أن حكومة الآستانة فى واد وولاياتها فى واد آخر وأن الدولة قد تمزقت فعلا ولم يبق إلا أن يعلن هؤلاء الدربيكات الكبار استقلالهم عن الدولة . . . ولا شك أن ازدياد نفوذ القناصل فى الولايات العثمانية قد أزعج السلطان ، وخاصة على عهد ريتش Rich فى العراق وعلى عهد معاصره الأمريكى إيتون فى تونس وفى طرابلس (٢) .

حقيقة وقف داود فى وجه الأطماع الإنجليزية وقاومها . ولكنه فى نهاية حكمه توقف تحقيق أهدافه الاقتصادية على ما يقوم به الإنجليز من مجهودات فنية واقتصادية ، وأقبل داود على مشروع الملاحة البخارية بكل جوارحه . ومن شأن هـــذا المشروع أن يربط العراق بحلقة المواصلات الإمبراطورية البريطانية وتصبح العراق بذلك محط آمال الاستعمار البريطانى . ولا يمكن أن تصمد ولاية لأطماع إمبراطورية ، وخاصة أن هذه المواصلات بين الهند وأوروبا لم تعد مشكلة تخص العراق وحده ، بل أصبحت مشكلة دولية تعنى روسيا وفرنسا وبريطانيا . ومن ثم وجب أن تكون العراق تحت عين الباب

---

(١) نقولا زيادة : محاضرات فى تاريخ ليبيا : ١٩٥٨ : ص ٤٦

(٢) نقولا زيادة : محاضرات فى تاريخ ليبيا ٤٧ — ٤٩

العالى وفى متناول يده لتدبر الأمور وفق مصالح الدولة العثمانية كلها لا وفق مصالح ولاية بعينها .

والحق أن العراق كان أضعف من أن يقف وحده فى وجه السياسة الاستعمارية الأوروبية . فقد كان العراق لا يزال يعانى الصراع بين الكرد فيما بينهم ، والعدوان والمؤامرات الإيرانية هناك ، والعشائر العربية ما زالت على أسلوبها فى الغزو والتنقل بسرعة وسرعة التمرد . والباشا لا يسعه إلا أن يضرب العشائر المتمردة والعصبيات الكردية بعضها ببعض وفى الوقت نفسه ينظر إلى الصحراء نظرة الوجل لما تقذفه إلى وادى الرافدين من عشائر قوية فينفق الأموال لمقاومة هذا الخطر ، والباشا — مثل أسلافه — كان يشعر أن المماليك يعيشون فى محيط معقد التشكيل والتفكير ، فليس بين الكرد والعشائر العربية من هو بقادر على أن يتولى حكم العراق ، ومع ذلك فالأكراد يحتقرون — مثل العرب — المماليك وهم لذلك كله يمنحون السلطان فرصة لأن يحاول القضاء على المماليك الذين كانوا يشعرون بأن السلطان يضمر لهم نية السوء دائماً . ولا شك أن عصبية كهذه تعيش فى هذا الجو المضطرب ولا تحس بالاستقرار لابد وأن تكون مجهوداتها هى الأخرى مركزة حول تثبيت أقدامها فى حكم العراق فى وجه تلك الصعوبات الخطيرة ، حتى إن داود نفسه قضى طوال حكمه يكافح إيران والعشائر العربية والأكراد والمطالبين بالباشوية والنفوذ الأجنبى ولكنه امتاز عن أسلافه بالإصلاحات الاقتصادية والعسكرية الواسعة النطاق وباحتفاظه بخزانة مكتظة بالأموال . وكان السلطان فى حاجة إلى الأموال وينظر بحنق شديد إلى المماليك فى بغداد وقد استأثروا بأموال العراق .

فمنذ سليمان الكبير كانت بغداد لا ترسل إلى السلطان إلا مقادير بسيطة من دخلها السنوى . وكان داود يرسل الأموال بانتظام إلى السلطان لعدة أعوام ، ثم امتنع عن ذلك الدفع[1] ولعل ذلك الامتناع كان بسبب الحروب الإيرانية

---

(١) الأعظمى : مختصر تاريخ بغداد ٢٨٨ .

والمشكلات العشائرية والإصلاحات الاقتصادية والعسكرية . وخاصة أنه وقف وحده فى وجه إيران تقريباً . ومادام الأمر كذلك فليتول أمر العراق وحده فى نطاق التبعية للسلطان ، وأن يقوم بالإصلاحات التى يتطلبها رقى العراق بأموال العراق ، وذلك يستدعى أن يقلل داود من الأموال المرسلة إلى السلطان فكان هذا الاتجاه سبباً فى صدام خطير بين داود والسلطان . وحدث أن انجلى تأييد الروسيا والفرنسيين وبريطانيا لثوار المورة عن موقعة نوارين البحرية وأعلنت الحرب بين الدولة الروسية والدولة العثمانية ، ونودى فى النفير العام أن يهب المسلمون من شيعة وسنة ليكافحوا عدو الله والإسلام وأن يقدم كل مسلم ما يستطيعه . ونظر الباب العالى فيما يمكن أن تقدمه باشوية بغداد الفتية . وكانت لدى الباب العالى معلومات عن دخل خزانة داود باشا . وقدر هذا الدخل بحوالى ٢٤ ألف كيس بعد المصروفات . فقرر الباب العالى أن تقدم بغداد ستة آلاف جندى — ولكن الباب العالى رأى تعذر إرسال بغداد لهذه القوات — أو ربما شعر أن داود لن يرسل جندياً من عنده فقرر على بغداد ستة آلاف كيس فقط(١) ، ولكن داود تقاعس عن إمداد السلطان بالأموال .

إن موقف داود هذا لا يفسر فى الآستانة إلا على أنه عصى السلطان وأن التابع تخلى عن سيده فى أحرج المواقف . وأن هيبة السلطان تقتضى عزله ولكن الدولة العثمانية لم تعزل محمد على باشا — والى مصر — وقد وقف موقفاً مشابهاً لموقف داود من السلطان والسبب فى ذلك يرجع إلى أن السلطان كان قد أضمر أن يقضى على داود ومحمد على وعلى الأسرة القرمنلية فى ليبيا . وكان الأمر أمر تحين للفرص . فلما كان لدى محمد على باشا جيش ضخم وأسطول قوى ومركز ممتاز فإن ضربه بالقوة العسكرية العثمانية يحتاج إلى وقت أطول وإلى تدبير أدق وإلى دبلوماسية فطنة لأن محمد على لم يعد والى مصر فحسب بل أصبح إحدى القوى الرئيسية التى بيدها مصير النصف الشرقى من البحر المتوسط على الأقل .

---

(١) تاريخ لطفى جـ ١ : ٢٩٣

والأسرة القرمنلية أمرها يمكن أن يؤجل لأن خطرها ليس بالداهم ، بينما كانت قوة داود العسكرية حديثة التكوين ، ولم تكن قد خاضت بعد معارك شاملة واسعة النطاق مثل جيوش محمد على باشا . وكانت جيوش داود أقل عدداً والعشائر العربية والكردية والانشقاق فى صفوف المماليك — يشجع على أن تبدأ الدولة بداود حتى لا يكون من العوامل المؤثرة على الحرب بين السلطان ومحمد على باشا ، ثم إنه فى العراق تربة صالحة للمؤامرات والدس والوقيعة وعصبيات قوية تنتظر الإشارة للخروج على الباشا :

ولا شك أن داود — مثل محمد على — نظر إلى الدولة العثمانية نظرته إلى قوة شاخت وإن القوة الفتية تنبع من الولايات . وهذه السياسة غير مقبولة إطلاقاً لا فى الآستانة ولا فى العواصم الأوروبية الكبرى . فإن السياسة الأوروبية والسياسة العثمانية فى ذلك الوقت كانت تلتقى عند هدف واحد وهو مقاومة ثورة الأتباع والولاة أو تمردهم ، وإن التابع أو الوالى ينبغى أن يظل رهن إشارة سيده . ولكى تحاسب الدولة داود على موقفه أرسلت إليه صادق أفندى.

مصرع صادق مبعوث السلطان :

كانت الدولة العثمانية تعانى أشد العناء من الاضطرابات الداخلية والخارجية فجربت أن تصل إلى هدفها فى إخراج داود من بغداد بالحسنى ، ولعلها اعتقدت أن فى إمكان رسول عثمانى قدير أن يقوم بعمل يشابه ذلك الذى قام به خالد من قبل ، فيكفيها مؤنة تجييش الجيوش ونفقات حملة غير مؤكدة النتيجة . فاختار الباب العالى الدفتردار صادق بك لهذه المهمة .

ويبدو أن صادقاً كان يعتقد أن المهمة جد خطيرة وأراد أن يستطلع رأى الباب العالى فى بعض نواحى مهمته وأن يستجلى الأسس التى سيتبعها فى بغداد وهو فى قرارة نفسه يود لو تخلص من هذه المهمة . كما يبدو أن الباب العالى كلفه بهذه المهمة فى خطة غامضة تركت بعض الأمور لفطنته ولقدرته على مواجهة ما يجد من ظروف وعقبات . وكان صادق قد التمس من الباب العالى التنحى عن هذه المهمة ، ولكن الباب العالى رفض فى إصرار طلبه هذا ، وبرغم

الإصرار لم تكن لدى صادق تعليمات ذات قيمة سوى أن يتصل بيحيى[١] .

(وحسب رواية صاحب بغداد كوله من) غادر صادق أفندى الآستانة فى ربيع الأول ١٢٤٦ (أغسطس ١٨٣٠) ومعه أحد رجال الديوان . ولما علم داود بأن مبعوث السلطان فى طريقه إلى بغداد وهذا لا يكون إلا لأمر جلل – عمل على أن يكسب ثقة هذا المبعوث ويجتذبه إلى جانبه بالوسائل التى كانت مألوفة فى ذلك العصر وهى المال والهدايا ومظاهر التعظيم والتفخيم . ورأى داود أن يتفق فى هذا الموقف بسخاء . وأرسل داود باشا محمد أفندى المصرف ومعه عربة فخمة تقودها أربعة جياد وحمله بالهدايا القيمة . ولكن عندما التقى محمد المصرف بالمبعوث السلطانى لم يلق منه إلا معاملة جافة .

ويفسر سلوك صادق هذا بأنه نتيجة لأحد أمرين :

ا – فإما أن يكون صادق قد التزم التزمت والكبرياء ليثبت خطورة مقامه .

ب – أو أن يكون يحيى باشا قد ذكر له ما يسىء إلى المماليك فى العراق فحقد صادق على المماليك مقدماً[٢] .

وأياً كان الأمر فقد أحس داود باشا بامتهان كرامته نتيجة لامتهان كرامة مبعوثه ، وتيقن الباشا أن وراء بعثة صادق هذه ما وراءها ، وأن الرجل ليس من أولئك الذين يلعب المال بعقولهم ، فبدأ يغير من أسلوبه فى معاملته له وبخاصة بعد أن ثبت أن صادق أفندى لا يعبأ حتى بالباشا نفسه عندما دخل المدينة مباشرة دون أن يتبع التقاليد الرسمية فى استقبال ودخول مبعوث السلطان[٣]

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٣٠٢ – ٣٠٣

(٢) يقول لونجريج Longrigg إن كلمات يحيى باشا عن سفك داود للدماء كانت سبباً فى ذلك الاستقبال الجاف الذى استقبل به صادق أفندى محمد المتصرف .

(٣) كان المتبع منذ أيام حسن باشا أن ينزل مبعوث السلطان فى الأعظمية وفى اليوم التالى يدخل المدينة فى احتفال مهيب وبعد أن يستقبله الباشا .

فإنه ما كاد يصل إلى قرية الكاظمية حتى ألح فى الدخول حالا إلى بغداد ، فلم يعترض الباشا على هذا السلوك الشاذ فى ذلك الوقت ، بل إن الباشا أعد له مراسيم الاستقبال اللائقة بمركزه .

فاصطفت فرق المشاة على جانبي الطريق ، ولكن كان المبعوث السلطانى قد أصر على أن يحقر الباشا، وأن يتعالى عليه وزادمن امتهان صادق لداود أن صادقاً ترك داود منتظراً قدومه عليه دون أن يذهب إليه فغرق الوزير فى عرقه ولا شك أن هذا السلوك أفصح عن مهمة المبعوث السلطانى وأن ليس فيما يحمله خير على الإطلاق . ولا شك أن الوزير شعر أن مركزه أصبح حرجاً أمام هذا المبعوث الكبير المتغطرس الخطر . كما لاشك فى أن لين الباشا فى هذا الموقف يقوى مركز صادق ، ووجد داود أنه لابد أن يرد عليه بمثل أسلوبه فقد تغاضى المبعوث عن مراسيم اصطلح عليها ، ولذلك تغاضى داود عن هذه المراسيم عندما ذهب صادق لمقابلته فى اليوم التالى لمجيئه فمع أن داود أعد كتيبة لاستقباله فى السراى عند حضوره فإنه تباطأ متعمداً فى النهوض لصادق . فكان ذلك سبباً فى تبرم المبعوث وضجره وانتهت المقابلة الأولى فى جفاف الرسميات وفى التافه منها بدون أن ينبس صادق ببنت شفة فى الموضوع الذى جاء من أجله ومن ناحية أخرى لم يظهر داود أى تحمس لمعرفة أهداف مجيئه إلى بغداد وهو بذلك يظهر عدم اكتراث به أو بما جاء من أجله . وعلى هذه الصورة انفضت المقابلة الثانية بين صادق وداود ، بل إن داود من جانبه تمادى فى إهانة المبعوث السلطانى فقد انتظر صادق — دون جدوى — أن يرد الباشا الزيارة له ، وفى آخر الأمر ذهب صادق إلى داود وقد حزم أمره على أن يكون فى هذا اللقاء فصل الخطاب . فعندما اجتمع الطرفان ألقى صادق قنبلته ، فأعلن عزل الباشا ، فما كان من داود إلا أن طلب من صادق أن يكتم الأمر حتى يرد السلطان على رسائل داود إليه ولكن صادق أبى أن يوافقه على هذا الاقتراح المشوب بروح المماطلة وطالبه بالتخلى عن إدارة شئون الولاية فالتهب جو المناقشات وانتهت بخروج صادق ثائراً ولم ينجح الرجل إلا فى زيادة حدة التوتر .

رأى صادق أن الوزير لن يخضع بالمفاوضة فعمد إلى الأسلوب الذى سلكه خالد أفندى من قبل بنجاح وهو استغلال الانشقاق الحادث فى صفوف المماليك وأعداء الباشا فى تكوين حزب حوله وحول مرشح السلطان الجديد للباشوية . فاستعرض صادق كبار رجال حكومة داود ليختار منهم الباشا الجديد ومن يتولى أمر القيام بانقلاب يودى بداود .

ووقع اختيار صادق على سليمان الميراخور[1] ليقوم بهذه المهمة . والحق إنه كان أقدر شخصية يمكنها أن تقوم بانقلاب ناجح ضد الباشا . فإن سليمان كان من خلصاء داود وقائده المظفر وكان محبوباً لكرمه وسخائه . وهو فى الواقع اختيار روعى فيه مقدرة الشخص على القيام بالانقلاب ولم يراع فيه رغبة الشخص فى القيام بمثل هذا العمل الخطير فإن صادق لم يكن يقدر أن سليمان يرفض الباشوية وفاء لسيده ، وكان يعتقد أن دوائر المماليك فى عهد داود مثلما كانت فى عهد سليمان الصغير مليئة بالمؤامرات والفتن . ولما كان هذا هو اعتقاد صادق فقد بنى بيته على الرمال ، فإن سليمان أغا عندما التقى بصادق ليتبادلا الحديث عن خطط الانقلاب سايره سليمان فيما يقول وخرج من عنده متظاهراً بأنه ذاهب للتشاور مع أعوانه ومن سيشترك معه فى الانقلاب ، وذهب إلى داود وأفضى إليه بنيات صادق السيئة وبينما كان داود يعمل الفكر فى هذا الأمر أقبل عليه قائمقام النقيب خائفاً وجلا وأنبأه بما يقوم به صادق فى المدينة من مؤامرات إذ أن صادقاً كان يقدر قيمة ثورة أهل المدينة على الحاكم وأهميتهم فى مظاهرة الانقلاب ووقوفهم إلى جانب رجل السلطان ومرشحه للوزارة .

بدأ الوزير خططه لمواجهة الخطر الداهم فرأى أن يظهر أمام الشعب بالمظهر العادى وأن يخفى أغراضه حتى لا تتبلبل الأفكار وتضطرب المدينة فطلب من قائمقام النقيب أن يكتم الأمر على اعتبار أن المياه لن تلبث أن تعود

---

(١) من عتقاء داود .

إلى مجاريها بين داود والسلطان لما يقوم به داود من مفاوضات مع السلطان .

وقد لعب داود دوراً خطيراً مزدوجاً ليخرج من هـــذه المؤامرة وكان فى هذا الدور يرمى إلى :

ا — استصدار فرمان تثبيته من السلطان عن طريق استرضائه .

ب — التخلص من صادق بسرعة ليقضى على المؤامرة فى مهدها وليجعل السلطان أمام الأمر الواقع ليضطر إلى الإبقاء عليه .

وعلى هذا الأساس بعث داود بالتماسات إلى السلطان طالباً تثبيته واعداً بإرسال الأموال الكثيرة إلى خزانة السلطان معلناً الولاء والخضوع لخليفة المسلمين .

وليقضى داود على رأس المؤامرة بنفس السلاح الذى كان سيطعنه به خصمه أبقى سليمان أغا الميراخور تحت عينيه وعقد مجلس طوارئ لبحث الموقف وتحديد الخطة التى تتبع .

ضم هذا المجلس — عدا سليمان سالف الذكر — محمد المصرف وإسحاق نقيب الصرافين اليهودى وتكلم محمد المصرف أولا ، فقال إنه لا أمل فى الخلاص من هذه الأزمة إلا بقتل صادق فاعترض داود على هذه الفكرة الخطرة لما ستثيره من عاصفة هوجاء فى الآستانة قد تهب عليه عاتية وأعيد النظر فى هذه الخطة ولكن المجتمعين أجمعوا على أن بقاء صادق فى بغداد خطر داهم على حياتهم وأن مقتله يسيل دماء فرد واحد أما إذا ترك طليقاً فإنه سيثير المؤامرات فى كل ناحية وتسيل الدماء فى خضم ما تولده المؤامرات من اضطراب وقتال . ولاشك أن أيام خالد عادت إلى الأذهان بما دار فيها من قتال فى داخل بغداد نفسها وخارجها أتعب الحاكم والمحكوم على السواء . ولا شك أن خالد جاء من الآستانة وهو مسلح بفرمان السلطان فقط ، فكان للفرمان سحر عظيم عبأ الجيوش وجلب العشائر وأطاح برأس سليمان باشا الصغير . سابقة لاشك أنها كانت تحت أنظارهم دائماً رأوا نتائجها التى وضعت المماليك فى كفة القدر .

وزاد من ثقة المجتمعين بضرورة القضاء على صادق أن اليهودى إسحاق

أخبر المجتمعين بأنباء أتته من أبيه فى الآستانة وكانت تلك الأنباء تؤيد خطة المجتمعين فى قتل صادق أفندى. وهكذا أجمع الحاضرون على قتله ووافق داود على هذا الإجماع (1) .

ولا شك أن اعتقال صادق وهو مبعوث السلطان وتحديد إقامته لابد أن يؤديا إلى إظهار داود بمظهر الثائر العاصى كما أن التغاضى عنه حتى تأتى أوامر السلطان الجديدة يفسح الوقت لمؤامرات قد تنجح وتقضى على الوزير فكان لابد أن تعود بغداد إلى هدوئها حتى يأتى أمر السلطان وذلك بأن تخمد أنفاس صادق أفندى بأسلوب يبعد الريبة ما أمكن عن الوزير ، ولذلك كلف داود سليمان أغا بالذات ليكون منفذ حكم الإعدام فى صادق . ولا شك أن سليمان أغا قدر ما سيعانيه كقائد لقوات داود — من عناء إذا ترك صادق حراً فيؤلف صادق جيشاً ويكلف داود سليمان أغا بقتال صادق . وعلى وجه العموم يمكن أن يقال إن المبدأ الذى ساد ذلك المؤتمر الخاص هو خذه قبل أن يأخذك .

وأخذ المجتمعون يضعون الخطط لقتل صادق بصورة تبعد الشبهة عن الوزير وتصم مبعوث السلطان بسوء استغلال السلطات المخولة له . فاتفق على أن يتظاهر ضابطان من الجيش بالفرار إلى حمى صادق وفى أثرهما ضابطان أعلى رتبة للقبض عليهما فيطالبان المبعوث السلطانى بتسليم الضابطين الهاربين فتأخذ النخوة المبعوث فيعلن حمايته لهما ويدور جدل بين صادق وبين الطالبين بتسليم الفارين ويحتدم الجدل حتى يثيرا حفيظة صادق ويقابل العنف بعنف مثله ويشتد الجدل ويستغل لتوجيه طعنة قاتلة لصادق . وعقب ذلك يكتب تقرير عن الحادث تلقى فيه التبعة على المجنى عليه ، وهى خطة دبرت تفاصيلها على أساس قبول صادق حماية اثنين من الضباط الفارين ولكن صادق أفسد الخطة حين رفض أن يحمى الضابطين الفارين وسلمهما إلى الضابطين اللذين اقتفيا أثرهما ، وهكذا فشل تدبير داود وأعوانه .

---

(1) بغداد كوله من : ٤٣ — ٤٥ .

أدى ذلك الفشل إلى أن يضع الوزير وأعوانه خطة أخرى سريعة لقتل المبعوث السلطانى وأن يعلن للناس غير ما يقع وفى مساء اليوم نفسه أحاطت كتيبة بمنزل صادق ودخل رجال داود عليه دون استئذان ومن بينهم سليمان أغا ومحمد المصرف ورمضان (الجوقدار الثانى) فسألهم صادق عما ينوونه وقد بدا الشر فى وجوههم فأفهموه فى وضوح أن ساعته قد أتت فسألهم الرحمة وأعلن أنه مستعد كل الاستعداد لأن يوقع على أى قرار يملونه عليه وأنه سيعمل كل شىء يرضى الباشا واستعطفهم أن يعودوا إلى سيدهم ليخبروه بأنه تحول كل التحول عن أغراضه السالفة فإذا أصر الوزير على قتله فليفعلوا . وما كان لاستعطافه أى أثر فى قلوب جلاديه ، وخاصة أن محمد المصرف كان شديد التحمس لقتله فحسم الموقف بأن أمر بالإجهاز عليه فقتل خنقاً .

فى ذلك الوقت كان داود ينتظر أنباء مقتل صادق فى المنزل المواجه للمنزل الذى وقعت فيه المأساة فما أن علم بانتهاء المهمة حتى ذهب بنفسه إلى الغرفة المسجى فيها جثمان صادق ولما تأكد من موت غريمه أمر بدفنه تحت طابية الصابونجية .

هذه صورة من الصور العديدة التى كانت تحدث فى الشرق كأسلوب من أساليب السياسة والحكم . السلطان يرسل من يتآمر ضد الباشا فيواجه بمؤامرات مضادة ، تارة تنجح وتارة تفشل وعلى أى حال فإنه أسلوب يدل على أن الشرق كان لا يزال يعيش على أساليب العصور الوسطى ، وأن حاكم بغداد كان يعتقد أن العصر يقبل مصرع مبعوث السلطان وأن ينال مقابل هذا فرمان التثبيت مثلما كان يحدث من قبل عندما كان السلطان مضطراً إلى قبول الأمر الواقع فى ولاياته التى يعجز عن السيطرة عليها تمام السيطرة .

حقيقة كان السلطان قد أرسل مبعوثه ليعزل داود ولكن هذا الرسول استخدم أساليب التآمر والخداع وكان هذا الأسلوب من وضع مدرسة الآستانة التى كانت تموج بالمؤامرات الداخلية ، حقا إن صادق جاء بأمر العزل ، وليس من حق داود أن يرفض الاستجابة لأمر السلطان وإن صادق

كان على حق فى أن يتخذ التدابير الكفيلة بعزل داود ولكن كيف نفهم إرسال الباب العالى لفرد واحد مع الاعتراف بأنه من ذوى الشخصيات الهامة — ليعزل باشا ثبت دعائم حكمه فى بغداد منذ خمسة عشر عاماً دون أن توحى التعليمات المبهمة التى كان يحملها صادق باستخدام تلك الأساليب السياسية الوضيعة .

ولم يترك داود المسألة عند هذا الحد، بل عمل على أن يموه على الرأى العام ،وعلى الباب العالى فى آن واحد . فأعلن أن صادق مريض وأنه يرسل إليه يومياً من يعوده ، ولكن سرعان ما انتشر فى أرجاء المدينة نبأ مصرع مبعوث السلطان[١] وأخذ الناس يتوقعون صراعاً بين داود والسلطان فاستعدوا لمواجهته بشراء الضرورات الغذائية فارتفعت الأسعار[٢] .

وكان النبأ قد بلغ الآستانة أيضاً [٣] وكان داود يعتقد أنه مقبل على صراع مرير ضد الباب العالى فبدأ يجمع القوات حوله واستدعى شيخ المنتفق بقواته إلى بغداد [٤] ، وغيرها ومضت عدة أشهر اضطربت فيها أعصاب الناس لما توقعوه بين داود والسلطان وخشيت بعض الأقليات مغبة هذا الصراع فآثرت أن تترك بغداد قبل القتال[٥] .

كان لمصرع صادق أفندى صدى مدو فى الآستانة وفى بقية الولايات العثمانية . وقد استغله محمد على باشا فى كتابه إلى أحد كبار رجال الآستانة الاستغلال الهادف . إذ يقول فى ذلك الكتاب إنه لو كانت له قوة عسكرية مجاورة للعراق لأسرع بإصدار الأمر إليها بأن تتدخل فى العراق وتقبض

---

(١) بغداد كوله من : ٤٥ — ٤٧ .
(٢) Groves : Op. Cit. P. 64, 81
(٣) بغداد كوله من : ٤٨ .
(٤) كان قبوجى آخر ينتظر فى الموصل نتيجة مفاوضات صادق مع داود .
(٥) Groves: op. t. p. 65

على داود وتسلمه للسلطان بدون انتظار لأوامره[1] وواضح أنه كان يقصد بهذا أن يبرر مقدماً هجومه فيما بعد على والى عكا بدون الحصول على أمر السلطان . والواقع أن محمد على باشا لم يكن متجهاً فى ذلك الوقت إلى العراق وما كان السلطان ليكلفه بتلك المهمة لما كان بينهما من نزاع يكاد ينفجر ، فكان من الطبيعى أن يتجه السلطان إلى باشا آخر وأن يستخدم القوة المسلحة لطرد داود من بغداد وللقضاء على النظام المملوكى ، فأصدر السلطان أولا أوامره إلى الباشوات بأن يقطعوا علاقاتهم مع هذا الباشا المتمرد ، ونظر السلطان حوله ليكلف أحد باشواته بمهمة قهر داود وقهر مماليكه والتغلب على تشكيلاته العسكرية الجديدة التى نظمها وفق الأساليب العسكرية الحديثة وقد كانت هذه المهمة شاقة ،وخاصة بالنسبة لباشا يتمتع بحب الأهالى ويمتاز بالرغبة الصادقة فى الإصلاح .

على رضا يتولى مهمة طرد المماليك :

عرض السلطان أمر القضاء على داود ومنصب الوزارة فى بغداد على قائد عرفت عنه الجرأة والمخاطرة وهو يوسف باشا ، ولكنه طالب بأموال كثيرة وإمدادات عسكرية كبيرة[2] أدت إلى أن يتحول السلطان إلى عروض أخرى تقدم بها أحد باشواته المخلصين. وهو على رضا باشا والى حلب . وكانت حلب على علاقة قوية ببلاد العراق والتبادل التجارى والثقافى بين البلدين يكشف أسرار الولايتين ويربطهما برباط المصلحة الاقتصادية التى قويت بشكل ملحوظ عندما بدأ الإنجليز يهتمون غاية الاهتمام بطريق الفرات كطريق دولى بين الهند وأوربا . وتعتبر حلب أحد أركان هذا الطريق الهامة . وكان واليها على رضا باشا يميل كل الميل إلى هذا المشروع الإنجليزى ، وكان هذا الوالى قد عرض على جسنى Chesney

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ٤٠ : معية تركى أمر ٥٤٧ بتاريخ ٩ رجب ١٣٤٦ (ديسمبر ١٨٣٠) من محمد على باشا إلى برتو أفندى .

(٢) كان يوسف باشا والياً على حلب سنة ١٢٤١ - سنة ١٢٤٢ (١٨٢٥ - ١٨٢٦ م)

تطهير ميناء سلوكيا القديم (السويدية) (١) وهكذا كان لدى السلطان وال بجاور العراق(٢) ، ويود بإخلاص أن يفتح بغداد لحكم السلطان المباشر كما كان يوافق الإنجليز على مشروعاتهم فى العراق . ومع أن على رضا كان مملوكاً قوقازياً كان غير متأثر بهذه الصفة عندما هاجم النظام المملوكى فى العراق . وقد كان معروفاً بالفطانة(٣) ، كما كان من رجال الحكم المجربين وعلى اتصال بأحوال بغداد والعراق بصفة عامة ويعتقد بأن رؤساء العشائر فى بغداد والبصرة وتجارها ساخطون على داود ، وكان كذلك يعتقد أن المهمة سهلة وهو كفيل بها ، فطلب أن توجه إليه أيالة بغداد وتوابعها ، مضمومة لحلب ، وأن يدفع الباب العالى له ستة آلاف كيس على أن تسترد من واردات بغداد بعد ذلك ، وأن يزود أيضاً ببعض المهمات وبقوات من متميزى أهالى الأطراف ، فوافقــه السلطان على طلباته(٤) بل رفعه إلى منصب « سر عسكر » أو « القائد العام » تقوية لنفوذه ، وأضيفت إليه ديار بكر أيضاً . وكانت ولاية الموصل قد أسندت إلى قاسم العمرى (٥) أعدى أعداء داود باشا منذ أمد (٦) .

---

(١) Chesney: The Expedition, Vol. I. P. 645

(٢) الواقع أن حلب كانت نقطة استراتيجية هامة لشن هجوم على العراق .

(٣) وصفه لنا أنزوبرث Ainsworth بأنه وسيم المظهر متقدم فى السن ضخم الجثة ذو عيون تنم على الفطنة .

(٤) عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٣٠٨ .

(٥) أسرة العمرى أسرة عريقة أتى بها العثمانيون إلى الموصل فى النصف الثانى من القرن السادس عشر لتسكين الفتن فى الموصل وكانت مشهورة بالصلاح وكان موطنها الأول الحرمين الشريفين . انظر سليمان صائغ : تاريخ الموصل جـ ١ : ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٦) يحدثنا سليمان صايغ أن الباب العالى كلف قاسماً بأن يقبض على داود وأن البغداديين غدروا به وقتلوه والجزء الأول من حديث سليمان صائغ غير صحيح إذ أن قاسماً كان قد عينه على رضا قائمقامه هذا بينما يفهم من كتابة سليمان صايغ أن الدولة أرسلت قاسماً أولا فلما فشل وقتل أرسلت على رضا باشا . انظر سليمان صايغ : ثاريخ الموصل جـ ١ : ٢٠٦ و العزاوى : تاريخ العراق جـ ٦ : ٣٠٨ ، ٣١٢ — ٣١٣ .

ومن ناحية أخرى أرسل على رضا إلى الإيرانيين ينبئهم بثورة داود وخروجه عن طاعة السلطان وأن قوات الخليفة تزحف على الباشا المتمرد لطرده من بغداد وطلب من الإيرانيين ألا يقبلوا داود إن هو لجأ إليهم[١] فهل كانت لدى داود نية الفرار أو الاستعانة بإيران ؟

لا شك أن هذا الافتراض لم يقم عليه أى دليل بل هناك ما يشير إلى أن داود كان يعتقد أن ارتماءه فى أحضان الفرس كارثة على العراق إذ أن جمهرة العراقيين يعتقدون أن الإيرانيين إذا استولوا على العراق شردوا أهله وسفكوا دماءهم وسبوا نساءهم وأطفالهم[٢] . وماضى الإيرانيين يؤكد هــذا الاعتقاد وماضى المماليك يؤكد أن الولاة منهم لم يميلوا إلى إيران ولم يستعينوا بها بشكل يوحى إلى أن الاستعانة بها أمر قوى الاحتمال ، ثم إن العلاقات الإيرانية ـ العثمانية كانت فى ذلك الوقت على ما يرام ، وكانت السفارات تتبادل بين بلاطى إيران وتركيا بشأن توحيد قوى الدولتين ضد العدو المشترك روسيا وتأليف قوة إسلامية توجد خطط الدفاع عن الإسلام[٣] . وكانت الأطماع الروسية تهدد إيران تهديداً يجعلها تتجه إلى تقوية أواصر الصداقة مع الدولة العثمانية الأمر الذى تحاول روسيا ـ ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ـ أن تمنع وقوعه[٤] .

على أن افتراض فرار داود إلى إيران ليس على غير أساس إطلاقاً نظراً لأن الأزمات العنيفة قد تلجئ الإنسان لأن يسلك طريقاً ما كان الناس ليعتقدوا أنه سالكه ، ولقد كان كيخيا داود السابق محمد أغا ـ من أمثلة الفرار إلى إيران ليتولى الباشوية .

هذا إلى أن إخطار إيران بأمر الباشا العاصى وأن جيش السلطان يعمل

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٦ : ٣٠٧

(٢) Groves : Op. Cit. PP. 96 — 138

(٣) لطفى : تاريخ لطفى جـ ١ : ٢٠ ـ ٢١

(٤) Sykes: History of Persia, II, 322

على طرده من البلاد هو في الواقع أسلوب من أساليب الدبلوماسية التى ترمى إلى إخطار الجار القوى الانتهازى بأن الأمور فى العراق يدبرها رجال السلطان وأن حسن الجوار يقتضى أن تتعاون الدولتان على تأديب المتمردين وعدم قبول الفارين إلى أى منهما .

هذا من ناحية إيران ، أما من ناحية الإنجليز فقد عمل الباب العالى على أن يسد هذا المنفذ فى وجه داود ، إذ أنه أشيع أنه سيهرب بأمواله إلى الهند بوساطة القنصل الإنجليزى فى بغداد ولذلك اتصل الباب العالى بترجمان السفارة الإنجليزية فى الآستانة وأظهر له أن كل مساعدة من جانب الإنجليز لداود تسىء إلى العلاقات بين البلدين ويبدو أن الإنجليز كانوا مهتمين فقط بأمرين :

ا ــ المحافظة على الأمن حتى لاتمس تجارتهم بسوء .

ب ــ محاولة ظاهرية للإبقاء على داود نظراً لأنه متفق معهم فيما يتعلق بمشروعاتهم فى دجلة والفرات .

ولذلك نجد أن الترجمان يطالب الباب العالى بالمحافظة على البصرة ونواحيها ويقدم السفير الإنجليزى مذكرة يطلب فيها العفو عن داود مستغلا سحر مال داود . وكان المال فى أغلب الظروف سبباً فى تغيير الباب العالى لخططه ، فقد انتقد السفير حملة على رضا على بغداد من الناحية المالية وأظهر أن تكاليفها باهظة وأن الباب العالى يمكن أن يستحصل من داود على أموال كثيرة[1] ولكن الهدف من هذه الحملة لم يكن جمع أموال أو مجرد رغبة طارئة وإنما كان تطبيقاً لمبدأ اتخذه محمود الثانى وصح عزمه على أن يتبعه . ولم يكن الإنجليز فى حاجة شديدة إلى مقاومة رغبة السلطان هذه لأن على باشا كان متفاهماً معهم ، ولذلك وقفت مجهودات الإنجليز من أجل داود عند هذا الحد .

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢١٠

والأمر الثالث الذى اتبعه على باشا رضا لتوهين قوى داود هو تفكيك وحدة المماليك وتفريقهم عنه . ولما كان الباشا الذى يحمل براءة الولاية هو القادر على تأمين الثوار ومنح المناصب لمن ينضم إليه فإن ذلك كان من الأسلحة الخطيرة التى كان يملكها على رضا ، بخاصة فى ولاية تقدر وتحترم كل الاحترام فرمان السلطان .

ولذلك أصدر على باشا رضا الأوامر بمنح المماليك والجيش المحلى (الجيش العثمانى) والأهالى الأمان،وهذه أمور تقليدية لها أثرها فى تفكيك قوى الباشا المتمرد على السلطان . وتعتبر مقدمة لجذبهم إلى صفه[1] . ثم أسند منصب كتخدا البوابين (قبوجى لوكتخدا) إلى إبراهيم أغا وقضاء بغداد إلى قائمقام النقيب تقى الدين القدسى[2] .

وأثمرت فعلا محاولته فقد انضم بعض المماليك الفارين إلى جانب على رضا ومنهم عدو داود اللدود محمد أغا الكيخيا السابق الذى فر إلى حلب بعد هزيمته فى الحلة وكذلك انضم إلى الباشا الجديد رستم أغا والبلوك باشا سعدون أغا الذى انضم إلى على رضا على رأس ألف من اللاوند[3] وكان لهؤلاء المماليك الفضل فى توثيق علاقة الباشا الجديد بمعظم أجزاء العراق كما انضم إليه من العرب أحد كبراء عشيرة الجربا وسليمان الغنام أحد شيوخ عقيل[4] .

تلك الاستعدادات تمثل الجانب السياسى من إجراءات على رضا لإضعاف جبهة داود الدفاعية .

أما من الناحية العسكرية فإنه جيش جيشاً غير نظامى لا يقل عدده عن عشرة آلاف مقاتل ولكنه كان غير كامل التدريب ، وقوات نظامية

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٣٠٩ .
(٢) المصدر السابق : ٣١٠ .
(٣) العزاوى : جـ ٦ : ٣١٢ .
(٤) بغداد كوله من : ٤٩ .

تتألف من كتيبة قوامها ثمانمائة مقاتل عن ولاية حلب وكتيبتين من التماريين وتسعة مدافع ميدان [1] وأرسلت الحكومة الصدر الأعظم السابق سليم محمد باشا بقوة عسكرية إلى حلب وعينته قائداً للفيلق الثانى ليكون له ردءاً [2].

وأما داود فقد أخذ هو الآخر منذ مصرع صادق يستعد للجولة القادمة سياسياً وعسكرياً . فبذل محاولات فى البلاط السلطانى ليعيد المياه إلى مجاريها وأعلن استعداده لدفع ما يطلبه السلطان من أموال [3] . ولكن المسألة فى ذلك الوقت كما ذكرت لم تكن مسألة أموال فهى أخطر من ذلك، إنها مسألة مبدأ [4] وضعه السلطان لإنقاذ الإمبراطورية من الانهيار التام . ولذلك كان من الحماقة أن يكتب القبوكتخدا على نجيب إلى داود بأن الحصول على عفو السلطان أمر ممكن إذا توقف الباشا عن استعداداته العسكرية حتى لا يظهر بمظهر المتمرد وإذا أرسل هدية من الخيول العربية [5] . وهو بذلك أضاع على داود وقتاً كان ينتظر فيه نتائج وساطته هذه دون جدوى .

أسرع داود إلى استكمال استعداداته العسكرية فأصدر الأوامر إلى الجيوش التى كان سيرها بأن تتخذ مواقعها وعسكرت قواته النظامية خارج باب الإمام الأعظم تحت قيادة الميراخور سليمان أغا فى سهل ذى موقع استراتيجى ، وبعث يوسف أغا على رأس كتيبة من المشاة النظاميين وألف وخمسمائة فارس تقريباً إلى كركوف وقوة البدو إلى دير الزور [6] .

وواضح من هذه الحركات العسكرية أنها ترمى إلى هدف واحد

---

(١) بغداد كوله من : ٥١

(٢) العزاوى : تاريخ العراق جـ ٦ : ٣٠٩

(٣) المرجع السابق .

(٤) أعنى به الحكم المركزى .

(٥) بغداد كوله من : ٤٩

(٦) المصدر السابق ٤٩ — ٥٠

هو أن تناوئ مقدمة قوات داود هذه جيوش السلطان الزاحفة وتهددها فى الوقت نفسه بقطع خط الرجعة عليها وقطع تموينها .

الطاعون والفيضان :

وبينما كان الجيشان يستعدان للصراع فاجأ الطاعون العراق فى سبتمبر ١٨٣٠ وكان قد انتشر فى تبريز وكركوك واجتاح كردستان . وشعر داود بخطورة الموقف إذا ما دهم الوباء بغداد فى هذه الظروف فطلب داود من المستر تايلور Taylor أن يبين له أساليب مقاومة الأوبئة فقام تايلور بما عهد إليه . ولكن لم نر لتلك الأساليب أثراً فلم يكن لدى الأهالى من وسيلة سوى أن يفروا من المدينة .

أخذ الوباء يتقدم فى بطء نحو بغداد فسرى الرعب فى قلوب أهلها وبخاصة عندما قيل إن كرديين أتيا إلى بغداد حاملين الوباء معهما . وفى آخر مارس تأكد الجميع أن الطاعون بينهم واستعد القنصل البريطانى للفرار من المدينة، وفى أول أبريل اشتدت وطأة الوباء فى سرعة مذهلة، وبدأت الأعمال تتوقف فى المدينة كما بدأ الاضطراب يعم أهل العراق ، وبخاصة اليهود والكرد فأخذوا يفرون من المدينة . بينما كانت على أبواب المدينة قافلة تضم بعض مسيحيي الموصل حائرة بين بغداد والموصل لاتعرف لها مستقراً لاجتياح الطاعون للبلدين . وكانت القوافل التى تفر من وجه الوباء تقع فى قبضة العشائر العربية . ومع ذلك استمرت حركات الفرار من المدينة قوية . بينما أخذ متوسط الوفيات يرتفع بسرعة فبلغ فى الأيام الثلاثه الأولى ١٥٠ ضحية فى اليوم ، وفى ١٠ أبريل كانت ضاحية الكرخ قد فقدت سبعة آلاف مواطن خلال أربعـــة عشر يوماً . وأصبح الناس فى حيرة مريرة . ففى المدينة الوباء القاتل وفى الخارج العشائر التى لارحمة فى قلوبها ، ودجلة يهدد بفيضانه — فى ذلك الوقت — منطقة بغداد وفاضت مياه النهر ودمرت عدداً كبيراً من المنازل فى الكرخ . هذا بينما ارتفع معدل الوفيات

فى يوم ١١ أبريل ١٨٣١ إلى ١٢٠٠ ضحية وبلغ فى الكرخ ١٠٤٠ ، وكان يوم ١٣ أبريل أسوأ يوم من الأيام فى الوباء ، فقد بلغ المعدل ١٨٠٠ ضحية وترك الموتى بدون أن يدفنوا لأن الوباء أصاب غالبية سكان المدينة ولم تعــد هناك أيد قادرة على حمل الجثث فتركت حيث هوت ، وأقفرت الطرق من المارة ، وخشى كل واحد الآخر خوفاً من انتقال العدوى . وانقطعت المياه عن الناس لوفاة السقائين الواحد إثر الآخر .

لقد فر نصف سكان بغداد من المدينة وعانى الباقى الموت الذى كان يزحف على الدور فيقضى على كل ساكنها إلا أقلية ضئيلة . وارتفع المعدل بعد ذلك إلى ١٥٠٠ وإلى ٢٠٠٠ ضحية خلال الأسبوعين الأولين من أبريل وابتداء من الأسبوع الثالث كان دجلة مستمراً فى الارتفاع مهدداً بغداد نفسها وفى ٢٥ أبريل لم يعد هناك سوى عدد من البوصات لينساب فى المدينة . ووقعت الكارثة فى ٢٧ أبريل عندما انهار الجسر أمام ضغط المياه واندفعت المياه مجنونة إلى شوارع المدينة ترمجر وتدمر بيوتاً لاتتحمل هذا التيار العنيف — فدمرت عدداً ضخماً من المنازل فى ساعات قليلة . واجتاحت المياه سبعة آلاف منزل،وكانت هذه المياه تدفن المرضى مع الموتى وتجهز على المحتضرين وتردى الأحياء ، ومن فر منها إلى مرتفع يكون طعمة سهلة للوباء لتجمع الناس فوقه وأصبحت سرايا الباشا خراباً بعد أن هدمت المياه شطراً منها ، وانطلقت خيول الباشا فى المدينة على غير هدى(١)

ولم ينقذ بغداد من الدمار التام سوى انخفاض مستوى دجلة ولكن كان لايزال أمامها أخطار وأهوال . فالعشائر على الأبواب وجيوش على ، ضا تنتظر انتهاء الوباء لتجهز على المدينة نهباً وتخريباً.

وفى أوائل مايو تناقص الطاعون وبدأت الحركة تدب فى المدينة التى لم يبق منها إلا ثلثها تقريباً ولم يبق حول الباشا إلا أربعة من الجراكسة كانوا

---

(١) Groves : Op. Cit. pp. 96-138

معه دائماً ، وخلت أحياء كاملة من السكان وذهب معظم سكان الحلة ضحية للوباء . وبرغم ما أصاب الوزير من كوارث وما أصابه من فقد معظم أولاده لم ينس شعبه الذى طحنته تلك الكوارث ففتح له مخازنه ودفع الأجور بسخاء لدفن الموتى ...

وبعد ثلاثة أسابيع مرت فى رعب وفزع عاد صوت المؤذن يتردد فى أرجاء بغداد ، ولكن الوباء كان قد قام بما كان يؤمله على رضا وزاد الطين بلة بالنسبة لداود أنه أصيب هو نفسه بالطاعون، وبعد حوالى أسبوعين تماثل للشفاء ،ولكنه أصبح عاجزاً عن الحركة . ولم يبق من نسائه إلا اثنتين وأصبح يعتمد فى غذائه على صائد سمك كريم[1] وفر عدد كبير من كبار الشخصيات العراقية إلى حلب وسائر بلاد الشام فكان على رضا يستميلهم ويجالسهم وينفق عليهم ، وبعض هؤلاء لم يكن قد جالس داود أو اجتمع به فكانوا من العوامل التى وثقت الصلة لعلى رضا بأجزاء العراق[2] .

بغداد تقاوم :

كان أعوان الباشا الجديد يتزايدون يوماً بعد يوم وأخذت اتصالاتهم بشيوخ العراق ووجوهه تؤتى ثمارها وبذلت الأموال الوفيرة لكسب ثقة من يفد على الباشا الجديد لاجتذاب أعوان جدد . وخلال زحف على رضا من حلب إلى الموصل كان ينفق عن سعة ويعامل من انضم إليه معاملة ملؤها الاحترام، ولاشك أن على رضاقدرأن بغداد — برغم ما صابها — قد تقف فى وجهه فكان عليه أن يحتاط للمفاجآت فبقى هو وجيشه فى الموصل بينما أرسل قائمقامه — والى الموصل — قاسم باشا إلى بغداد على رأس قوة مناسبة فسلك هذا طريق الصحراء ونزل غربى بغداد وكان فى معيته ويوده ماردين وصفوق شيخ شمر الجربا وسليمان الغنام .

(١) Fraser: Mesopotamia, 280, 281

(٢) العزاوى : تاريخ العراق :ج ٦ : ٣١٩ .

وصل قاسم إلى مكان يبعد عن بغداد حوالى خمس ساعات ومن هناك أرسل (بيولوردى) ولاية على رضا إلى قاضى بغداد ولم يكن فى وسع القاضى أن يعصى أمر السلطان لأن الخروج عن أوامره فتنة ، ولذلك أظهر القاضى الفرمان لبعض أعيان المدينة وأخذ منهم عهداً بألا يخونوا دولتهم وأن يخلعوا طاعة الوزير ويولوها إلى قائمقام باشا بغداد . وكان من رأى القاضى أنه لابد أن يظهروا طاعتهم للسلطان علناً فسكوتهم يثير حولهم الريب ويوجه إليهم الأفكار على أنهم قوم مخادعون وأنهم لكى يبرئوا ساحتهم عليهم أن يخرجوا داود من السراى مقر الحكومة وأن يضعوه تحت حراسه كافية ويعلنوا انضمامهم إلى الجانب العثمانى وبذلك يكون قد خدموا السلطان وأبعدوا الشبهة عن أنفسهم[1] .

والحق أن أحوال الوزير كانت فى انتكاس ومحاولاته ليعيد سيطرته على الموقف باءت بالفشل ، فلقد أرسل ميرخوره سليمان أغا ليجمع له القوات ، ولكنه توفى بالوباء فى الخالص فتفرق شمل أولئك الذين جمعهم فعين محمداً المصرف مكانه وكلفه بنفس المهمة ، لكن هذا كان هيابا وجلا وإنما عين بتوصية من محمد باشا ابن خالد باشا رأس الأسره البابانية فى ذلك الوقت وهو رجل شجاع فطن كان يعسكر على رأس عدد من الفرسان الأكراد يتراوح بين ٤٠٠ — ٥٠٠ خارج أسوار بغداد منتظراً عودة محمد المصرف ليذهبا لجمع القوات ، وفعلا عاد إليه محمد المصرف بمبالغ ضخمة قد أتى بها رجال سليمان الميرخور بعد وفاة الأخير .

سار محمد باشا ومحمد أغا على طريق مندلى وخانقين ، وبينما هما فى طريقهما إلى قرية شهرزور كان صفوق شيخ شمر قد اتفق مع حلفائه على أن يضرب أى قوة تخرج من بغداد فاصطدم بهم محمد المصرف وزميله محمد باشا البابانى ولم تستطع قواتهما الصمود أمام هذه القـــوات المتفوقة

---

(١) بغداد كوله من : ٥٢ — ٥٥

لنقص الذخائر والمؤن ولبعد الماء عنها، فانسحب محمد البابانى ونجا بنفسه ، أما محمد المصرف فقد أخذت كل الأموال التى كانت معه وترك فى حالة مهينة فكان هذا الفشل أيضاً من عوامل توهين قوة داود .

وفى غضون ذلك كان قاسم قد اقترب من الكاظمية بينما كانت السراى معرضة لهجمات الغوغاء، ولكن هؤلاء لم يكن فى استطاعتهم أن يقوموا بعمل ذى قيمة وطلقات قليلة تشتت شملهم .

ويبدو أن داود وجد فى تقدم قاسم — عدوه اللدود — خطراً عنيفاً يهدد حياته وأن داود فكر فى أن يتخلص منه بأسلوب يبعد الشبهة عنه وعن البغداديين فى الوقت نفسه. وكان سلوك قاسم نفسه يمهد لداود انتهاج هذا الطريق للتخلص منه فيحدثنا بعض المؤرخين أن داود آثر أن يبتعد عن المسرح ويعيش مختفياً عن الأنظار فى منزل أحد رجاله المقربين .

ولكن وجوه المدينة وأعيانها رأوا أن اختفاءه على تلك الصورة من الأمور التى تثير الشك حول سلوكه وهم فى الوقت نفسه كانوا مستعدين لضمان سلامته على أن يكون تسليمه للباشا الجديد بكل احترام، فذهبوا لديه واتفقوا معه على أن يستقر فى منزل صالح بك وأخذوا سنداً على صالح بأن يحافظ على حياة الوزير السابق حتى يسلمه لعلى رضا (يونيو ١٨٣١) (١) .

وكانت أمور المدينة لا تحتمل إلا أن يأتى القائمقام فيتسلم حكمها فى هدوء دون قتال فطلب الأعيان من القائمقام أن يأتى إلى المدينة ليتسلمها فدخل قاسم المدينة وهنأه الوجوه والأعيان(٢) .

وبدأ قاسم يباشر مهام منصبه فأمر بفتح الأسواق وإعادة الهدوء إلى المدينة المنكوبة لتستعيد حياتها الطبيعية ولكن قاسماً كان يبيت من النيات ما يتناقض مع هذه المقدمات . فإن من كان معه من عرب كانوا ينتظرون

Groves: Op · Cit. 181-182 & Coke: Bagdad City of Peace, p. 260 (١)

(٢) بغداد كوله من : ٥٦ — ٦٠ .

الغنائم التى سيستولون عليها عقب دخولهم المدينة وكان من بين المماليك من كان يسعى لتولى الباشوية . وكان قاسم نفسه يريد أن يتولاها . ولكنه كى يعد نفسه لمنصب الباشوية يجب أن يدخل السراى على جثث المماليك فى بغداد . ولذلك بدأ بالمطالبة بتسليم داود إليه، ولكن صالحاً كان قدتعهد بالمحافظة على داود حتى يسلمه لعلى رضا ووضح للجميع أن قاسماً يريد أن ينفذ مأربه فى داود ،فوقف صالح عنيدا أمام إلحاح قاسم فى تسليم داود، وطالب صالح بأن يسلم إليه داود مراراً ، ومع ذلك أصر قاسم على أن يتسلم داود واحتد—وقد لعبت برأسه الخمر —على صالح بك ولكن صالحاً رفض أن يسلمه وقدم له اعتبارات وجيهة لرفضه . فإن المدينة كلها تعلم أن لدى داود أموالا طائلة وأن الناس لاشك سيتهمونه إن هو سلم داود إلى عدوه السابق بأنه شارك قاسماً فى اقتسام أموال داود،وطلب من قاسم أن ينتظر للغد حتى يسلمه إليه أمام الهيئة التى أودعت داود عنده ليستعيد منهم السند الذى أخذ عليه فعاد القائمقام إلى مقره مسروراً . هذا بينما كانت الأمور فى منازل أعيان المدينة وبقايا مماليكها تسير فى اتجاه مغاير لذلك الذى تصوره قاسم ، لقد تأكدت مخاوف زعماء المدينة من نيات قاسم،وكانت قوات سليمان الغنام وصفوق مستعدة لشن الهجوم على أهالى بغداد بمجرد أن تتلقى أوامر قاسم،وسرت فى المدينة موجة من الخوف والرعب ففكر زعماء المدينة فى التخلص من هذا القائمقام الذى دخل المدينة بموافقة أهلها دون حرب،ولكنه يأبى إلا أن يسيل الدماء فى المدينة إشباعاً لنزوة الانتقام الثائرة بين ضلوعه، وربما كان داود هو الذى أوحى بهذه الاجتماعات والتدبيرات لينقذ رقبته من سيف قاسم، وأغلب الظن أنه آثر ألا يظهر على المسرح السياسى حتى يستطيع أن يلعب دوره من وراء ستار وحتى لا يظهر بمظهر الباشا المتمادى فى العصيان ، وإنما أهل المدينة هم الذين يدبرون أمرها ويقررون من يتولى حكمها ، ولقد اجتمع وجوه البلد

وأعيانها فى منزل صالح — حيث يقيم داود — وتدارسوا الموقف وانتهت مشاوراتهم إلى ضرورة التخلص من قاسم[1] .

وفى صباح اليوم الذى كان ينتظر فيه قاسم حضور أعيان المدينة ليتسلم أمامهم داود من صالح لم يحضر من المدعوين إلى هذا الاجتماع إلا عدد قليل لم يعرف ما اتفق عليه من قبل بينما تباطأ البعض الآخر فى الوصول إلى مقر الاجتماع . .

ويقال إن قاسماً — الذى أراد أن يقضى على أولى الرأى فى بغداد — اعتزم أن يسفك دماء من جاء إلى الاجتماع وأن يجهز على من لم يأت إليه فيما بعد . إلا أن أولئك الذين كانوا فى حضرته شعروا بأن قاسماً يبيت الغدر ولذلك أخذوا ينسحبون الواحد إثر الآخر بينما كان أهل المدينة المسلحون يضربون نطاقاً حول السراى التى كان بها ثلاثة آلاف من العقيل فأوصدت أبواب السراى وكان العقيل من ذوى البأس بينما كان أهل بغداد لا يتقنون استخدام السلاح وكان من المحتمل أن يتغلب عليهم قاسم بقواته وبدأت المعركة بين الطرفين بتراشق رصاص البنادق، ولكن دخل فى المعركة عامل جديد وهو أن قوة من العقيل بين سبعمائة وثمانمائة رجل — كانت معسكرة فى غربى بغداد قدمت إلى المدينة بدون أن يستدعيها أحد وانضمت إلى البغداديين فى صراعهم ضد قوات قاسم وكذا انضم الملاحسين (سرجشمه) — الذى كان موجوداً فى القلعة الداخلية — إلى الأهالى . ويبدو أن صالحاً كان هو المتزعم لهذه الحركة[1] . وأصبحت المدينة منقسمة إلى معسكرين :

ا — معسكر مستعد لبذل حياته من أجل داود .

ب — معسكر مستعد لقتال أعوان الباشا المعزول على رأسه قاسم العمرى

وكان المعسكر الثانى قد انحصر بعد الحركة الأخيرة فى السراى حيث حوصر قاسم وويوده ماردين والحاج أبو بكر الكيخيا السابق لعلى باشا وسليمان الغنام وثلاثة آلاف مقاتل معظمهم من العقيل ، وفل بأس هؤلاء قوة العقيل

---

(١) بغداد كوله من : ٦٠ .

التي انضمت إلى أهل المدينة وانقلب التوازن لصالح البغداديين ، وبخاصة عندما قصفت مدفعية القلعة السراى فاستسلم قاسم وويوده ماردين إلا أن سليمان الغنام وأبا بكر بقيا فترة قصيرة حيث نهبا السراى من تحف وأموال وخزانة ثم أشعلا النيران فيها وخرجا من السراى شاقين طريقهما بحد السيف. وحاول الناس أن يخمدوا النيران التي اندلعت فى السراى التى كانت تحفة بغداد والشرق فى ذلك الوقت بما كانت تحويه من نفائس وعمائر . فكان حريق السراى من العوامل التى قوت الترابط بين البغداديين ، وإذا كان أبو بكر وسليمان الغنام قد فرا من مصير مجهول خطر فإن قاسماً الذى أتى ليطيح برأس داود فقد هو وزميله رأسيهما على يد البغداديين فى المحرم ١٢٤٧ . (يونيو ١٨٣١) وقيل إن قاسماً أعدم لأنه حجز التتار الذى كان يحمل فرمان تثبيت داود فى ولايته .

وعلى أى حال أجمع البغداديون على أن يقاوموا جيش على رضا لأنه — فى نظرهم — من نفس الطراز الذى عهدته بغداد من (ولاة الخارج) الذين يهمهم النهب والسلب دون النظر فى مصلحة الرعية التى لا يعرفونها وأن على رضا إنما أتى ليبتز أموالهم وحق على البغداديين أن يدافعوا عن مدينتهم وأن يطلبوا الولاية لمن هو أقدر على التعاون معهم فى حكم البلاد ، وهم قد اعتادوا أن يتولى منصب باشوية بغداد وتوابعها من نال رضا أهل بغداد . ولذلك أصبحت المدينة والوضع هكذا مرتعاً خصباً للإشاعات فتارة ينادى المنادى أن داود باشا مريض وأن صالحاً قائمقام حتى يشفى وأن باشا حلب[1] مات بالوباء وأن قاسماً إنما أتى بقواته ليستولى على حكم بغداد لنفسه وأن على رضا لو كان حياً لجاء لإنقاذ رجاله من الأسر . ولا شك أن أهل بغداد كانوا يعتقدون أن حادثة الوزير مثل حوادث الوزراء السابقين من حيث أن المقاومة مجدية وأن الباب العالى لن يلبث أن يعترف بالأمر الواقع ويعيد على رضا إلى حلب على اعتبار أن الباب العالى ما كان ليخرب بغداد وهى درة من درر الدولة العثمانية فى سبيل على رضا ، وقر عزمهم على أن يكون لهم الرأى فيمن يتولى الأمر فيهم وألا يسلموا

---

(١) أى على رضا باشا

القيادة لعلى رضا . وقد ظهرت بواكير أساليب حكمه ممثلة فى الأفعال التى ارتكبها قاسم وأتباعه، ولن يصل أهل بغداد إلى تحقيق غرضهم هذا إلا إذا وقفوا وقفة رجل واحد أمام جيوش على رضا الذى لابد أن ينتقم لمقتل قاسم وويودة ماردين، ولكى يظهروا بمظهر يبعدهم كل البعد عن إلصاق تهمة الثورة ضد السلطان والوقوف إلى جانب الباشا الثائر المتمرد اتجهوا وجهة جديدة وهى أن يطلبوا من الباب العالى تثبيت داود فى الولاية أو إسنادها لصالح بك وهو القائم فعلا بأمر المدينة إذ لم يعد داود يتدخل فى أمورها وإنما كان صالح يستشيره فيما يفعله .

وأما ما عدا هذين الرجلين فلن يقبله أهل بغداد والياً عليهم ، ولذلك كتبوا إلى السلطان التماسين أحدهما من طريق إيران والثانى من طريق الشام بوساطة القنصل الإنجليزى، والغرض من ذلك هوضمان وصول هذين الالتماسين أو أحدهما إلى السلطان وطلبوا فى هذين الالتماسين العفو من السلطان وتعهدوا بدفع عشرين ألف كيس خدمة للخزانة السلطانية وإبلاغ سنوية بغداد إلى الأربعة آلاف كيس فى السنة الأولى بعد أن كانت ألفين . ثم يضاف كل سنة ألف كيس حتى تبلغ عشرة آلاف كيس، هذا بالإضافة إلى أنهم تعهدوا بدفع مصروفات حملة على رضا باشا[١] .

ولكى يعرقلوا عمليات على رضا العسكرية الموجهة ضد بغداد بأمر من السلطان كتبوا له رسالة بنفس المعنى راجين منه ألا يقدم على مهاجمة بغداد فى هذه الظروف حتى تأتى أوامر السلطان وإلا فإن أهل المدينة سيدافعون ويقاومون أشد المقاومة .

علم على رضا بتلك التطورات الخطيرة وهو فى نواحى الزاب عندما وصل إليه مبعوث من قبل البغداديين يحمل إليه رسالتهم [٢]. فما كان منه إلا أن أصر على أن يسير رأساً إلى بغداد فزحف حتى الأعظمية على رأس جيش

(١) بغداد كوله من : ٦٠ — ٦٢
(٢) تاريخ الموصل : ج ١ : ٣٠٦

مؤلف من ألايين من الخيالة التياريين وكتيبتين من المشاة والخيالة غير النظامية ومدفعية. قليلة العدد ، فكان مجموع جيشه حوالى خمسة عشر ألف مقاتل انضمت إليه بعض القبائل العربية العراقية المعادية لباشا بغداد السابق وعندما قرعت أخباره هذه أسماع أولى الأمر فى بغداد أخذوا يستعدون لمقاومة الباشا الجديد فسدوا الأبواب وحشدوا ما لديهم من قوات ،وكذلك البقية الباقية من قوات داود النظامية . أما الجند الموظفة الذين كانوا فى القلعة فقد أسندت قيادتهم إلى الملا حسين (رئيس الحشامات) وأسند أمر الدفاع عن الروابى إلى عدد من كبار المماليك وأسندت القوات المدافعة عن البوابات إلى أغوات المماليك بمن معهم من الجند النظاميين . .

وكان تعداد قوة داود النظامية هو خمسمائة جندى وضابط وتولى صالح بك قيادة هذه القوة بنفسه كذلك كانت لديه من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ من الجنود الموظفين ونحو خمسمائة من العقيل فاستعان المدافعون بهؤلاء جميعاً فى تنسيق الدفاع .

وكانت هذه التدابير العسكرية فى نظر جروفز Groves ضرباً من ضروب الانتحار على اعتبار أن قوة بغداد الهجومية والدفاعية قد تحطمت بالطاعون . والواقع أن القوات العسكرية تحطمت ولكن الروح المعنوية ظلت قوية فى أهل المدينة ،وأسوار المدينة لا تزال سليمة قوية . ولم تكن مدفعية على رضا من القوة بحيث تستطيع تحطيمها بسهولة ، ولم تكن جيوشه من التنظيم بحيث تشن هجوماً ناجحاً عليها . .

ولقد استطاع داود أن يشترى ولاء إحدى القبائل التابعة لعلى رضا . كما أن الحصار المضروب حول المدينة غير تام وكان الطعام يتدفق على المدينة من الباب الشرقى ومن باب الحلة . وهذا معناه استمرار مقاومة المدينة لمدة أطول . ولذلك عمل على رضا على إحكام حلقة الحصار حول المدينة ليوقعها فى أزمة اقتصادية شبيهة بتلك التى قضت على سعيد باشا . إلا أن الموقف هنا

كان غيره أيام سعيد؛ فالبغداديون فى هذه الأزمنة لم ينشقوا على أنفسهم وحملوا لواء القتال والدفاع عن المدينة وعلى رأسهم علماء البلدة وطلائع أدبائها من أمثال أبى الثناء الألوسى . وهكذا بدا كأن تبعة النضال وكوارثه لا تقع على وال أساء الحكم والتصرف وإنما تقع على البغداديين إذا مافتح المدينة الوالى الذى يريد أن يفرض نفسه عليها . وأخذ أولو الأمر يفكرون فى وسيلة لإنقاذ المدينة من الحصار الشديد المضروب عليها .

ولما كان وجود سليمان الغنام والعقيل أمام باب الحلة قد أكمل الحصار المضروب فقد وضعت الخطة على أساس استمرار فتح باب الحلة هذا لاستقبال المؤن . وكلف دفو Devaux [1] بهذه المهمة وأسندت إليه قيادة القوات النظامية مع مدفعين وخمسمائة جندى من الهايته والعقيل التابعين للمدافعين وألف وخمسمائة من أهالى الكرخ المشاة تحت قيادة الملا حسين وشنت القوات هجوماً على قوات سليمان الغنام فلم يلبث أن لاذ بالفرار تاركاً عدداً كبيراً من رجاله بين أسير وقتيل . ورفع هذا النصر الجزئى الذى أحرزه « دفو » الروح المعنوية بين المدافعين ، واعتقد الناس أن من الممكن مهاجمة الجيش الرئيسى وهزيمته.

وسرت فى النفوس روح مهاجمة العدو وطرده فقام إبراهيم أغا على رأس سبعين أو ثمانين فارساً بمهاجمة روابى جادة الأعظمية . ولقد حاولوا منعه من القيام بتلك المحاولة المحفوفة بالمخاطر ولكنه أصر على أن يشن هجومه فلما بدأ عملياته الهجومية شعر بخطأ خطته فطلب العودة ، ولكن قطع عليه خط الرجعة وأراد أن يدخل من باب الأعظمية ، ولكن الباب كان مغلقاً ومن كان على السور انسحب والأهالى متكاثرون هنا وهناك وهجوم يشن فجأة نتيجة لخطة ارتجالية أو رغبة جامحة فيواجهه هجوم مضاد فيتقهقر أحد الجانبين فى غير نظام ، وفى بعض المواقف كانت بعض القوات تقع بين قوتين للعدو فتصلى ناراً حامية ، وبعضها يقع بين نيران عدوه فيصلى نار الاثنين العدو والصديق .

وكان الموقف من الميوعة لدرجة أن جروفز Groves لم يكن يتوقع نهاية

(١) القائد الفرنسى ومدرب جيش داود النظامى .

لهذا الصراع ، فالهجوم ليس قوياً والدفاع وراء استحكامات قوية وليس لدى المدافعين ما يخشونه فلديهم من المؤن والأموال ما يكفيهم لمدة ليست بالقصيرة .

وبعد ذلك هدأت هذه الموجة العنيفة من الكر والفر والهجمات الارتجالية السريعة الإعداد السيئة . ولقد انتصرت قوات دفو Devaux لأنها كانت قد شنت هجومها على أساس خطة استغل فيها عنصر المفاجأة أحسن استغلال وكانت القوات المستخدمة من القوات النظامية المدربة . ولا شك أن بغداد كانت فى حاجة إلى حاكم قوى حازم، ومن ثم كان اعتزال داود العمل — فى ذلك الوقت من العوامل الأساسية التى أوجدت فراغاً كبيراً فى قيادة المدينة التى كانت فى حاجة ماسة إلى قيادة موحدة تنظم الهجوم والدفاع وتفض الاجتماعات عن قرارات تنفذ بدلا من المشاورات المتعددة والآراء المتضاربة . حقيقة كان لهم هدف وهو منع دخول على رضا ولكن أساليبهم فى هذه الناحية كانت غير مجدية استنفدت مجهودات المدافعين دون طائل . ومنذ ذلك الوقت لا نسمع إلا القليل عن داود وموقفه من تطورات القتال . وعلى أى حال ساد ميدان القتال هدوء مؤقت باستثناء التراشق بالمدفعية بين التلال الصناعية — التى أقامها على رضا وركب فوقها بطارياته — وقلعة بغداد وطوابى الصابونجية والجاووشية .

ولكن هذا السكون كان يخفى وراءه أزمات شديدة تجتاح المدينة فقد أصبح المدافعون يشعرون بطول الحصار ووطأته وأخذوا يعملون على تركيز كل الإمكانيات التى تيسر لهم مهمتهم فاستولوا على ثلث أو نصف ما اختزنه أهل بغداد من قمح لاستهلاكهم الشخصى[1] .

ولم يكن فى استطاعة أهل المدينة أن يحصدوا ما زرعوه خارج أسوار المدينة بسبب الحصار ، هذا إذا كانت لديهم أيد عاملة تقوم بهذا الحصاد . .

---

(١) بغداد كوله من : ٦١ — ٧٢

وانظر كذلك : Groves: Op. Cit. P. 217 — حديقة الورود ج ١ : ورقة ١٢ .

ولا شك أن دفو Devaux قدر خطورة هذا الهدوء و أن طول مدة الحصار فى صالح على رضا . فقرر دفو أن يضع حداً لهذا الموقف المائع وأن يحسم المعركة بهجوم منسق يكون فيه عنصر المفاجأة من العناصر البارزة . وعرض دفو الخطة على صالح بك ولكنه كان شخصية غير حاسمة . ولما لم يستطع البت فى هذا الأمر جمع كبار المدينة لعرض الخطة على بساط البحث . بين دفو أن الإمدادات التى ينتظر أن تأتى من خارج المدينة قد أصبحت فى حكم العدم وأن المجاعة تزداد يوماً بعد يوم وأن ما لديه من قوات يكفى فى أن يشن هجوماً ناجحاً ووضع أمام المجتمعين خطة تفصيلية لهجوم منظم ليلى يفاجئ به جيش على رضا ويلقى به فى دجلة ولكن الحاضرين لم يناقشوا الخطة فى تفاصيلها وناقشوها من ناحيتها السياسية .

فقد أثار درويش أغا عدة اعتراضات سياسية على جانب من الخطورة فعلا . ذكرهم درويش بالالتماسات التى أرسلها البغداديون إلى السلطان يسألونه فيها إسناد الباشوية لداود أو لصالح بك ، وأنهم قرروا فى التماسهم هذا أن البغداديين يدافعون عن مدينتهم إذا أرغموا هم على ذلك . فهل خروج جيش بغدادى وشنه هجوماً يلقى بجيش السلطان فى النهر يعتبر من قبيل الدفاع ؟ . ثم ذكرهم بالعدو الرابض على حدود العراق الشرقية والذى يعبث بها منذ أمد طويل ، وخاصة بكردستان ويتحين الفرص ليستولى على العراق وأنهم بعدائهم السافر للدولة يمنحون الفرصة الثمينة لإيران لتحقيق آمالها التى فشلت فى بلوغها قبل ذلك بسبع سنوات . والفرصة مهيأة تماماً لأن تطعن إيران من الخلف وهم بعدائهم للسلطان يصبحون وحدهم فى الميدان — لقتال هذا العدو العنيف القوى فى الشرق ولصد قوات الباشا فى الغرب . وأن وقوع هجوم إيرانى فى هذا الوقت يجهز على المدينة المنكوبة وتتم الكارثة .

ولا شك فى أنه كان هناك خوف عام فى بغداد من وقوع هجوم إيرانى ، وكان البغداديون متخوفين من وقوع هذه الكارثه (١) . ولكن إلى أى حد كان هذا الخطر محتمل الوقوع .

---

(١) Groves: Op. Cit., PP. 198 — 199,215 ، بغداد كوله من : ٧٤ – ٧٧

لقد عقدت إيران مع روسيا منذ وقت قصير معاهدة تركلستان المذلة سنة ١٨٢٦م ، وكانت الدولة - العثمانية قد أذلتها هي الأخرى معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩م ، مع روسيا أيضا ، وكانت النداءات تتردد عن توحيد كلمة المسلمين شيعيين وسنيين ضد الخطر الروسي . وعلى هذا كان الموقف واضحاً يحمل معنى التفاهم الإيراني العثماني وأن الهجوم الإيراني على بغداد معناه حرب أخرى مع الدولة العثمانية . وإيران كانت منهكة كالدولة العثمانية . وكانت منازعات إيران مع الروس لاتهدأ ، وروسيا تخشى تحالف إيران مع السلطان . وكانت قوات روسيا تتجه نحو الشرق لتقوى سيطرتها على أفغانستان . أما حركات الإيرانيين في كردستان وإمدادهم لباباني ثائر لجأ إليهم فقد كانت من باب الروتين السياسي الذي كانت تتبعه إيران في كردستان لتحتفظ بنوع من النفوذ فيها[١] وعلى هذا لم يكن هناك خطر إيراني يهدد العراق فعلا وإنما هو شعور لدى أهل بغداد وتوقع له مبرراته التاريخية ويمكن أن يستغل في إثارة مخاوف الناس والساسة على حد سواء . وهذا ماحدث فعلا فقد كان هذا الخطر ماثلا في مخيلة المجتمعين ، ووقف المؤتمرون أمام خطة دفو واعتراضات درويش الموقف الحائر العاجز الوجل وانتهى المجلس دون الوصول إلى قرار حاسم . وهكذا في هذه الظروف العصيبة التي تتطلب من القيادة الحزم والمواقف الحاسمة وقف صالح بين الخطتين ، ولاشك أن تردده كان بوحي من آماله فهو يخشى معاداة السلطان مانح الولاية لمن يشاء ويخشى إن نجحت خطة دفو أن يصبح هو هدف جيوش السلطان من بعد ذلك . وهو في قرارة نفسه ينتظر منصب الولاية من السلطان .

كان هذا التردد سبباً في شل يد البغداديين وكان ضد مصلحتهم فهم

---

(١) Sykes: A History of Persia, Vol. II. pp.312-323,
محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية ص : ١٤٩ - ١٥١ .

يحاربون قوات السلطان فعلا وإن كان قتالهم قد اتخذ صورة الدفاع .

وهكذا بدأت الأمور – لضعف المدافعين – تسير لصالح على رضا الذى كان قد صح عزمه على أن يلعب بأوراقه حتى النهاية برغم حرج مركزه هو الآخر . . . . . .

ولو أدرك المدافعون أن على رضا كان فى موقف جد خطير لربما فضلوا تنفيذ خطة ديفو Devaux . حقيقة إن على رضا فرض سيطرته على معظم أجزاء العراق فيما عدا بغداد[1]. ولكن هذا لم يسد حاجته إلى التموين والأموال فمنذ ارتحاله من حلب لم يدخل خزانته درهم ، بينما استنفد ماكان فيها بسخائه وإنفاقه على من يفد عليه من أعداء داود ثم إن مدة الحصار طالت وتكاثرت المتاعب على جيشه ، وبدأ كأن هـــذا الفتح لن يؤدى إلى نتيجة ذات قيمة حتى لقد انتشرت فى معسكر على رضا فكرة نهب ما لديه والعودة من حيث أتى . ولكن لم يتحمس جنده لتنفيذ هذه الفكرة نظراً لأن ماتبقى فى خزانته من أموال لايساوى عشر مايستحقونه ، هذا بينما اقترب الصيف من نهايته وهو فصل العمليات الحربية وأقبل فصل الشتاء الذى تهدأ فيه جبهات القتال إن لم ترجع الجيوش إلى قواعدها لتستأنف الهجوم فى الربيع القادم ، وعلى رضا لايستطيع أن يبقى معسكراً وهو خالى الوفاض تحت وطأة سياط البرد القارس وبرق المدافع وبين جنود ملوا القتال فى انتظار يوم النهب والسلب .

لقد كان الموقف جد خطير لدى الطرفين ، والنصر فى هذه الأزمات حليف من يسيطر على أعصاب جنده أطول مدة ممكنة ومن يكون عزمه أقوى أو أرسخ وحيلته أدق أو أحكم . ولاشك أن على رضا بدأ يعتقد أنه سيخسر الناحية العسكرية . وخلال هذه الأزمة وصلته من الآستانه رسالة مثبطة تطلب إليه أن يدبر الأمور بحكمة وإن عجز عن فتح بغداد فليعد أدراجه وأرسلت إليه إحدى الرسالتين اللتين أرسلهما الأهالى إلى السلطان .

---

(١) بغداد كوله من : ٧٩ .

قدح على رضا زناد فكره ، ووجد أن رسالة الأهالى التى أتته من السلطان هى الورقة الأخيرة التى يستطيع أن يلعب بها . فأرسل إلى كبراء المدينة يطلبهم للتفاوض فيما أمر به السلطان . فكان الملا حسين مندوب البغداديين وحمدى خازندار كان مندوب على رضا باشا ، وفى الاجتماع أظهر حمــدى بك لحسين رسالة الأهالى ، وذكر له أن لاقيمة لهــا فلقد أعادها السلطان لصاحب الشأن فى العراق وهو على رضا وحدثهم حمدى حديث الواثق بالنصر مؤكداً لهم أن الباب العالى قد رفض ملتمسهم وليس أمامهم إلا الإذعان لأمر السلطان وأن الاستمرار فى الدفاع لن يؤدى إلا إلى كوارث جديدة تنزل على رءوس البغداديين أنفسهم .

نقلت المفاوضة إلى أسماع صالح بك فلم يتغير فى أسلوب معالجته للمواقف الجديدة . وما كانت طبيعة المرء لتتغير فى فترة وجيزة إلا إذا كانت على شىء من الفطنة والحنكة السياسية ولكنه خلال تلك الأزمات لم يع درساً فى القيادة إبان الحرب ولا فى مواجهة المواقف بقلب جرىء غير هياب «إنما تلقى أنباء وصول رسالة الأهالى إلى يد على باشا كأنها كارثة نزلت على أم رأسه فشلت حركته ليصبح وكأنه صورة على حائط»(١).

أذهلته الصدمة وهو الزعيم الواهن العزم العاجز التدبير فلم يسعه إلا أن يجمع المستشارين فى مؤتمر دار فيه الجدل والنقاش . والواقع أن موقفهم لعجيب ، كانوا قبل ورود رسالتهم إلى على رضا عازمين على المقارعة حتى يرد أمر السلطان فيكون فصل الخطاب ، ولكنهم علقوا أمر النزاع على تولية واحد من اثنين داود أو صالح ، ولم تأت موافقة السلطان على أى منهما وترك الأمر لعلى باشا الذى لم يظهر حقيقة الأمر ولو أظهره لكان كمن يحكم على نفسه بالإعدام ولذلك رأى البغداديون أن ينفذوا ماتعاهدوا عليه من استمرار الدفاع عن مدينتهم حتى يعود على رضا أدراجه. وتردد المؤتمرون فى أى السبل يسلكون وانفض المؤتمر كما اجتمع دون أن

---

(١) بغداد كوله من : ٨٠ — ٨١

يصلوا الى حل حاسم[1] وكأن شخصية صالح المترددة طبعت الأمور بطابعها فبقيت الأمور متناقضة مائعة . فهو يريد أن يخفى أمر تلك المفاوضات ولكنها تتسرب إلى الخارج على كل لسان . واهتزت القلوب من إصرار السلطان على فتح المدينة . وكان هذا الانهيار فى الروح المعنوية فرصة ثمينة استغلها على رضا كل الاستغلال فنشط رجاله فى تفكيك الترابط بين البقية الباقية من المماليك وأكثر من وعوده، ومن توزيع المناصب على كبار رجال البلد وبدأ عملاء الوزير ينجحون فى تأليف حزب قوى له فى داخل المدينة خصوصا فى حى الشيخ أحد الأحياء الكبرى فى المدينة[2] .

وفى أغلب الأحيان توقف فتح بغداد على ثورة قوية فى داخل المدينة وكم من مرة استعصت بغداد على الفاتحين من فرس وترك مادامت الجبهة الداخلية متينة لم تمس[3] . هذا بينما دخلها داود فى نهاية نزاعه مع سعيد على رأس شرذمة قليلة، لأن الجبهة الداخلية كانت قد تصدعت وانحلت ولذا كان موقف الأهالى هو الذى يحدد مستقبل الحكم فى المدينة . وطالما كانوا عوناً للحكم المملوكى فى الداخل، وطالما كانوا مصرين على القتال كانت آمال فتحها بعيدة التحقيق .

ولكن هذه الآمال تجددت عند على رضا وقويت بعد التطورات الأخيرة فقد تصدعت الجبهة الداخلية فعلا وتزعم أحمد أفندى أحد وجوه بغداد حركة التمرد والتف حوله عدد كبير من الأهالى ، كما غير معظم المماليك ولاءهم وانضموا لعلى رضا بوساطة سيد أحمد أفندى هذا .

استسلام داود :

وبدأت المدينة تستعد لاستقبال على رضا وقواته فى غير حماسة فإن

---

(١) بغداد كوله من : ٨١ – ٨٢

(٢) حى الشيخ هذا عرف عنه أنه مسعر الثورات ثار على سعيد باشا سنة ١٨١٧ فقضى عليه .

(٣) راجع حكم أحمد باشا وسعيد باشا .

بعض الأحياء كانت تخشى أن تستباح للنهب والسلب . فعمل بعض البغداديين على تحصين مداخل الشوارع لمواجهة الموقف عند ما تتدفق قوات على رضا إلى المدينة (آخر أغسطس ١٨٣١) فأخذ التدمير يحل فى المدينة من جديد بصورة أخرى، إذ أن إقامة تلك التحصينات والمتاريس كانت تتطلب قدراً من الأخشاب فخلعت أسقف الحوانيت وسرت فى المدينة روح الفوضى والاستهتار بالباشا المعزول، وقيل إن بيت ابنه تعرض للنهب [1] . وبعد وقت قصير استطاعت قوات مسلحة تابعة لجبهة المنشقين أن تستولى على الباب الشرقى فى ليلة الخميس ٨ ربيع الثانى ١٢٤٧ (سبتمبر سنة ١٨٣١) ودخل منه الخيالة والتماريون واستولوا على طوابى المدينة فيما عدا باب الإمام الأعظم الذى ظل يقاوم حتى صباح اليوم التالى [2]

فى اليوم التالى وبعد صلاة الصبح أراد داود أن يعتصم بالقلعة ، ولكن هذا كان غير ذى قيمة، ولذلك آثر أن يأخذ برأى أتباعه وأن ينتظر ما يأتى به القدر . وجلس فى منزل أحد أتباعه بجوار القلعة وبعد ساعات جاء عدد من ضباط على رضا باشا، وأخذوا داود إلى خارج المدينة بكل احترام .

وحينما اقترب من خيمة على رضا، نهض على رضا نفسه وتقدم لاستقبال داود وعانقه وأخذه إلى خيمته . وأخذ الباشا يسأله عن صحته وحاله . وكأنه فى ضيافة رجل كريم . وقدم الباشا فنجانه الذى شرب منه إلى داود . وأخذ منه فنجانه ليؤكد له صفاء نيته نحوه وأن الغدر لا مجال له فى حمى الباشا الجديد . فكان لهذا العطف أثر عميق فى قلب داود وسكنت نفسه المضطربة ، وبدأ يشعر بالأمل فى الحياة وفى أن يرى أهله وولده، ولم يكن قد بقى له من الأولاد سوى حسن الذى لم يبلغ من العمر إلا خمس سنوات تقريباً . وبناء على رغبة داود أمر الوزير بأن يؤتى بابنه فى الحال فجاء به

(١) Groves: Op. Cit. PP. 243, 245, 248

(٢) بغداد كوله من : ٨٢ — ٨٤ .

القوم إلى خيمة الوزير والتقى الأب بولده فى موقف مؤثر أكد نبل عواطف الباشا الجديد .

ولم يكتف على رضا بهذا ، بل ترك الحرية لداود فى أن يستقبل من يشاء دون أن يحيطه بحرس ، وأحضر جميع آل بيته إليه وأعد له لوازم السفر إلى الآستانة ، وكتب إلى الباب العالى بأن سبب عدم قبول الباشوات أمر عزلهم هو أن العزل يعقبه الإعدام غالباً وبأن العفو عن داود يكون أجمل مثل لما يلقاه الباشا لو قبل أوامر السلطان بدون تمرد ، وبخاصة أن داود كان عالماً وكبير السن ، وبذلك لن يكون الخوف من الإعدام سبباً فى تمرد الباشوات المعزولين[1] .

ولكن هناك من يخالف هذا الرأى كل المخالفة ويرجع العفو عن داود إلى أنه قدم خزانته كرشوة لينقذ رأسه من سيف الجلاد[2] : نعم كانت الأموال من العوامل التى يغير بسببها الباب العالى سياسته ، وكانت الرشـــوة أمراً شـــائعاً فى الدولة العثمانية ، ولكن الموقف بالنسبة لداود يختلف عنه بالنسبة لحوادث التمرد الأخرى . فقد كان السلطان محمود الثانى يواجه ثورات متعددة فى الدولة ، وكان يهدف إلى أن يثبت أنه سلطان مصلح حقاً وأن ضروب القسوة والتهديد والإعدام السريع لم يعد لها مجال تحت حكمه العادل ، ولقد كانت ثورة على باشا يانينا عاتية هزت الدولة العثمانية هزات سريعة مروعة ومع ذلك كان مقتله على غير هوى السلطان[3] ومن ثم كان اتجاه السياسة العثمانية هو التخلى عن أعمال القسوة والإعدام وإحلال تبادل الثقة محل تبادل الريبة والشك . فلا نستبعد أن يكون الدافع السياسى والاقتناع بفكرة على رضا من حيث تجنب إعدام الباشوات المعزولين هما السببان الرئيسيان فى إنقاذ رأس داود .

(١) Huart : Op. Cit. p. 202.

(٢) سعاد العمرى : بغداد : ٦٤ .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٣٢٧ .

ومن ناحية أخرى كان علم داود بلا شك من الأسباب الجوهرية التي أدت إلى أن يطالب على رضا بالعفو عنه ، فلقد كان على رضا نفسه أديباً محباً لأهل العلم وارتبط عهد داود بنهضة أدبية علمية فى بغداد جعلت الطبقة المثقفة فى المدينة تتمسك بالباشا وتستبسل فى الدفاع عنه . ومن ثم كانت مكانة داود العلمية من الأمور التي نظر إليها الباشا الجديد بعين الاعتبار ، وقد حرص على أن يكسب ثقة هذه الطبقة المثقفة فى المدينة ليقيم حكمه على أساس قوى ، وإعدام داود — الشيخ العالم — سيلطخ صفحة على رضا وسيكون حاجزاً منيعاً بينه وبين الطبقة المثقفة فى المدينة فلا شك إذاً فى أن على رضا كان بعيد النظر فى موقفه الكريم من داود ، ولقد احتضن على رضا الطبقة المثقفة فى بغداد وعفا عمن كان يحرض البغداديين على الاستبسال فى المقاومة وقربهم إليه وأسند إليهم الوظائف وخلع عليهم وبدا وكأن حكمه استمرار لحكم داود[1] .

وهذا يؤكد لنا أن على رضا قدر تمام التقدير القوة الهائلة الكامنة فى هذه الطبقة المثقفة التي كانت تحت يد داوود ،فهى القادرة على إثارة الشعب البغدادى وتجديد عهد المقاومة ، وخاصة أن البغداديين قد امتثلوا لحكم المماليك ، فإن ذكرى سليمان الكبير كانت قوية فى نفوس الشعب البغدادى والعراقى بوجه عام ، وجاء داود ليرتفع بعهد المماليك إلى مصاف عهود بغداد المجيدة السالفة حينما كانت عاصمة الشرق السياسية والعسكرية ورائدة الحركة الفكرية فيه أيضاً ،وكان هذا التاريخ المجيد الذى يحفظه الشعب البغدادى لباشوات المماليك لا يدانيه تاريخ ولاة الخارج فى شىء ، بل لقد كان سوء ظن البغداديين بولاة الخارج قوياً ورغبتهم فى أن يتولى حكمهم من خبرهم وعاش بينهم ، صادقة وعميقة ومتأصلة وهذه

---

(١) حديقة الورود ورقة ١٣

كلها اعتبارات قوية أنقذت رأس داود من سيف الجلاد ، وجعلت على رضا يعده للرحيل إلى الآستانة بكل احترم وتبجيل .

وعندما تمت جميع الترتيبات اللازمة لرحلة داود وأسرته إلى الآستانة أمرت كتيبة من الفرسان وأخرى من القوات غير النظامية أن تقوم بحراسة داود وقافلته . ومنحت هذه القوة سلطة إطلاق النار على داود إذا ما حاول الفرار أو حاولت قوة ما أن تنقذه . فقد قيل إن سعدون — شيخ العبيد — وسكان كركوك قد اعتزموا أن ينقذوه . فكتب إليهم على رضا بأن يلزموا السكينة حتى لا يكونوا سبباً فى إيذاء داود[1] ؛ ووصل داود فى هدوء إلى الآستانة ثم عفا عنه السلطان ، بل وأفاد من خبرته فولاه البوسنة من ١٢٤٩—١٢٥١هـ (١٨٣٣—١٨٣٥م) ؛ ثم ولاه رياسة مجلس الشورى سنة ١٢٥٤هـ (سنة ١٨٣٨م) ثم تولى أنقرة سنة ١٢٥٥هـ (سنة١٨٣٩م) وعزل سنة ١٨٥٦هـ (سنة ١٨٤٠م) ثم طلب داود أن توجه إليه مشيخة الحرم النبوى، فنال ما طلب، وظل هناك حتى توفى سنة ١٢٦٧هـ (١٨٥٠م) ودفن بالبقيع .

مذبحة المماليك :

وبينما كان داود فى طريقه إلى الآستانة كان على رضا قد دبر مذبحة المماليك . فقد دعا على رضا المماليك إلى حفل لقراءة فرمانات التولية لأرباب المناصب ، وملأ القصر بعدد كبير من جند مختارين ثم انتهز الفرصة وانسحب من الاجتماع فانقض الجند على المماليك وذبحوهم كما ذبح صالح ومن كان مؤيداً منهم لعلى رضا أو معارضاً له : وفر عدد قليل من المماليك بينما كانت جنود الباشا تبحث عنهم فى كل مكان فقبض على بعضهم وعفا الباشا عنهم[2] .

(١) بغداد كوله من : ٨٨

(٢) بغداد كوله من : ٨٧ — ٨٨

وبرغم هذه المذبحة استلزمت إدارة العراق الاستعانة بالمماليك الباقين ، فكان منهم الكيخيا فى عهد على رضا ، ولكن عصر المماليك فى العراق كان قد انتهى ، وكانت مذبحتهم هذه فى الواقع خاتمة لحياتهم كقوة ذات شأن فى حكم العراق[1] .

(١) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ص ٢١ .

الفصل الثامن

إصلاحات داود

إصلاحات داود الاقتصادية – وصف بغداد فى عهد داود – فضل داود على النهضة الثقافية – نمو القوة العسكرية على عهد داود .

إصلاحات داود

إصلاحات داود الاقتصادية

يقع العراق فى أقصى البلاد العربية من الشرق، وإلى الشرق منه إيران التى يفصلها عن العراق مرتفعات الزاجروس حيث تختلط القبائل الكردية التابعة للدولتين وإلى الغرب تفصل الصحراء الشام عن سهل العراق الذى يجرى فيه نهرا دجلة والفرات فيربطان بين الخليج العربى والشام . وفى الشمال مرتفعات كردستان التى يفصلها عن سهل العراق مضايق صغيرة (دربند) كانت ذات ميزات عسكرية هامة عند الدفاع. وبينما تكثر الأمطار فى شمـــال العراق على المرتفعات الكردستانية فإنها تقل كلما اتجهنا جنوباً، ولذلك تعتمد الزراعة على الأمطار فى وديان كردستان وسفوحها وعلى مياه الترع والنهيرات فى وسط العراق وجنوبه ، ولكن وجود الأهوار الموسمية وتعدد طغيان دجلة والفرات على مناطق وسط العراق – يعرقل الزراعة[1] وإن كانت مياه الفيضان هذه تخصب الأرض التى تغرقها أحيانا[2] .

ونظراً لتعدد الأنهار والنهيرات والترع ازدهرت الزراعة فى سهول العراق، ولكن وقوع العراق فى شرق العالم العربى جعلها تتلقى الصدمات الأولى العنيفة التى أنزلها التتار بالشرق العربى . فكان ذلك من العوامل التى قضت على ازدهار العراق الاقتصادى ، على أن الغزوات التتارية والحروب الداخلية لم تكن وحدها مسئولة عن ذلك الانهيار الاقتصادى . فإن إجهاد

(١) هذا العالم : ١٨٢

(٢) Porter: Op. Cit. P. 259

التربة لعدم وجود نظام دقيق للرى فى العراق[١]، وتحول مجرى الفرات[٢] كانا من العوامل الأساسية التى سببت ذلك الانهيار، وأديا إلى اضمحلال بعض المدن المزدهرة :

وكان من الطبيعى أن يفكر حكام العراق فى النهوض به اقتصادياً فقد اعتنى سليمان القانونى بمشروعات الرى [٣] . فكان بذلك مثلا لباشوات الدولة فى العراق . ولكن قصر مدة الوالى وضعف القوة المركزية الحاكمة واجتياح الإيرانيين غير مرة للعراق والثورات القبلية كانت من العوامل الأساسية التى جعلت الولاة يهملون مشروعات الرى والزراعة ، ومع ذلك استمرت الزراعة هى المحور الذى تقوم عليه اقتصاديات العراق .

فى كردستان تزرع الحبوب والكروم والقطن والتبغ والكتان الذى جلبت بذوره من مصر وحاول محمود باشا البابانى إدخال زراعة الموالح فى بلاده ولكن المناخ لم يساعد على نموها [٤] وفى منطقة السهول الوسطى يزرع الأرز ومختلف أنواع الحبوب وتنتشر المراعى الواسعة حيث تنتقل العشائر العربية الرعوية حتى حافة الصحراء وتخلل تلك المناطق بقاع اشتهرت بخصوبة نادرة المثال كمنطقة الحلة وكربلاء [٥] . على أن هناك مناطق شديدة القفر بين الشطره وبغداد [٦] . ولما كانت الحبوب تمثل الغذاء الرئيسى العراقى فقد تفنن العراقى فى الاحتفاظ بما يحصده بعيداً عن متناول أيدى الجيوش الغازية الناهبة وبعيداً عن أطماع الحكام فكان يضع المحصول فى آبار عميقة فى الأرض لايستطيع الباحثون عنها العثور عليها[٧] :

---

(١) GIBB : Op. Cit. I, P. 257, 264, 274

(٢) وادى العطية : تاريخ الديوانية : ٣٠ .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٤ .

(٤) رحلة ريج جـ ١ : ص ٩٤ .

(٥) Chesney: Expedition. II P. 602

(٦) Heude: Op. Cit. P. 80

(٧) رحلة ريج : جـ ١ : ص ١٤٣ .

أما البصرة فكانت غنية ومشهورة بمساحات النخيل الشاسعة والتى تغل محصولا يمثل الغذاء الرئيسى لجزء كبير من سكان المنطقة فى بعض شهور السنة ويمثل أيضا أهم محصول من حيث التصدير ، على أن العراق ظل فى حاجة ماسة إلى مشروعات رى واسعة النطاق، ولقد ثبت أن زراعة القصب والنيلة تقدمت حيث الرى المنتظم (١) .

وفى عهد المماليك لم يشاهد العراق إصلاحات زراعية على نطاق واسع . وكان ذلك نتيجة لاضطراب أمور العراق والفتن الداخلية المستعرة فلم يشعر وال بالاستقرار ليباشر تنفيذ برنامج اقتصادى سليم الإعداد . فهذه الفتن كانت سبباً فى استنفاد قوى العراق . وإذا ماأراد حاكم أن يصلح جاء إصلاحه ارتجاليا سريع الإعداد بدائى التنفيذ دون أن تستغل فيه رءوس أموال ذات أثر (٢) . وأروع مثل لهذا ماكان يحدث فى كردستان فإن محمود باشا البابانى سنة ١٨٢٠ كانت لديه نية الإصلاح ويود مخلصاً أن تستتب الأمور فى بلاده ليصلح ولينهض ببلاده ، (٣) ولكن رءوس الأموال فى كردستان لايمكن أن تستغل فى مشروعات اقتصادية لأن تنفيذ المشروع فى حاجة إلى وقت طويل وإلى استقرار ليجنى صاحبه ثمار مشروعه وأمواله (٤). وحاكم كردستان فى حاجة إلى الأموال المنقولة ليستعين بها على دفع مطالب الشاهزاده الإيرانى حتى يبقى فى منصبه أو ليستعين بها على الحياة فى المنفى (٥) .

ولم يشعر داود بالاستقرار النوعى إلا بعد الحرب الإيرانية وبعد

---

(١) Buckingham: Travels in Assyria II, P. 180

(٢) Dupré: Op. Cit. I P. 180

(٣) رحلة ريج : ١٥٢ .

(٤) بغداد كوله من : ٣٨ .

(٥) الأعظمى : مختصر تاريخ بغداد : ٢٢٤ — ٥ ، العزاوى : تاريخ : ٦ : ٢٦٨ — ٩ .

إخماده لثورات القبائل العربية والمنتفق (١٨٢٦) ولذلك كان قيامه بمشروعات زراعية واسعة النطاق أمرا صعب التحقيق . ومع ذلك فقد قام بمجهودات عظيمة إذا ماقورنت بمشكلات العراق، فقد قام بتطهير القنوات والترع المهملة ، وبذلك استطاع أن يوصل الحياة إلى أماكن قاحلة بين بغداد والحلة فأنبت بها الزرع ، ونال هو من وراء ذلك زيادة لدخل الحكومة .

ومن أهم مشروعاته فى هذا الصدد حفر نهر النيل الذى كان الحجاج ابن يوسف الثقفى قد شقه سنة٨٢هـ (٧٠٩م) وهو يأخذ من الفرات قرب الحله . حشد داود لحفره خمسة آلاف عامل حتى أتمه سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦) وكذلك كان مهتماً باستخدام آلات الرى التى تسهل على الفلاح عمله فلما عرض عليه أحد الإيرانيين آلة لرفع المياه أمر بالتسهيلات اللازمة لإتمام المشروع فلما تم بنجاح كافأ الوزير صاحب الفكرة وأطلق على هذه الآلة (جرخ يوسف) نسبة إلى يوسف بن داود .

وكانت خطته فى النهوض الاقتصادى بالعراق شاملة غير مقصورة على توفير مياه الرى وزيادة مساحة الأرض المستغلة . فقد عمل على رفع المستوى الصناعى الذى كان قد انهار إلى الحضيض . وكان من الطبيعى أن تهدف خطته فى هذا الشأن إلى استغلال خامات العـــراق الزراعية فأسس مصانع للمنسوجات القطنية والجـــوخ[١] . وكان الجوخ سلعة تتنافس على بيعها فى العراق كل من بريطانيا وفرنسا[٢]. حقيقة كانت هذه الصناعات تخدم إلى حد كبير حاجات جيشه وتشكيلاته الجديدة . وهذا أمر تتطلبه حاجات الولاية فى هذه الظروف، وهى سد الحاجات السريعة للقوة العسكرية التى كونها الباشا المصلح دون النظر — فى أول الأمر — إلى تنفيذ برنامج صناعى شعبى. ولذلك نجد داود يستقدم الفنيين

---

(١) بغداد كوله من : ٣٨

(٢) Olivier : Voyage dans L'Empire Ottoman, IV, P. 436 —7

من أوربا والأدوات اللازمة لبناء مصنع للبنادق [1] وما ذلك الاتجاه فى سياسة التصنيع إلا نتيجة لأن كرسى الوزارة كان يهتز تحت قدميه لخشية داود من نوايا السلطان ، ولتعدد الثورات الخطيرة فى البلاد ولأنه وقف وحده تقريباً فى الحرب ضد إيران .

والعراق عامر بالمعادن والخامات اللازمة لكثير من الصناعات . ولكن الجهل يحول دون استغلالها . وقد أشار جسنى Chesney إلى اكتشاف مواد معدنية وخامات هامـــة للصناعة دون أن تستغل مثل البتومين والنفط الذى كانت تطمع فيه كل من فرنسا وبريطانيا فى ذلك الوقت[2] ومثل الكبريت [3] إلى جانب النحاس والرصاص، فكانت تلك المعادن محط أنظار الأوربيين منذ ذلك الوقت .

وكان من المنتظر أن تكون تجارة العراق ضعيفة تبعاً لضعف الزراعة ولكن العراق كطريق بين الشرق والغرب وكمركز عظيم لتوزيع واستهلاك المتاجر الأوربية والهندية، كان سبباً فى أن يستمر العراق على نوع من الازدهار الاقتصادى. ويرجع الفضل إلى سليمان أبى ليلة (١٧٤٩ — ١٧٦١) وسليمان الكبير (١٧٨٠ — ١٨٠٢) فى ارتقاء بغداد من مجرد مركز تجارى بسيط إلى سوق شرقية كبيرة[4] . ولذلك تقدمت التجارة فى الربع الأول من القرن التاسع عشر تقدماً كبيراً . وأصبح يصل إلى البصرة سنوياً ست سفن تحمل العلم الإنجليزى بدلا من سفينتين . هذا عدا السفن العربية . وذلك بفضل التسهيلات التى منحت للإنجليز وللعمانيين . بل إن البصرة استقبلت سنة ١٨١٥ خمس عشرة سفينة أتت من البنغال وبمباى متوسط حمولة الواحدة من ٣٠٠ — ٤٠٠ طن . وكانت هذه السفن تأتى حاملة الموسلين البنغالى

---

(١) بغداد كوله من : ٣٨

(٢) Chesny: Expedition, I, P. 108, Olivier, IV: 436 — 7

(٣) المنشىء البغدادى : ٥٥ ، رحلة ريج : ٢١

(٤) Groves: Op. Cit. PP. 254 — 5

والتوابل والمخدرات والأرز والسكر الأمريكي والحرير والشيلان والسلع الصينية والدانتلة والرصاص والآلات الحادة والصفيح والعطارة والبخور والنيلة[1] التي كانت ترد من سان دومنجو بكثرة إلى بلاد الدولة العثمانية ولكن منذ أواخر القرن الثامن عشر قل ورودها من هناك ولذلك استبدلت بالنيلة المزروعة في لاهور بالهند . وكان هذا النوع من النيلة يصدر من بغداد إلى إيران وقندهار وتركيا ، هذا إلى أن البصرة كانت تتلقى سنوياً ٣٠ ألف أقة من خيوط القطن وتصدرها البصرة إلى بغداد والموصل ودمشق وحلب ، وكانت البصرة كذلك تستقبل سفناً من مسقط وشرق إفريقية ، وكانت هـــذه السفن محملة بالعبيد والبن والعنبر ، ومن البحرين تأتي السفن باللؤلؤ والصمغ .

وكانت القوافل من التبت وقنـــدهار وإيران تأتي باستمرار إلى بغداد حاملة الفواكه والتبغ الذي يصدر من بغداد إلى دمشق وحلب والآستانة . هذا مع أن التبغ مزروع في أطراف بغداد بكميات كثيرة أقل جودة من النوع الإيراني ويصدر جزء منه إلى الآستانه وتأتي هذه القوافل أيضا محملة بالشيلان .

وهناك قوافل أخرى كانت تأتي من سنه وزهاب والسليمانية وكركوك وديار بكر وحلب وارفه وماردين ، هذه كلها تلتقي في أسواق بغداد حيث تتبادل السلع وكانت بعض المتاجر الآتية من حلب على جانب كبير من الأهمية نظراً لأنها واردة من أوربا . ومن أهمها أنواع الحلوى والمنسوجات .

وقد أسهمت منتجات العراق نفسه في نشاط التجارة فقد بلغت قيمة المصدر من منتجات العراق في العقد الثاني من القرن التاسع عشر حوالي ٣٥٠ ألف قرش، وكانت إمكانيات العراق الاقتصادية تسمح برفع هذه

---

(١) Buckingham: Travels in Mesopotamia II P. 201,205 ; Travels in Assyria II P. 169

القيمة إلى أربعة أمثالها لو أن الحكومة العراقية اهتمت بوسائل تنمية الإنتاج، الاقتصادى واستقرت العشائر العربية فى أماكن يعملون بها. ومن ناحية أخرى كانت قيمة شحن البضائع إلى البنغال تساوى ٤ ٪ من قيمة البضاعة، ٣٪ إلى عمباى ، ٢٪ إلى مسقط ، ١٪ إلى بوشير ، وكانت الخيول العربية التى تربى حول بغداد وفى نجد من أهم الصادرات العراقية إلى الهند . ولقد شعر الباب العالى بأهمية الخيل فى الحرب فأصدر فرمان يمنع بيعها فى الموانى العثمانية ، ولكن نظراً لما كانت تدره هذه التجارة من أرباح وفيرة على متسلم البصرة وبالتالى على باشا بغداد استمرت هذه التجارة نشطة وكانت صادرات البصرة من التمر تمثل جزءاً هاما جداً من صادرات العراق . وكان يصدر إلى كرمنشاه وهمدان ومسقط والهند . وكان يأتى إلى البصرة سنوياً ٢٥٠ قارباً متوســـط حمولة كل واحد منها ٦٠ طناً خصيصاً لنقل التمر و ١٥٠٠ حصان إلى الهند (١) .

وكان هناك نوع آخر من النشاط التجارى خلاف المتاجر الوافدة من مختلف الجهات ، فقد كانت فى العراق أهم مزارات الشيعة فى النجف وكربلاء . وكان الشيعة يأتون إلى العراق سنويا لزيارة هذه العتبات المقدسة . ويقدر عدد الوافدين إلى العراق سنوياً للزيارة من ١٢ — ١٥ ألفاً (٢) ، كما يأتى الزوار السنيون من الهند لزيارة الإمام الأعظم (٣)

---

(١) Buckingham: Travels in Assyria. Vol. II. PP. 170—173, 180

Buckingham: Travels in Masopotamia. PP. 201—205

Ainswooth : A Personal : Vol. II. P. 110

Olivier: Op. Cit. T. IV, PP. 440—448

Fontanier: Op. Cit. I, PP.142—143, Dupré : Op. Cit p. 180

(٢) Fontanier: Op. Cit. I.P. 323

(٣) Gibb: Islamic Society & West . I Pt. I P. 305

فيكون مجيء هؤلاء عاملا من عوامل انتعاش التجـــارة فى العراق ومن العوامل التى ترفع من كمية النقد فى العراق ، بينما كانت التجارة الهندية تجرى لصالح الإنجليز على وجه الخصوص ، وكان النقد بسبب ذلك يتسرب إلى التجار الإنجليز وإلى خارج العراق .

وعلى أى حال فقد كانت التجارة الهندية أوسع التجارات نشاطاً وكانت الضرائب المفروضة عليها قد اتفق عليها بين رجال شركة الهنـــد الشرقية وولاة بغداد بفرض ٣٪ من قيمة البضائع فى البصرة ولا تدفع إلا عند البيع . وفى هذا مجال كبير للتلاعب،وبخاصة إن التجار الإنجليز استطاعوا أن يحصلوا على امتيازات خاصة بهم بفضل قناصلهم فى بغداد . فقد كان لهم حق إنزال بضائعهم أولا فى مخزن الوكالة أو فى أى مكان آخر دون أن ترسل بضائعهم هذه إلى ديوان الجمرك وهذا الامتياز لاشك يمنح التجار الإنجليز فرصة التهرب من دفع الضريبة على البضـــاعة كلها فبعضها يمكن أن يهرب، بل إن قائمة البضائع التى يقدمها الإنجليز لمتسلم البصرة كانت تقبل دون تمحيص وأيضا كان يسمح للسفن البريطانية بالمرور أمام ديوان الجمرك صاعدة للنهر دون تفتيش مع أن هذه الامتيازات كانت غير منطبقة على السفن العربية التى ترفع العلم الإنجليزى .

أما الضرائب على التجارة التى يقوم بها الأهالى والدول التى لم تكن موقعة على الاتفاقات أو معاهدات مع الباب العالى فكانت قيمتها ٧٫٥ ٪ وهذه هى القيمة الرسمية للضريبة ، ولكنها تصل فعليًا إلى ٩٫٥ ٪ لارتفاع سعر البضاعة فى سنة ١٨١٦ عن ذى قبل وكانت الضريبة تقدر حسب البالة أو الصندوق أوحسب الوزن ، وهذه تسمى سقط أو حسب الأطوال وهذه تسمى صاغ ،وكان يستقطع قرش عن كل بالة كرسم(١) .

وكانت هناك بعض البضائع المعفاة من الضريبة مثل النقد والذهب

---

(١) وادى العطية : ص ٢٠ ، سعاد العمرى : بغداد : ٤١ — ٤٢ — ٤٨ .

Dupré: Op. Cit. I. P. 189

والفضة[١] ولا يدفع الإنجليز ضرائب عند تصدير القمح والتمر على اعتبار أنها بضائع استهلاكية [٢] . ولم تكن قيمة الضرائب ثابتة على جميع الأصناف فهى تختلف من سلعة لأخرى ، ولكن الأمر الثابت هو أن الميزان التجارى دائماً كان لصالح الإنجليز[٣] .

وهكذا تولى داود والإنجليز يتمتعون بهذه الامتيازات الواسعة وهى ليست نتيجة للامتيازات الأجنبية التى حصل عليها الإنجليز من السلطان فحسب ، بل كانت أيضا نتيجة لتساهل شائن من جانب سعيد باشا والى العراق الذى سمح بتلك التسهيلات التى تمنح للأجانب فرصاً تجارية لا يمكن أن يحصلوا على مثيلتها إلا فى إحدى مستعمراتهم . ومن ثم كان لابد من أن تصاب الخزانة بشىء كثير من نقص المواد وهذا ماحدث لسعيد باشا فعلا فقد أفلست موارده . ولم تقتصر تلك الامتيازات على الإنجليز فإنه لأمر ذو مغزى أن تكون الحكومة الأخرى ذات الامتيازات الواسعة هى حكومة مسقط حليفة الإنجليز وساعدهم الأيمن فى الخليج العربى فقد منح سعيد والى بغداد سلطان مسقط — السيد سعيد — حق إرسال ثلاث سفن إلى البصرة حيث تفرغ حمولتها دون دفع أية ضريبة ، وكان هذا الامتياز من الفداحة إلى حد أن طالب الباشا بأن تعدل هذه الامتيازات واتفق الطرفان فى نهاية الأمر على أن يدفع سلطان مسقط ألف تومان [٤] سنوياً فى مقابل الحمولة التى تحملها تلك السفن . ومع ذلك كانت هذه الألف تومان لا تعادل عشر أرباح سلطان مسقط [٥] . ومن ناحية أخرى كانت عوامل النزاع قوية بين أى باشا مصلح والإنجليز . لأن تلك التسهيلات

---

(١) سعاد : ٣٨ .
Buckingham: Travels in Assyria II. P. 169, 181 — 182

(٢) Dupré: Op. Cit. I.P.

(٣) Ibid. Buekingham: Travels in Assyria II. P. 187

(٤) عملة إيرانية من الفضة .

(٥) Buckingham: Travels in Assyria, II, P. 188

لا يمكن أن يقبلها الباشا الذى يريد أن يجدد،والتجديد فى حاجة إلى أموال ومعالجة مشكلات العراق تستلزم مجهودات باهظة التكاليف، ومن ثم يتطلع الباشا إلى استغلال موارد البلاد . والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى الحصول على حقوق الخزانة كاملة من الضرائب،وخاصة من الضرائب على التجارة الأجنبية التى ثبت أنها لا تسير وفق مالها من امتيازات معترف بها بل حصلت على امتيازات مضاعفة . وإنه لأمر يفقد الباشا صوابه أن يفقد مثل تلك المبالغ الضخمة التى يستطيع أن يحصل عليها من التجارة الخارجية على يد قنصل يتآمر عليه ويثير الفتن الداخلية والخارجية عليه ،فكان أن اشتط داود فى مهاجمته لريتش من الناحية الدبلوماسية وألغى الامتيازات التى كان يتمتع بها الإنجليز . ومن الطبيعى أيضاً أن يصطدم داود بسلطان مسقط بعد اصطدامه بالإنجليز . وحرص داود على أن يعامل سفن مسقط كأى سفن عربية أخرى وألغى ما كان لها من امتيازات ، ومن ثم راح سلطان مسقط يجأر بالمطالبة بالحصول على مكافآته السنوية التى كان السلطان قد منحها لمسقط وداود باشا(١) .

وعلى أى حال فقد عمل داود على أن يستغل هذه التجارة الهندية بأساليب أخرى مثل تلك التى اتبعها خلال نزاعه مع ريتش فقد عمل على تسهيل المواصلات عبر العراق ، ولذلك شق نهراً بين دجلة والفرات (٢) وهذا كان نتيجة لإيمان داود بالأرباح الواسعة التى يأمل أن ينالها من استخدام السفن التجارية فى الفرات ودجلة .

ولقد زادت التجارة نشاطاً فى عهده وكان مقدرا لها أن تزداد نشاطاً لو لم تدهمها كوارث سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٣١ . ولم تكن فكرة شق القنوات هى الأسلوب الوحيد الذى اتبعه لتنشيط هذه التجارة،بل اهتم كل

---

(١) انظر تفاصيل النزاع بين داود وسيد سعيد فى الفصل السادس .

(٢) Groves : Op. Cit. p.54

الاهتمام بأمن الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبرية ، ومن ذلك أنه ضرب عشيرة عفك لأنها عبثت بالملاحة النهرية وكلف بعض القبائل بالمحافظة على الملاحة فى مناطق معينة،وكان اهتمامه هذا كفيلا بزيادة دخل خزانته من هذه التجارة الوفيرة وزيادة الدخل الوطنى أيضاً .

فقد كانت الرسوم على التجارة فى بغداد تقدر بمليون قرش وفى البصرة كانت تقدر بمليون ونصف المليون[1] . ومع ذلك لم تكن الضرائب الجمركية تمثل إلا نوعاً واحداً من الضرائب التى تفرضها الولاية . فكانت هناك أنواع أخرى من الضرائب،وهذه الضرائب تعرضت للزيادة والنقصان من عهد لآخر، وكان نظام الالتزام يمثل مصدراً هاماً لخزانة الباشا .

كانت كل منطقة أو قرية أو مدينة تمنح للملتزم يتكفل بجمع مقدار معين من الأموال منها،وهو نظام وضع فى القرن السادس عشر عندما عجز الولاة عن جمع الأموال بأنفسهم . وكان للباشا حق منح هذه الالتزامات .

وكان داود أحياناً يربط بعض المناطق الغنية مباشرة وتدفع الأموال المقررة عليها إلى الخزانة مباشرة مثلما كان الحال بالنسبة لمنطقته قره حسن وكان داود أحيانا ينعم بقرية على أحد المقربين إليه[2] .

أما الضرائب فى عهد داود فكانت على النحو التالى :

أ — ضرائب شرعية :

١ — الجزية .

٢ — العشر على الحاصلات الزراعية[3] وفى بعض المراجع إنها كانت الخمس فى البصرة[4] .

٣ — زكاة الغنم[5] .

---

(١) Dupré: Op. Cit. I. P. 187—189

(٢) Rich : Narrative of Residence in Kordistan, I, P. 35 ؛ رحلة ريج فى العراق : ج ١ : ٣٥ ، ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٣) رحلة ريج : ص ٣٥ . (٤) المماليك فى العراق : ٢١٤ .

(٥) سعاد : ٤٣ .

٤ — رسوم الجمارك[1] .

٥ — ضريبة المرور على البضائع فقد كان للباشا موظفون معينون لجمع هذه الضريبة وتسمى الباج . والخاوة عند مضايق الجبال[2] وأحياناً كان المتغلبة يجبون هذه الضريبة لأنفسهم مثلما كان الحال فى زهاو .

٦ — ضريبة على الحوانيت والخانات والمنازل .

٧ — ضريبة على الأراضى المزروعة[3] .

٨ — أموال يقدمها حكام المدن[4] .

ب — ضرائب (طارئة) : يفرضها الباشا أو الشيخ أو المتسلم أو مختار القرية إذا أراد أن يصلح شيئاً أو كان فى حاجة إلى الأموال[5]

وكانت الضرائب على وجه العموم تجبى على طريقة الالتزام فيلزم فرد بمبلغ معين عن مساحة معينة ومحصول معين ويلتزم المتسلم كذلك بمبلغ سنوى يدفعه للباشا . وكان من الطبيعى أن يشتط بعض الملتزمين فى جمع الأموال فينال الناس أذى من وراء ذلك ، ولكن الذى ثبت أن داود كان قد اشتد فى جمع الضرائب فى أواخر حكمه ففر اليهود من العراق إلى مسقط [6] . وثارت ماردين على متسلمها [7] الذى استحدث ضرائب

---

(١) المماليك فى العراق : ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٣) المنشى : ٥٨ . (٢) المنشى : ٣٩ — ٤٣ .

(٤) المماليك فى العراق : ٢١٤ — ٢١٥ .

(٥) Rich: Narrative of a journey, P. 52

(٦) تاريخ ماردين ورقة ١٥٧ .

(٧) Willsted: Travels in Arabia, P. 15

جديدة وضاعف قيمة الضرائب على التجار[1] وهبطت قيمة العملة وأبو قرشين صار بقرش، والدراهم نزلت عن السابق مقدار العشرة ثمانية (فى ٢٥ ذى العقدة سنة ١٢٤٤)[2] .

وكان تخفيض سعر العملة من الأساليب التى كان يلجأ إليها الباشوات لزيادة دخلهم ، وقد زادت هذه الضرائب بشكل واضح وأرهق الأهالى فلجأ بعضهم إلى السلطات الإنجليزية ليتوسطوا لهم فى تخفيضها [3] .

ولم يكن هذا التطور إلا لأن داود بدأ الإصلاح بعد انتهاء الحرب الإيرانية ، فكان فى حاجة إلى الأموال لتجهيز الجيش الجديد ولشراء المصانع وجلب المدربين وشق القنوات والترع . ومع ذلك لم يختلف داود عن معظم حكام الشرق فى ذلك الوقت ، من حيث إنهم كانوا يستغلون إمكانات البلد دون استثمار طاقتها الكامنة، ومع ذلك لم يكن أمام الحاكم الشرقى فى ذلك الوقت — وقد رأى الفرق الشاسع بينه وبين أوروبا — إلا أن يحاول القفز وأن يسرع الخطا فكان ذلك سبباً من أسباب سطحية الإصلاحات التى قام بها حكام الشرق . ومن الأسباب التى أرهقت البـــلاد فى ســـبيل تكوين قوة عسكرية كبيرة باهظه التكاليف [4] .

وكان دخل الخزانة فى عهد داود يفوق دخلها بكثير فى عهد أسلافه فقد بلغ هذا الدخل سنة ١٨٢٨ أربعة وعشرين ألف كيس بعد خصم المصروفات وهذا مالم يبلغه باشا فى بغداد من قبل[5] وقد أعطانا (جسنى) قائمة بدخل الخزانة وهى على النحو التالى :

١ — من صادرات التمر والقطن وتأجير المساكن ٥ر١ مليون دولار .

---

(١) تاريخ ماردين : ورقة ١٥٦ — ١٥٧ .

(٢) تاريخ مباحث عراقية : ج ٢ : ٢٢٠ .

(٣) Groves: Op. ct. P. 50

(٤) Dupré: Op. ct. I, P. 160—1

(٥) تاريخ لطفى (: ج) ١ : ٢٩٣ .

٢ – من الحبوب المنتجة على وجه الخصوص من منطقة بغداد والحلة ٤ ملايين دولار .

٣ – ١٠ ٪ مفروضة على الحيوانات ٥ر٣ مليون دولار .

فيكون المجموع ٩ ملايين دولار وكسني في الوقت نفسه يقدر قيمة الضريبة التي يمكن أن تدخل خزانة الباشا بعد إنتاج النفط بحوالى ٥ر٣ مليون دولار(١) .

ونظراً لهذا النشاط الاقتصادى فى العراق، ولبعده عن مركز الخلافة صرح الباب العالى لباشوات بغداد بسك العملة ، وكان فى بغداد مصر فخانة وداراً لسك العملة . على أن العملة التى تسك فى بغداد لا يسمح بانتشارها خارج الولاية وقد سمح لبغداد بسك العملة فى عهد داود سنة ١٢٣٥ هـ(٢).

وحدد قيمة مايضرب فى بغداد بخمسين ألف قرش ولكن منع ضرب العملة بفرمان بعد سنة١٢٣٥هـ ،ومع ذلك شوهدت عملة مضروبة فى بغداد بتاريخ سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) (٣) .

وعلى أى حال فقد ثبت أن خزائن داود كانت عامرة وأنفق بسخاء على النهوض بالعراق من الناحية الثقافية والاجتماعية والعسكرية .

وصف بغداد فى عهد داود :

كانت بغداد عاصمة العراق من الناحية الفعلية، وإن كانت عاصمة ولاية من ولاياته فقط من الناحية الرسمية. ولكن بغداد داود ليست كبغداد هارون الرشيد نتيجة للكوارث التى حلت بها منذ الفتح المغولى (١٢٥٨م) حتى القرن التاسع عشر، فكم مرة اجتاحها الطاعون أو الجيوش الإيرانية

---

(١) Chesny: Expedition, I, P. 110

(٢) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٣٠٠ .

(٣) المرجع السابق .

وكم من ثورة مخربة مدمرة روعتها . وبرغم ذلك ظلت لها هيبتها وروعتها لماضيها التليد ولما تبقى فيها من آثار ذلك الماضى العظيم :

فدجلة يشق طريقه بين الرصافة والكرخ وتربط قنطرة مقامة على ثلاثين قارباً تقريبا قسمى المدينة، على أن القسم الشرقى (الرصافة) ظل هو المتفوق والأكبر وكانت تتحكم فى مداخله عدة أبواب أهمها باب الإمام الأعظم وهو يواجه الطريق المؤدى إلى الأعظمية حيث دفن الإمام الأعظم أبو حنيفة ، وباب يسمى آق قبو (الباب الأبيض الوسطانى) وإلى الجنوب باب الطلسم الذى أمر السلطان مراد الرابع بأن يسد بعد مروره منه عقب استيلائه على بغداد سنة ١٦٣٨م وظل الباب مسدوداً حتى عهد داود وبعده[١].

وبغداد كعاصمة إسلامية كبرى اشتهرت بكثرة مساجدها التى يربو عددها على مائتين [٢] ومن أشهرها مسجد عبد القادر الجيلانى ذى القبة المغطاه بالصينى المختلف الألوان على الطراز الفارسى . ويعتبر حى الشيخ وهو نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى – أهم وأكبر أحياء المدينة[٣] فمنه اندلعت الثورات العنيفة على الباشوات .

وكانت تشق أحياء المدينة[٤] شوارع وحوار ضيقة قذرة فى الغالب اصطفت على جانبيها منازل البغداديين المتشابهة . وهذه المنازل مبنية من الطوب المحروق وحجم المنزل صغير وأحيانا يبنى المنزل من أنقاض منزل آخر وقليل من المنازل من طابقين ومعظمها ليس له شكل هندسى واضح ونوافذها قليلة ضيقة وأبوابها صغيرة . وفى وسط المنزل نخلة أوأكثر ،أما منازل الأغنياء فذات فنائين أحدهما به حديقة إلى جانب جناح

---

(١) Huart: Op. Cit. P. 6—7

(٢) Fraser: Mesopotamia, P. 269

(٣) لم تكن هناك فواصل أو حدود مميزة بين حى وآخر .

(٤) وصف بغداد منذ القرن السادس عشر حتى عصر المماليك لم يكن ينطوى على خلاف ذى أهمية .

خاص للحريم ، وعند اشتداد الحرارة التي تبلغ في الصيف من ١٢٠ : ١٤٠ف يلجأ الناس إلى سراديب في منازلهم نهاراً وينامون على أسطح المنازل حتى أكتوبر، وفي وسط بغداد تقريباً يوجد الميدان وهومكان متسع حوله مباني الطبقة الأرستقراطية في المدينة ، وفي الميدان يجتمع البغداديون للمرح والسهر وللشغب أيضاً، وشوارع المدينة ضيقة غير ممهدة ملتوية حتى لكأن المدينة عبارة عن قصرتيه،وأهم المرافق العامة في المدينة هي الحمامات ويبلغ عددها خمسين وقد انخفض عددها إلى النصف تقريباً بعد عهد داود . وللمسافرين خانات يبيتون فيها والمقاهي تنتشر في المدينة وبجوارها الحوانيت .

ولما كانت السوق قلب بغداد -بل العراق- النابض اهتم به داود كل الاهتمام وبنى تلك الأسواق المسقوفة التي مازالت حتى يومنا هذا من معالم بغداد .

وكان الأمن مستتباً بقوات الحكومة التي كانت تنفذ أحكام القاضي الذي ينظر في الأمور الجنائية والدينية،والبغداديون شعب يمكن أن نقسمهم إلى ثلاث طبقات ، الطبقة العليا وهي الطبقة الحاكمة، وتتألف من أغوات المماليك ، والطبقة المتوسطة وكانت تتألف من الموظفين ومن الصرافين والمشايخ والأئمة والأدباء وكبار التجار،أما الطبقة الثالثة فتتألف من العامة تملأ قلوبهم الخرافات ويشغلون أوقات فراغهم بالأمور التافهة وفي مثل هذا الجو تكون الفتن سريعة الاندلاع ،وكان من الطبيعي أن يكون السيف الذي يضرب هذه الفتن قويا وسريعا وحازما ، على أن الطبقة الوسطى كانت دائما تدافع عن مصالح الطبقة الفقيرة وتدبر الثورة على الباشا الفاشل، وتقف إلى جانب الباشا المفضل بكل قوة . وقد أثبت تاريخ البغداديين قوة كيانهم من حيث تمسكهم بالباشا الذي يرتضونه وليس بصحيح ماذكره انزورث Ainsworth من أن أهل العراق لم يشعروا بأهمية موقع بلادهم فقد ألزموا سعيداً بأن يسرع إلى إنقاذ الحجاج الإيرانيين سنة ١٨١٤ لما يترتب على نهبهم من آثار سياسية واقتصادية خطيرة(١) ويقال(٢) إن أحد

(١) انظر الفصل الثاني ، Ainsworth : op. cit. II pref.

(٢) Fontanier : op. cit. I. : pp. 224-225

الشيوخ العرب فى الزبير عمل على أن يخلص البصرة من النفوذ الأجنبى ومن الامتيازات التى حصل عليها الإنجليز .

وكانت ضخامة عدد بغداد — بالنسبة لغيرها من مدن العراق — تمنحها قوة بشرية ساعدت على أن يحقق البغداديون كثيراً من أهدافهم . فقد كانت فى أوائل حكم داود ٨٠ ألف نسمة ، وبلغ تعدادها — بفضل حكم وإصلاحات داود — إلى ١٥٠ ألف نسمة ولكن كوارث ١٨٣٠ — ١٨٣١ أدت إلى أن ينخفض تعدادها إلى خمسين ألفاً فقط . وكان لكل حرفة رئيس أو شيخ أو نقيب فكان الشاهبندر على رأس التجار والصراف باشى على رأس الصرافين ونقيب الأشراف هو المسيطر على طائفة الأشراف فى بغداد . وكان لهؤلاء الشيوخ والزعماء قدرة على إثارة المشكلات فى وجه الباشا إذا تعرض لهم . ولذا آثر داود أن تكون علاقته بالشاهبندر طيبة وقوية لأن التجار عصب الحياة الاقتصادية فى بغداد ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يضغط على الشاهبندر لينال منه أموالا أكثر . ولاشك أن وجود شيخ أو زعيم على رأس كل حرفة كان يسهل لداود أمر توطيد الأمن فى المدينة كما يسهل له جمع الأموال من أهل الحرف (١) .وكذلك قوى داود علاقته بأئمة المساجد وخطبائها والمدرسين لأن هؤلاء هم قادة الرأى العام فى بغداد وهم أداة الدعاية القوية التى تؤثر فى نفوس الناس ولذلك كانت محبتهم له عظيمة فألفوا له الكتب فى حياته . وذكروه بالخير بعد وفاته(٢) .

ومع هذا الولاء الشديد الذى كان متبادلا بين البغداديين وداود وذلك التعاون العظيم لحد الاستماتة من أجل وزيرهم المفضل لم يفكر واحد من

---

(١) سعاد العمرى : ٦٩ ، جودت : جـ ١١ : ٢٨ ، بغداد كوله من : ٤٤ .

Buckingham: Travels in Mesopotamia Vol. II P. 180-194, 278, 431, 494
Olivier: Voyage. Vol. IV P. 312 & Groves: Op. Cit. PP. 6, 160, 249—250
Fraser: Mesopotamia P. 278 & Porter: Op. Cit. II P. 244 & Fontanier : Op. Cit. I. PP. 224—5
Heude: Op Cit PP. 155, 181.

(٢) أنظر : ص ١٨٨ — ١٩٤ .

البغداديين فى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ولم يفكر داود نفسه فى هذا الصدد . فلقد أعلنوا أنهم يقفون وقفة رجـــل واحـــد فى وجه على رضا ، أما فرمان السلطان فمقبول لديهم ، والخطأ من على رضا ورجاله وليس من السلطان، فكان السلطان ملاذهم دائماً ، وكان حامى الذمار ومنقذ الإسلام وأوامره مطاعة ولو شن تابع حرباً فإنما يشنها ضد وال مثله وليس ضد السلطان(١) .

لهذا كان من الطبيعى أن يهتم داود بهذه المدينة التى رأى أنها من دعائم قوته الأساسية ، ولذلك قام بعدة إصلاحات ترضى الشعب البغدادى وقام بإصلاحات تجعل الباشا مهيبا فى أعين الناس .

كان بناء المساجد من مظاهر التقوى والصلاح ، وعن هذا الطريق يكسب الحاكم محبة الشعب له ، ولذلك عرف داود هذه الميزة وهوفى الوقت نفسه مخلص للدين،فأكثر من بناء المساجد ففى ١٨١٨– ١٢٣٤عمر الوزير جامع الحيدر خانة وهو من أفخم مساجد العاصمة العراقية ، كانت أرضيته وإزاره من الرخام ، وكانت له ثلاثة أبواب كبيرة وبنيت فيه مدرسة زودت بقدر كبير من الكتب ونقش عليه بيت من الشعر يعين تاريخ بنائه على طريقة الجمل :

فقل لدى الصنع أقصر يا مؤرخه * كذا بدا جامعا من صنع داود

وكان بهذا الجامع مصلى شتوى مرتفع عن الأرض وعليه قبة شامخة من الحجر الكاشانى الملون بجوارها قبتان على شكلها ، ولكن أصغر منها . أما المصلى الصيفى فقد بنى على أساس التقليل من قوة الحرارة ما أمكن وإلى جانب ذلك توجد عدة حجرات يستخدمها القائمون على شئون المسجد وبعض طلاب العلم .

وبنى داود مسجد السيف المطل على دجلة شرقى رأس الجسر وجدد

---

(١) راجع الصراع بين داود وعلى رضا (الفصل السابع) .

جزءاً من مصلى الإمام الأعظم، وأعاد بناء جامع الآصفية وهو من مساجد بغداد القديمة فى جانب الرصافة قرب الجسر فرفع قواعده من جديد وبنى مصلاة وجعل عليه قبتين ومئذنتين بالحجر الكاشانى الملون وبنى فى جهاته الثلاث طابقين وجعل فيه مدرستين وأقام له خطيباً وإماماً وجمعاً من المؤذنين والخدم[1] .

ولما كان داود يعتقد فى صلاح وتقوى الشيخ خالد النقشبندى فإنه عمر تكية الشيخ خالد سنة ١٢٣١ – ١٨٩٧ لأن الشيخ خالد أقام بعض الوقت فيها .

كذلك لاحظ داود أن جامع الأزبك قد أشرف على الانهيار فجدد بناءه ووسع فناءه وشيد فيه مئذنة (صفر ١٢٤٢)[2] وجدد أيضا جامع الحسين بن المنصور الحلاج .

وإلى جانب تلك العمائر الدينية اهتم داود بالمتنزهات العامة ، ومن المتنزهات التى أمر بتخطيطها بستان تسمى باسم ابنه الكبير يوسف[3] .

ونظراً لأن داود كان يرمى إلى النهوض بالعراق وكان مهتما بالإنشاء والتعمير ، فقد رأى أن سراى الحكومة لا تتمشى مع أبهة وزير بغداد المسيطر على العراق فعمل على تجديد السراى وأمر بتوسيعها وشيد على يسار مدخلها برجاً وشرع فى تأثيثها من الداخل وزينها على أجمل صورة واستمرت عمليات الإصلاح هذه ثلاثة أشهر تقريباً[4] .

وكانت هذه السراى ممتلئة بالموظفين والخدم ، بعضهم مختص بالملابس أو بالقهوة وتقديمها وتقديم الشربات والحلوى وبعضهم مختص بالحريم وآخر

---

(١) أسعد طلس : الكشاف : ٦ – ٧ وتاريخ مساجد : ٢٨ – ٣٣ .

(٢) تاريخ مساجد : ٢٦ – ٢٧ – ٢٨ .

(٣) أسعد طلس : الكشاف : ٧ ، عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٦٨ – ٢٦٩ .

(٤) تاريخ مساجد : ٢٨ – ٢٩ ، المماليك فى العراق : ٢٢١ – ٢٢٢ .

بالسلاح (السلحدار) والمبراخور (رئيس الاصطبل) والقبوجيلر كتخدا (رئيس البوابين) والمهردار (حامل أختام الباشا) واحتشامات أغاسى وقوشجى باشى (مسئول عن الخدم) والسفرجى باشى واطه جى باشى (المسئول عن الحجرات فى القصر) فكانت السراى بذلك مفخرة من مفاخر بغداد ، وكان يعقد بها ديوان الباشا كل جمعة أو فى المناسبات الهامة ويتألف الديوان من كبار رجال الولاية وهم الكيخيا وأغا الانكشارية وديوان أفندى سى (رئيس الديوان) والقاضى والمفتى ومتسلم البصرة وحاكم الحلة وماردين، وينظر الديوان فى الأمور الهامة ويعقد الديوان فى حضرة الوالى عندما يستقبل شخصية هامة أو مبعوثاً من قبل السلطان .

وقد كانت مراسيم الاستقبال تشبه إلى حد كبير مراسيم استقبال لدى الحكام المستقلين . وكان استقبال القنصل البريطانى من أهم حفلات الاستقبال التى تجرى فى المدينة ، فكان موعد حضور القنصل يحدد من قبل ، ثم يذهب القنصل وحاشيته إلى الفناء الخارجى للسراى حيث ينتظره عدد من الجند الانكشارية ويترجل الزوار عند بلوغهم هذا الفناء ويسيرون إلى الفناء الداخلى فيمرون بين صفين من ثلثمائة كرجى يمتدان على طول الطريق المؤدى إلى حجرة الاستقبال ، وكان هؤلاء يرتدون أزهى الملابس ويتقلدون بالأسلحة النارية الخفيفة والخناجر ويقفون فى صمت ووقار . وعند مدخل حجرة الاستقبال علقت ذيول ثلاثة لتدل على رتبة الوالى كباشا من الدرجة الأولى . وفى داخل الحجرة يجلس الباشا على وسائد حريرية تعيد ذكرى مجالس هارون الرشيد وعن يمينه يجلس رجال ديوانه فى صمت ووقار وقبيل دخول الزوار الحجرة بثوان قليلة يعلن قدومهم فلا يكاد الزوار يدخلون حتى يبدو الباشا كأنه يهم بالوقوف (١) .

ثم يجلس الزوار بعد التسليم عليه على كراسى نظراً لأن القنصل

---

(١) Heude: Op. Cit. PP. 170—172, 184—185 & Buckingham : Travels in Assyria and Mesopotamia Vol. II. P. 196

ورفاقه لم يتعودوا الجلوس على الوسائد . وبين الفينة والفينة يرحب بهم الباشا[١] وتقدم الحلوى فى إناء ذهبي يحمله خادم بيد وباليد الآخرى يمسك بملعقة من ذهب أيضاً يضع بها الحلوى فى فم الزوار، وبعد ذلك توضع مناشف على ركبتى كل زائر وتقدم القهوة وبعد الانتهاء منها تستبدل بالمناشف أخرى ثم يقدم الشربات ، فى كئوس صغيرة ثمينة، وبعد ذلك تصب على أيدى الحضور ماء الورد من إبريق من فضة،وبعد ذلك يوزع العطر فيوضع على لحية كل زائر وعلى شاربيه ليعطر الهواء قبل استنشاقه وتمر الأيدى ببعض العطور وتمسح بها على الوجوه فيمتزج ماء الورد بالعطور فينشر فى جميع ثنايا الوجه[٢] .

أما مراسيم استقبال مبعوثى السلطان وكبار الشخصيات العثمانية فتختلف عن تلك . فقد كان من المتبع أن مبعوث السلطان لا يدخل بغداد مباشرة وإنما ينزل أولا فى ضاحية الأعظمية حيث يبيت ليلته وفى الغد يدخل المدينة فى احتفال مهيب تحف به ثلة من الجند حتى السراى فيستقبله الباشا بكل احترام وتكون سلطات بغداد قد أعدت له بيت الضيافة فينزل فيه،وكانت هذه المراسيم مرعية منذ أيام حسن باشا حتى عهد داود،ولم يخل بها سوى صادق أفندى عندما جاء بأمر عزل داود . وكانت حفلات الاستقبال هذه فرصة لاستعراض بعض قوات الجيش وأسلحتها فعند وصول المبعوث إلى فناء السراى كانت تقف كتيبة عسكرية لتؤدى له التحية العسكرية ثم يدخل إلى حجرة الاستقبال حيث الباشا وديوانه [٣] . وأعضاء الديوان لايتكلمون كثيراً ، وإنما يجيبون عن الأسئلة باختصار معقول وإنه لمن الخروج على التقاليد والرسوم أن يكثر الأعضاء من الحديث مع الزائرين[٤] وبالقرب

(١) Heude: Op. Cit. P., 184—5

(٢) Porter: Op. Cit. II, P. 249

(٣) Huart: Op. Cit. P. 176—177

(٤) Heude: Op. Cit. P. 173—4

من جناح الوزير يوجد مقر الكتخدائية . وكانت رسوم الاستقبال لدى الكتخدا صورة مصغرة من حفلات الباشا،وهكذا كانت سراى الباشا التى تدار منها شئون البلاد،وفضلا عن هذا بنى داود لنفسه قصراً بين حدائق أمر بغرسها وزينها أحسن زينة . . (١)

لقد فاقت مجهودات داود فى التعمير مجهودات أسلافه وخلدت مجهودات داود أبيات فحول الشعراء فى أيامه . ولكن كتب للسراى ألا تخلد إلا فى بيوت الشعراء فقط . فلقد تعرضت السراى للنهب والتخريب خلال القتال الذى نشب بين قاسم باشا وشعب بغداد واندلعت النيران فى السراى فأتت على جميع نفائسها . وانطوت صفحة هذه السراى التى كانت مفخرة بغداد . وتحفتها الفنية . وكأن القدر أراد أن يسلط على المدينة كوارث تختم عهد المماليك وآثاره بعد أن بدأت بالانتصارات المؤزرة .

وإذا كانت السراى تحفة عمائر داود قد اندرست فإن النهضة الأدبية الكبرى التى تعهدها خلدت ذكراه فى تاريخ العراق السياسى والأدبى على حد سواء وقد ساعده تاريخ بغداد الأدبى على أن ينهض بها نهضة أدبية عظيمة .

فضل داود على النهضة الثقافية :

كانت بغداد منذ أن أنشئت مركز إشعاع ثقافى عظيم وازدهار علمى وأدبى رائع فى العصر العباسى ، ولكن هذا الازدهار أخذ ينهار بسرعة عقب الفتح المغولى لبغداد وما صاحبه من تدمير شامل لمكتبات المدينة العظيمة وسفك لدماء علمائها ، ومع ذلك لم تقض تلك الأحداث الخطيرة على مركزها نهائيا نظراً لماضيها التليد ، ولأن القانون السائد فى العالم الإسلامى مستمد من القرآن ذروة البلاغة ، ومن « الحديث » آيات الحكم ، ولأن العربى يميل بطبعه إلى روائع أسلافه من عباقرة الشعر والنقد والتصوير ،

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٦٨ — ٢٦٩ والكتخدا هو نائب الوالى .

ويرددها فلا تموت مآثر الأدب العربى، وتظل حية تدفع النفوس إلى تذوق هذا الأدب أو السير على منوال الأسلاف، وهكذا حفظت هذه العناصر الثلاثة الأدب العربى راسخاً مدى العصور برغم تعرضه لنكبات مروعة . وإذا كان الوهن قد دب فى الأدب نتيجـــة لتلك النكبات فإنه ظل حيا بين أيدى القراء والأدباء الذين كانوا على قلتهم وضعف مستواهم بعد النكبة المغولية قد أدوا خدمات للأدب وهى نقل ما وجد بين أيديهم من تراثهم، فأعطونا صورة عن الحياة الأدبية فى العهود التركمانية حتى حكم المماليك فى العراق . وهى تبين بوضوح ضعف الأسلوب الأدبى العربى ، وارتقاء الأدب الفارسى والتركى ، وخاصة خلال الحكم العثمانى فى العراق .

وكان الشاعر المشهور فضولى البغدادى[1] على رأس شعراء التركية وهو يمثل ذلك الطراز من الشعراء الذين برعوا فى أكثر من لغة ، فقد كان ينظم بالتركية وبالعربية والفارسية،وليس هذا إلا نتيجة لأن العراق كان بين تيارات أدبية ثلاثة قوية : تيار فارسى قوى يشع من إيران ويظهر قويا بين شيعة النجف وكربلاء وبين الطبقات المثقفة فى العراق أيضاً ، وتيار تركى يشع من بلاط الولاة الأتراك فى العراق ومن الآستانة ومن استمرار استعمال اللغة التركية لغة البلاد الرسمية، هذا إلى جانب استمرار ظهور المؤرخين فى المدن الكبرى العراقية مثل مرتضى نظمى صاحب كلشن خلفا[2] .

ونشطت الثقافة التركية والفارسية فى القرن السابع عشر . وكذلك الثقافة العربية استمرت تسير على منوالها الواهن فى المدارس والجوامع وفى مجالس الشيوخ ورجال الدين والشرع وفى التكايا . ولكن التجديد يكاد يكون معدوماً . وظهرت أسرات اشتغلت بالأدب التركى والعربى[3] ولكن

---

(١) هو محمد بن سليمان البغدادى من عشيرة البيات (العزاوى : تاريخ : جـ ٤ : ٩٨ – ٩٩) .

(٢) عن تاريخ بغداد منذ تأسيسها حتى ١٧١٨ م .

(٣) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٥ : ٣٠ – ٣١٠ .

ابتداء من القرن السابع عشر بدأ العراق يشعر بشيء من الطمأنينة فى عهد حسن باشا ولهذا لمسنا نهضة أدبية فى مهدها :

لقد أضاف حسن باشا إلى أعماله المجيدة عنايته بالأدب وبالأدباء وبأهل العلوم . فكانت مجالس العلم التى يعقدها حافلة بالعلم والأدب وبالبحث فى المنقول والمعقول ، فكان له الفضل فى تشجيع الأدباء على عملهم وفى حديقة الزوراء خير ما يوضح روح ذلك العصر فى التاريخ وفى النظم وفى النثر العربى ، والنثر يعتنى بالمحسنات اللفظية وبالسجع المتكلف (١) ومعانى الشعر ترديد لمعان سبقهم إليها شعراء الماضى .

ويعتبر عهد المماليك عهد الرعاية للنهضة العربية التى بدأت تظهر جلية وتفرض نفسها على مقومات الحياة فى بغداد، بل فى العراق كله ، وظهر العلماء والمدرسون كطبقة لها شأن واضح فى تدبير أمور العراق وفى إصلاح أمر أهله وفى تقدم الأدب نفسه والنهوض به . فقد كان سليمان الكبير مهتما بالمدارس (٢) وشجع الشعراء (٣) واحتضن سليمان الصغير الشيخ على السويدى حتى إنه لم يكن يصدر إلا عن رأيه(٤) .

وهكذا ارتفع شأن العلماء ، واشترك منهم من اشترك فى إدارة أمور البلاد ، وتلقوا بصدر رحب تيار الثقافة الدينية الجديدة الذى هب من شبه الجزيرة العربية — وأعنى بها الدعوة الوهابية . فكانت إحدى الحركات الإصلاحية التى تلقاها العراق وأثرت على حكامه ووجهت إصلاحاتهم

---

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ٦ : ٨٦ .

(٣) المسك الأذفر : ج ١ : ٧٣ .

(٤) من النثر الذى جاء فى حديقة الزوراء جعلهم بعض الضياع .فيكون لهم منها الانتفاع . على شرط أن يذهبوا مع العساكر المنصورة والجنود المجبورة . عبد الرحمن السويدى حديقة الزوراء : ص ٦ .

الداخلية ، بل والسياسية أيضاً ، وسرت هذه الدعوة بين الطبقات المثقفة حتى ظهرت في اتجاهات داود ، وفى معتقداته الدينية (فقد آمن بفكرة منع الغزو بين العشائر وهى فكرة نابعة من مشكلات العراق من هذه الناحية) ، وقد ثبت أن داود أوصى بألا يزين قبره بقباب أو ما شابه ذلك وهذا من صميم الدعوة الوهابية[1] .

وبينما كان تيار الدعوة الوهابية يسرى بين الطبقة المثقفة فى بغداد ويلقى من بعض أفرادها مقاومة عنيفة ، كانت الطريقة النقشبندية[2] . تنتشر بسرعة فى العراق هابطة عليه من كردستان واندفع تيارها منها إلى الشام ومصر ، وهذه الطريقة ظهرت منذ القرن الثانى الهجرى ، ولكن انتشارها فى كردستان ثم فى العراق كان على يد الشيخ خالد النقشبندى . وكان الشيخ مقبلا على العلوم وكان قد ارتحل إلى الهند ليحصل على أصول النقشبندية وينال إجازة الإرشاد . ولما عاد إلى العراق حوالى ١٢٢٢ هـ سنة ١٨٠٧ م استقر فى السليمانية ، وأخذ ينشر طريقته ثم ذهب إلى بغداد وأقام بالتكية القادرية زهاء خمسة أشهر ثم عاد إلى السليمانية فأخذ يرشد الناس وبعد فترة ذاع صيته ونظراً لما كان للشيخ من منزلة عظيمة فى قلوب الكرد فإن محمود باشا البابانى عندما أراد أن يوحد القلوب وأن يوقف الحروب الأهلية فى كردستان عند حد وأن يعيد إلى الأسرة البابانية تماسكها لجأ إلى أن يستحلف إخوته سنة ١٨٢٠ أمام الشيخ خالد النقشبندى بألا يخونوا العهد . ولقد أقسموا وحنثوا فى أيمانهم[3] . بل لا شك أن ذلك التصدع الذى حدث من جديد فى الأسرة البابانية ونقمة أصحاب الطريقة القادرية عليه كان لهما يد فى فراره من السليمانية إلى حمى داود .

وكان داود وعدد كبير من أصفيائه — ومن بينهم مؤرخه عثمان بن

---

(١) مختصر مطالع السعود .

(٢) هذه إحدى الطرق الصوفية أسسها الشيخ محمد النقشبندى الذى ولد سنة ٧١٧ هـ (١٣١٧ م) .

(٣) انظر الفصل الثالث .

سند – يعتقدون فى علم وصلاح الشيخ خالد، ويتمثل ذلك التقدير القوى فى ترحيب داود به عندما أتى إليه وفى الدفاع عنه عندما أرادت الدولة العثمانية أن تنال منه لخوفها من ظهور دعوة أخرى تهددها مثلما هددتها الوهابية منذ وقت وجيز بخطر داهم فى وقت كانت فيه العقول مهيأة لقبول هذه الدعوات الإسلامية(١) .

وكانت هذه الحركات الدينية الصوفية التى تزعمها الشيخ خالد النقشبندى تقابلها حركات أخرى عديدة وأهمها الحركة الدينية التى تزعمها الشيخ أحمد الإحسائى المتوفى حوالى ١٢١٢هـ (١٨٢٦م) وأسس الطريقة التى عرفت باسم الشيخية (٢) وانتشار هذه الطريقة الصوفية وهذه الدعاوى الدينية لم يلق من حكام العـــراق ولا من داود أى عناية منظمة لدراستها ونقدها ، ووقف هـــذه التيارات الدينية المغالية فى تحميل العقيدة الإسلامية معانى وتفسيرات وأحداث لاتقوم إلا على أسس واهية لاتؤدى إلا إلى إضعاف العقيدة نفسها فى قلوب أهلها .

وهكذا كانت الثقافة الدينية النابعة من الطرق الصوفية فى عهد داود من عوامل تفكيك وحدة العراق . وكان المستوى الثقافى بين أفراد الشعب العراقى ضعيفا جدا،وهذا مما سهل على هذه الطرق والدعاوى أن تنتشر فى العراق برغم التطرف الصارخ لبعضها . هذا مع أنه كانت معاهد التعليم عديدة فى العراق ، وكانت المدارس منتشرة فى مدنه الكبرى،وخاصـــة

(١) أطلق داود اسم التكية الخالدية على المدرسة الأحسائية لأن الشيخ خالد اتخذها مقراً له فى بغداد أما الطريقة القادرية فقد أسسها الشيخ عبد القادر . ويقول محمد أمين زكى إن هذه الحوادث وقعت سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) ولكن ريتش حضر هذه الحوادث بنفسه ورواها كما كانت يوماً بعد يوم بتاريخ ١٨٢٠ م فى رحلته .

(٢) ليس المقصود هنا أن نبحث هذه العقائد بل الإشارة فقط إليها لكى نلم بالتيارات الدينية والثقافية التى كانت تموج فى العراق فى عصر داود وموقف داود منها . والشيخية مذهب فرقة من فرق الغلاة أيضاً وهى التى تفرعت عنها الكشفية والركنية والبابية التى خرجت منها البهائية وأتباع صبح أزل . انظر العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٢٩٨ .

فى بغداد والبصرة والسليمانية وكركوك والموصل وقد عرفت المدارس منـــذ العصر العباسى واشتهرت المدرسة المستنصرية فى بغـــداد التى استمرت تؤدى رسالتها حتى عهد داود وبعـــده . وكان اهتمام الولاة العثمانيين بالمدارس أمراً شائعاً فى مصر وفى الشام والعراق إلا أن هذه المدارس كانت مراكز لدراسة الكتب والاستماع إلى المدرس دون أن تنظر فى مشكلات البيئة أو تراقب الحركات الثقافية الدينية منها والأدبية بدقة ، فكانت منعزلة عن المجتمع غير مرتبطة بحاجاته متبعة فى دراستها المنهج التقليدى القديم وهو حفظ الكتب متنا وشرحا ، فجمد خريجو هذه المدارس ولم يظهر أى إبداع وابتكار يذكر فى العراق خلال حكم المماليك حتى عهد داود .

ولقد أدرك داود قيمة التعليم فى تكوين طبقة مثقفة واعية بالعراق تستطيع أن تنهض بالبلاد، ولذلك شجع التعليم فى العراق ورعاه بنفسه وتفقد شئونه ليطمئن على سير الدارسة، ولذلك ارتفع عدد المدارس فى عهده الى ثمان وعشرين مدرسة . منها مدرسة أطلق عليها اسمه ومدرسة على باشا والعادلية والأحمدية والسليمانية والقـــادرية والأعظمية وبنت النقيب ، ومدارس فى الجوامع مثل مدرسة جامع داود باشا ومدرسة جامع الخلفاء وجامع الشيخ شهاب الدين وجامع حسين باشا العتيق والجديد(١) .

وكان التلميذ قبل أن يدخل المدرسة يتلقى مبادئ القراءة والكتابة فى كتاب القرية أو المدينة ولا يبرحه إلا بعد حفظ القرآن ، فإن آنس فى نفسه مقدرة على الاستمرار فى متابعة الدرس دخل المدرسة فيبدأ أولا بدراسة النحو والصرف(٢) وبعد ذلك يكلف بقراءة شىء من

---

(١) الأعظمى مختصر تاريخ بغداد : ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) أول ما يتناول من النحو متن الأجرومية أو شرح الكفراوى على الأجرومية ثم شرح الشيخ خالد عليها بحاشية العطار ثم الأزهرية بحاشيتها ثم شرح القطر بحاشية السجاعى ثم الشذور ثم الفاكهى ثم شرح السيوطى على ألفية ابن مالك ثم شرح الأشمونى عليها بحاشية الصبان ثم مغنى =

الفقه[1] وبعد هذا يكلف بقراءة أصول الفقه وكتب البلاغة والقصائد والتفسير؛ وإذا كان الطالب مجداً درس العروض والقوافى والحساب وكتباً فى فى الهيئة القديمة وكتباً فى الحكمة [2] وكانت بعض المدارس تدرس اللغة الفارسية فيها والتركية [3] وهكذا كانت مناهج المدرسة العراقية متأثرة بتعدد الثقافات فى العراق واعترفت بقوة الثقافتين الفارسية والتركية ويبدو أن الأكراد كانوا من الشعوب التى أولت التعليم أهمية كبيرة ، فإن عدد المدارس فى بلاد الكرد كبيرة ، وتكاد تكون فى كل قرية كردية مدرسة . وقد عرف عن الأكراد حكاماً وشعباً حبهم وحمايتهم للمدارس والعلماء . وكانت السليمانية على رأس مدن كردستان من حيث انتشار المدارس ولا تقل عنها كركوك والموصل فى هذا المضمار . وعلى أى حال لم يكن منهج الدراسة فى مدارس كردستان يختلف كثيراً عنه فى مدارس بغداد والبصرة[4] .

ولم تكن العناية بالمدارس وبالمدرسين مقصورة على الحكام ، بل كان الأهالى يقومون بدور فعال فى نشر التعليم وجمع الكتب وإنشاء المكتبات ووقف الأرزاق على المدرسين وعلى المدارس . وكان منصب التدريس من المناصب ذات الأهمية الكبيرة فى بغداد ، وكان المدرس لايقتصر عمله على المدرسة ، بل أحيانا يكلف بالتدريس فى المدرسة إلى جانب الوعظ فى الجامع الذى ألحقت به المدرسة ويكلف أيضا بالقيام بمهمة الخطيب فى نفس الجامع . وكان داود مهتما كل الاهتمام بالمدرسين وبمدى جدارتهم

= اللبيب لابن هشام ، ومن كتب الصرف الأمثلة والبناء والمراح والمقصود والشافية وماعليها من شروح وحواش وتقارير . انظر محمد بهجة الأثرى : أعلام العراق ٩١ .

(١) كان لكل مذهب كتبه المعينة . وكان كل طالب يختار لنفسه مذهباً وهكذا كان المذهب يحدد المنهج المقرر على الطالب أعلام العراق : ٩١ .

(٢) أعلام العراق ٩١ . (٣) المماليك فى العراق : ١٩٢ – ١٩٣ .

(٤) انظر الدكتور بله شيركوه . القضية الكردية : ٣٨ وانظر أيضاً محمد القزلجى . التعريف بمساجد السليمانية : ٢٣ – ٢٤ .

وأهليتهم للقيام بمهـــام التدريس فكان أحيانا يطلب أن تكتب له قائمة بعدد الطلبة والدروس التى يلقيها أحد المدرسين .

وكان للطالب حرية الانتقال من مدرسة إلى أخرى أو من مدرس لآخر(١) وهذا الأسلوب فى التربية الحديثة ينـــادى به اليوم : « دع الطالب يعمل ما يشاء ومع من يحب » على أن هذه الفكرة السامية فى التربية كانت تفقد مميزاتها بسبب جمود الشيخ والكتاب .

وإلى جانب هذا التعليم فى المدارس كان هناك نوعان آخران من التعليم فى الجوامع والتعليم فى المنازل .

وكانت الجوامع تقوم بدور كبير فى تثقيف الخاصة من الشعب والعامة منه ، فقد كان لكل جامع واعظ يقوم بوعظ الناس عامة ؛ ومن تفوق على أقرانه فى هذا المضمار حضر إليه كبار الحكام ليستمعوا إلى وعظه وترتفع مكانته ويحصل على منصب خطيب الحضرة الأعظمية .

أما التعليم فى المنازل فكان مقصوراً على أبناء علية القوم وكان الشيوخ هم الذين يقومون بتعليم البنات وقد ظهرت فى عهد المماليك سيدات على جانب كبير من الثقافة والتعليم ومنهن من شجعت على تدوين تاريخ العراق(٢) .

وكانت حركة التاريخ هذه نشطة تسير جنباً إلى جنب مع ارتقاء الأدب وفروعه، وخاصة فى عهد داود الذى اعتنى بفروع الأدب التقليدية وبالتاريخ بوجه خاص . وتزعم هذه الحركة أديب وشاعر عربى نجدى هو الشيخ عثمان بن سند وأديب تركى هو رسول حاوى صاحب دوحة الوزراء .

كان عثمان بن سند مشغوفاً بالنظم التعليمى وبالمحسنات اللفظية وله من المؤلفات مطالع السعود بطيب أخبار الوالى داود، وهذا المؤلف ليس تاريخيا كله وإن كان القصد منه التاريخ والترجمة لداود بل إن معظم ما كتبه عثمان بن سند كان شعراً من تأليفه ونقـــدا لشعراء آخرين وله غير هذا

---

(١) حديقة الورود : ج ١ ورقة ٥ — ٦ ، ١١ ، الروض الأزهر : ٤٧ — ٤٨ .

(٢) تذكرة الشعراء : ص ٢٥ .

«أصفى الموارد من سلسال الشيخ خالد النقشبندى» ، وله أيضا سبائك العسجد والصارم القرضاب . وكان مقر عثمان بن سند فى أول الأمر بالبصرة وكان صيته قد ذاع فيها،وكانت علاقته بداود سابقة لتولى الأخير الباشوية . فعكف بعد ذلك على تأليف كتاب فى الوزير ولكن بعده عن بغداد عقد المهمة فاستدعاه الوزير إلى بغداد فأتاه فى ١٢ ذى الحجة (١٨٢٥ م) وأخذ يكتب[1] .

والواقع أن صلات داود بأدباء عصره كانت قوية جداً قبل توليه الباشوية ، وكان يحرص على تلقى العلوم على كبار العلماء فى ذلك العصر بعد أن تولى الباشوية أيضاً . ومن هؤلاء الذين لمع اسمهم فى ميدان العلم وممن درس عليهم داود السيد حسن جمل الليل (زين العابدين) المتوفى سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠) وكان تاريخ إجازته لداود سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧) وكان هذا الشيخ من المشهورين فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت وكان له نشاط فى الحجاز أثار شكوك محمد على والى مصر[2] .

ومن أولئك الذين درس عليهم داود الشيخ على بن محمد السويدى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣) وكانت إجازته لداود بتاريخ ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) وهى متضمنة على الحديث وغيره ، ولم يقتصر داود فى توسعه فى الدراسة على العلماء العرب،بل كان يدرس على العلماء الأكراد أيضاً :

ويضرب داود مثلا رائعاً للحاكم الذى يقبل على تلقى العلم من العلماء وفى الوقت نفسه يفيد هو الناس من علمه ومن دراساته المستفيضة ولا يمكننا أن نحصر عدد هؤلاء الذين تلقوا العلم عنه وذلك لأنهم « جماعة يطول شرحهم »[3]

---

(١) مختصر مطالع السعود : نشرة الخطيب : المقدمة : ص ٦٣ .

(٢) الوثائق التاريخية : دفتر ٧ : معية تركى : أمر رقم ١٢٩ بتاريخ ١٠ رجب ١٢٣٥ من محمد على إلى حسين بك محافظ المدينة .

(٣) هناك إجازات أخرى لداود ولكن نضرب هنا أمثلة فقط . انظر تذكرة الشعراء ٩٥ وانظر كذلك مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٦٣ — ٦٤ .

ولا شك أن تولية داود الباشوية كانت ذات صدى ضخم فى الأوساط العلمية والأدبية فى العراق من كردستان إلى البصرة . فإن إلقاء نظرة سريعه على تراجم الشعراء والأدباء فى عصر داود[1] ، تبين أن عدداً ليس بالقليل من الأدباء والشعراء هاجر إلى بغداد من كركوك والبصرة والموصل وكانت حركة الهجرة هذه قبل تولى داود الباشوية ،ولكنها اشتدت فى عهده ولذلك زادت فى عصره التصانيف والتآليف المختلفة.وأصبح العلماء يتسابقون على التقرب إليه بتأليف الكتب له . وفى ذيل كشف الظنون[2] أسماء هذه المؤلفات العديدة ، وفى الخزانة الوقفية ببغداد معظم هذه المؤلفات :

ولا شك أن اهتمام الأكراد بالعلوم وبالمدارس كان من العوامل التى أدت إلى تخريج هذا العدد الكبير الذى عاصر حكم داود وأغدق عليهم داود مبالغ ضخمة لتشجيع الإنتاج الأدبى وفى الوقت نفسه ينتفع بهم فى ديوانه . وكانت كركوك تنافس فى هذا المضمار الأدبى الموصل التى خرجت ياسين بن خير الله الخطيب العمرى المؤرخ والأديب الموصلى . فقد كانت الحياة الأدبية منتعشة فى كركوك ، وكان الميل إلى الأدب التركى والفارسى واضحاً فيها ، وتكاد تكون التركية هى الشائعة هناك.وظلت كركوك منذ أيام الفتح العثمانى حتى عهد داود وبعده مصدراً لا ينضب للموظفين الأتراك ، ولكن الحكم كان بيد المماليك ولذلك اقتصرت وظائف الأدباء على وظيفة كاتب ديوان فىالغالب فضـــلا عن أن المماليك كانوا يتربون ويتدربون وفق تربية عسكرية أهلتهم لأن يتولوا الحكم فى العراق[3].

وكان مما ساعد على نشر الثقافة عناية الحكام والأهالى بإنشاء المكتبات فى كبريات المدن . فقد كانت فى قلعة جولان (فى السليمانية) مكتبة . وكونعلى باشا والى بغداد (١٨٠٢) — (١٨٠٧) مكتبةلزينالدين جمل الليل

---

(١) تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها أيام وزارة المرحوم داود باشا .

(٢) انظر ذيل كشف الظنون وكذلك فى الكشاف .

(٣) عباس العزاوى : الكاكائية فى التاريخ ص ٤٥ .

وانظر تربية المماليك فى الفصل الأول .

وجمع الأهـــالى مكتبة عناية الله أغا خازندار داود باشا فى جامع تازلده خاتون ولكنها للأسف احترقت[1] :

وإلى جانب هذه النهضة الأدبية التعليمية القوية — التى اعتبر داود زعيمها ومشجعها الأول — امتاز داود عن غيره من الحكام المهتمين بالأدب وبالأدباء بأنه اكتشف اثنين كان لهما أثر واضح فى السرعة التى سارت بها النهضة الأدبية بعد عصر المماليك . فقد اكتشف داود كلا من أبى الثناء الألوسى وعبد الغفار الأخرس صاحب ديوان الطراز الأنفس أروع دواوين ذلك العصر[2] :

ولد عبد الغفار الأخرس فى الموصل سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥م) ثم رحل إلى بغداد حيث نشأ هناك وأخذ يتردد بين البصرة وبغداد ، فكان ذلك من الأسباب التى جعلته يلتقى بداود وقد ظهرت عليه مبادئ التفوق فى الشعر فاعتنى به الوزير كل العناية ، ولما كان عبد الغفار الأخرس مصاباً بمرض فى لسانه عرض عليه داود أن يذهب إلى الهند ليعالج هناك على نفقته[3] وفى نفس الوقت تقريبا ،كان داود ينظر بعين الارتياح إلى نمو وتفوق أبى الثناء الألوسى[4] صاحب المؤلفات العديدة التى من أشهرها غرائب الاغتراب وروح المعانى [5] الذى لايزال يعتبر من أمهات كتب التفسير . ولقد أثمرت عناية داود بالأدباء والشعراء ، فقد وقف أبو الثناء هذا وقفة صادقة إلى جانب داود خلال حصار على رضا باشا لبغداد سنة ١٨٣١م : وبذلك نسب إليه من حادثة الحصار مانسب ، وشن عليه الأعداء غارة البهتان والكذب حتى أغلظوا قلب الوزير عليه فضاقت عليه الأرض

---

(١) مصطفى الواعظ : الروض الأزهر : ٤٢ .

(٢) كان صالح التميمى من الشعراء الكبار ولكنى سأقتصر على عبد الغفار لأنه أعظم الشعراء .

(٣) مجموعة عبد الغفار الأخرس فى شعر الأستاذ عبد الغنى جميل : ٤

(٤) المتوفى سنة ١٨٥٥

(٥) انظر روح المعانى : تأليف أبى الثناء الآلوسى .

برحبها إلى أن أقبل عبد الغنى جميـــل مفتى الحنفية فلم ير مزيلا لخوفه ووجله مثل الانتماء إليه والإقامة فى داره (١) .

وقد سار على رضا باشا على أسلوب داود فى رعايته للنهضة الأدبية والعلمية . ولعله وجد أن من الخطر استخدام الإرهاب والعقاب لضرب أعوان الوزير من الأدباء فآثر أن يقربهم منه ليستخدمهم فى توطيد أركان حكمه .. ولقد استطاع فعلا أن يحقق هدفه هذا .. ولكن كان غير قادر على أن يسير إلى النهاية فى هذا الطريق ، وفشل فى نهاية الأمر فى توطيد علاقته بأدباء عصره وعلى رأسهم عبد الغنى جميل نفسه وعبد الغفار الأخرس . وفى شعر الأخرس — فى ديوانه وفى مجموعته — من الأبيات ما يوحى إلى أن القومية العربية كانت قوية فى نفس أدباء ذلك العصر ... فقد كان الأخرس يهاجم ميل العراقيين للأجنبى وتوزعهم وتفرقهم إلى فرق متعادية وأحزاب متقاتلة ... وهكذا كانت الحركة الفكرية التى تمت فى عهد داود الشعلة الأولى التى أدت إلى الحركة العلمية الأدبية التى انطلقت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى العراق .

وإلى جانب هذه التيارات الثقافية الأدبية التعليمية كانت فى العراق حركة تعليمية ثقافية مسيحية أيضاً . وكانت الأديرة والكنائس مراكز هذه الثقافة . ومنذ أن بدأ الأوربيون فى القرن السادس عشر والسابع عشر يسيطرون على الخليج العربى دارت رحى المنافســـات الاستعمارية على مياه الخليج وكانت أساطيل الغرب — التى أتت لتضرب جناح المسلمين من خلف — تحمل معدات غزو للعالم الإسلامى من نوع آخر وأعنى به الغزو الثقافى الأوربى الذى يحمل جزءاً من الحضارة الأوربية والتفكير الأوربى . فقد كان للكرمليين دار فى البصرة . وأصبحت هناك عدة مؤسسات دينية

---

(١) حديقة الورد : ورقة ١ : ١٢ .

للأوربيين فى البصرة . ولكن الحركة التبشيرية – ومعها الحركة التعليمية المسيحية – لم تنشط بشكل ملحوظ إلا فى أواخر القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر ، وخاصة فى عهد القنصل ريتش فى العراق (١٨٠٨–١٨٢٠) على أن المدارس الأجنبية كانت موجودة قبل عهد داود فقد كان هناك مدرستان للأرمن فى بغداد .

ولما كانت المؤسسات الفرنسية فى البصرة كاثوليكية وذات نفوذ – حيث كان البنات يتعلمن اللغة العربية وشغل الإبرة – عمل الإنجليز على أن يواجهوا هذا النفوذ الفرنسى الدينى بنفوذ إنجليزى أيضاً . وكان النفوذ الفرنسى الدينى هو الذى تبقى للفرنسيين فى العراق فاتجه الإنجليز إلى أن يقوضوا هذه الدعامة الأخيرة للنفوذ الفرنسى فى العراق ولذلك جاء المبشر الإنجليزى جروفز Groves وزوجته إلى العراق وكلاهما بروتستانتى ليقوما بحركة تبشيرية تعليمية واسعة النطاق فى العراق وخارجه إن أمكن . وشجعهم على ذلك نشاط التجارة الإنجليزية .

أسس جروفز مدرسة لتعليم الإنجليزية والعربية وكان يقوم هو بالتدريس فيها كما كان يقوم مدرس بتدريس العربية . وكان جروفز على اتصال ببوشهر والموصل ليعرف مدى تقدم المدارس الإنجليزية فى بوشهر وليدرس الإمكانيات التى تسهل إنشاء مدرسة فى الموصل .

وكان جروفز مضطراً إلى استيراد الكتب المطبوعة لتعليم اللغة العربية من مالطة ،وقد لقيت هذه الكتب الأجنبية مقاومة فى أوساط بغداد العلمية ومقاومة من الكاثوليك أيضا . وأراد جروفز أن يتخلص من مشكلة استيراد الكتب من الخارج فعمل على إحضار آلة طباعة ،وقد وصلت هذه الآلة فعلا إلى البصرة سنة ١٨٣٠ ،ولكن ظروف القتال بين داود وعلى رضا لم تسمح بإحضارها إلى بغداد[١] .

---

(١) Longrigg: Op. Cit. P. III & Groves: Op. Cit. PP. 5,8,22,27,53,67

ويقال إن داود أحضر إلى بغداد مطبعة وأن كتاب دوحة الوزراء طبع فى هذه المطبعة . وقد دار جدل طويل حول هذه المسأله وأغلب الظن أنه لم توجد هناك مطبعة فى عهد داود وذلك لأن طبع كتاب واحد فقط بها أمر يثير الشك فعلا[1] .

ويمكن أن نقول إنه كانت هناك محاولتان لإحضار آلات طباعة إلى العراق ، ربما فكر داود وعمل على إحضار واحدة وحاول جروفز أن يحضر أخرى إلى العراق لتخدم أغراضه .

وأخيراً كانت حركات جروفز وأتباعه وغيره من المسيحيين - التبشيرية منها أو التعلمية - تسير دون أن تتعرض لمعارضة تذكر من جانب داود .

نمو القوة العسكرية على عهد داود :

اعتمد المماليك فى الدفاع عن بغداد وعن العراق كله على قوات مملوكية ، مدربة وفق ذلك النظام الذى وضع منذ أيام حسن باشا (١٧٠٤ - ١٧٢٣) وعلى قوات عشائرية عربية وكردية ، وقوات مجندة محليا وعلى أسوار المدن التى يرجع تاريخ بعضها إلى العصر العباسى وكانت الإنكشارية - التى تدهور نظامها - مكلفة بالدفاع عن المدن .

وهكذا كانت القوات المملوكية المعدة إعداداً خاصاً - لاتتحمل وحدها عبء الدفاع عن العراق ولو أراد الباشا ذلك لأصبح فى حاجة إلى شراء أعداد كبيرة من المماليك وانتظار فترة ليست بالقصيرة حتى يتم تدريبهم . ولقد اضطر سليمان الكبير (١٧٨٠ - ١٨٠٢) إلى أن يشترى عدداً كبيراً من المماليك بسبب طاعون سنة ١٧٨٢ والحرب الإيرانية سنة ١٧٧٥ ومحاولة الباب العالى إبعاد المماليك عن الحكم (١٧٧٥ - ١٧٧٦) وتشتت كتائب المماليك على طول البلاد وعرضها ، وقوة الثورات

(١) يعقوب سركيس : ج ٢ : ص ٣٦٨ - ٣٧٢ .

الكردية والعربية . ولم يكن غرضه من شراء وتربية المماليك أن يستخدمهم فى الجيش فقط . بل ليملأ بهم أيضا وظائف الدولة المدنية والعسكرية . وكان داود من بين هؤلاء المماليك الجدد الذين جلبهم ونشأهم سليمان باشا الكبير .

وقد ظهرت براعة المماليك العسكرية بقيادة داود أفندى فى موقعة كفرى ١٨١٢ م حيث تفوق التدريب العسكرى المنظم والانسجام فى خطط الدفاع على قوات العصبية الكردية السريعة الحركة العنيفة فى الهجوم لأنها عاجزة عن أن تسير فى كل حركاتها فى ميدان المعركة عند الكر والفر — فى نظام وانسجام وفق خطة معينة .

ولذلك كانت القوة المملوكية برغم صغرها وبرغم توقف ورود المماليك من جورجيا منذ سقوطها فى يد الروس هى التى ترجح كفة على أخرى مثلما حدث فى المعركة بين سعيد وعبد الله سنة ١٨١٣ فقد كان انتقال المماليك إلى جانب سعيد ، وعلى رأسهم داود أفنـــدى من العوامل الأساسية التى قضت على عبد الله وتكررت نفس الصورة خلال الصراع بين سعيد وداود فكانت الكفة الراجحة لداود لأنه كسب ولاء المماليك ومحبتهم فانضموا إليه .

على أن هذه المعارك أثبتت بصورة قاطعة أن القوات المملوكية وحدها لم تعد قادرة على أن تقوم بمهمتها خير قيام ، ولذلك كان الوزير المملوكى منذ عهد عبد الله باشا لايتولى الباشوية إلا إذا حصل على تأييد إحـــدى قوتين : بابان أو المنتفق . وهذا يفسر لنا الاعتماد الزائد على العصبيات .

وكانت هناك عشائر مكلفة بالخدمة العسكرية مثل عشيرة العقيل النجدية والبيات التركية والديزه يى والشامك الكرديتين . وكانت عشيرة عقيل تنزل فى ضاحية بغداد المسماة (قشلر قلعة سى) أو قلعة الطيور ، وهى متصلة ببغداد بجسر مقام على قوارب ، وقد حصلت على امتيازات مالية منذ سنين عديدة فى مقابل الخدمة العسكرية وكذلك عشيرة البيات

التى منحت قطعة من الأرض مغطاة . وبوسع هذه العشيرة أن تجمع ألف فارس وهى تنزل قرب توزخورماتو وكذلك عمل الوزير على أن يستخدم عشيرة الديزه يى الكردية كقوة من قواته الضاربة فقصلها عن تبعيتها لكوى سنجق وأربل وجعلها تحت سلطته مباشرة (١) ولدينا عدة إحصاءات عن الجيش الذى كان يستخدمه المماليك وهى خير مايوضح لنا قيمة هذا الجيش وتكوينه :

قدم لنا الرحالة الفرنسى دبريه Dupré, (٢) قائمة عن الجيش فى عهد سليمان باشا الصغير .. (١٨٠٧ - ١٨١٠) .

جند الباشا الموظفون	٥ر٠٠٠
العرب التابعون لبغداد	٢٠ر٠٠٠ وهو يشك فى صحة هذا الرقم
ماردين ومايتبعها	٢ر٠٠٠
زهاو	١ر٥٠٠
كركوك أربل التون كوبرى	٣ر٠٠٠
كوى سنجق	٢ر٥٠٠
السليمانية	٤ر٠٠٠
عدد	٣٨ر٠٠٠ مقاتل

وفى عهد سعيد باشا (١٨١٣ - ١٨١٦) قدر هود Heude عدد الجيش خلال النزاع بين داود وسعيد الذى يستطيع أن ينزله الباشا فى الميدان بحوالى أربعين ألف مقاتل معظمهم انكشارية وقوات عشائرية وأن هذا الجيش غير مدرب على خوض المعارك المنتظمة(٣) .

أما بورتر Porter فإنه يقدر جيش باشوية بغداد لسنة ١٨١٨ فى أوائل عهد داود بحوالى عشرة آلاف مقاتل ، وأن فى استطاعة الباشا مضاعفة هذا العدد بالاستعانة بالعشائر العربية وكركوك والسليمانية وأربل

(١) رحلة ريج : ٢٤٣ . Huart : op. cit. II, 206-7

(٢) Dupré : Voyage en Perse Vol. I. P. 162

(٣) Heude : Op. lit., P. 181—1

والمرتزقة . وأن الباشا ليس لديه سوى ٣ – ٤ مدافع . وهناك فى سراى الباشا قوة منظمة من المماليك ولا يستخدم داود هذه القوة إلا نادراً وهذه القوة تلازمه وتتبعه دائماً(١) .

وفى سنة ١٨٢٠ كتب المنشى البغدادى قائمة وافية لجيش داود وحدد العشائر والقوات التى كانت تحت يد داود خلال حربه ضد إيران ، وكانت قائمته على النحو التالى :

– الخيالة من أرباب المناصب المرافقين للباشا	٢٠٠٠ فارس
– غلمان الكيخيا	٥٠٠ »
– أغوات بغداد	٢٠٠ »
– بيارق اللاوند	١٠٠٠ »
– الانكشارية	١١٠٠ مشاة
– مشاة تكريت وانكشاريتها	٥٠٠ مشاة

– رجال المدفعية ورجال العربات (عرباتية)

– مدفعية الزمبرك وما يتعلق بها .

– عشائر العبيد والملية وطى والبيات والجبور والبو فرج والقراغول والدليم والعنبكية وشمر طوقة والدفافعة والسواكن والأسلم والبو هيازع والبو علقة والرواشد والعزة والبو سعد وبنى صبيح والمجمع والقشعم وزبيد والبطة وخفاجةوالمعدان (ومن الصعب تحديد تعداد القوات العشائرية) .

– مشاة العقيل . ١٠٠٠ راجل

أما سليمان فائق فيقدم لنا قائمة أخرى تتضمن(٢) :

١ – أغوات الداخل (فرسان)	١٢٠٠
٢ – جقدار ومهتر	٣٠٠

(١) Porter: Travels in Georgia, Persia, II, P. 253, 254

(٢) بغداد كوله من : ٩٠ .

٣ — أتباع الكيخيا وأتباع أغوات الخارج ١٣٠٠
٤ — جيش اللاوند ١٥٠٠
٥ — المشاه القلبقلية ١٥٠٠
٦ — رماة البنادق (تفنكجيلر) ٥٠٠
٧ — عسكر عقيل ٥٠٠٠
٨ — مدفعيون ٥٠٠

وتعداد هؤلاء حوالى اثنى عشر ألفاً وخمسمائة مقاتل .

وأغوات الداخل هم أغوات المماليك، والجوقدار منصب من مناصب السراى فى خدمة الباشا . أما اللاوند فجند شبه نظامى وهو فى العراق مكون فى الغالب من الأكراد ، والقلبقلية فى جيش داود كانوا جنوداً نظاميين يرتدون سراويل ملونة وصداراً وأما التفنكجيلر (رماة البنادق) فيرتدون ملابس مشابهة لملابس القلبقلية ولكن لونها أحمر للتمييز عند خوض المعارك وهؤلاء لهم مدرستهم التى يتدربون فيها .

ورؤساء هذه القوات يتدرجون من أون باشية إلى يوزباشية ولكن بنادق هذه القوات كانت من أنواع قديمة إلا أنها كانت على أى حال أحسن من بنادق العقيل التى كانت بالفتيل ولكن شجاعة هذه العشيرة وجلدها الشديد فى القتال عوضها عن سوء حال أسلحتها .

كل الجنود السابقة الذكر عساكر موظفة لها مرتباتها المنتظمة وهى دائماً تحت السلاح . على أن داود كان يستطيع أن يجمع قوات أخرى عديدة من سناجق بابان وكوى وزهاب والعمادية . وحاكم السليمانية وحده يستطيع أن يقدم للباشا عشرة آلاف مقاتل . وكذلك تأتيه العساكر من كركوك والموصل والحلة ومندلى . وعند النفير العام تأتى العشائر الكردية والعربية حتى إن الباشا يستطيع أن يجمع حوالى ٣٠ ألف مقاتل .

وخلال الحرب ضد إيران ١٨٢٠ — ١٨٢٣ وقف الباشا وحده

تقريباً ضد الجيوش الإيرانية وحلفائها البابانيين[1] فأمدته الدولة بحوالى عشرة آلاف مقاتل فاستبقى نصف هذه القوة وبقيت فى خـدمته إلى نهاية حكمه وهذا يدلنا على أن داود أيضاً كان يتجه إلى أن يؤلف قواته من رجال يرتبطون به هو لا بالأرض ولا بالعشيرة ، هذا إلى جانب استخدامه للعشائر العربية الموالية مثل الخزاعل وشمر الجربا .

ولقد كانت الحرب الإيرانية درساً لداود فقد واجه عدواً كبيراً وقدر قيمة النظم الحديثة فى تشكيل الجيوش ولذلك استقدم دفو Devaux وكان له فضل فى انتصارات الإيرانيين على جيش بغداد سنة ١٢٣٦ (١٨٢٠م) وأسند إليه أمر تدريب الجيش وفق النظم الحديثة .

كان من الطبيعى أن يهب الإنجليز لمقاومة اتجاه الباشا نحو الاستعانة بالفرنسيين فى الجيش البغدادى فإن ذلك فى الواقع يؤدى إلى احتمال تأليف جيش بغدادى ينظر بعين الريبة والشك إلى الإنجليز ويصبح العراق أكثر بعداً عن المؤثرات والأهداف الإنجليزية . لهذه الأسباب سعى المقيم البريطانى تيلر Tayler — خليفة ريتش Rich — إلى إبعاد ديفو عن قيادة الجيش البغـدادى . وكانت هـذه هى الخطوة الأولى التى وضعها الإنجليز للسيطرة على العراق بالسيطرة على قواته العسكرية . فلم يكن غرضه فقط أن يعزل ديفو عن القيادة بل كان يرمى إلى إحـلال إنجليزى فى هذه القيادة . وكان داود فى حقيقة الأمر فى حاجة إلى عقلية أوربية تتولى أمر هذا الإصلاح العسكرى .

وأغلب الظن أن داود لم يوافق على هذا العرض لأننا لم نسمع عن مجىء قوات إنجليزية إلى العراق كما أن ديفو ظل قائداً عاماً للقوات النظامية حتى آخر يوم من أيام داود فى بغداد .

---

(١) ترجم له :

E. Flandin: Voyage en Perse (1840-1841) Paris, 1851, II P. 520

Fontanier: Voyage dans l'Inde, I. P. 192

وعلى أى حال فقد نشط ديفو فى تدريب الجيش الجديد . وكان يتألف من قوات الباشا المملوكية . فكانت عدة آلاف من الجند تتمرن على استخدام الأسلحة وفق النظم الحديثة .

وفى الوقت نفسه رفع عدد رجال المدفعية إلى ألفى جندى واهتم بسلاح المدفعية لما كان لها من أثر حاسم فى حروب القرن التاسع عشر . ولكى يؤلف داود فرقاً مشاة قوية لبلاده كان عليه أن يتبع أحد أمرين:

١ ــ أن يشترى المدافع والبنادق باستمرار كلما أعوزته مثلما كان يفعل أسلافه .

٢ ــ أو أن يشترى مصنعا للبنادق يكفى حاجاته من هذه الناحية .

وكان المصدر الذى اعتاد المماليك أن يشتروا منه السلاح هو الهند البريطانية . ولكن الإنجليز كانوا يبيعون الأسلحة ويمسكون عن بيعها وفق اتجاهاتهم وأطماعهم السياسية . ولذلك اتبع داود خطة مزدوجة ، فاشترى مصنعاً للبنادق من أوربا لامن الهند وجلب الفنيين لإدارته وأخذ يلح فى طلب الأسلحة والسفن من الهند فى نفس الوقت . والواقع أن حاجته إلى الأسلحة والسفن من الهند كانت قوية وقد وقف الإنجليز فى إصرار ضد رغباته المتكررة فى أن يمدوه بالسلاح والذخائر وغرض الإنجليز واضح هو إبقاء العراق ضعيفاً ليستطيعوا أن ينفذوا أغراضهم هناك وفى الخليج العربى .

ومع أن المقاومة الإنجليزية لهذا الإصلاح العسكرى كانت عنيدة فى الفترة بين ١٨٢٦ ــ ١٨٢٩ فلم تحل هذه المقاومة دون تولى ضباط إنجليز القيادة فى جيش داود . على أن هذا الاتجاه نحو الاستعانه بالضباط الإنجليز جاء فى أواخر أيام داود نظراً للتفاهم القوى الذى تم بين تايلور وداود حول إنشاء خطوط المواصلات النهرية البخارية بين الهند وأوربا عبر العراق . فقد تولى أخو تايلور نفسه قيادة فرقة من الخيالة النظامية سنة ١٨٣٠ .

وأكمل داود إصلاحه العسكرى بأن رصد لهذه القوات النظامية المرتبات التى تصرف بانتظام وأسس مصانع المنسوجات لتفى بحاجات الجيش(١) .

وكانت أسوار المدن من الوسائل الدفاعية الهامة فقد كان عدد كبير من مدن العراق المهمة محاطاً بأسوار وإن كانت هذه الأسوار لا تضارع أسوار بغداد التى كتب لها تاريخ مجيد خلال الحروب بين الدولة العثمانية والإيرانية فى القرون الثلاثة الأخيرة . وكانت أسوار بغداد من بقايا الأسوار التى بنيت فى عهد العباسيين ثم أجريت فيها إصلاحات وإضافات بعد ذلك ، وهذه الأسوار كانت مبنية من الطوب الأحمر المحروق وحولها خندق يملأ من دجلة عند اللزوم وبهذه الأسوار أبراج عالية كبيرة عند الزوايا الهامة كما أن بها أبراجاً صغيرة عديدة ، وعلى تلك الأبراج أعدت أماكن لتوضع عليها بطاريات المدافع وكان عـــدد المدافع سنة ١٨١٦ حوالى خمسين مدفعاً ولكن عدم وجود خبراء فى هذه المدافع أدى إلى أنها وضعت على صورة تدل على عدم اتباع الأساليب الحديثة فى استخدام المدفعية .

وفى الشمال الغربى من المدينة عند الزاوية المحصورة بين الأسوار ودجلة توجد القلعة وهى مبنية من حجارة بيضاء وتسيطر بمدافعها على المدينة وتستخدم أيضاً كدار للسلاح ومخازن للذخيرة ولكن موقعها لم يعد يتمشى مع النظريات الحربية الحديثة .

أما البصرة فكانت تحميها أسوار من اللبن وعدة أبراج دائرية الشكل لا تصلح مطلقاً إلا لمواجهة الأعداء التقليديين ولم يكن لدى متسلم البصرة فى أول عهد داود سوى قوة برية كانت تتألف من ١٥٠٠ خيال وخمسة بيارق من المشاه وتعداد كل بيرق هو مائة رام بالبندقية هذا إلى جانب حرس خاص بالمتسلم . ويرتدى أفراد هذه البيارق ملابس

---

(١) بغداد كوله من : ٣٨ .

Coke: Bagdad the City of peace: P. 255; Groves: Op. Cit. P. 29

خاصة بهم[1] واهتم داود كل الاهتمام بالبصرة ليجعلها قادرة على مواجهة خطر هجوم المنتفق عليها بأن قوى حاميتها وبذلك استطاعت تلك الحامية أن تصمد بنجاح أمام الهجوم الذى شنته قوات المنتفق التى كانت تعاونها قطع من أسطول مسقط[2]، وكذلك اهتم داود بتحصين ماردين فقد عمرت طوابيها فى عهده[3] . كما طلب من محمود البابانى سنة ١٨٢١ أن يبنى حصناً فى السليمانية وقرر أن يزوده بالمدافع[4] .

لقد بذل داود مجهودات عظيمة فى سبيل إعداد جيش كبير ليخوض به المعارك ويقضى على تلك الفوضى التى انتشرت فى ربوع العراق ولكن الطاعون سنة ١٨٣١ أفنى ذلك الجيش فحرمه من تلك الدعامة الكبرى التى كان يعلق عليها الآمال الجسام .

(١) Buckingham: Travels in Assyria, II, P. 151

(٢) انظر الفصل الثالث .

(٣) تاريخ ماردين ورقة ١٥٧

(٤) رحلة ريج : ٩٤

خاتمة

ينظر المؤرخون إلى داود باشا وإلى تاريخه وأعماله نظرات مختلفة كل الاختلاف . فأصحاب الحركة الفكرية والأدبية فى العراق يضفون عليه من النعـوت والألقاب ما سما به فـوق مراتب العباقرة من الحكام . وللأدب خياله الطليق المتحرر من قيود الحقائق(١) . فهو عندهم رائد الحركة الفكرية فى العراق ، وواضع اللبنة الأولى فى صرح النهضة الأدبية العظيمة التى شهدها العراق منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومن الكتاب العراقيين من حمله مسئوليات ضعف العراق وابتزازه الأموال دون وجه حق ، وأنه لا يفترق عن غيره فى إرهاق الشعب والقسوة عليه(٢) ويقف سليمان فائق — المؤرخ التركى — بين الطرفين ، فهو يقرر فضل داود على العراق ، ثم ينحى عليه باللائمة فيقول إنه تجاوز الحد فى جلب المال وادخاره . . . وكل هذا لا يمنع أن له مآثر لا تنكر ، وذكر شيئاً عن عمائره واستطرد قائلا « وصار له من الأولاد نحو الأربعين من الذكور فلم يعمر منهم أحد وتجرع مرارة وفاتهم فى حياته والظاهر أن البارى تعالى عاقبه بذلك من جراء عمله فى قتل ابن سيده ، وهو سلفه سعيد باشا(٣) » .

---

(١) إليك نموذجاً من الأوصاف والنعوت التى أطلقها أصحاب الحركة الفكرية فى العراق على داود باشا : « حتى رفع الأمر إلى الوالى ذى المقام العالى من لان فى البأس له الحديد وفاق ملوك الأرض برأى سديد خاتمة بنى الآداب ومقدمة هوى الألباب ، وفصل الخطاب حضرة الخليفة الأكبر ، والفاضل الأشهر داود باشا .

انظر عبد الفتاح الشواف : حديقة الورود : جـ ١ ورقة ١١ .

وانظر « تذكرة الشعراء » : ص ٥ .

(٢) وصفه كاتب معاصر بقوله : « أن وقائعه لا تذكر لقبحها وليس له عادة حسنة كي يعتنى المؤرخون بذكرها . . . أسس أشياء من الظلم مالا يخطر فى قلب فرعون وكان بخيلا جداً مع زيادة أمواله ، يغصب الناس أموالهم ظلماً وعدواناً .

انظر التاريخ المجهول المؤلف : العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ٣٢١ .

(٣) مرآة الزوراء : ٥٩ عن عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٣٢٠ .

وهــذا الحــكم الذى أصــدره سليمان فائق عــلى داود فيه شيء من التحامل على الرجل وفيه أثر واضح للعاطفة وللصورة المحزنة المشوهة التى انتهت بها حياة سعيد ، ويرى أن الله عاقبه فى أولاده ، ونحن نتضاءل أمام حكمة الله فى العقاب والثواب ؟

أما المؤرخون الإنجليز فينظرون إليه على أنه حاكم شرقى مستبد قاس ليس له أهداف سامية إذا ضرب عشيرة أو أعدم ثائراً وإنما يصدر ذلك عن هوى فى نفسه وجشع ،وهم يسمعون عنه كل خير فى بعض الأحيان ولكنهم كونوا عنه صورة كانت بشعة . وقد شوه الإنجليز سمعة داود وحاسبوه وفق القواعد التى يحاسب بها حكام القرن العشرين . وهذا الاتجاه الواضح فى كتابات الإنجليز[1] يرجع إلى موقف داود الشديد من النفوذ الإنجليزى فى العراق ومقاومته له .

وبالعكس كانت نظرة من كتب عنه من المؤرخين والكتاب الفرنسيين[2] فيضعه هؤلاء فى مصاف — ساسة الشرق الذين تنبهوا إلى أن الإنجليز يعملون على احتلال العراق وعملوا على إنقاذ العراق من براثنهم ، فامتدحوا وقفته إزاء ريتش Rich واعتماده على دفو الفرنسى Devaux فى تدريب جيشه .

إن داود فى تفكيره وفى أهدافه السياسية كان يرمى إلى توحيد العراق وتخليصه من النفوذ الأجنبى أو الإيرانى بالاعتماد على العراق وعلى قواه وإمكاناته فى ترقية أموره بعيداً عن تدخل السلطان ومطالبه وهى أهداف سياسية كان العراق فى أمس الحاجة إلى تحقيقها . وداود لم تغب عنه أسس الإصلاح ووســائله ولكن أعوزته الإمكانات وكانت مشكلات العراق لا يمكن أن تحل مشكلة إثر مشكلة نظراً لتشابك تلك المشكلات تشابكاً

---

(١) انظر : Alexander: Bagdad Bygone days. & Longrigg: Four Centuries. & Groves : Journal of A Residence

(٢) انظر : Fontanier: Voyage dans L'Inde. T. I.

مروعاً ، فشكلة العشائر العربية لا يمكن أن تحل دون أن تحل مشكلات العراق كلها . فهى مشكلة متصلة بإيران وبالأكراد وبمسقط وبالإنجليز وبالباب العالى وبثورات المطالبين بالحكم . ومشكلة الأكراد متصلة بإيران وبالإنجليز وبالعشائر العربية وبالموصل وبالباب العالى .

وهذه أمثلة لترابط المشكلات وتكتلها تكتلا تحطمت عليه مجهودات داود وأسلافه . لقد تفوقت الأحداث على داود وكلما بدأ يحقق هدفاً تحطمت مجهوداته أمام مشكلة أخرى وهكذا . لقد نجح محمد على باشا فى تحقيق أهدافه السياسية والاقتصادية فى مصر لأنه وجد شعباً متجانساً ثوراته غير جامحة ، ووجد أرضاً تدر دخلا كبيراً ودائما ولم يواجه بثورات داخلية على تلك الصورة التى واجهت داود . ثم إن العراق كانت تجاوره دولة إيران المعادية للعثمانين فشكلات الدولة العثمانية مع إيران تقع نتائجها فوق رأس العراق ، وفى العراق فئات ممالئة لإيران وأكراد يجلبون الجيوش الإيرانية من وقت لآخر فى كردستان . هذا كان السبب الرئيسى فى فشل داود فى السيطرة على البلاد ، وبالتالى فشله فى تحقيق أهدافه . ومن ناحية أخرى وجد محمد على باشا فى ابنه إبراهيم قيادة عبقرية مخلصة كل الإخلاص له ؛ بينما لم يحظ داود بشىء من هذا ، بل ثار عليه كتخداه ثورة عنيفة ، ولم يجد قائداً مخلصاً له إلا فى السنوات الأخيرة من حكمه وهو سليمان الميراخور ولاتكاد الحرب تشتعل بينه وبين على رضا باشا حتى يقضى على سليمان الميراخور ويقضى الطاعون على جيشه النظامى الكبير . إنه القدر الذى هزم داود . ومع ذلك ظلت ذكراه – لما خلفه من مآثر – ماثلة أمام الشعب البغدادى الذى أحبه وأخلص له وتفانى فى الدفاع عنه لآخر لحظة .

الملاحق

الملحق الأول : ولاة بغداد من ١٧٠٤ ــ ١٨٣١

الملحق الثانى : سلاطين تركيا وشاهات ايران

الملحق الثالث : أسرة حسن باشا

الملحق الرابع : أسرة آل شبيب

الملحق الخامس : أسرة آل بابان

الملحق السادس : أسرة آل عبد الجليل

الملحق السابع :

Literal Translation of the Turkish Note delivered in by the Resident to the Pasha as the Term on which the Reconciliation was to be effected, to the content of which the Pasha Signified this unqualified Assent 1810.

الملحق الثامن :

Translation of an Imperial Ottoman Diploma Granted to H.J. Brydges, British Consul of Baghdad. 1802.

الملحق التاسع :

Translation of a letter from his Highness the Pasha of Baghdad to the Political Agent at Bussora 1831.

الملحق العاشر :

Translation of a Boyoorooldi from his Highness Hajee Ali Reza, Pasha of Bagdad, Aleppo, Diarbekir and Mousul to the Political Agent at Bussora (Oct. 2, 1831).

الملحق (١)

ولاة بغـــداد من ١٧٠٤ حتى ١٨٣١

	اسم الوالى	مـــدة حكم الوالى		ملاحظـــات
		بالتقويم الهجرى	بالتقويم الميلادى	
١	حسن باشا	١١١٦ — ١١٣٦	١٧٠٤ — ١٧٢٣	باستثناء سنوات قليلة
٢	أحمد باشا	١١٣٢ — ١١٦٠	١٧٢٣ — ١٧٤٧	
٣	سليمان باشا	١١٦٢ — ١١٧٥	١٧٤٩ — ١٧٦١	
٤	على باشا	١١٧٦ — ١١١٧	١٧٦٢ — ١٧٦٣	الباشا — الفارسى — قتل
٥	عمر باشا	١١١٧ — ١٧٧٥	١٧٦٤ — ١٧٧٥	قتـــل
٦	أمين باشا الجليلى	١١٨٩	١٧٧٥	من آل الجليلى فى الموصل
٧	مصطفى باشا ؟	١١٨٩	١٧٧٥	من ولاة الخارج . قتل
٨	عبدى باشا	١١٩٠	١٧٧٦	من ولاة الخارج
٩	عبد الله باشا	١١٩٠ — ١١٩٢	١٧٧٦ — ١٧٧٨	
١٠	حسن باشا	١١٩٢ — ١١٩٤	١٧٧٨ — ١٧٨٠	طـــرد
١١	سليمان باشا الكبير	١١٩٤ — ١٢١٧	١٧٨٠ — ١٨٠٢	
١٢	على باشا	١٢١٧ — ١٢٢٢	١٨٠٢ — ١٨٠٧	
١٣	سليمان باشا القتيل	١٢٢٣ — ١٢٢٥	١٨٠٨ — ١٨١٠	قتـــل
١٤	عبد الله باشا	١٢٢٥ — ١٢٢٨	١٨١٠ — ١٨١٣	
١٥	سعيد باشا	١٢٢٨ — ١٢٣١	١٨١٣ — ١٨١٦	قتـــل
١٦	داود باشا	١٢٣١ — ١٢٤٧	١٨١٧ — ١٨٣١	

الملحق (٢) سلاطين تركية وشاهات ايران المتعاصرون

تركيــة		إيــران		ملاحظــات
التاريخ	اسم السلطان	التاريخ	اسم الشــاة	
١٥١٢	سليم الأول	١٥٠٠	إسماعيل الأول	
١٥٢٠	سليمان الأول			
١٥٦٦	سليم الثانى	١٥٢٤	طهماسب الأول	
١٥٧٤	مراد الثالث			
		١٥٧٢	إسماعيل الثانى	
		١٥٧٨	محمد خدابنده	
١٥٩٥	محمود الثالث			
١٦٠٣	أحمد الأول	١٥٨٧	عباس الكبير	صفويون
١٦١٧	مصطفى الأول			
١٦١٨	عثمان الثانى			
١٦٢٢	مصطفى الأول (للمرة الثانية)			
١٦٢٣	مراد الرابع	١٦٢٩	صــفى	
١٦٤٠	إبراهيم	١٦٤٢	عباس الثانى	
١٦٤٨	محمد الرابع	١٦٦٧	سليمان	
١٦٨٧	سليمان الثانى			
١٦٩١	أحمد الثانى			
١٦٩٥	مصطفى الثانى	١٦٩٤	حسين	
١٧٠٣	أحمد الثالث			
		١٧٢٢	محمود خان	أفغانى
		١٧٢٣	أشرف خان	كلاهما كان يطالب بالعرش
١٧٣٠	محمود الأول	١٧٣٠	طهماسب الثانى (صفوى)	
		١٧٣٦	نــادر	
		١٧٤٧	عــادل	
١٧٥٤	عثمان الثالث	١٧٤٩	شاه رخ وغيره (فوضى)	
١٧٥٧	مصطفى الثالث	١٧٥٧	كريم خان	الوصى الزندى
١٧٧٣	عبد الحميد الأول	١٧٧٩	فوضى	
١٧٨٩	سليم الثالث	١٧٩٦	أغا محمد	
١٨٠٧	مصطفى الرابع	١٧٩٧	فتح على	
١٨٠٨	محمود الثانى			
١٨٣٩	عبد المجيد	١٨٣٤	محمــد	
١٨٦١	عبد العزيز	١٨٤٨	ناصر الدين	قاجاريون
١٨٧٦	مراد الخامس			
١٨٧٦	عبد الحميد الثانى	١٨٩٦	مظفر الدين	
١٩٠٨	محمد الخامس	١٩٠٧	محمد على	

عن لونكريك : أربعة قرون : الطبعة الثالثة : ص ٣٢٦٥ .

ملحق (٧)

LITERAL TRANSLATION

OF

The Turkish Note delivered in by the Resident to the Pasha as the Term on which the Reconciliation was to be effected, to the content of which the Pasha signified his unqualified Assent . 1810

I The Pasha must renounce all species of authority or command in any shape over the Resident, as such in neither warranted either by usage of the treaties.

II The Pasha shall never, on any pretext whatever, interfere in any manner with the affairs and arrangement of the Resident respecting his establishment, his customs and rights, his beating drums, etc, etc, and there shall be, on no account, objections made to any of the Resident's order, as such matters in no way concern the Pasha, nor come under his cognizance; particularly there shall be no objection made to the celebration of His Britannic Majesty's Birthday in the most public manner, with all the necessary ceremonies. In a word, there shall be no species of objection on interference in any of the Resident's states and ceremonies.

III The Pasha shall never prohibit the customary interchange of visits between the great officers of the Turkish Government and the Resident.

IV The Resident has never, nor will ever, show the least disposition to any undue interference in the Pasha's affairs of government, and will show every readiness to comply with

the Pasha's wishes, provided they do not interfere or are not contrary to any of the artish of icle treaty, or the interests of the British Government; and so it is agreed for the benefit of both parties.

V Whenever the Pasha shall have any business with the Resident, he shall make it known to him by one of his own confidential men of rank, also should the Resident ever have any important business, and demand confidential persons on the part of the Pasha to converse with, there shall be no objections made to it, and the person required shall be immediately sent; the benefits arising from this Article are clearly reciprocal.

VI There shall be no equivocation in any of these Articles. Should any doubts hereafter arise relative to any particulars contained in the Articles (especially Article II), the explanation of it shall be in favour of the Resident.

ملحق (٨)

Translation of an Imperial Ottoman Diploma Granted to Harford Jones, Esq. British Consul of Bagdad and the Environs. 1802

At the request of Lord Elgin, English Ambassador to the Sublime Porte in a memorandum given to us by him, to wit, that in consequence of the capitulations, the English Minister having named Consul at the ports of Aleppo, Alexandria, Tripoli of Syria, Algiers, Tripoli of Barbari, Tunis, Scio, Smyrna, Egypt, and other ports requiring custom houses, and wishing shortly established as Consul in the city of Bagdad and its environs, Harford Jones, Esq., a a British subject, and residing in the said city of Bagdad in order to protect the affairs of British merchants established there, or of travellers, we have given him our Imperial Berat in conformity with the requisitions of the said capitulations, conforming and ordaining the said Harford Jones, Esq., as Consul in the said city of Bagdad, that in conformity with the said capitulations the affairs of merchants and travellers under the protection of the British flag in this country, in cases of difficulty arising should take place only under his cognizance, and that no public servants under his orders should be molested under the pretext of tribute, or certain regulations entitled Kharatz, neither of others named Avaris, nor of such as is levied by ships called Cassab Akessi, or other arbitrary impositions called Tekialifi Orfye; that no one shall exact the Kharatz nor other dues for male and female slaves in his service, and that no person shall interefere nor obstruct the domestic affairs of the said consul but on the contrary, they shall be free from all impositions recording to the prevailing customs, neither shall they be subject to the customs or excise duties; that the Consul being established by the British Ministers is not subject to imprisonment; that his house cannot be closed or searched, or have any body of troops lodged therein; that

assistants and slaves belonging to him shall be free and exempt from Kharatz and Avaris, Cassab, Akeessi, Tekialifi Orfye; that any complaint made by any person against him shall be referred to us and cannot be disposed of by anyother means, that either by land or by sea, at any stations or ports he may arrive at, no one shall molest him or his servants, or cattle, or baggage, guides or anything connected with him, that any captain of country vessels on being paid shall be compelled to carry his provisions according to the prevailing regulations and that no one shall seek pretext for disputes against him, and that in dangerous ports of the country he be allowed to wear a white turban, sabre, bow or other warlike instruments.

That all judges and commandants or others shall not molest him, but shall assist and protect him and shall prevent any one from prevent any one from throwing obstacles in his way, and always behave towards him in conformity with the capitulations, and that no one shall persume to oppose, but, on the contrary, shall give every credence to this decree, given under our most respectable and noble seal.

Given under our hand this 7th day of the moon of Rejib, 1217, that is to say, 2nd November 1802, at our city of Constantinople.

ملحق (٩)

Translation of a letter from His Highness the Pasha of Bagdad to the Political Agent at Bussora.

After compliments, - the Dragoman of the English Nation has arrived here, bearing a sealed despatch from the government and a letter from yourself containing the following demands:—

Article (1)

A compliance with all stipulations contained in the Imperial Treaties regal firmans, ancient or recent.

Article (2)

The Restitution of what ever was taken from Mr. Sturmey above the proper rate of customs, and of such property of Mr.' Scoododa as was damaged or lost.

Article (3)

Whatever may be deemed to constitute the complete safety in every respect of the life, property, and honour of all agents or vakeels of the government, of their protected dependants and subjects, together with an attentive regard for their views, wishes, a due estimation and honouring of them, and an admission of their rights to grant asylum, and all other claims according to their ancient rights and customs, and that they may entertain as many servants as they see necessity for.

Article (4)

Should thereafter an agent, not an Englishman, be established at Bagdad he shall unquestionably meet with every proper honour and consideration as it is due to his station.

Article (5)

Bills of exchange shall not be taken from thir shroffs by force, nor money from their dependants or proteges by compulsion, nor

shall temporary or arbitrary taxes of any kind over be levied on their landed or other property contrary to their due right and custom.

Article (6)

No tax, except one previously well defined and arranged, shall be levied on boats the property of British subjects and proteges; such, for instance, as pass between Bussora and Bagdad, nor shall their boats be seized for the public service, nor shall the property of merchants being British subjects or proteges arriving at Bagdad, otherwise than as is usual on the arrival of the same at Bussora, enter the custom house contrary to stipulation and covenant.

Article (7)

Should British subjects and proteges lose any property in the town or in public roads, and by theft or plunder, every exertion shall promptly be made to recover the same.

Article (8)

Should any dependant of the government suffer from any of our subject's offence or injury, the injured individual shall receive immediate satisfaction and reparation.

Article (9)

In commercial dealings goods having been bought shall not be returned except on legal and just plea, and commercial disputes shall be adjusted by an assembly of merchants according to mercantile usage.

Article (10)

Should British or Indian Seamen desert, they shall not be forced to become converts to Islam, and in case of their willing conversion they shall be subsequently delivered up to their duty in order to prevent any detriment to the interest of the ship.

Article (11)

A spot shall be assigned on lease to the Resident for a house and garden wherever he may point out.

Article (12)

The Proven claim of British Proteges to be enforced on whomover of our subjects it may be, without the smallest loss or injury to the claiments.

We have considered and fully comprehended these demands, in like manner also as we are convinced of the very great and faithful regard of His Imperial Highness for the English Nation, with regard, therefre, to such part of them as are contained in those imperial treaties and Royal Decrees which are in there hands, it has even been fulfilled to them hitherto, and we shall continue likewise to observe it in time to come, and this, too, in due consideration of the fulness of that valued friendship and the abundance of ancient and lasting unanimity which has existed between the two states ingages post.

With respect, however, to the overplus of customs taken from Mr. Sturmey and the goods lost to Mr. Scooboda, we have made investigation and discovered that the circumstances occurred by chance and not from premidiation; we have consequently returned them to the dragoman above-mentioned, as we cannot consent to any conduct towards the British government contrary to treaty and covenant-our friendship for them being of ancient date- and also in compliance with the engagements of our predecessors up to the present date.

In conformity, therefore, with the firm and lasting alliance formed between the Imperial and British Government with a view to confirm and secure the foundation of the faithful alliance and to strengthen the bonds of the immutable and important union set forth in the Imperial treaties and Royal edicts which are in their possession, and in conformity with ancient rule and former precedent, we have agreed to the observance of all the stipulations above-mentioned, and have sealed this instrument as a proof of our consent and delivered the same into the hands of the Dragoman aforesaid.

Be you therefore informed of this and consider it as fully effieient.

Daood Pasha

ملحق (١٠)

Translation of a Boyooroolai from His Highness Hajee Ali Reza, Pasha of Bagdad Aleppo, Diarbekir, and Mousul, to the Political Agent at Bussora, dated the 27th Rubee oos-sanee, A.H., 1247, or 2nd October A.D 1831.

Official Sign

To the spiritual leader of Islam, the Lieutenant (of the Qadhee of Constantinople) at Bussora, to his Excellency the Muftee Effendi of Bussora, whose piety and Government the Motusullim Aga, be his rank and station increased, and to the elders and men of weight of the council and country, whose dignity be magnified. In reference to all affairs superving at Bussora, and relating to the excellent Resident of England, the High and exalted Mr. Taylor, Balios Bag residing with our eternal government, and in observance of his rights and those of his agents, interpreters and all his subjects of his government, and the merchants and ships arriving from Hindoostan, according to stipulations and treaties which have been arranged and ratified with our exalted State: as they have been held in times preceding, to which we adhere, and for which we even exceed the former regard out of a wish to protect their rights; so you also the Nayeb Effendi; and Muftee Effendi; and Matusullim Aga, an Ayan (Inferior Minister) will in likewise deport yourselves towards, and protect the rights and regard the just claims of the dignified Mr. Taylor; Beg, his agents, interpreters, proteges, and dependants, and the subjects of the government arriving from Hindoostan, and their ships and merchants, and all other soever, conformably to what we have promulgated in this our Bayoorooldi, which you will on no account infringe and thus be it known unto you.

Aitchison: A collection of Treaties. Vol. XI

المراجع

ا — وثائق غير منشورة .

ب — وثائق منشورة .

ج — مراجع تركية .

د — مراجع عربية .

ه — مراجع أوروبية .

أ ـ وثائق غير منشورة

دار الوثائق التاريخية القومية (عابدين ــ القاهرة) .

دفتر ١٠ ، ١٣ ، ١٤ .

محفظة ٩ ، ١٦ براً ، بحراً ، تركى .

تتضمن هــذه الدفاتر والمحافظ وثائق تكشف عن موقف داود باشا من تقدم القوات المصرية صوب الخليج العربى ، وعلاقة الحملة المصرية فى شبه الجزيرة العربية بكل من عمان والإنجليز .

كما تكشف هذه الوثائق عن موقف محمد على ــ والى مصر ــ من الحرب العثمانية الفارسية (١٨٢٠ ــ ١٨٢٣) ومن عصيان داود باشا ١٨٣٠–١٨٣١ م.

ب ـ وثائق منشـورة

Aichison, C.: A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries. 12 Vols. Culcutta 1892.

جمع المؤلف عدداً ضخماً من المعاهدات والمكاتبات الهامة التى كانت معقودة أومتبادلة بين بريطانيا وشركة الهند البريطانية من جهة ، ودول الشرق الأوسط من جهة أخرى ، هذا فضلا عن معاهدات أخرى عقدت بين دول أوربية أو أمريكية مع الدولة العثمانية وغيرها . وترجع أهمية هذا الكتاب أيضاً إلى الاستعراض التاريخى الذى كتبه أتشيسون قبل أن يورد نصوص المعاهدات حتى يكشف للقارىء عن الظروف التى أدت إلى عقد هذه المعاهدة أو تلك . على أنه يجب أن يكون فى اعتبارنا دائماً أنه يمثل وجهة النظر البريطانية فى تلك الظروف وهاتيك المعاهدات .

Hurewitz, J : Diplomacy in the Near and Middle East. 2 Vols. New york. 1958.

لعله أحدث كتاب عن نصوص المعاهدات التى عقدت بين بلاد الشرق الأوسط والدول الأخرى . وهذه المعاهدات عن الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والعشرين . وهى تمثل أبرز المعاهدات وليست كلها فقد انتقى المعاهدات ذات المدى الطويل والأثر العميق فى تاريخ المنطقة .

Selections from the Records of the Bombay Government Vol. XXIV. Bombay 1856.

اقتباسات من وثائق حكومة بمباى مرتبة غالباً حسب التسلسل التاريخى وهذا الجزء الرابع والعشرون مهم جداً فى دراسة تاريخ الخليج العربى والعراق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

حـ ـ مراجع تركية

ـ أحمد لطفى :

تاريخ لطفى ـ ثمانية أجزاء ـ دار الطباعة العامرة ١٢٥٧ هـ . وهو على نظام الحوليات ويبدأ بسنة ١٢٤١ هـ . وهو بذلك يعتبر استمراراً لتاريخ جودت والمادة التاريخية عن العراق فيه قليلة بينما هى غزيرة فى تاريخ جودت .

ـ جودت باشا :

ترتيب جديد ـ ١٢ جزءاً ـ مطبعة عمانية ده طبع المنشدر ١٣٠٢ هـ : وهو تاريخ عام للدولة العثمانية من ١١٨٨ ـ ١٢٤٢ هـ . وهو المؤرخ الرسمى للدولة العثمانية لتلك الفترة . ويمتاز بأنه اطلع على وثائق ليست فى متناول أيدينا .

ـ خورشيد باشا :

سياحتنامه حدود . بدون تاريخ .

المؤلف من مماليك يحيى باشا الجليلى والى الموصل . وعين كاتباً فى إدارة الشئون الخارجية العمانية . ثم أرسل بصحبة درويش باشا لتحديد الحدود الفاصلة بين العراق وإيران فى أعقاب توقيع معاهدة أرضروم الأولى ١٨٤٧ م. وكان خورشيد يتقن اللغة العربية الدارجة فضلا عن التركية ؛ ولذلك جاءت معلوماته عن المدن والقرى والعشائر دقيقة . وهذا الكتاب يمثل وجهة النظر الرسمية فى الخلافات التى نشبت بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية . تلك المشكلات التى امتدت زمناً طويلا ولا يزال بعضها قائماً حتى وقتنا هذا .

ـ سليمان فائق بن الحاج طالب كهيه :

بغداد كوله من حكومتنك تشكيليله انقراضنه دائر رسالة در. الآستانة ١٢٩٢ هـ. المؤلف ابن كيخية (كتخدا) داود باشا . وألف هذا الكتاب تحت اسم مستعار هو (ثابت) . والكتاب يلقى نظرة سريعة على تاريخ الدولة العباسية حتى ظهور حكومة المماليك فى بغداد . والجزء الهام من هذا الكتاب هو الذى يغطى تاريخ داود باشا .

د ـ المراجع العربية

ـ أحمد الصوفى :

المماليك فى العراق . الموصل ١٩٥٢ ؛

ـ أحمد عزت عبد الكريم :

ـ تاريخ أوروبا الاقتصادى . طبعة أولى ١٩٥٣ ؛

ـ دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة . القاهرة ١٩٥٨ ؛

ـ أحمد فخرى :

اليمن : ماضيها وحاضرها . معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ ؛

ـ أحمد فضل بن على محسن العبدلى :

هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن : القاهرة ١٣٥١ هـ؛

ـ إسماعيل بن محمد أمين سليم البابانى :

إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ؛ بغداد ١٩٤٥ م ـ ١٣٦٤ هـ؛

ـ ألستاس مارى الكرملى :

خلاصة تاريخ العراق ـ البصرة ١٣٣٧ هـ؛

ـ أنور زقلمه :

المماليك فى مصر ـ القاهرة ؛

ـ بله شيركوه :

القضية الكردية ـ القاهرة ١٩٣٠ .

ـ جبرابيل يوحنا أصغر :

مختصر المستفاد فى تاريخ بغداد (مخطوط) ؛

– جميل سعيد :
نظرات فى التيارات الأدبية الحديثة فى العراق – معهد الدراسات العربية العالية – ١٩٤٩ .

– جميل صليبا :
الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام – معهد الدراسات العربية العالية – ١٩٥٨ .

– حسن عونى :
العراق وما توالى عليه من حضارات – الطبعة الثانية .

– حسين مؤنس :
الشرق الإسلامى فى العصر الحديث – الطبعة الثانية ١٩٣٨ .

– دولت صادق :
الجغرافية السياسية – الطبعة الأولى ١٩٥٧ .

– رسول حاوى الكركوكلى :
دوحة الوزراء . ترجمة موسى كاظم نورس . مكتبة النهضة - بغداد

– روفائيل بابو إسحاق :
تاريخ نصارى العراق – مطبعة المنصور – بغداد ١٩٤٨ .

– ريج ، ك. ج :
رحلة ريج فى العراق (١٨٢٠) . ترجمة بهاء الدين – طبع بغداد ١٩٥١
المؤلف شغل منصب المقيم السياسى لبريطانيا فى بغداد من ١٨٠٨ إلى ١٨٢٢ . وقد قام ريتش (ريج) برحلته هذه بدعوى السياحة والاستشفاء ولكن هذه الرحلة تكشف لنا عن بعض أهدافه السياسية كما تكشف عن الأوضاع فى كردستان حينذاك .

– زكى صالح :
موجز تاريخ العراق – الطبعة الأولى ١٩٤٩ .

— ساطع الحصرى :

البلاد العربية والدولة العثمانية — معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ .

— سعاد العمرى :

بغداد كما وصفها السياح — بغداد ١٩٥٤ .

— سليمان صايغ :

تاريخ الموصل — جـ ١ — المطبعة السلفية — القاهرة ١٩٢٣ .

— صديق الدملوجى :

إمارة بهدينان — الموصل ١٩٥٢ . وهى إحدى الإمارات الكردية .

— صلاح العقاد :

الاستعمار البريطانى فى الخليج الفارسى — القاهرة ١٩٥٧ .

— صلاح المنجد :

ولاة دمشق فى العهد العثمانى — دمشق ١٩٤٩ .

— طه الهاشمى :

— أطلس العراق — الطبعة الأولى — المكتبة العصرية — بغداد ١٩٣٢ .

— مفصل جغرافية العراق — الطبعة الأولى — بغداد ١٩٢٠ .

عباس العزاوى :

— عشائر العراق — ٤ أجزاء — بغداد ٣٩ — ١٩٥٦ .

— تاريخ العراق بين احتلالين — ثمانية أجزاء صدر آخرها ١٩٥٩ .

— الكاكائية فى التاريخ — بغداد .

عنى عباس العزاوى بجمع المخطوطات والمؤلفات الهامة عن تاريخ العراق وأخرج لنا مؤلفاته عن عشائر العراق ، وحدد أنسابها وبطونها وأفخاذها . وكتب مقدمة تاريخية للعشائر الكبرى ، ولكنه لم يعن بتاريخ هذه العشائر قدر عنايته بتحديد أنسابها . وفى مؤلفاته عن تاريخ العراق أشار إلى تاريخ العشائر

العربية والكردية وتاريخ الإمارات والحكومات التى ظهرت فى بغداد . ولكنه اتبع طريقة الحوليات . وعنى بتدوين المادة التاريخية دون تحليلها التحليل العلمى الدقيق . ومع هذا فمؤلفاته مادة خام ذات أهمية كبرى للمشتغلين بتاريخ العراق الحديث . ولعل اعتماده الكلى على المخطوطات والمؤلفات الشرقية هو السبب فى عدم عنايته بدراسة العلاقات بين العراق والدول الأوربية برغم أهمية هذه العلاقات فى تفهم تاريخ العراق خاصة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ناهيك عن القرن العشرين . وأما كتابه عن الكاكائية فهو واحد من مؤلفاته عن العصبيات المحلية الدينية . فله كتاب عن اليزيدية . وهو بذلك يعتبر من رواد المؤلفين فى هذه المجالات الصعبة .

— عبد الباقى العمرى :

الترياق الفاروقى — وهو ديوان شعر — القاهرة ؛

— عبد الجواد الكليدار :

تاريخ كربلاء — بغداد ١٣٦٨ هـ.

— عبد الرحمن الرافعى :

عصر محمد على — الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٤٧ م.

— عبد الرحمن عبد الله السويدى :

حديقة الوزراء فى سيرة حسن باشا وأحمد باشا (مخطوط) ؛

— عبد الرزاق الحسنى :

— تاريخ العراق السياسى — ج ١ — ١٩٤٨ م؛

— موجز تاريخ البلدان العراقية — ١٩٣٢ م؛

— عبد الرزاق الظاهر :

صور من العراق — مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٤٧ ؛

— عبد السلام الماردينى :

تاريخ ماردين (مخطوط) يتحدث عن تاريخ ماردين بالتفصيل حتى داود وبعده .

– عبد الغفار الأخرس :

الطراز الأنفس – بغداد ١٣٢٧ هـ .

وهو ديوان شعره جمعه عزت الفاروقى . ولكنه لا يضم كل شعره . ونشر عباس العزاوى بقية أشعاره تحت عنوان « مجموعة عبد الغفار الأخرس فى شعر عبد الغنى جميل » .

– عبد الفتاح الشواف :

حديقة الورود .

أراد المؤلف أن يكتب ترجمة وافية لأبى الثناء محمود الآلوسى . ولكنه مات قبل أن يكمل هذه الترجمة فأكملها أبو الثناء وابنه . وعلى قلة المادة التاريخية بها إلا أنها ذات أهمية كبرى فى دراسة العلاقات الأدبية فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

– عبد الفتاح إبراهيم :

على طريق الهند – بغداد ١٩٣٥ .

– عبد القادر الشهربانى :

شعراء بغداد وكتابها أيام داود باشا أو تذكرة الشعراء نشرها أنستاس الكرملى – بغداد ١٩٣٦ م .

يتضمن الكتاب نبذة عن معظم الشعراء والكتاب الذين ظهروا فى عهد داود باشا ، ولكن أسلوبه فى بعض المواضع مختصر أحياناً بشكل مخل . وهو لا يعطى صورة صادقة عن حقيقة الحياة الأدبية فى العراق . إلا أنه مهم من حيث أنه أشار إلى عدد من الشعراء والأدباء لم يسبق أن ذكرهم مؤلف قبله ، هذا فضلا عن عنايته بالترجمة للشعراء والأدباء الأتراك .

– عبد الله الناصر السعدون :

تاريخ السعدون – الناصرية – ١٩٤١ .

– عبد الله السويدى :

النفحة المكية فى الرحلة الملكية :

. عثمان بن بشر :

عنوان المجد فى تاريخ نجد ــ الطبعة الأولى ١٢٤٩ هـ.

ــ عثمان بن سند :

ــ مطالع السعود بطيب أخبار الوالى داود ، اختصره أمين الحلوانى بعنوان « مختصر مطالع السعود » ــ طبع بمبى ــ ١٢٠٤ هـ .

ولم يتيسرلى الاطلاع على« مطالع السعود » فاكتفيت مضطراً بالمختصر . وعثمان ابن سند من أدباء البصرة ويمكن أن نعتبره المؤرخ الرسمى لداود باشا وعندما قام الحلوانى باختصار « مطالع السعود » حذف القصائد الشعرية والقطع الأدبية واستبقى المادة التاريخية ثم أضاف تاريخ السنوات الخمس الأخيرة التى لم يشملها « مطالع السعود » حيث أن عثمان بن سند توفى حوالى ١٢٤٢ هـ ــ ١٨٢٦م .

ــ عثمان بن سند :

سبائك العسجد . بمباى ١٣١٥ هـ .

ترجم فيه لأدباء البصرة ولبعض متسلميها وتعرض قليلا للأحداث التاريخية.

ــ على سيدو الكورانى :

من عمان إلى العمادية أو جولة فى كردستان الجنوبية ــ القاهرة ١٩٣٩ .

ــ على ظريف الأعظمى :

ــ مختصر تاريخ بغداد ــ بغداد ١٩٢٩ .

ــ مختصر تاريخ البصرة ــ بغداد ١٩٢٧ .

ــ عمـــان :

عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى ــ القاهرة ١٩٥٢ .

ــ فتح الله بن علوان الكعبى :

زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر ــ بغداد.

يبحث فى أيام حسين باشا والى البصرة ١٦٤٥ ــ ١٦٦٥ م .

– فردیناند توتل :
الحركة الفكرية فى العراق – بيروت ١٩٥٣ .
– فيليب حتى :
تاريخ العرب – جزءان – القاهرة ١٩٥٢ ترجمة محمد مبروك نافع .
– فيليب ويلارد أيرلاند :
العراق : دراسة فى تطوره السياسى – ترجمة جعفر الخياط – بيروت ١٩٤٩
– كارل بروكلمان :
تاريخ الشعوب الإسلامية – خمسة أجزاء – ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكى – الطبعة الأولى ١٩٤٩ .
– كارل توتشل :
المملكة العربية السعودية – ترجمة شكيب الأموى – القاهرة ١٩٥٥ .
– كوركيس عواد :
دير الربان هرمز – مطبعة النجم ١٩٣٤ .
– مجموعة :
مجموعة عبد القادر الأخرس فى شعر عبد الغنى جميل – جمعها ونشرها عباس العزاوى – بغداد ١٩٤٩ .
– مجيد خدورى :
أسباب الاحتلال البريطانى للعراق – الموصل ١٩٣٣ .
– محمد أسعد طلس :
الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف – بغداد ١٩٥٣ .

ـ محمد أمين زكى :

ـ تاريخ السليمانية ـ ترجمه من الكردية محمد جميل الروزبيانى ـ بغداد ١٩٥١ .

ـ خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ـ ترجمه محمد عونى ـ القاهرة ١٩٣٦ .

ـ تاريخ الإمارات الكردية ـ القاهرة ١٩٤٥ .

ـ محمد بدران :

إبراهيم باشا ـ القاهرة ١٩٣٧ .

ـ محمد بهجة الأثرى :

أعلام العراق ـ بغداد ١٣٤٥ هـ .

ـ محمد جعفر التميمى :

مشهد الإمام ـ بغداد .

ـ محمد صالح السهروردى :

لب الألباب ـ جزآن ـ بغداد ١٩٣٩ .

ـ محمد عبد المنعم الشرقاوى :

هذا العالم ـ الطبعة الثانية .

ـ محمد القزلجى :

التعريف بمساجد السليمانية ـ بغداد ١٩٣٨ .

ـ محمد لبيب البتنونى :

الرحلة الحجازية ـ الطبعة الثانية ١٩٢٩ .

ـ محمد موسى هنداوى :

المعجم فى اللغة الفارسية ـ القاهرة ـ مطبعة مصر .

ـ محمود الآلوسى (أبو الثناء) . :
غرائب الاغتراب ـ مطبعة الشابندر ١٣٢٧ ه
ـ محمود شكرى الآلوسى :
ـ تاريخ مساجد بغداد ١٣٤٦ ه.
ـ المسك الأزفر ـ بغداد ١٣٤٥ ه.
ـ مصطفى نور الدين الواعظ :
الروض الأزهر ـ الموصل ١٩٤٨ .
ـ المنشئ البغدادى :
رحلة المنشئ البغدادى ـ نشرها عباس العزاوى ـ بغداد ١٩٤٨ .
ـ نيقولا زيادة :
محاضرات فى تاريخ ليبيا ـ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٨ .
ـ نور الدين السالمى :
تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ـ جزآن .
ـ يعقوب سركيس :
مباحث عراقية ـ جزءان ـ بغداد ١٩٤٨ .
ـ يوسف رزق الله غنيمة :
تجارة العراق قديماً وحديثاً ـ بغداد ١٩٢٢ .
ـ يوسف كركوش الحلى :
مختصر تاريخ الحلة ـ صيدا ١٩٣٤ :
ـ وداى العطية :
تاريخ الديوانية ـ النجف ١٩٥٤ :

هـ ـ المراجع الأوروبية

Ainsworth; W.F.: A Personal Narrative of the Euphrates Expedition. 2 Vols. London 1888.

كان المؤلف أحد أعضاء بعثة جسنى Chesny الكشفية المشهورة . تعرض كثيراً لآثار العراق . والمادة التاريخية قليلة ولكنها هامة .

Alexander, C.: Bagdad Bygone Days. London 1929.

المؤلفة تمت بصلة القربى إلى كلاوديوس جيمس ريتش C.J.Rich المقيم البريطانى فى بغداد على عهد داود . وترجمت حياته فى كتابها هذا . وهو ملىء بالدفاع عن أعماله .

Andrew, W.P.: The Euphrates Valley Railway. London 1840.

Blunt, A.: Bedouin Tribes of the Euphrates. London 1879.

The Bombay Monthly Magazine of Selections from the British Periodicals.

Bonné, A.: State and Economics in the Middle East. London 1955.

Brydges; H.: An account of His Majesty's Mission to the Court of Persia. London 1811.

Budge, E.: By Nile and Tigris. 2 Vols. London 1900.

Chesney, F. : Narrative of the Euphrates Expedition London 1868
The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris. 2 Vols. London 1850.

Coke, R.: Bagdad the City of Peace. London 1935.

Corancez: Histoire de Wahabis. Paris 1809.

Douglas, W.: Strange Lands and Friendly people. New York. 1924

Dupré, A.: Voyage en Perse. Paris. 1819.

Ernest, J.: Background of the Middle East. New York. 1952.

Flandin: Voyage en Perse. 2 Tomes. Paris 1850.

Fletcher, V.: Narrative of a two years Residence at Nineveh. London 1850.

Fraser, J.: Mesopotamia and Assyria. Edinburgh 1840.

Narrative of a journey into Khorasan. London 1825.

Fontanier, V.: Voyage dans l'Inde. 3 Tomes. Paris 1844

Garnier, H.: Voyage en Perse. Tour. 1845.

Gibb and Bowen;: Islamic Society and the West. Part I. 2nd Edition. 1951.

Grant: The Nestorians. London 1841.

Groves,A.N, Journal of a Residence at Bagdad London 1832.

Guillant: Documents sur l' Histoire, la Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale. Paris.

Heude, A. : A Voyage up the Persian Gulf and Overland Journey From India to England in 1817. London 1819.

Hogarth, D.G.: Arabia. Oxford. 1922.

Hoskins, H.: British Routes to India. London 1928.

Huart, C.: Histoire de Bagdad dans les Temps Modernes. Paris 1909.

Hurewitz,: Diplomacy in the Near and Middle East. 2 Vols. New York. 1956.

Kedurri, E.: England and the Middle East. London 1956.

Kinnier, J. : Voyage dans l'Asie Mineure et le Kourdistan. Paris 1818.

Lamouche, C.: Histoire de la Turquie. Paris 1953.

Layard, A.: Nineveh and its Remains. 2 Vols. London 1887.

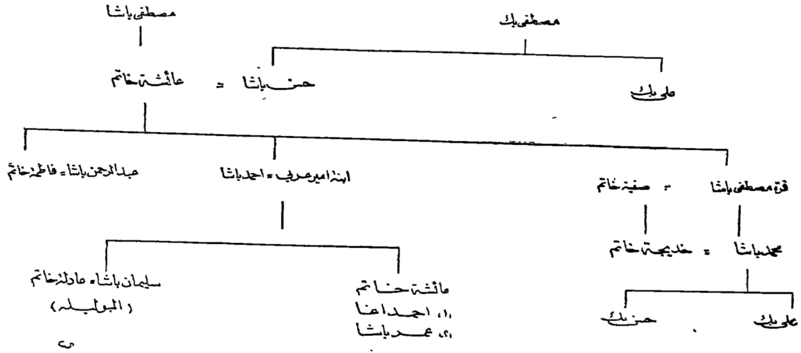
Lewis, B.: Turkey. London 1955 .

Lloyd, S.: Foundation in the Dust. London 1947.

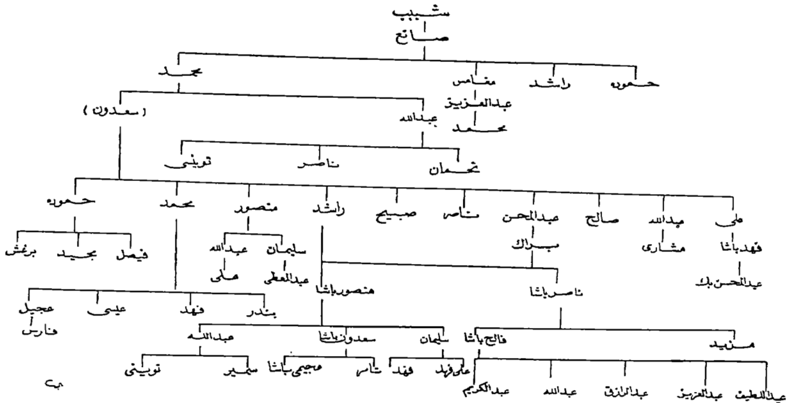
Twin Rivers. Oxford. 1944.

Longrigg, S.: Four Centuries of Modern Iraq. London 1925.
Marriott, J.: The Eastern Question. Oxford 1941. 4th Edition.
Miller, W.: The Ottoman Empire and its Successors 1800-1827. London 1920.
Mingan,: Travels in Chaldaea. London 1929.
Morfill, W.: A Story of Russia. London 1930.
Morier, J.: A Voyage Through Persia. 1808-1809. London 1812
A Second Journey Through Persia, Armenia and Asia Minor to Constantinople Between the years 1810-16. London 1818.
Olivier, G.: Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et la Perse 3 Vols. 1801.
Travels in the Ottoman Empire, Egypt and Persia, undertaken by the order of the Government of France 2 Vols 1801.
Panikkar,K.: Asia and Western Dominance. London 1953.
Price, P.: A History of Turkey. London 1956.
Porter, R.K.: Travels in Georgia, Persia, Armenia and Ancient Bobylonia during the years 1817-1820. London 1822.
Rich, C.: Narrative of a Journey to the Site of Babylonia in 1811 London 1839.
Narrative of a Residence in Koordistan. 2 Vols. London 1835.
Rousseau,: Description du Pachalik de Bagdad. Paris 1809.
Said, Rudolph Reute: Said Bin Sultan. London 1929.
Scott, J.: The Law affecting Foreigners in Egypt. Edinburgh 1908.
Sykes, P.: A History of Persia. 2 Vols. London 1951.
Wellested. J,: Travels in Arabia. 2 Vols. London. 1839.
Wilson, A: The Persian Gulf. London 1952.
Persia. London 1932.

اسرة حسن باشا

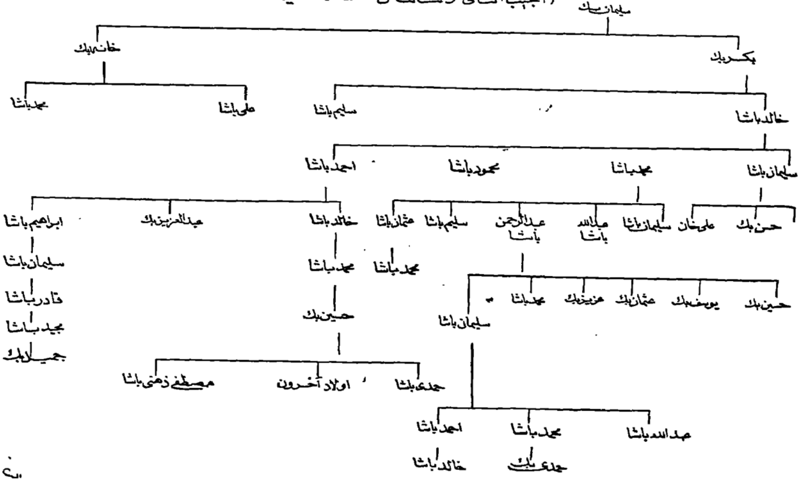


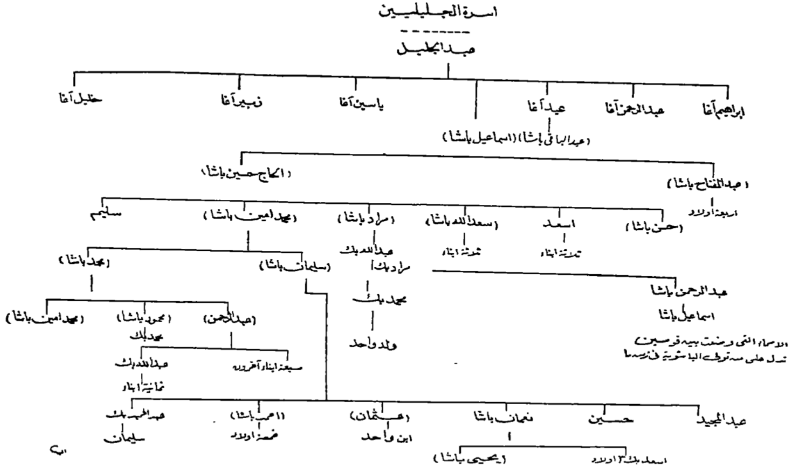
اسرة آل شبيب

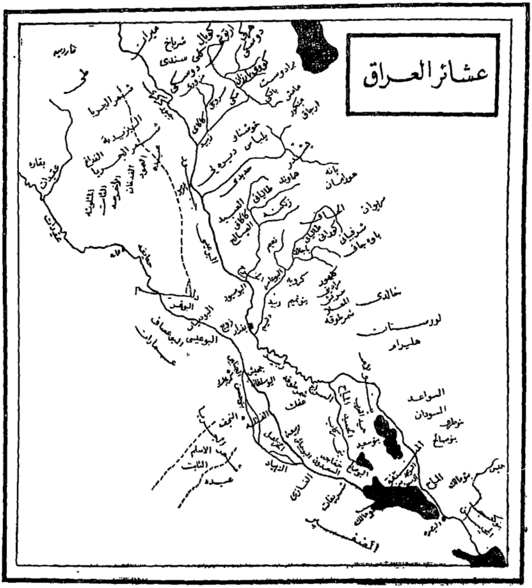

شبيب
صانع
محمد
مقامس
راشد
حمود
عبدالعزيز
محمد
(سعدون)
عبدالله
توينى
ناصر
نحمان
حمود
محمد
منصور
راشد
صبيح
ناصر
عبدالمحسن
صالح
عبدالله
على
فيصل
مجيد
برغش
عبدالله
سليمان
مبارك
مشارى
فهدباشا
على
عبدالعطى
منصورباشا
ناصرباشا
عبدالمحسن بك
عجيل
عيسى
فهد
بندر
فارس
عبدالله
سعدون باشا
سليمان
فالح باشا
مزيد
توينى
سمير
عجيمى باشا
ثامر
فهد
على فهد
عبدالكريم
عبدالله
عبدالرزاق
عبدالعزيز
عبداللطيف

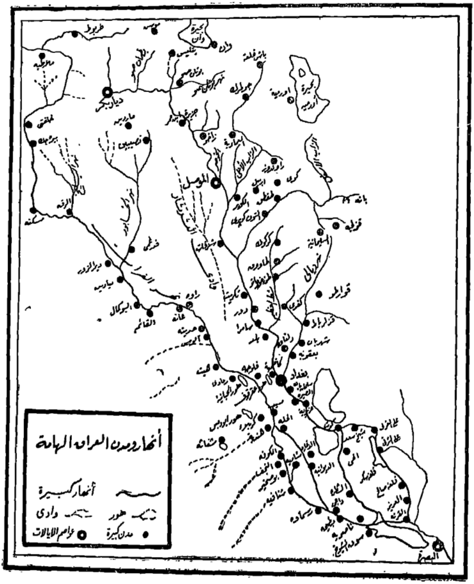
اسـرة البابـانيـين

(الجيب الثاني والثالث من احمد الفقيه)




اسرة الجليليين
عبد الجليل
ابراهيم آغا
عبد الرحمن آغا
عبد آغا
(عبد الباقي باشا) (اسماعيل باشا)
ياسين آغا
نعمان آغا
خليل آغا
(عبد الفتاح باشا)
اربعة اولاد
(الحاج حسين باشا)
(حسن باشا)
اسعد
ثلاثة ابناء
(سعد الله باشا)
ثلاثة ابناء
(مراد باشا)
عبد الله بك
مراد بك
محمد بك
ولد واحد
(محمد امين باشا)
سليم
عبد الرحمن باشا
اسماعيل باشا
الاسماء التي وضعت بين قوسين
تدل على من تولى الباشوية في زمنها
(سليمان باشا)
(محمد باشا)
(عبد الرحمن)
سبعة ابناء آخرون
(محمود باشا)
محمد بك
عبد الله بك
ثمانية ابناء
(محمد امين باشا)
عبد المجيد
حسين
نعمان باشا
اسعد بك ٣ اولاد
(يحيى باشا)
(عثمان)
ابن واحد
(احمد باشا)
خمسة اولاد
عبد الحميد بك
سليمان


عشائر العراق
بغداد
البصرة
النجف
لورستان
خالدي
السواعد
السودان
هليرام
الظفير
عنزة
شمر الجربا
بوسعيد
شرياخ


أنهار ومدن العراق الهامة
أنهار كبيرة
هور
وادي
مدن كبيرة
عواصم الايالات
الموصل
بغداد
البصرة
ديار بكر

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٧٧ —

التأليف (٥٢)

الأدبُ [٤٥]

القاهرة
١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الثمن ٣٥ قرش